

بقایاِ روا سب

عنوان الكتاب: بقايا رواسب
المؤلف: سعد العبيدي
التصنيف: سيرة ذاتية
التنسيق الداخلي: مؤسسة أبجد
تصميم الغلاف: وحي للتصميم
ISBN: 978-9922-696-71-3



أبجد للترجمة والنشر والتوزيع
Ebjed for Translation, Publishing & Distribution

الطبعة الاولى

2023

مؤسسة أبجد للترجمة والنشر والتوزيع
العراق – محافظة بابل – الحلة – شارع أربعين
جوال: 009647831010190
info@ebjed.com

إن جميع ما ورد في الكتاب يعبر عن رأي الكاتب أو الكاتبة ولا يعبر عن رأي الناشر. وإن حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الأنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الناشر.

سيرة ذاتية

بقايا روايت

سعد العبدري

الاهداء

الى الأحفاد:

ألوند

وأطير

إرث أتركه لمستقبل أفضل.



الدافع

هناك على الدوام من يفكر، وهناك في المقابل عاطل لا يفكر.

وهناك من يصنع ويزرع ويبادر، إلى جوار من ينتظر الآخر كي يقدم ويبادر.
وهناك من يعطي، من وقته وجهده والمال، بجانب من يتلذذ في الأخذ ويتكل.

هناك في الأصل معوّقون، يضعون العصي في عجلات التقدم والتطوير، وهناك دعاة تجديد، مساهمون في حصوله، وهناك الكثير، كون مجتمع قرية الجمجمة مجتمعاً فريداً يجاور مدينة الحلة، لا يحسب العيش بين ثناياه عيش مدينة، ولا يحسب ريفاً خالصاً لأهل القرية.. وسط هذا التفرد بدأت القصة، ولادة مرحّب بها لعائلة كثرت فيها الولادات، والاجتهادات، والتنوع والتنقل في العمل، أعطت بعض أفرادها دفعاً تجاه الأمام، وأوقفت تقدّم بعضها الآخر.. من هذه العائلة والقرية والمدينة البابلية تمّت الانطلاقة سعياً إلى التفتيش عن حياة أفضل، توقفت جهود التفتيش قريباً من سنّ الثمانين بعد أن تحقّق فعل الأفضل، واقتربت قدرات التذكّر والاسترجاع من حافات النسيان، معطية الدافع قوياً لكتابة قصّتها، حياة طويلة، فيها أخطاء وهفوات ومتع، وفيها نجاحات وعقبات وكدر، ودوامات تنقل بين القرية والمدينة، وبين العراق دولة الوطن الأم، وبين عواصم عدّة دول، آخرها لندن.

كانت لبابل، في هذه القصّة، ولقرية الجمجمة فيها، حصّة، ولرحلة التنقل الطويلة حصّة، ولبغداد، مثلما لعاصمة الضباب لندن، حصّة، وبقيت الحصّة الأكبر من نصيب الخدمة العسكرية،

قنطرة عبور، وأقلّ منها لحياة السياسة.. قصّة، أو مجموعة قصص وتجارب حياة، وأحداث، عبّرت عن حال العراق، أعطت صورة هي الأقرب إلى واقع دولته المضطربة غير المستقرّة، صار الرأي، قبل نهاية المطاف، وقبل طيّها في ثنايا النسيان، وضعها على ورق السيرة الذاتية كرحلة عمر بدأت قريباً من العدم، سلك صاحبها طرقاً متعدّدة، لمسافات طويلة في ظروف صعبة وسهلة، أنهاها في ربوع لندن عاصمة الضباب الأبدية، عسى أن يكون وضعها بهذه الطريقة، وتفصيل تجاربها المذكورة، نافعة لمن يسلك الطريق ذاته، أو يختلف معه، ويسلك طريقاً آخر.

سعد العبيدي
لندن 2023

الفصل الأول

في بستان الرهيمة



بداية المشوار

لم تكن الدراسة على المستوى الابتدائي متاحة، لجميع أطفال قرية الجمجمة، في النصف الأول من أربعينات القرن الماضي، وما قبلها، لعدم وجود مدرسة، كان عدم وجودها عائدًا إلى بطء النمو الاقتصادي، وضعف الحراك الاجتماعي، اللذين لم يُمكنّا الدولة فتح مدارس كافية في التجمّعات السكانية خارج المدن على وجه الخصوص، ولم يكن آباء ذاك الزمان الغاطّون في برائن التخلّف الريفي يقبلون التنازل عن وجود الأبناء معهم في البستان، وفي حقول الزراعة، مع بعض الاستثناءات، كان القلّة من أولي الاستثناء يرسلون أبناءهم إلى مدرسة بابل الابتدائية في قرية (كويرش) أقرب مدرسة إلى الجمجمة القرية، يتطلّب الذهاب إليها مشيًا ساعة زمن، قد تزيد قليلًا، أو تنقص، تبعًا للمزاج وظروف الجوّ الحاكمة، ويتطلّب مرورًا حتميًا من بين تلال بابل، وآثارها والبساتين، والسير بمحاذاة المغتسل المحلي لموتى المقبرة المجاورة، كان السائرون، أو أغلب السائرين، إلى جواره يخافونه، يسمّونه بلهجتهم المحليّة (المغيسل)، ويسمّون تلال بابل الأثرية (يشن عمران)، الإمام الذي قيل إنّه ابن الإمام علي، وإنّ اسمه الأصلي عمر، جُرح في معركة النهروان، وتوقّف على هذا التلّ، ودُفن وسطه تلّ يغطّي معبدًا بابليًا، لن ينساه أهل القرية، التفتوا إليه قبل مئات السنين، عملوا له ولابنته مريم مرقدًا، وأقاموا مقبرة، أعادوا تجديده بناءً حديثًا من دون النظر إلى أصل التلّ والمعبد، وإلى رأي الآثار.

لقد صُنّف القلة المستثناة في وقتها عوائل صفوة، كان لرجالها السبق في المطالبة بتأسيس مدرسة القرية، حسمو الأمر، وأسهموا في حسم التأسيس عام (1947)، وفرضوا الاسم عمران، تيمّنًا بإمامهم صاحب الخطوة، دفعوا قسم

المعارف لمدينة الحلة لاستئجار بيت من بيوت القرية ليكون مدرسة، فكان بيت السيد ناعور العبد الحسين أول موقع للمدرسة، وكان عباس هوبي المتخرج حديثاً من دار المعلمين الريفية أول مدير لها¹.

تأسست المدرسة، وعُدَّ تأسيسها تحولاً كبيراً في تاريخ القرية، كما هو تأسيس أخواتها في باقي مناطق العراق من قبل، تحولاً، أو بالمعنى الأدق، بداية التحول الاجتماعي والحضاري للبلد، وإن كان في الإجمال بطيئاً لا يفي بالحاجة إلى النماء والتطور القياسي، لكنه من جهة أخرى، يلبي الحاجة التي أرادها الملك فيصل الأول لدولته، مدينة متنوّرة، ويلبي الحاجة إلى إشغال الوظائف، وسدّ النقص في ملاكات الجيش والشرطة، مؤسستان استوعبتا غالبية الراغبين من أبناء الفلاحين الساعين إلى ترك القرية، والانتقال إلى البيئة المفتوحة للمدينة، اختلطوا فيها مع الآخر من أبناء المدن، وقفوا في أرهاط التدريب، جلسوا في صفوف الدراسة، نظروا إلى الضباط من أبناء المدينة طبقة متعلمة، ارتادوا السينمات، شاهدوا الأسواق والمقاهي والبارات، نقلتهم خطوة حضارية إلى الأمام، قرّبتهم إلى مقاصد التعلم، وأهميته للانتقال إلى الأفضل، حتى إنهم، وحين العودة إلى قريتهم، تكلموا عن تجاربهم، وعلاقاتهم ورغباتهم في تعليم أولادهم، ليكونوا مثل غيرهم من أبناء المدينة، وكنّا، نحن الأطفال من أبنائهم، نتابع ونسمع.

كان عطية الشلال ومضحي الهجهوج وعمران الچتان وعباس الجبر والأخوان عزيز سلمان، وحنون خسباگ والوالد

¹. عباس هوبي العبيدي، من أوائل من دخل دار المعلمين الريفية من القرية، بعد إكماله الصف السادس الابتدائي، انتقل هو وزملاؤه إلى بغداد بانتقال الدار، نسبّ حال تخرجه معلماً، ثم إدارة مدرسة عمران الابتدائية، استمرّ بإدارتها بكفاءة منذ تأسيسها إلى ما بعد عام (1968) بقليل حيث الإحالة على التقاعد.

خضير خلف وغيرهم يجلسون في مقهى (على الله)، يتمتعون بنقل الصورة الزاهية للمدينة، والمعسكر، ويزيدون متعتها بالتحدّث عن الضباط، وعوائلهم الساكنة في دور خاصّة جوار المعسكر، ونظافة الأبناء، وذهابهم إلى المدارس ليكملوا المسيرة، فأسهّموا باختلاطهم، وكثرت أحاديثهم في تسريع الحراك الاجتماعي، إذ لم يكتفِ بعضهم بتعليم الأبناء من الذكور، فأرسلوا البنات إلى المدرسة عند التأسيس، فكانوا سباقين، وتُحسّب لهم الريادة في تعليم البنات، أولهم عمران الشلال الذي أرسل ابنته ريمة، وسداوي بعث بناته مائدة وساجدة، ومن بعدهم عبد الأمير، وعبد الشهيد عباس السلامي الذين أرسلوا بناتهم ليلي وميسون ورباب، وكذلك فعل حنون وعلي شهاب لبناته حمدية وأميرة، ومن بعد تلك الالتفاتة لأولئك الآباء الصفة، تجرّأ الآباء الآخرون وأرسلوا بناتهم فصارَت المدرسة مختلطة، أكملت بعض البنات الدراسة فيها، فكانت الفتاة الأولى التي أكملت في دار المعلمات الابتدائية ميسون، ومن بعدها جاءت حمدية والثالثة أميرة، وتركتهَا أخريات بعد النجاح من السادس الابتدائي، لمصاعب النقل إلى المركز، وكلفة الدراسة في المتوسطة والثانوية.

كان الوالد واحدًا من أولئك الشباب الذين تركوا عوائلهم والزراعة مبكرًا بداية ثلاثينات القرن الماضي، درج على القول أنّه تركها شابًا، ليتطوّر جنديًا في صنف المشاة، حصل بعد سنتين على ترقية إلى جندي أوّل، لم يقتنع بها وبالصنف، سرعان ما غيّر صنفه إلى النقلية الآلية، ليكون جنديًا سائقًا، كان أبًا جادًا ميّالًا إلى التحضّر بقياسات ذاك الزمان، حتى بلغ حدًّا يعيب عليه جيله من أبناء القرية تلفظه بعض الكلمات والعبارات بلهجة أهل المدينة، وكانت له علاقات اجتماعية جيّدة، سكن بغداد لفترة بعد تركه الجيش، وعمل سائق سيارة أجرة شاركها

مع صديقه محمد الصفار، لم يبقَ بهذه المهنة طويلاً، إذ تركها وبغدادَ عائداً إلى منطقة البازول ضمن محيط "أبو عجاج" التي تبعد عن قرية الجمجمة أقلّ من ساعة سيراً على الأقدام، ليعمل سائق باص خشبي عند الحاج عبد الرضا صاحب عدّة باصات، ثمّ سائقاً سيارة حكومية في مديرية الري، كذلك لم يستمرّ بها كثيراً، لأنّه صعب المراس، لا يتقبّل الأوامر بسهولة، صفة أورثها لنا الأبناء، سبّبت لقسم منا الكثير من المشاكل في العمل.

حلّ صيف العام (1951)، استجاب الوالد لطلب الذهاب إلى المدرسة تأسيساً بأبناء العمومة من ذلك الجيل، كان خمسة من أولاد الحاج كريم شهاب يدرسون فيها تلك السنة (عبد عمران، حاتم، حافظ، فاضل، ونعمة)، لم يأخذ، أي الوالد، في الاعتبار عامل العمر الذي وضعت المدرسة، وهو سبع سنين شرطاً للتسجيل، ولم تقف هي عند وثائق العمر الثبوتية، إذ لدى المدير صلاحية القبول لمن لا يملك وثائق، ولدى اللجنة التي يشكّلها كذلك صلاحية النظر إلى الهيئة العامّة للجسم وتقدير العمر، وعلى أساسه يحدّد القبول، أو العكس، وكذلك الوزارة أعطتهم الصلاحيات، فدفا تر النفوس لأبناء ذاك الجيل في الريف غير موجودة، قال الوالد (دعنا نذهب لنرى)، خرجنا من بيت الطين خروجاً ساراً يحده الأمل في الصيرورة كما هم الآخرون، مشى الوالد سريعاً، تحتاج مجاراته جرياً لاهتاً من دون شكوى، آباء ذاك الزمان لا يقبلون الشكوى، يتعمّدون وضع حواجز تبعدهم عن أبنائهم مسافات، والأبناء من جانبهم لا يجروون على الشكوى.

كان في القرية شارع ترابي، يشطرها قسمين، يسميه أهلها (العجّذ)، تسمية استمرّت سارية، لا أحد يعرف أصولها، تحيط به بيوت مشيدة من الطابوق، وأخرى من الطين، وعند وصولنا

لاحظ علينا علامات الفرح، فقد انتهى هُم الطريق، ساعة مشي سريع يتجاوز حدود الطاقة، سأل أوَّلًا عن غرفة المدير عباس، سلّم بطريقة الواثق من القرابة عشائريًا، قال جئت لتسجيله في المدرسة، سألته عن العمر، وعن أيّ إثبات؟ أجاب بأنّه لم يكن هناك إثبات، إذ فات على العائلة تسجيله في الإحصاء السابق عام (1947)، عاود المدير سؤاله عن العمر التقريبي، أجابه: قريب من أبناء عمومته الدارسين في المدرسة، وقد تأثّر بهم، وله الرغبة في الدراسة، تعاطف المدير مع الرغبة، نادى الفرّاش (القواس) حسون الحمادي، قال: أوصله إلى الصفّ الأوّل، كان الصفّ الأوّل غرفة شبّاكها الوحيد على الشارع، لا تزيد مساحتها عن اثني عشر مترًا، ملأتها طاولات خشبية رصفت على جانبيين، تحوي الواحدة رقمًا، يرتبط بدكّة أو مسطبة، صُمّمت لجلوس تلميذين، تسمى في اللهجة الدارجة (رَحْلة)، وتلاميذ يرتدون الجلابيات (الدشاديش)، أغلبهم حفاة، صاغرين، لا تتحرّك أجسامهم، باستثناء بعض رؤوس تعبّر في حركتها نصف الدائرية عن خوف هائم، وأذان تتابع أصوات الماشين في الشارع، وما ينجم من أحداث تمرّ واضحة من ذاك الشباك المشرف.

وقف المعلم في المقدّمة، طويل القامة، أسمر البشرة، نحيفًا، يمسك عصًا من سعف النخيل، يتحكّم بوساطتها في الأنفاس، قال عنه الفرّاش قبل الدخول، إنّهُ مرشد الصفّ محمد حسين، عصبيّ المزاج، لا تنفع مجادلته مهما قال، كانت وقفته والعصا وقول الفرّاش قد دفعت بالتفكير ندمًا على الإلحاح في طلب الدراسة، لكنّها ثوانٍ مرت بذهول، ردعتها الرغبة ومكابرة الذات الريفية. صفرَ الفرّاش معلنًا انتهاء اليوم الدراسي الأوّل، غادر التلاميذ صفوفهم، وقف حاتم كريم جوار الباب الخارجية للمدرسة في انتظار أخوته الأربعة، كان هو المسؤول عن

إعادتهم الى البيت سالمين بحكم قوّة الشخصية، أشار في أن يكون القادم الجديد لهذا اليوم خامسهم حسب توصية له من والدي خاله الأصغر، وهكذا فعل صباح اليوم الثاني لحظة التحرك من البازول تجاه المدرسة عند حلول الشروق، سار أمام الركب، يتبعه الباكون، التفت بعد دقائق من السير السريع، قال بصيغة الأمر أسرع، لا تتسبّب في تأخيرنا عن جرس المدرسة، كان حاتم عصبيًا حازمًا، طويل القامة، خطواته في المشي واسعة، طفل قيادي نشط، لا يتسامح في التأخير عن الركب ولو لمتر واحد، وكان السير من خلفه جهدًا إضافيًا، تعودّ الالتفات إلى الوراء أثناء المشي للحثّ، ولوم المتباطئين بقسوة عند اقتضاء الأمر، بات السير الوجوبي من خلفه معاناة لساعة ذهاب ومثلها في العودة، لم تطل تلك المعاناة، إذ حسم المعلم محمد حسين الأمر في اليوم الثالث، وفي درس القراءة على وجه التحديد، وقف وسط الصفّ، طلب مشاركة تلميذين الجلوس على طاولتهم الأولى في مقدّمة الصفّ، تمّت الاستجابة سريعًا تحت تأثير الخوف من العصا، لم يتزحزح عبد علي من مكانه ولا زميله حسين لتسوية أمر الجلوس إلى جانبهم، فكان نصف جلوس غير مستقر، أبقى نصف الجسم الثاني خارجًا، والنصف الأوّل يتحرّك بقصد التثبيت من دون اتّزان، وضعًا أثار المعلم محمد، دفعه إلى التلويح بعصاه، أوقعها على الرأس من دون سابق إنذار، طالبًا الجلوس على الطاولة الأخيرة في آخر الصف مشاركة مع اثنين آخرين، وضبط التوازن، لكنّه لم ينضبط، فالتلاميذ الأكبر سنًا في هذا الصف وجدوا في عدم فسح المجال لجلوس مستقرّ لعبة ممتعة خالية من العقاب، وتنمّرًا اكتسب بعضهم عدواه من المعلم، أنهته صافرة حسون الحمادي، أخرجت التلاميذ ركضًا إلى الساحة المجاورة لبستان الرهيمية، جرت محاولة تقليدهم والركض خلفهم لتنفيس المكبوت، أعاق المعلم محمد سبيل الخروج

في وقفة له متأهبًا في الباب، فشل التفكير الخائف للترتيب محاولة لتجنبه، لأنه يتحكم في الطريق، لم يبقَ خيار سوى العودة، والجلوس على إحدى الطاولات في انتظار صافرة الدرس الثاني، نظر نظرة مليئة بالعدوان، أعقبها وخزة بعصاه جاءت في الخاصرة اليسرى، لم يسمع الزملاء الخارجون كلمة الاستغاثة (آخ)، ثم قال: لا تأت المدرسة في الغد، أنت مرفوض، كان ذاك نهاية الدرس الأول، فافتضى التنفيذ بقاء في وضع الجلوس الحزين على الأرض جوار حائط المدرسة من جهة الشارع، حتى صافرة الانتهاء، وظهور حاتم لتنفيذ مهمته في جمع تلاميذ البازول، والعودة بهم كالمعتاد، عودة كانت حزينة، كمن يودّع عزيزًا فقدته إلى الأبد، صاحبها دموع غزيرة طول الطريق، سأل حاتم قائد المجموعة عن السبب، فقلّبت له الرواية كما حصلت، قال عنه مجنون، أمّا الوالدة فقد استجابت للشكوى، ومظهر الحزن بالقول: (الله لا ينطيه).

عصا الجنة

لم يتوقّف العقل عن اجترار الأفكار، والتفتيش بينها عن السبب الذي يدفع معلمًا إلى التصرف عدائيًا، ومع هذا لم يصل إلى تفسير مقنع في ظلّ عدم وجود تقصير، أو فشل في الإجابة عن سؤال، فهو في الأصل لم يسأل، لكن حاتم قال فيما بعد، إنّ الأمر يتعلّق بالعمر الذي لم يبلغ السادسة، فكان تفسيرًا مقنعًا، ومع هذا يبقى سلوك ذلك المعلم محيرًا يحتمل أكثر من تفسير، إلّا أنّه، وبعد عقود من تلك الحادثة التي لم يقبل العقل كبتها في اللا شعور مع أحداث زمانها التي كبتت أغلبها في الأوان، يمكن القول على حساب التفسير، إنّ محمد حسين ذلك الشاب بسماره المُصفر، ونحافته الزائدة عن حدود القياس المعقول، يختزن في

عقله كمّا لا يُحصى من العداء، يحاول إخراجَه عن طريق العصا التي يعتقدُها أداة مساعدة لتحقيق مبدأ التعلّم، ويمكن القول أيضًا إنّ محمد حسين مستخدم العصا، لم يكن مستخدمها الوحيد، فغالب المعلمين في زمانه يحملون العصي، يعدّونها الأداة الأسلم للتأديب والتعليم في آن معًا، ورثها المعلمون خريجو دور المعارف الريفية، عن الكتاتيب التي كان معلّموها من الشيوخ، يسوّغون قسوتهم على التلاميذ بمقولة دارجة (إنّ العصا خرجت من الجنة)، كما أنّ العصا في ذلك الزمان غير البعيد عن الكتاتيب على ما يبدو لم تكن ممنوعة، بل على العكس، كانت كأنّها جزء من شخصية المعلّم؛ أو قيافته حيث الملازمة شبه الدائمة لأيدي أغلبهم أثناء المشي، وفي الصفوف أثناء التعليم، حتّى إنّ المدير عباس المعروف بهدوئه وطيبته يظهر في الساحة أحيانًا يحمل عصا، وعندما يحتدم الأمر، وتكثر المخالفة من بعض الأشقياء، ينادي على الفرّاش حسون، طالبًا جلب السعفة إيّاها من نخيل البستان، فيركض على إثرها، يصعد نخلة، يجلب أكثر من سعفة، يحتفظ بقسم منها احتياطيًا، لطلب يحسبه آتيًا لا محالة.

قالت الوالدة في سبيلها إلى التخفيف من الواقعة إنّ السنة ستنتهي سريعًا، معرّزة قولها بعبارة (غمض فتح)، وانتهت السنة سريعًا، إلّا أنّ معاناة الطريق ذهابًا وإيابًا لم تنته، وإن خفّت وطأتها بعض الشيء، فالعمر بلغ من السنين ستًا، تكفي لمجاراة المشين ولو من بعيد، لكنّها لم تكف بعد للسير جوارهم، ولا تفادي إلحاح حاتم حتّ الخطى سريعًا، كان اليوم الأخير من هذه السنة الدراسية عام (1952) توزيع الشهادات للصفّ الأوّل الابتدائي، وكان هناك عُرف في أن يعطي الناجح مبلغًا من المال (عانة - أربعة فلوس) هو الحد الأدنى، تجمعها الإدارة حقًا إلى الفرّاش مكرمة، لم يكن ذلك المبلغ ميسورًا في الجيب الخاوي،

والنتيجة كانت ناجحًا تستحق العطاء، فأبقت الأمر في حيرة، مرّ في الأثناء علي، سئل عن نتيجته، قال راسبًا، فأعطاني علي (عشرة فلوس) التي أعطتها الجدّة² له بشارة نجاح، فتمت التسوية واستلمت الشهادة بفرح شديد، وبقيت في الذمة لعلّي عشرة فلوس، لم تُسدّد إلى هذا التاريخ، لكن رسوبه والعشرة فلوس كانت سببًا في اللقاء معه على طاولة الصفّ الثاني، وتكوين مجموعة لعب³، والسير معًا سني الدراسة والشباب.

حلّ صيف العام 1953، قرّر الوالد الانتقال فجأة في سكنه من منطقة البازول، وبيوت الطين إلى قرية الجمجمة، بيتًا من غرفة واحدة بُنيت من طابوق بابل الأثري وسقف من الجذوع، ورثها الأب عن أبيه خلف، مناصفة مع شقيقه محسن، انتهت عندها متاعب الرحلة اليومية مشيًا متلكنًا من وإلى المدرسة، وبدأت معها حياة أكثر تفاعلًا من الناحية الاجتماعية، إذ زادت وسائل اللهو في تجمع سكّاني أكبر، وتعدّدت أدوات اللعب الطفولي لتمتدّ إلى السباحة في نهر (شطّ) الحلة.

كان الصفّ الثاني في ذلك العام يقلّ عدد من فيه عن العشرين تلميذًا، بينهم تلاميذ من قرى أخرى مثل سنجار وزویر والصياحية والبو عليان، ومناطق تُحسب ريفًا على الجمجمة مثل

². الجدّة المشتركة لي وعلي هي سويدة عبيد الوزني، امرأة نشطة جريئة، معروفة بشجاعته، طويلة القامة، رشيقه القوام، ذات بشرة بيضاء، لها احترام خاص بين العشيرة القرية، ولد على يديها عديد من أبناء القرية، توفّيت عام (1962) بعد إصابتها بمرض جلدي.

³. كان من طلبة الصف علي حسين، أحمد علي شهاب، ناظم مضحي، وسلمان منخي، وسعد خضير، كوّنوا بحكم القرابة والجيرة مجموعة لعب، وصداقة استمرت في الطفولة والشباب، وتميّزت مع علي وأحمد استمرارها إلى الآن، وكان في الصفّ آخرون من أبناء الجيل في القرية مثل قاسم كاظم وحمزة حسون، فكوّنت هذه الأسماء جيلًا سجّل سبقًا تحصيليًا في القرية، إذ أكمل أفرادها جميعهم الدراسات الجامعية، فعُدّت الجماعة الأولى من مواليد متقاربة تبلغ الجامعة.

"أبو عجاج" وبعض مناطق النيل، يصل أغلبهم مشياً، وبعضهم القليل يأخذ من الحمير وسيلة، قلّ استخدامها مع تقادم السنين، لتختفي تماماً منتصف الخمسينات، إذ لم يعد يُشاهد من بعدها حمار مربوط إلى جانب سياج المدرسة، وكان الغالب يصلون حفاة، لم يكن التحفّي في مدارس الريف حتى نهاية الخمسينات أمراً يثير الدهشة، ولا يشعر بالخل، كأنهم يحسّون المساواة في حقوق الحفو، وارتداء الجلابية الواحدة طول السنة، وإن شدّ أحدهم عن السياق العامّ، وأتى منتعلاً خفاً من مطاط الإطارات التالفة، أو حذاءً من الجلد المقوى، يثير الدهشة طوال اليوم الأوّل لانتعاله، ومن بعدها يصبح حذاؤه مألوفاً، لكن غير المألوف إبداع بعض التلاميذ في التعامل مع مشكلة التحفّي في الأيام الممطرة.

جاء عبد الخضر كاظم من قرية "أبو عجاج" في يوم ممطر، ينتعل كربة، حوّرّها على شكل نعل، اصطفّت من حوله تلاميذ الصف بغية التعرّف على هذا الاختراع، قال إنّهُ من نخيل البرين، أحدث فيه ثقباً من جانبيه، ربط بينهما حبلًا من الليف، جرت محاولة واحدة لتقليده، بدأت بالتوجّه إلى نخلتيّ البرين في بستان الرهيمية القريبتين من البيت، انتزعت من إحدهما كرتين ظهر اليوم، واستمرّ العمل بتحويلهما نعلًا إلى المساء، على أمل الذهاب بهما إلى المدرسة في الغد الذي ترك المطر على طريقها أكوامًا من الوحل، إلّا أنّ التجربة فشلت في اختبار المشي، (يبدو أن صانع النعل لعبد الخضر خبير، أو أنّه، شخصيًا، قد تدرب على المشي)، تجربة بقيت في الذاكرة إلى بداية الموجة اللاحقة لموسم المطر شتاء عام (1954) بعد أن حوّلت إحداها الشارع ومحيط المدرسة إلى مستنقع، يتطلّب الخوض في أحواله مرحلة قبل دخول الصف، قصصٌ تفاصيله على الوالد بقصد الحصول على المساعدة الفنيّة في صناعة نعل مجاني من الكُرْبَة، لكنّه،

وبدلاً من تقديم المساعدة، طلب التهيؤ للذهاب إلى مركز المدينة (الحلّة) يوم الجمعة، كأنّه تذكّر شيئاً كان عنه غافلاً، كأنّ وعد الذهاب إلى مركز المدينة قفزة أمل دفعت إلى التغاضي عن الطلب الملحّ لمعرفة السبب.

يوماً مشمساًن تمّ التوجّه في بدايته إلى سيارة عبس المطيري، وسيلة النقل التي احتكرت خطّ الجمجمة، الحلّة، تحرّكت ببطء، اجتازت الطريق الترابي بين بساتين القرية، ومزارعها، تاركة وراءها علامة فارقة من ذرّات الغبار المتطايرة، رست في الصوب الصغير، قريباً من الجسر العتيق، ذلك الجسر الذي يفضي عبوره بعد الساحة، دخولاً مباشراً، إلى السوق المسقّف، ذلك المعروف بكثرة المحال التجارية لبيع الأقمشة وموادّ التجميل النسائية (المغازة) على جانبيه، وعلى جانبيّ فرع تخرج محالّ عرض الأحذية، متنوّعة، جلّها مبهرة، اختار الوالد إحداها، نظر إلى لونه الأحمر بامعان، نفر بأطراف سبّابته على مقدّمة (الفردة) اليمنى، فأظهر النقر صوتاً، روج له البائع بالقول إنّها (كلاصية)، جرى التوقف عن هذه الكلمة التي لم يفهم معناها إلا بعد سنين بانّت، كأنّها قد جاءت من الإنجليز عند وصفهم الجودة بعبارة (First Class)، وحوّرها أهل العراق لاستخدامهم المحليّ، ترك البائع حيرة الفهم، وسأل عن الملاءمة، فكانت الإجابة (يطرب)، أي إنّ في داخله تتحرّك القدم بسهولة، كونه أكبر من القياس، ردّ بحزم: دعه هكذا، فالقدّم تكبر كلّ يوم.

طلب البائع ثمناً لبضاعته، حذاءً أحمر برّاقاً، ثمانية دراهم، الباعة في سوق الحلّة يتفاصلون على السعر، وبعد فصال شديد نزل السعر إلى ستة دراهم، مبلغاً ليس قليلاً في تلك الأيام التي كان الراتب الشهري للوالد فيها، وهو سائق في دائرة الريّ، بحدود عشرة دنانير، موزّعة على عائلة من ثلاثة عشر فرداً،

وبعد الموافقة، ووضع الحذاء في كيس ورقي، تَمَّت العودة إلى البيت في حال انتشاء لا ينسى، وفرحة شراء يصعب وصفها في الوقت الحالي عام (2023)، لكن بقايا المشاعر العالقة في الذاكرة البعيدة، تشير إلى انتظار الذهاب إلى المدرسة بفارغ الصبر، وتؤيّد هذه الإشارة مسألة وضع الحذاء قرب الوسادة مع الجلابية المخصّصة إلى المدرسة، والنهوض من النوم مبكرًا.

إنّ النهوض المبكر في ذاك اليوم المميّز فيه أكثر من مكسب، أوّله التوجّه إلى التنور المؤقّد فجرًا للحصول على رغيف خبز حار، وأخذ فرصة متفرّدة للجلوس على حصير السقيفة القائمة أمام الغرفة الوحيدة في البيت، جوار إبريق الشاي (القوري) المنتصب على طابقتين أثريتين، تحيطان موقدًا له من الحطب وفضلات البقر (المطال)، وثانيه سكب الشاي في قدح نصفه سكر من دون تدخّل في تحديد الكميّة، وثالثها التمتع بفطور شهّي، قوامه غمس قطع الخبز الحارّ في قدح الشاي بهدوء، ذلك الفطور التقليدي لغالب أهل القرية ولغالب أيامها الدارجة، تركت الوالدة عملها في الخبز بعد إتمام سجاره الأوّل، جلبت قطنًا، وضعت داخل الحذاء حلًّا لمشكلة الوسع، فأصبح القياس ملائمًا، وأصبح جاهزًا لامتنائه، والذهاب إلى المدرسة قبل الوقت المعتاد.

كان الطريق من البيت في آخر زقاق (مجاز الوُزُون) تجاه شارع القرية سالكًا، رافق اجتيازه شعور كأنّ الجميع ينظرون إلى الحذاء، وفي الحالات التي يعمّ فيها الإحساس بعدم وجود من ينظر، تعوّضه ضربة بالمقدّمة لأيّ حجر قريب، كأنّها لإثارة الانتباه، وفي الصفّ كان الانتباه أشدّ، إذ تجمّع في الجوار من لم يلبس حذاءً بعد، صاروا كثيرين ينظرون من قريب، فاستمرت صورتهم مطبوعة في الذاكرة، وهم ينظرون عشرات السنين، حتى أزاحتها أحداث أكثر أثرًا في حياة مليئة بالأحداث، لكن ذلك

الحذاء الأوّل لم يقاوم، إذ انتهت فاعليته في شهرين، لعدم مقاومته أهوال الطبيعة وركلات الحجر، ظهرت بعد انتهائها أحشاؤه ورقًا مقوّى، غُلّف بجلد صناعي لا يقاوم الماء، وبات لا يصلح، فمهدّ إلى العودة لعالم الحفي مرّة أخرى حتى انتهاء السنة الدراسية، وبداية أخرى استهلّت بحذاء (گلاصي) آخر، أسود هذه المرّة، وقياسه جاء مطابقًا لقياس القدم آنذاك، وسعر باقٍ على حاله، دراهم ستة، استقطعت من ميزانية العائلة التي كانت تعاني نقصًا حادًا في التمويل، حدًا دفع إلى التفكير بضرورة العمل بداية العطلة، كانت عمّالة البناء ممكنة، والمنافسة في مجالها مقبولة، شرط تقديم الراغب في العمل يوم عمل مجّانًا على وفق مبدأ التعاون (الفرعة)، وكانت عائلة عبد علي عبود الزميل في الصفّ، قد قررت تهديم بيتها الطين، وبناء آخر بدلًا عنه من الطابوق، فتسجّل أنّه اليوم الأوّل للعمل في العطلة الصيفية للعام الدراسي الرابع عام (1955)، عمل فيه (الأسطة) اختبارًا يسيّرًا لقبول عامل هو الأصغر بين العمّال، طلب حمل (طاسة)⁴ مليئة بالطين، مادّة توضع بين الطابوق لتماسكه قبل شيوع استخدام الجصّ والإسمنت في القرية، تمّ حمل (الطاسة) من موقع الخلط إلى مكان (الأسطة)، وفرش الطين على الطابوق المرصوف، بثبات ضعيف وتمايل في الجسم واضح، قال (الأسطة) متعاطفًا، وهو يضحك، سأقبل العمل (فرعة) لهذا اليوم وإن كان حمل (الطاسة) أثقل من وزن الجسم، لكنّه لم يبخس الحقّ، فقد سلم بعد انتهاء يوم العمل عصرًا قبل حلول المغيب، درهمًا هي الأجرة السائدة يومها للعمّال المبتدئين، كان ملمس ذاك الدرهم لذيذًا، والألذّ القبلّة الآتية من الوالدة حال تسليمها الدرهم مساهمة في ميزانية البيت، وقبلّة أخرى مثلها في العطلة الصيفية لما بعد

4 . وعاء من المعدن مسطح نصف كروي، يُستخدم لنقل مواد البناء من الجصّ، أو الاسمنت المخلوط وقبلهما الطين.

الصفّ الخامس، عند استلام أجره العمل لعدّة أيام في بيت العمّ علي الذي بناه نظامياً من الطابوق والجص، وحديد الشيلمان، وهكذا صار العمل في البناء وارداً كلّما سحّت الفرصة.

هنافات في استقبال الملك

وقف المدير عباس في اليوم العشرين من آذار عام (1957)، مخاطباً تلاميذ صفوفه الستة، وهم ينصتون، ألحّ على حضور يوم الغد بجلاليب نظيفة، وانتعال أحذية، أكّد على موضوع انتعالها بغية الاستقبال اللائق للملك فيصل، حضر التلاميذ في الوقت المحدّد بداية الدوام، أوقفهم في الباحة المواجهة للمدرسة معلم الرياضة قاسم تشكياً من ثلاثة صفوف، تقدّم المدير للتفتيش، عزل الحفاة في نية عدم اصطحابهم للاستقبال، تبين استحالة العزل لكثرة العدد، فألغى الفكرة، وأصدر أمراً بالشروع في المسير، تقدّم المعلم مطهر عزاوي ليكون في المقدمة، وسار على جانبي الرتل ثلاثي الصفوف، معلّم اللغة الإنجليزية سعد، والمعلمون الموصليون الأربعة (سالم، ومحمد، وعبد القادر، وحازم)، وسار المدير في الخلف، يراقب مدرسته الموعول عليها في الاستقبال مع جمهور القرية، ومناطق الريف القريبة.

أعاد قاسم على حافة الطريق الرئيس حلة - بغداد رصّ الصفوف، صفّاً واحداً من الحفاة والمنتعلين، وجهته الشارع، بغية إطالة صفّ المستقبلين، وربّما تعمّد عرض الحفاة على مرأى الملك، واصطفّ إلى الجوار من الجهتين جمهور القرية وأهالي المزارع المجاورة، بدأ بعضهم هتافاً بحياة الملك ونوري السعيد، سرعان ما انتقل إلى عموم الجمهور الذي صار يهتف بحماس، وبطريقة لو تتاح الفرصة إلى المقارنة في موضوع

شدّته بين ذاك الزمان، وما تلتته من أزمنة حتى هذا الزمان سيتبين أنّه، وطوال السبعين عامًا التي مضت على ذاك الاستقبال والهتاف، كان هناك هتافون متبرّعون يلهبون الحماس، وهناك جمهور تنتقل إليه عدوى الحماس، فيهتف بوقع أشدّ من صوت الهتاف، وهناك استعداد نفسي للجمهور الى أن يهتف لمن يكون موجودًا في الوقت والمكان، وسيتبين أيضًا أننا في العراق، ومن ذاك الزمان، وربّما من قبله زمن العثمانيين، والعباسيين، نوّلي الهتاف اهتمامًا لإنعاش المسؤول، وإيهامه بالقوّة، والعظمة حدّ الإفساد.

تقدّم المختار زيدان العبد الرضا إلى الأمام، وقف جوار نسق المدرسة، حاول الهتاف وحثّ التلاميذ على الهتاف، لم يعطه المعلّم سعد المجال، إذ دار بجسمه صوب التلاميذ المتأهبين للهتاف، قال بأعلى الصوت، ردّدوا من بعدي: (گوگله وگرت⁵ والگاع متروسة)، ردّدنا من بعده كامل العبارة، صوتًا كان عاليًا أغضب المدير والمختار، ولم يغضب الملك الذي ردّ ملوِّحًا بتحية صادقة من يده اليمنى، وإلى جواره الوصيّ عبد الاله، في سيارة سوداء، تعقبها سيارة شرطة لأغراض الحماية، عاود المختار طلبه الهتاف لنوري السعيد، وهو مارّ في الأعلى بطائرة سمّية، قال: اهتفوا للباشا سيراكم من الأعلى، لكنّ المعلم سعد كان أسرع منه، ردّد العبارة السابقة، وردّدناها من بعده تلاميذ مدرسة مطيعين، استهواهم ترديدّها، من دون التفكير بالقصد والنيات التي كان يضمّرها المعلم والمختار.

كان المعلم سعد شابًّا بغداديًا، جريئًا، ذا اتجاهات يسارية (شيوعي منظم)، تشاهد له لقاءات بعد الدوام مع شباب القرية القريبين من عمره، بينهم حبيب عباس الجاسم، الشيوعي المميّز

⁵. گوگله نبات فصلي، ينبت غالبًا في الأراضي ذات الملوحة العالية (السبخة)، والگرت، نبات قريب من البرسيم.

في القرية، كان سعد شخصية "بسيطة"، مؤثرة، سريع البديهة، محبوباً من عموم تلاميذ المدرسة ومعلميها، استمرّ يسأل عنا تلاميذه حتى بعد عودته إلى بغداد، وإتمام بعضنا دراسته الجامعية، تعامل معه أهل القرية وتلامذتها بودّ واحترام، وكذلك باقي المعلمين الآخرين من محافظات أخرى، ومن جانبه لم يُشعر أهل القرية بحزبيته، ولم يتطرّق إلى أفكاره الحزبية أثناء الدروس، لأنّه، وغالب معلمي، ذاك الزمان (قبل عام 1958) مهنيون، يعزلون بين ميولهم الحزبية والتعليم، لا يدخلون السياسة في سياقات التعليم، والأهالي من جانبهم يقدّرون انتماءات المعلمين إلى الأحزاب، وإن كانت محظورة، يتعاملون معهم باحترام، ويتعاملون هم مع المجتمع الذي يعيشون وسطه باحترام لا يتعالون عليه، وإن كانوا أكثر تحصيلاً وثقافة، (إنّها معادلة لتبادل الاحترام، تعود إلى استقرار المجتمع ومقادير الرضا المقبولة عن الحياة)، انعكس إيجاباً على وضع التلاميذ واستقرارهم وبساطة الحياة، كلّ شيء كان سهلاً، حتى اللعب السائد بين الأطفال طوال الدراسة الابتدائية، كان "بسيطاً" قاسمه المشترك الدعبل (الكرات الزجاجية الملونة)، يُلعب عادة في الشارع الرئيس أو في (دولان⁶) الحاج شهاب، لأفراد المجموعة حصراً، وكانت اللعبة الأخرى الدارجة آنذاك لعبة الجعاب⁷،

6. الدولان، كلمة دارجة في لهجة القرية، تعني المكان أو غرفة واسعة لاستقبال الضيوف، وقد تودّي أحياناً إلى المضيف.

7. الجعب، جمعها الجعاب، كلمة عاميّة، وهو العظم البارز في مفصل مؤخّرة القدم، يلونها بعضهم أو يعلمونها، يختار اللاعب جعباً للعب به يسمى (الصول) يقوم بعضهم بثقبه، وصبّ الرصاص في الثقب لإضافة ثقل يفيد في إصابة الجعاب الأخرى، وللعبتها طرق وتسميات، وعدد لاعبيها يختلف باختلاف أنواعها، تبدأ من لاعبين ثم ثلاثة أو أكثر، وعادة ما يرسم اللاعبون دائرة أو خطاً على الأرض، يضع فيه المشاركون عدداً من الجعاب حسب الاتفاق، ثم يرسمون خطاً آخر يبعد عدّة أمتار، منه يتمّ التهديف، ومن يصيب جعباً ويخرجه

يلعبها الجيل الأكبر، وهي لعبة بدأت عملية انقراضها فاعلة في النصف الثاني من الخمسينات، كما انقرضت من قبلها لعبة الهولة التي تقترب في الشكل من لعبة الهوكي، لعبة خشنة يلعبها الشباب، كلّ ما تتطلبه مجموعة أسمال تُجمَع وتُكوّر، لتكون على شكل كرة تخاط بمخيط، وعصا قوية، كانت لي في هذه اللعبة مشاركة واحدة صيف عام (1956) قبل أن تنقرض، إذ وبعد أن جلب كلّ لاعب عصاه، والتوجّه صوب باب السور، انقسموا فريقين، وبعد احتدام اللعب خرج غفوري نتيجة الإصابة في كاحله بعصا محمد شهاب، فنادوا عليّ أقرب المتفرّجين، للمشاركة حامي هدف، قبلت المشاركة تحت دافع الشعور بالشباب والرغبة في مجازاة الكبار، وقبّلها الفريق مرغمًا لسدّ النقص، وكانت النتيجة إصابة صعب إخفائها عن الوالدة، التي هدّدت بإخبار العمّ علي شهاب، كان العمّ علي قريبًا للوالد، أباهما أولاد عمومة، وابن عمّة الوالدة، طبيعة شخصيته القويّة، وثقافته الجيدة، جعلته الأكثر تأثّرًا في ضبط سلوكنا، أطفال وشباب العشيرة في القرية، وصاحب الفضل الأمضى في دفعنا للاستمرار بالدراسة بأخطاء أقل، إذ كان الخوف منه، أو خشية مواجهته يفوق ما موجود تجاه الأباء قليلي التواجد في القرية بسبب اشتغالهم خارجها، على الرغم من عدم لجوئه مثل الآخرين إلى الضرب وسيلة عقاب، كانت شخصيته، والتزامه العائلي، وميوله الوطنية اليسارية، جعلته قدوة أبوية، وكان كفاحه في الحياة مثار إعجاب وتقليد، إذ أكمل دراسة الثانوية مساءً وهو ضابط صف معلم في الكليّة العسكرية، وبعد إتمامها منتصف الخمسينات دخل الدورة التربوية، وحوّل خدمته من وزارة الدفاع إلى المعارف معلّمًا في

عن الخطّ أو الدائرة يصبح من حصته، وهكذا يستمرّ اللاعب الأول في اللعب حتى يخطأ، ليأتي من بعده الثاني، وهكذا حتى خروج آخر جعب من الدائرة.

مدرسة سنجار، ثمّ مديرًا لمدرسة بابل في قرية كويرش المجاورة، وأخيرًا، معلمًا في مدرسة عمران الابتدائية.

لعب طواها النسيان

لقد تغيّر نمط اللعب لأطفال القرية، بدأ التغيّر بشكل ملموس بعد تأسيس المدرسة، وسار بشكل تدريجي، متأثرًا بالحراك الاجتماعي العام للدولة، وتواصل الشباب مع المدينة، ووجود المعلمين القادمين للتعليم في مدرستها، ناتج التغيّر أو التطوّر جعل كرة القدم بعد منتصف الخمسينات اللعبة المقدّمة، تليها كرة الطائرة، ودفع المدرسة إلى تشكيل فريقين نشطين حال تنسيب المعلم قاسم عيس للرياضة، شاركًا في سباقات دورية مع المدارس الأخرى، لكن معظم لاعبيهما من الجيل الذي سبق، عدا سلمان منخي من أفراد المجموعة، كان مشاركًا في الفريق الخاصّ لكرة الطائرة محسوبًا على جيلنا، كانت حقبة زمن يتّفق الباقون منها على عدّها الأساس في تغيّر نهج اللعب الطفولي، وتقليص أوقات الفراغ بقدر معقول، كان وقت الفراغ يقضى جلّه من قبل في اللعب غير المجدي، والمشى بين تلال القرية وبساتينها، وتبادل العراك في لعبة السبيرات، لعبة حرب، ساحتها حوافّ النهر الرملية التي تظهر عندما يكون ماؤه جزرًا، ينقسم فيها اللاعبون فريقين، يبنون لهم متاريس من الطين أو الرمل، تحميهم من الخصم المقابل، يشرعون من بعد إتمامها بتقاذف كرات الطين، كلّ على خصمه، كان هناك من اللاعبين عدوانيون بطبعهم، يلجؤون إلى تغليف قطع من الحجارة بالطين لرميها على الخصم، سرعان ما يُكشف أمرهم، ويبدأ الاحتجاج والرفض، حدّ الطرد أحيانًا، وأحيانًا أخرى تنتهي اللعبة بالزعل أو العراك.

إنّ مشكلة وقت الفراغ لأطفال القرى مشكلة معقّدة، تعود أسبابها إلى طبيعة العيش "البسيط"، وإلى حجم العائلة التي يزيد عدد أفرادها، في كثير من الأحيان، عن عشرة، عدد يصعب على الآباء والأمّهات فرض السيطرة على أفرادها في بيوت تُحسب مساحاتها صغيرة، وللتخلّص من أعباء السيطرة يدفعون بهم إلى البستان والشارع، هذا فضلاً عن ثقافة الآباء التي تقبل في الغالب، بل وتحبّذ بقاء الأبناء لقضاء وقت فراغهم في الشارع، كانت المجموعة بعد ذاك التغيير أكثر تنظيماً للوقت، وكان بستان الرهيمية، وكوخ الحاج شهاب القائم على مرتفع في نهايتها، ملاذاً لقتل الوقت، ولمتابعة بعض أعماله في ترتيب البستان، وهو شيخ قارب الثمانين من العمر، من ذلك الكوخ وذلك البستان تمّ تعلم صعود النخيل، صعوداً فيه تحدّ للذات، يرفع مستويات الادريالين، وتنفيذاً يفضي إلى خفضه وبما يُشعّر بالراحة، ومتعة إنجاز عند المساهمة في أعمال التلقيح وتولية عذوق النخيل (التركيس)، وقطف الثمار رطباً في أوّل الموسم.

طبع التحديّ في الشخصية منذ الصغر دفع إلى تسلّق جميع نخيل هذا البستان في الرهيمية، لم تُستثنَ نخلة من نخيلها صعوداً يدوياً، أو (بالتبليّة)⁸ فيما بعد، خاصّة أنّ العيش وسط النخيل كان ممتعاً، وكان قد حوّل النخلة في العقل الباطن رمزاً لكلّ الأشجار، لازم الخيال طوال حياة التنقّل ما بعد القرية، كانت النخلة الأجمل والأطول في هذا البستان وجميع بساتين القرية دُكرًا تسمى (الفحل)، ذات جذع طويل، قطره يفوق باقي النخيل،

⁸. وسيلة تستخدم لصعود النخيل، تتكوّن من حصيرة عرضها ثلاثون سنتمترًا أو يزيد قليلاً، تحاك غالباً من ليف النخيل، يثبت في أحد أطرافها حبل معدني (سلك) بطول يكفي لتطويق النخلة، وعند استخدامها للصعود، يضع الصاعود الحصيرة على ظهره، ويلفّ السلك على جذع النخلة، ثم يربطه إلى الطرف الثاني للحصيرة بحبل من القنب، ويصعد أو ينزل بجعل مركز ثقله على أسفل الظهر، وقوة ارتكازه على القدمين.

معوجّ قليلاً في الأعلى بسبب الطول، عُرف صاعده من رجال القرية حمزة الدواح، وعبّيس الغلوة، يقصدون صعوده في موسم التلقيح لجلب مادّة الطلع من إنتاجه الغزير، هو من حاولت التمتّع بصعوده تحدّيًا في عمر مبكر، إذ في ظهر يوم صيفي، شمسه قوية، والعمر قارب الثانية عشرة سنة، ارتفع عندما نظر إلى أعلى هذه النخلة الفحل، عامل التحدّي في النفس إلى المستوى الأعلى، فاتّخذ القرار على صعوده الحتمي، فعاد إلى البيت، وأخذ التبلية من مكانها دونما علم من أحد، ربطتها على جذعه السميك بإحكام، أثار وضع القدمين على الجذع إيذانًا بالصعود تردّدًا يسيّرًا، فخرجت من النفس استجابة خجل لافقة، دفعت إلى حزم الأمر، ودفع سلك التبلية إلى الأعلى في خطوة ثانية وثالثة، كانت بداياتها غير واثقة من بلوغ السعف اليابس أعلى القمة، حتى وصول نقطة الوسط، جرى التوقّف عند حدودها، وإعادة الحسابات، نظرًا إلى الأسفل، فبانّت الأرض هوّة بعيدة، وبانت باقي النخيل لجميع البساتين المجاورة رؤوسًا أسفل القدم، نكست النفس خوفًا، وتردّدت للمرة الثانية، لكن للتحدّي مفعول ما زال قائمًا، مستواه أقوى من مستويات التردّد، دفع تجاه الاستمرار صعودًا بصعوبة أكثر وخوف أشدّ، الميلان بدا واضحًا في الجذع، وحركة محسوسة في قوامه تسبّبها الريح، استمرّت في التصاعد مع كلّ دفعة للتبلية إلى أعلى حتى بلوغ القمة، ومسك أوّل سعة يابسة تتدلى من أعلى جذعه المائل.

كانت النظرة هذه المرّة ليست إلى الأرض كهوّة سحيقة خشية تعزيز الخوف، بل إلى الأفق البعيد، جرت محاولة واحدة للالتفاف من حوله دورة كاملة للنظر من أعلاه إلى الجهات الأربع، فشلت، بسبب الخوف زاد الميل شدّته، لكنّها منحت منظرًا فريدًا لمدينة الحلة، والنهر الجاري، وبساتين المنطقة، ومن جهة اليمين مشهدًا جميلًا لمناظر كربلاء البعيدة، تنعكس

على طلائها الذهبي أشعة الشمس، خيوطاً تمتدّ إلى جميع الجهات، لحظتها، عمّ الشعور الفريد بالارتياح، أعقبه سكون فاتر، ورغبة تتعاضم بالنزول، كان النزول سريعاً، يفوق وقعه سرعة الصعود حتى بلوغ الأرض، والجلوس على سطحها بالأتكاء على جذعه الذي كان وحيداً في طوله وضخامته لعموم بساتين المنطقة ومدينة الحلة على حدّ سواء، كان مثار إعجاب واهتمام سكّان القرية في زمانهم، استمرّ في مكانه مقاوماً، إلى منتصف سبعينات القرن الماضي، انكسر وسطها بسبب ريح هبت قوية.

انتهت عملية الصعود بنجاح، تطلّب التمتع بخفض التوتر دقائق للاستراحة، لم يخطر على البال، وأنا أتفيأ بظله وباقي نخيل الرهيمية لعدّة دقائق أنّه سيأتي اليوم الذي ستترافف فيه تلك النخيل الباسقة أمام دعاة التجريف، مقطوعة الرؤوس، لا تستطيع تلاوة رواياتها عن ما عاناه أهل القرية وبساتينها والعراق من ويلات حروب وأهوال حصار وبؤس احتلال، حتى إنّي، لما زرت القرية بعد غيبة قسرية امتدت لعقد من الزمان، تملكني اكتئاب شديد لن أنساه، حينما رأيت نخيل هذا البستان وباقي بساتين القرية الأمّ قد اغتُصبت، بكيت عندما لم أجد نخليّ البربن اللتين تألفت معهما على مدى سني الطفولة والصبا، وصعدت جذوعهما الممشوقة عشرات المرّات، وتلمّست سعفهما، وأكلت من تمرهما اللذيذ، وتمتّعت بظلهما وهمس نسيمهما العذب، تذكّرت كيف كانت نخيل ذلك البستان وبساتين القرية قد وقرت لجينا حياة فيها سهولة العيش الممزوج بالخير والعوز والحرية والأمل في حياة أفضل.

.....
لم تنته قصص الصعود الممتع للنخلة لعباً وتحدياً، إذ، وبعد تلك الواقعة لصعود النخلة الأطول، خرجت المجموعة، مشياً

على شاطئ النهر تجاه بستان البعودة، تمّ التوقّف عند نخلة، طويل جذعها (عيطة) قد يبس سفعها وتهدّل، لم يبق منها مقاومًا لقسوة الطبيعة سوى جذعها النحيف، بنى أعلاه طائر اللقلق عشًا، قال ناظم إنّ اللقلق سارق ماهر لحلي النساء، عندما تسنح الفرصة، يخبئها داخل عشّه، أيّده الآخرون، فأشار إلى أنّ من يستطيع صعود هذه النخلة العيطة، وتفتيش العشّ سيجد بعضها حتمًا، لم يبادر أحد من الثلاثة تحقيق فكرة الصعود وإجراء التفتيش الواهم عن حلي غير موجودة أصلاً، والنخلة ضعيف جذعها، ميت، قلت سأصعد، وبدأت الصعود يدويًا حتى وصول العش بصعوبة كبيرة، لم يتمّ تفتيشه لعدم إمكانية التثبيت بالسعف اليبس، وبدلاً عن التفتيش دُفع العشّ المحاك بمهارة عالية، هوى من الأعلى مرّة واحدة مع بيض كان داخله، وكان الزملاء في المجموعة، وقبل إتمام عملية النزول، قد نثروه على الأرض بطريقة تفتيش، لم تبقَ قشّة من هيكله القائم، فشلوا في إثبات التهمة الموجهة إلى طائر وديع، بقيت أنثاه تحوم حول ساحة الجريمة ساعة، بعد انتهاء تنفيذها.

عالم السينما

وصل علي بيتنا بعد مغيب الشمس، كان مسرعًا، قطع مجاز الوزون ركضًا، قال، وهو يلهث، لقد وصلت السينما، ونصبت في موقع لها في باب السور، هلمّ نرّ، وقبل مغادرة البيت على استعجال، سأل عنها، وماذا تكون! إذ لم يرّها من قبل، فكانت الإجابة، تلك التي يتكلّم عنها الجنود العائدون من بغداد في إجازاتهم طوال جلوسهم في المقهى، يقولون عنها آلة عرض لقصص مصوّرة تتحرّك كأنّها حقيقية، فزاد عنده الشوق لمشاهدتها، وألحّ على استعجال الوصول، عندها بدأ المشوار

ركضًا تجاه باب السور، وكان آخرون من الصبية أيضًا يركضون، بانّت السينما، سيارة بحجم شاحنة توقّفت قريبًا من المدرسة، وقد أنزل سائقها الخمسيني، ومساعدته الشاب الثلاثيني مجموعة معدّات، هيأتهما والسرّاويل التي يلبسانها توحيان أنّهما بغداديان، توجّهوا إلى نصب شاشة على ركائز معدنية، ساعدهم في نصبها شباب القرية، قال الشاب الثلاثيني بعد إتمامه النصب، واطمئنّاه لحضور تجاوز المئة، خليطًا من كبار السن وشباب وصبية يملؤون المكان: إنّها السينما الريفية تابعة إلى الإرشاد الريفي.

لم يلتفت أحد إلى كلامه، ولم يعلّق أيّ من الموجودين على مسألة تطوير الريف، كان الجميع ينتظر البداية، والبداية فلم كارتوني، لم يتبقّ من وقعه في الذاكرة سوى البطة عند محاولتها إنقاذ طفل من الغرق، راحت الأصوات تتعالى مع كلّ خفقة جناح لها، كأنّ الجميع في حال تعجّب من حركتها على الشاشة، أو خوفًا على الطفل من الغرق، وكان أعلى الأصوات وأكثرها وضوحًا صوت علي، هدأت من بعد هدوئه الأصوات، وباشر ذلك الشاب عرض أفلام قصيرة عن تقنيات الزراعة الحديثة للقطن، ومن بعدها عرض الفلم العراقي عليا وعصام، أثار إعجاب الحضور، واهتمامهم أكثر بكثير من أفلام الزراعة والقطن، في ذلك الصيف الذي تعرّف فيه أطفال القرية وشبيها الباقون في قريتهم على السينما، قرّر الوالد نقل العائلة من القرية إلى منطقة الفرحاتية بقضاء بلد، حيث العمل الساري له سائقًا في مزرعة الدفتري، تلك التي يديرها الحاج عباس عبد الحسين السلامي.

أحضر سيارة فورد جمل تابعة إلى المزرعة، أوقفها على حافة التلّ المقابل إلى المدرسة في باب السور، أنزل بابها الحديدي الخلفي على حافة التلّ، صارت جسرًا يفضي إلى

داخلها، استعمله الشباب للمساعدة في تحميل الأثاث، سريراً من سعف النخيل، ودولاباً خشبياً، وفرشاً على عدد الأبناء.

كانت البقرة المرقطة آخر من صعد، هي العزيزة على قلب الوالد، فلا بدّ أن تصعد، تمنّعت في بداية المشوار خوفاً، حاولت الفرار، أجبرها الشباب على الصعود سحباً بحبل ثبت حول رقبتها، ودفع قسري من أعلى ساقبيها الخلفيتين، استقرّت من بعدها صاغرة، فأخذ الباقيون من أفراد العائلة أماكنهم فوق الفرش، وصعد معهم جنود من أهل القرية متّجهين إلى بغداد بغية الالتحاق إلى وحداتهم العسكرية.

لكنّ دوام المدرسة كان قائماً، لم يبقَ لحلول العطلة الصيفية سوى أسابيع، قال الوالد قبل المغادرة سيكون البقاء محتوماً عند بيت الخال، والجدّة ستتكلّف بالأمر، لم يُناقش الموضوع، فالعلاقة مع الجدّة التي تدير بيت الخال جيّدة، وعلي ابن الخال صديقاً بمنزلة أخ، انتهت الأسابيع الثلاثة، وبدأت العطلة الصيفية، قالت الجدّة تهيئوا للذهاب معاً إلى الأهل في مزرعة الفرحانية، في تلك المزرعة بيت كبير يسكنه الحاج عباس وزوجته الشابة، يجاوره بيت صغير للسائق وعائلته، وقريباً منه بعض بيوت من الطين منفردة لفلاحين، بينهم عائلة السيدة زهرة زوجة الحاج عباس، كانت المرأة من عرب المنطقة، كريمة ذات وجه مدور أبيض جميل، يحترمها الجميع، ويشيدون بوجودها، والحاج عباس أشيب بلحية بيضاء ووجه صارم، حكيم، مضياف، قاس، يهابه الجميع حدّ الخوف.

في تلك العطلة وصل أولاد السيد عبد الأمير، الابن الأكبر للحاج عباس (نظام وبوران)، فصار مجموع الأطفال المتقاربين في العمر ضمن حدود البيتين أربعة، بينهم علي، وكانت وسائل اللعب المتاحة دفع الإطارات القديمة للسيّارات، جعلها تسير بشكل مستقيم والركض من بعدها دفعاً لإثبات المطاولة والقدرة

على الموازنة، والأخرى (كلي كلي)، ومن ثمّ المرصع (المصراع) والصكّلة⁹.

اغتراب مبكر

انتهت أشهر العطلة الثلاثة، وبانت بدايات العام الدراسي قريبة، حثّمت العودة إلى القرية لمواصلة السنة الخامسة من الابتدائي، بعد أسابيع من بدئه، وفي يوم غابر عاصف، أيقظتني زوجة الخال من نوم عميق على السطح، وفجره لم ينبلج بعد، قالت لا بدّ من الذهاب إلى بستان الرهيمية لجمع (طوش) التمر المتساقط على الأرض، تمّ الاستفسار منها عن علي الذي لم يستيقظ بعد، أجابت لم يذهب هذا اليوم، جرت محاولة التمتع عن الذهاب من دون علي، فشلت بسبب إصرارها الذهاب على انفراد، وترديدها كلمات بصوت خافت، فهم منها عدم الرضا، تمّ الخروج من البيت مكسورًا بحسرة فقدان الأمّ، والدخول إلى البستان من مجاز الوزون في ظلام حالك، وحفيف رياح، يصدر صوتًا كالصفير عند الارتطام بالسعف اليابس، ومع هذا تمّ تحمّل الظلام، ومعاناة النقاط كلّ حبة تمرّ وسطه باللمس، تكألت المهمة

⁹. لعبة الكلي عبارة عن عود صغير بحدود عشرة سنتمترات، يوضع داخل شق في الأرض أو على حَجَرَتَيْن، يرفعه المتسابق إلى الأعلى بعصاه، وعند ارتفاعه في الهواء يضربه ثانية للأمام، والفائز من يوصله مسافة أبعد، والمرصع أو المصراع، خشبة مدورة على شكل كمثرى يوضع في طرفها السفلي قطعة حديد تشبه النبال، يلف حول قطعة الخشب الكمثرى خيط يمسك طرفه اللاعب، ويطلقه تجاه الأرض بطريقة تجعل المصراع يلف في مكانه على الأرض، والصكّلة كوم من الحصى بحجم وسط يلتقطها اللاعب واحدة بعد أخرى من دون أن يمس باقي الحصى، ثم يمررها من فتحة بين اصبعي السبابة والابهام، وفي الوقت نفسه يحذف حصاة أخرى من يده، ويتلقّفها من دون أن تسقط على الأرض، وتسميات هذه اللعبة الشعبية تختلف من منطقة إلى أخرى.

بنجاح، وامتأل الحُضن المكور للجلابية، واقتضى العرف الذهاب به إلى حضيرة التمرور في الباب الشطاني، كان مهدي العيال جالساً فيها، يقتسم الحاصل مع الطواشة، أي اللذين يجمعون حبات التمر المتساقط، أخذ نصفاً حقاً لضمان البستان من أصحابها، وأعطى النصف الثاني إلى زوجة الخال.

كان ذاك اليوم هو الجمعة، فتمّ التسلل إلى الأشياء السهلة والكتب، وضعت جميعها في جلابية المدرسة، أحكم شدّها من الأعلى لتكون كيساً يستوعب الأشياء، وقبل نهوض الجدة والآخرين من النوم، وضعت على الظهر، بطريقة الحمّالين، وجرى التسلل بها من باب البيت التي لا تُعلّق، مشياً تجاه باب السور، ثم البازول، إلى بيت العمّة أمّ رحيم، سألت عن السبب، فجرى اختلاق قصّة شجار مع علي، ولما سُئل علي عن السبب في يوم الدوام الدراسي الثاني، أجاب بعدم وجود سبب، فقط الاشتياق إلى البازول منطقة الأصل، لكنّه لم يقتنع، واستمرّ في السؤال لسنوات لاحقة، لم يحصل على الإجابة الصحيحة عن السبب، خفّف من وطأتها وإعادة الأمور إلى مجاريها الطبيعية، رجوع العائلة إلى مسكنها في القرية بعد شهرين من الواقعة.

.....

قاربت السنة الدراسية السادسة للابتدائي من نهايتها صيف عام (1958)، جمع المدير عباس تلاميذ الصف المرشّحين لأداء الامتحان الوزاري، كانوا أقلّ من عشرين، ورّع البطاقة الخاصة بالمشاركة، مشفوعة بالأرقام الامتحانية، حدّدت مدرسة الرشاد في محلة التعيس القريبة من نهاية شارع "أبو القاسم" وسط مدينة الحلة، قسماً داخلياً لمبيت الممتحنين، والمتوسطة المركزية مكاناً لأداء الامتحان، قدم المعلم مطهر العزاوي مشرفاً، ومعاونون له من القائمين في المدينة، هما المعلمان عبد الأمير علوش، وقاسم عيس، ختم حديثه بحتمية التجمّع في المدرسة عصر يوم الجمعة

القادم، بغية الذهاب إلى الحلة أسبوعاً لأداء موادّ الامتحان الستة، نُفِّدَ الأمر بالوقوف صفّاً واحداً، مع قلق واضح من عالم المدينة الجديد، والتجربة الامتحانية الوزارية، ونقيضهما الرغبة القوية للانتقال إلى الدراسة المتوسطة واكتشاف وقع المستقبل الجديد، كأننا في الوقوف هذا نودّع مرحلة الطفولة، سيُعترف لنا أهل القرية بوداعها لمجرّد اجتياز الامتحان.

حضرت سيارة عبس المطيري في الموعد المحدّد لها، تدافع التلاميذ أثناء الصعود، كأنّهم يلعبون، قَطَّبَ المعلّم مطهر حاجبيه، فهدؤوا قليلاً، لكنّهم، وبعد انطلاقها بدأ تدافعهم خفية لنصف ساعة، جرى التحسّب طوالها لغضبه الشديد، قال بعد صمت، وعند الوصول تجمّعوا في ساحة المدرسة، تأكّد من العدد مطابقاً لجدول الأسماء، ورّع الحضور على صفوف أعدت أماكن النوم، وقبل الانصراف أعطى منحة المعارف ثلاثة دراهم، لكلّ تلميذ عن مصروف يوم امتحاني، غمر الفرح أغلب الموجودين، فالغنيّ من بين الممتحنين لم يحمل ذاك المبلغ، كما أنّ الشعور بالغنى المفاجئ لذيد، حُدَّت الساعة الثامنة موعداً لتقديم إيضاح عن سياقات الامتحان ومراجعة موضوع الغدّ، لغة عربية، راجعها المعلّم عبد الأمير علوش، وطمأن الجميع أنّهم سيجتازون الامتحان بسهولة، لم يحضر أحمد علي شهاب من أفراد المجموعة درس المراجعة، عاد في التاسعة مساءً، قبل الوقت المحدّد للنوم، التقى باقي أفرادها ضاحكاً، قال عن نفسه لا يراجع المادّة يوم الامتحان، هكذا هو طبعه، يكفي بشرح المعلّم، أكّد تعلّقه بالسينما والموسيقى، وقال قبل الدخول في إيضاح أحداث الفلم الذي شاهده اليوم، أنّه قد شاهد أوّل فلم في سينما قدري ببغداد وهو في الصف الثالث الابتدائي، ومن يومها صار يهوى السينما، عاد إلى الحديث عن فلم اليوم أسماه طرزان، كان مغرماً بقدرات بطله وفهمه لغة الحيوانات، وولعه بالقردة (شيتّه)

صديقه، شاركته الأحداث جميعها لتسعين دقيقة، مدّة العرض لهذا الفلم المليء بالأحداث، عاد تأكيد ولعه بالسينما، وحمية الذهاب كلّ يوم لمشاهدة فلم، فوجدتُ أنا وعلي أنفسنا في اليوم الثاني واقفين معه في الطابور أمام شباك التذاكر لسينما بابل، قال: أربعون فلساً حقّ التذكرة، توقّف قليلاً، ثم بدأ شرحاً مفصلاً عن أسعار التذاكر، قال: إنّ سعر التذكرة مرتبط بالدرجة، أو مكان الجلوس، فالأربعون يجلسون في المقدّمة هم الأقرب إلى الشاشة، وأماكن الجلوس مصاطب خشبية، والتسعون خلفهم بتدرّج يتزايد في الارتفاع، وهناك اللوج مخصص لحجز العوائل، سعره نصف دينار، قال عن اسم الفلم (المعتدون) من أفلام رعاة البقر، لم يناقشه أحد، فهو الأعلّم في هذا الشأن، بدأ العرض، فعَمّ السكون، لكنّه لم يستمرّ طويلاً، إذ تعرّض البطل إلى كمين، أخرج بندقيته، بدأ التصويب على أحدهم، صاح بعضهم من الجمهور بلهجتهم (اكتله)، ولما وقع أوّل صريع من بين الكامنين، صاحوا ثانية (حيل)، هدؤوا بارتياح واضح المعالم بعد تخضّب جسم الصريع في دم شاهده ينزف، كأنّهم هم من أطلق النار، لكنّ البطل لم يدعمهم ينعمون بالصمت، فقد اقترب بعد نجاته من فتاة جميلة هي البطلة، بطريقة تثير الغريزة المكبوتة، صاح آخرون بينهم علي (بوسها)، وعند آخر قبلة تكاثر بوقعها الصياح، انتهى الفلم، وعدنا الثلاثة إلى المهجع قبل حلول موعد النوم الرسمي، من دون المشاركة في مراجعة مادّة اللغة الإنجليزية قدّمها المعلم سعد، وهكذا كان الحال في اليوم الذي تلاه، كأنّ إدماً قد حصل موضوعه السينما.

مرّ الامتحان، ومن بعده امتحان لجميع الدروس الستة، عاد تلاميذ تلك السنة إلى قريتهم، وإلى حياتهم الطبيعية لعباً وسبّحاً، ومشياً قريباً من القرية في دروبها النيسمية بعد الظهر، دام وقعه هكذا لأسابيع، وفي آخر أسبوع من تلك الأسابيع جرى الاتفاق

على قضاء ساعات العصر مشياً على شاطئ النهر تجاه بستان المومنين، وقبل الشروع جاء سلمان راكضاً من جهة باب السور، قال، وقبل توجيه السؤال عن السبب: لقد جلب المدير نتائج الامتحان، وتوجّه بها إلى المدرسة، فركضنا الأربعة تجاهها، وجدناه وفي يده ورقة مَبَوَّبة على شكل جدول حسب تسلسل أسماء الممتحنين، بدأ قراءتها، بوضع الجلوس حول الطاولة، حصل أفراد المجموعة على النجاح، عادوا بعد استلامهم الخبر إلى بيوتهم ركضاً فرحين، فكان ذاك المساء مميّزاً، كأنه قد شكّل فاصلاً بين الطفولة والشباب.

فتح بوابة الثورات

أيّاماً، استمرّ طوالها النقاش دائراً ضمن المجموعة عن أحوال دراسة المتوسطة، وسبل التقديم إلى مدرستها المركزية، وفي صبيحة الرابع عشر من تموز كان الاتفاق ذهاباً مبكراً للسباحة في النهر، التقى أفراد المجموعة عند مدخل مجاز الوزون، توجّهوا صوب النهر، جلب نظرهم تجمهر عند المقهى، واحتدام نقاش، يزداد من حوله المتجمعون، وتتعالى الأصوات، وتنتج العيون صوب مذياع، يندر وجوده في بيوت أهل القرية، وعند الاقتراب إليه، سُمع صوت عبد الأمير علوان يقول تحيا الثورة، أعقبه صوت مميز لجواد الصيّتة هتافاً بسقوط الملكية، تلاه ثالث لم يعد اسمه محفوراً في الذاكرة، قال إنّ الصوت الخارج من المذياع للشخص الثاني في هذه الثورة (عبد السلام محمد عارف)، وراح حبيب عباس يمجد الجمهورية، يعدّد مساوئ الملكية، وجمهور يصغي بإمعان، كأن أفرادهم غيّرُوا اتجاهاتهم وتوجهاتهم في لحظة زمن عابرة من الملكية إلى الجمهورية، قال سلمان المتحمّس إلى الجمهورية عن نفسه، سيبقى في المقهى

يتابع مآل الجمهورية، وقال فارس حسين، الطالب الذي أنهى امتحان الثانوية الواقف قريباً من المذيع، إنه سيذهب إلى بغداد في الحال ليرى ما يجري على الأرض، سأل فيما إذا كان هناك أحد من الشباب راغب بالمرافقة، فأجابه تركي شعلان أنه مستعد هو أيضاً، وقال محسن حسناوي عن نفسه كذلك يرغب، فتوجه الثلاثة معاً إلى الطريق الرابط بين بغداد وبين الحلة، كثر من بعد ذهابهم المتجهرون حول المذيع، سعياً لمعرفة الموقف، صارت الأخبار الآتية عن طريقه سبباً لتجمع الناس في المقهى، وبقائهم في حال شدّ عصبي إلى ساعة متأخرة من الليل، كان الحماس يتصاعد سريعاً، تضاعف أكثر عند الإعلان عن مقتل الوصي عبد الإله، لكنه لم يكن كذلك عند الإشارة إلى مقتل العائلة المالكة، ولا مع فقدان الملك الذي لم يبلغ سنّ الرشد، لكنه لم يقلّ من مستوى الهياج، والرغبة في الانتقام.

عاد فارس وصحبه من بغداد ثاني يوم الثورة، توجّهوا معاً إلى المقهى، قصّوا على الجمهور المتحمّس تفاصيل أحداثها، وسحل الوصي عبد الإله، وتعليق جثته عارياً على شرفة فندق قمر الكرخ، وتقطيع أوصاله، بدءاً بالأعضاء التناسلية من قبل قصّاب كرخي، وخروج أهل بغداد إلى الشوارع عن بكرة أبيهم. في هذا اليوم الثاني انفضّ جمع السامعين والرواة والمتجادلين، جلب الشيوعيون صوراً للقائد عبد الكريم بزيه العسكري ضابطاً برتبة زعيم (عميد)، ورّعوها على الأبناء الراغبين من أهل القرية، نفذت في الحال، بدأوا عقد لقاءات في العلن، صاروا معروفين في الأرجاء، ينادون بحتمية التحرّر، وبالوطن الحرّ والشعب السعيد، كذلك في العلن، وفيه أيضاً دخل البعثيون الحلبة السياسية العلنية، صار أهل القرية يسمعون بالبعث حزباً من بين أهدافه توحيد الأمة.

الفصل الثاني

بين القرية والمدينة



الوالد خضير خلف العبيدي

ردود فعل قروية

استقرّت الأحوال الانفعالية، بعد أشهر من حركة عبد الكريم، وحصوله لقب الزعيم، هياً المواطن طوالها النفس إلى النسيان العابر لشخص الملك، وسحل الوصي ونوري السعيد، وتوجّه حثيثاً إلى التصفيق، وصناعة الأصنام، ظنّ العيش مثل الآخر في حال طبيعية أمراً ممكناً، وظنّ الممكن شعارات تنادي بوحدة العرب من المحيط إلى الخليج، وأصوات تهتف بإقامة الوطن الحرّ والشعب السعيد، وسطها أو خلالها، جرت عملية الانتقال لمجموعتنا من الدراسة الابتدائية إلى المتوسطة، ومن الطفولة إلى الصبا بغية التمتع بخواصّ الشباب، كان الشباب يرتادون المقاهي، يتحدّثون عن رفع السوط الإقطاعي من على ظهور الفلاحين، وطيّ الصفحة السوداء للتسلّط والاستبداد، تقدّم الفلاحون خطوة، صاروا يشاركون في النقاش أسوة بالعمّال والعسكريين وباقي الطلاب، فتسلّل إليهم الخدر، وامتلأت النفوس ميولاً ورغبات في التمرد على الواقع والأرض، وعلى صاحبها الإقطاعي، المتهم بالقسوة والاستغلال، ترك أغلبهم في دروب التمرد عمّته النخلة، من دون مداراة، ولا لقاح في مواسم الاستحقاق، وأهمّلوا الإنتاج في مراحله الأخيرة، توافق الأبناء مع آبائهم في التمرد على النخلة، تركوها وإياهم، قصدوا الجيش جنوداً مطوّعين، استوعبهم الزعيم نصير الفقراء، كما كان يحلو لهم تسميته، فتح الأبواب على مصاريعها لدخول الخدمة في الجيش، أوسع فتحها سعياً لاستيعاب المزيد من المتطوّعين، فأصبح العمل في الحقل والمزرعة بين يوم وآخر حكراً على بعض المعمّرين غير المتمردين، وأصبحت عيون المتمرّدين شاخصة على رواتب الأبناء المتطوعين لتعويض الفاقد في

الإنتاج، أمّا الأبناء من أفراد المجموعة فقد استمروا مدفوعين تجاه الدراسة وإكمال المشوار.

بدأ المشوار الجديد خطواته الأولى لقاءً للتشاور في موضوع المدرسة، وإكمال الإضبارة اللازمة للتقديم إلى الدراسة المتوسطة، أكملها المدير عباس في ساعتها، فتوجّه الخمسة إلى مركز مدينة الحلّة، في سيارة عباس، وسيلة النقل الوحيدة، كان ركوبها هذه المرّة ممتّعاً، فيه قدر من الاستقلال، دفع الواحد عشرة فلوس، نصف الأجرة المقرّرة، وهي عشرون فلساً حصرياً على الكبار، وساروا بعد الوقوف بالساحة على النهر في الصوب الصغير، إلى المتوسطة المركزية، تماشياً مع واقع كان سائداً، يفرض ذهاب التلاميذ الآتين من القرية، إليها، متوسطة واحدة من اثنتين في مركز الحلّة تستوعب، وقرينتها الفيحاء، جميع الناجحين من الصفّ السادس الابتدائي، قال الكاتب عند استلامه الأضابير انتظروا شهراً لبدء الدوام، كان الشهر أمداً طويلاً، بعد انتهائه علّقت المتوسطة المركزية قوائم بأسماء المقبولين في صفوفها، وكتبت ملاحظة لغير المقبولين مراجعة متوسطة الجمهورية التي فتحت حديثاً تلك السنة، فتقسّمت المجموعة، وتفرّق الشمل الدراسي، ثلاثة استمروا في المركزية، وأحمد معي كنّا في متوسطة الجمهورية.

طلّاب المتوسطة والثانوية من أبناء القرية، يمتلكون درّاجات هوائية للتنقل ذهاباً وفي الإياب، وافق الأب شراء درّاجة جديدة، عرض عبد النبي في محلّه جوار المتوسطة المركزية درّاجات بأنواع وأحجام تباع بالتقسيط، حدّد القسط ديناراً في الشهر حدوداً هي الدنيا، كان عبد النبي عصامياً، بدأ ميكانيكياً في عالم الدرّاجات، توسّع بعد النجاح ليكون وكيلاً لعلامات معروفة، كانت أشهر العلامات المسجّلة قبل الجمهورية (الفيليبس والهيركلس)، نصّح شراء واحدة جديدة دخلت البلاد

كورية بعد الثورة، قال لم يبقَ منها سوى تلك الخضراء، بحجم (24)، تناسب العمر، أشار إليها باعتزاز، فكانت ملكًا صرفًا بعد تسديد المقدم (دينارين)، أخذت لها منتصف اليوم الأول مكانًا مميزًا في البيت، وعناية خاصة، وأمرًا بعدم التقرب منها، حاجة هي الأثمن ذاك اليوم¹⁰، وأخذ التعلّم لركوبها عصر يوم، وصباحًا آخر، هياها للتوجّه بها في اليوم الثالث إلى متوسطة الجمهورية، مع أحمد في درّاجته الموروثة عن عمّه محمد، بانّت تلك المدرسة حديثة في كلّ شيء، إلّا البناية التي استأجرتها المعارف خانًا لبيع التمور، مملوكًا إلى حسن خنوس، في محلة (كريطعة) جنوب مدينة الحلة، حوّرثها إلى مدرسة على عجل، قسّمت عابِر الخزن إلى صفوف، وأبقت الساحة المخصّصة إلى التحميل مفتوحة لاستيعاب حركة الطلاب، ورّعت الدوام على وقتين، صباحي ومساءلي في غالب الأيام، مشكلة العودة من هذه المدرسة هي في دوامها المسائي شتاءً، وفي أوّل شتاء غربت فيه الشمس قبل حلول صافرة الانتهاء، زاد العطاء الآتي من السماء مطرًا شديدًا، وغيوماً ملبّدة بالسواد، لزمّت العودة من المدرسة ابتعادًا قسرًا عن اتّباع الطريق الشطاني وسط البساتين، حيث الظلام الحالِك وتبعات الغفلة، وأخذ الطريق الذي تسلكه السيارات عبر جدول الوردية، فبستان شعيب، مرورًا بالبستان العائد إلى عمران الشلال، والتلال المحيطة بالقرية، كان الطريق موحلاً، يُحشّر الطين بين الإطّار، وغطاء العجلة الواقي (الجاملغ) يلزم التوقّف عدّة مرات لإعادة التنظيف، والاستعداد للسير البطيء، ركوبًا أو سحبًا في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى التمتّع باستراحة قصيرة لأخذ الأنفاس.

¹⁰. استمرت هذه الدراجة فاعلة للتنقل بها من البيت في القرية إلى المدرسة المتوسطة والثانوية في المدينة لخمس سنين، بكفاءة عالية.

لقد استمرّ الحال هكذا، واستمرّ المطر زخّات متقطعة حتى التوقف لآخر استراحة وسط التلال المحيطة بالقرية، قال أحمد: أرى شيئاً من بعيد يتحرّك، لا أستطيع التمييز، تسبّب قوله هذا وقوفاً، لازمه شعور بنوع من الاحتصار أشعرنا بدفقة خوف من أشياء كثيرة، فليل القرية في الموروث الشعبي لا يؤتمن خارج أسوارها، لكنّه لم يدم طويلاً، بعد صدور نحنة خفيفة، للطمأننة وإعطاء الإشارة، شجّعنا على النطق والاستفسار معاً: من أنت؟ أجاب محمد شهاب، وإلى جواره علي، أرسلنا من العمّ علي للتفتيش عن المصير بعد التأخّر غير المعهود عن موعد العودة، كانت والدّة أحمد أكثر قلقاً عليه، لأنّها في الأصل ابنة مدينة، وتبيّن أنّها وراء عملية التفتيش.

ناحور القرية

لقد تغيّرت معالم الاقتصاد بعد التغيير إلى الجمهورية، وحصل الانفتاح على دول الشرق، بُنيت معامل، واستعجلت الدولة تنفيذ بعض المشاريع المخطّط تنفيذها تبعاً من مجلس الأعمار السابق، توافقاً مع طبعهم الثوري، يستعجلون النتيجة والحدث، كأنّ أغلبهم مصابون بحواز الزمن، يريدون تلمّس الإنتاج قبل مغادرة أبدية يعتقدونها محتومة، فباتوا يحثّون الخطى لتنفيذ المشاريع التي كان تنفيذها في العهد السابق محسوباً وفق تسلسل زمني، وتبعاً لقدرة البلاد على توفير الكلف ورؤوس الأموال في خططها السنوية، في مرحلة حثّ الخطى هذه، ترك الوالد عمله سائقاً في الريّ، أحال نفسه على التقاعد، عاد إلى القرية فلاّحاً، اتّفق مع العم علي ليبدأ مشواره في بستانهم الرهيمية، جاء بأفكار عدّها حديثة، منها نصب الناعور لسقي الأرض المرتفعة عن مستوى سطح النهر، وزراعة الخضروات

المعيب زرعتها في محيط القرية، كان بستان الرهيمية وارف الظلال، هو الأكبر في القرية، يمتد على طولها من جهة الجنوب، قريبة من بيت العائلة، يمكن الوصول إليها عبر منفذ في سياجها الطيني الآخذ في التصدّع، يستخدمه كلّ سكّنة الزقاق، لرمي زبالتهم، وبلوغ الساقية لغسل ملابسهم والصحون، كان البستان متروكًا بعد وفاة صاحبها الحاج شهاب، اثنان من ورثته (علي وحسين) موظّفان، وثالثهم حمزة يتنقل من عمل إلى عمل، والرابع محمد، طالب قريب من الجيل، أمّا الحاج كريم فمشغول بالزراعة وإدامة أرض البازول.

بدأ مشوار الفلاحة في السنة الأولى محدودًا لزراعة الخضروات، التي يستنكر العرف الاجتماعي للقرية زراعتها من أبناء القرية، طرح إنتاجه منها بيعًا مباشرًا داخل القرية، وفي الموسم السياحي نذهب معًا بمنتوج الخسّ إلى بابل، مجالًا خصبًا للتصريف، شرع سقيها عن طريق الكفة (وعاء من البردي مطلي بالقار)، يركّز استخدامها على حبال أربعة تُربط على جانبيها، طول الواحد منها تبع لموقع الماء من مستوى الشخصين الواقفين في الأعلى ماسكين أطرافها بأيديهم الأربعة، بمهارة توازن لضبط حركتها وزاوية الارتطام بالماء في الأسفل، وتعديل الزاوية سريعًا لتسهيل الملء، ثم رفعها بحركة كذلك متناسقة وسريعة، لترخي من بعدها طرفي الحبلين السفليين، وبما يعدّل وضع الزاوية قائمًا لسكب الماء في الساقية.

شرع في استخدامها تعاونًا مع الوالدة، خير مساعد له في عموم الأعمال ذات الصلة بالزراعة، مدّ طلب المعاونة أمر يسري تنفيذه بعد الدوام المدرسي وأيام العطل لي، الابن الأكبر، ومن ثمّ علي القريب من العائلة، أكتشف بعد حين أنّها وسيلة سقي لا تنفع، وإنّ زمنها قد انتهى كما انتهى زمن الكروء، وسيلة سقي قديمة، فكّر بالناعور وسيلة، فهي الأحدث، نادى ظهر يوم

جمعة، من السنة الأولى لدراسة المتوسطة، قال بصيغة إلزام: لا بدّ من الذهاب إلى قضاء الكوفة لاستلام الناعور، سبيلاً للتطوير بعد التوسّع في الزراعة، أعطى اسمًا لحداد مختصّ بصناعة النواعير، يُدعى جبار، أكّد موعدًا معه، وهو اليوم، أصدر تعليمات قاطعة بضرورة التحميل على سيارة مناسبة، ناولني عشرة دنانير، لتسديد الخمسة المتبقّية من السعر، والباقي كلف النقل والتحميل، فكان المبلغ كبيرًا، يحتاج انتباهًا عاليًا للمحافظة عليه، أبقيت كفّ اليد ممدودة في الجيب الجانبي للجلابية طول الوقت، كان مركز مدينة الحلة، المحطّة الأولى، منها استقلّيت سيارة باص إلى الكوفة، لم يكن في داخلها مكان شاغر، أشار المساعد إلى مكان على السطح، هو الشاغر، ربما تعمّد ذلك بسبب العمر، ومع هذا لم تصدر أيّ ممانعة، بل كان المكان مناسبًا لمشاهدة الطريق من بعيد، والتمتّع بمزارع الشلب (الرز)، ألواحًا مقسّمة على الجانبين لمسافات طويلة.

.....

وصل الركب مدينة الكوفة، توقّفت السيارة عند ساحة مفتوحةٍ جوار الجسر، لم تكن بعيدة عن مشغل الحدّاد الذي دلّني عليه بعض المارة، كان رجلًا يبلغ الخمسين من العمر، زادت النيران القريبة شدّة السمار المائل على بشرته، وضاعف استخدام المطرقة تضخّم عضلات يديه، بدا عند تحريكها، كأنّه من رافعي الأثقال، رحّب الرجل أوّلًا، واعتذر عن عدم إتمامه الإنجاز حسب الموعد، قال سيكون جاهزًا في الغد، وعرض الضيافة في بيته حتى الغد، لكنّ الأهل توقّعوا العودة، ولم يكن في الحسبان بقاء الليلة خارج البيت، هكذا كانت الإجابة مع وعد للعودة في الغدّ، رد برحابة صدر أنّه سيكون جاهزًا قبل صلاة الظهر، نوّه إلى خمسة دنانير تبقّت من الكلفة، همس بصوت لم يسمعه العمّال، فكانت الإجابة أنها ستُسَلّم حال التسليم، هكذا هي

التعليمات، نادى عاملاً من بين أربعة هم منتسبو المشغل، لم يكمل العاشرة بعد، وقد غطى السخام جسمه النحيل، طلب منه إيصال الضيف إلى السيارات الذاهبة إلى الحلة من دون تأخير، أشار الطفل إلى سيارة حمل نوع فورد، (أقجم)، قال هي المتوفرة وحدها في الطريق إلى الحلة، قد لا تعقبها أخرى، فالوقت قد اقترب من المغيب، والركاب قد وقفوا على أرضية البدن الخلفي، سأل السائق عن أجرة الركوب، وقبل الصعود، سلّم للسائق درهم الأجرة، والاستعجال في الصعود، لإيجاد مكان بقي شاغراً في السلّة الحديدية القائمة فوق قمرة القيادة، جوار رجل أشيب سبق في الجلوس، سئل هذا الرجل الحلي: لِمَ مقود هذه السيارة على اليمين وباقي السيارات على اليسار، قال إنه الأقجم، سيارة عسكرية إنجليزية، نظام القيادة هناك على اليمين، لقد باعوها مع مخلفات الحرب الأولى بعد انتهائها، ما زالت تعمل، وستستمرّ تعمل، ضحك وأكمل إجابته بالقول إنّ روحها قوية كأرواح أصحابها الإنجليز.

توقّفت السيارة الأقجم في القسم الجنوبي من الحلة، عند باب المشهد، كان الوقت قد اقترب من صلاة العشاء، لقد تأخّرت كثيراً في الطريق بسبب السير البطيء، وتكرار التوقّف لصعود المزيد، كانت هناك حيرة، فالمكان غير مألوف، فموقع الجسر القديم المتوجّه صوب القرية كأنّه غير معروف، ومن إشارة لمجيب إلى آخر، تمّ الوصول إلى الجسر ركوباً بعربة ربل يجرّه حصانان، ومن ذاك الجسر جرى الصعود في سيارة باص خشبي ذاهبة إلى المحاويل، توقّفت عند تقاطع الطريق النيسي للقرية مع الشارع المتّجه إلى بغداد، قريباً من بستان حسين العبد، كان الظلام قد حلّ، زادت كثافة النخيل والأشجار عتمته الموحشة، وصار حفيف الهواء يسمع مجسّماً، وشكل الثعالب في مرورها مسرعة كأنّها أسود، وبات الطريق الذي استغرق اجتيازه

عشرين دقيقة مشياً سريعاً كأنه ساعته، كانت الخشية الأكبر على الثروة المحمولة مما تبقى من الدنانير العشرة، جرى لوم الذات على عدم تسديد المتبقي من سعر الناعور والخلاص من همّ الدنانير، لكنّ الأوان قد فات.

تمّت العودة في اليوم الثاني إلى مشغل الحدّاد جبار، ساعد هو وعمّاله تحميل الناعور في سيارة كذلك أقجم، لملمت في طريقها ركّاب، وتوقّفت كثيراً مثل شقيقتها على الطريق، لكنّها وصلت القرية مبكراً قبل المغيب، وأنزلت أجزاء الناعور في مكان النصب المناسب وسط البستان.

إهانة فرس

انتصب الناعور في مكانه المهيأ مسبقاً باليوم الثاني، دار في اليوم الثالث بقوّة حمار كان في الأصل تابعاً إلى البستان، أوسع بدورانه الرقعة المخصّصة للزراعة، ونوّع المحصول، وزيّد الانتاج، فتطلّب دعمه مساعداً يعاونه في الدوران، فكان القرار ذهاباً إلى علوة بيع المواشي في باب المشهد لشراء المساعد، طلب الوالد مرافقته في الذهاب، وقف جوار فرس رشيقة بيضاء، قال عنها أصيلة، وقال البائع كان لها سجل مشاركة معروف في مضمار سباق الخيل (الريسز) بالعاصمة بغداد، عاتب الزعيم على إلغائه سباق الخيل والمراهنات، (وقد أعيد أواخر الستينات).. حمّله مسؤولية التبعثر المؤلم للخيل الأصيلة بيعاً لأصحاب الربلات وعربات النفط، أصرّ على سعرها سبعة دنانير، لاعتقاده الاستفادة منها في ولادة مهور أصيلة، لكنّه تنازل أخيراً عند تيقنه عدم استخدامها للإنجاب، وافق على الدنانير الخمسة، لم يسأل عن نوع الاستخدام، ولم يخبر أنّها اشتريت للدوران في حلبة ناعور مساعدة لحمار.

كان ذلك البائع مثقَّفًا، ربّما سياسيًا ساخرًا، راح ينتقد الثّوار، قال عنهم يريدون بناء عراق خالٍ من سباق الخيل، وأماكن الدعارة، وكلّ أنواع القمار، وأضاف أنّهم يحلمون، لأنّها موجودة منذ الأزل، وإنّه واثق من إعادة فتح المضامير ثانية وثالثة، وبقاء صالات القمار موشّحة بالسرية المفصوحة بعد توزيعها على الفنادق والمقاهي والبيوت، وواثق أيضًا من ترتيب أوكار لأغراض الدعارة بين البيوت، لا تحتاج إلى إجازات رسمية كما كانت من قبل، ولا إشراف صحي، ستختلط المومس بالجارة غير المومس، وستكثر الأخطاء، وستتوسّع تجارتها، وسيكون لها أصحاب، ختم حديثه بالقول: هكذا هم الثوريون يفكّرون، وبين يوم وليلة يقرّرون، يمنعون ويسمحون، من دون حساب الأثر المحتمل والتبعات.

استمع الوالد جيّدًا لتوقّعات البائع، لم يعرّضها اهتمامًا لمقته السياسية، وعدم تأييد الثورات، طلب امتطاء فرسه، وإيصالها سالمة إلى البستان، وتوجّه صوب الجسر القديم في ربل أنيق. التحقت الفرس الأصيلة في عملها مساعدة حمار بعد أيام من إبقائها طليقة في البستان، صارت وإياه صاحبين يتبادلان الدوران في الناعور، وجبات منذ الصباح الباكر حتى انتصاف الليل في بعض الأحيان، فزاد فائض الإنتاج عن حاجة القرية، واستوجب التسويق إلى علوة الخضار في مركز مدينة الحلة، فكانت الفرس وسيلة مثلى لنقله في رحلة تحدّدت أيام الجمع، والعطل، كي لا تؤثر على وقع الدراسة السائد بانتظام، تبدأ الرحلة بعد أذان الفجر، يساعد الوالد في وضع (السابل¹¹)

11. السابل تعريف دارج في اللهجة العامية لوعاء له جهتان، مفتوح من الوسط، محاك من سعف النخيل، طوله متر أو أطول بقليل، يتعادل بوضعه على ظهر الدابة بعد تحميل الأشياء داخله تمورًا أو خضروات.

المليء بالحاصل على ظهر الفرس، أو الحمار، فهما يتبادلان هذه المهمة أيضًا، يكرّر مقولته اتّكل على الله، والاتّكال يعني التوجّه إلى العلوة في باب المشهد مقابل مستشفى الولادة، كان البيع فيها يتمّ حصريًا عن طريق الدّلال، ولكلّ دلال مكان خاصّ به على أرض العلوة، وله عملاؤه من الفلاحين، كان الدّلال الخاصّ بغالبية فلاحي المنطقة هو علي الفاضل، عند موقعه وسط العلوة يُنزل الفلاح حاصله من "المخضّر"، يرتّبه في أكوام، ينظر الدّلال إليها أولاً، كأنّه يقيّم استحقاقها، ليبدأ الإعلان، من سعر أولي يصل أحيانًا إلى درهم أو درهمين، يسمعه تجار الخضرة وأصحاب محالّ البيع بالمفرد، يبدوون بالمزايدة عشرة فلوس، أو عشرين فلسًا، حتى ترسي البيعة على أعلى سعر، السعر الأعلى قد يكون ناتج اتّفاق بين التجار أحيانًا لتقاسم المعروض، فيما بينهم صيدًا لجهد الفلاح، إذ لوحظ أكثر من مرّة التوقّف عن المزايدة بعد بلوغ السعر الذي قدّمه زيد لهذا الكوم من الباذنجان، وتكرار التوقّف المفاجئ عند سعر قدّمه عبيد للطماطم، كأنّ هناك اتّفاقًا للحسم بسعر محدّد، أو تبادل أدوار متّفق عليها بين المشتريين، ناتجه في جميع الأحوال خسارة جهد الفلاح، هكذا تتمّ البيعة، وحال إتمامها، وقبل الانتقال لبيع محصول آخر لفلاح آخر، يعطي الدلال من إجمالي سعر البيع درهماً، ويسجّل الباقي في دفتر يجمع به المباع حتى نهاية الشهر، يتحاسب مع الفلاح أصوليًا، كان المسموح في التصرّف من ذاك الدرهم جزء منه لأغراض الفطور، أغلب الفلاحين يهوون تناول فطورهم في العلوة "كباب"، وعلى هواهم هذا فُتحت في الأركان مطاعم مشويات، وجلبت عدّة عربات للغرض ذاته، كانت المرّة الوحيدة التي تمّ فيها تناول الكباب فطورًا، عندما بيع حاصل البستان من الباذنجان في أول قطافه بدينار.

لقد تطوّرت الزراعة في البستان، وصارت أرضها خضراء، يقصدها بعض من أبناء القرية للتمتع بالخضار طوال السنة، قصدها في سنّتها الثانية محمد موسى الجار الدائم في طريقه قادمًا من وحدته جنديًا متطوعًا في الجيش، وقف عند حافة الناعور، تأمل دورانه وخرير الماء النازل إلى الساقية، وشكل الحمار المتعب، سأل الوالد عن تباطؤ حماره الملحوظ في الدوران، فكانت الإجابة: لقد أصبح كسولاً في الدقائق الأخيرة من وجبته في العمل التي بدأها منذ ساعات، ولحنته على الدوران بالنشاط ذاته، رفع عصاه لتهوى على مؤخرة الحمار الذي تعود وقعها في حالات التباطؤ، لكنّه توقّف عن المشي عنادًا أو تحديًا، قال محمد في تحريض واضح لقد (جرن)، كأنّه يحتج على الضرب، فجاء الردّ ضربة من العصا أخطأت الحمار الذي تحرّك سريعًا لتفاديها، فوقعت على صدر محمد، صاح من وجعه (آخ)، تعجب من وجعه الوالد، قال مخاطبًا بغضب واضح: كيف لك أن تتأوّه وأنت عسكري؟! (يبدو أنّ العبارة التي صيغت سريعًا تعبّر عن اعتقاد خاطئ من أنّ العسكريين لا يتوجعون، وليس لديهم الحقّ في أن يتأوهوا من الوجع، أو أنّه صاغها بقصد حتّ محمد على عدم إخبار والده الجار الصديق)، وفي النهاية قبلها محمد وطوى موضوعها النسيان.

ننمّر أهل المدينة

لم يكن بستان الرهيمية وقفًا على الزراعة التي تقسّم الجهد فيها بيننا نحن الثلاثة، إذ صارت أرضها مكان لهو لأفراد المجموعة أيضًا، إثر تحويل التلّ الرابض وسطها مكانًا لممارسة الرياضة، حفرة أعدتّ وسطه بانتظام، ملئت رملاً جلب من النهر، لتكون مضمارًا إلى القفز العالي والطفرة العريض

والثلاثية، تماشيًا مع التحوّل في موضوع اللعب في القرية نحو الرياضة، بدأه الجيل الذي سبق، بيّنه علي حسون الحائز على بطولات على مستوى العراق في ركض (1500) متر، أضيف إلى أفراد المجموعة مهدي رمضان الذي حاز على الأولوية في غالب المسابقات، يليه سلمان، حاول الآخرون خوض تجربة الكرة، ففشلوا في كرة القدم، وتقدّم سلمان في الطائرة.

كانت الرياضة خالية تمامًا من توجهات السياسة، على الرغم من وجود نقاشات بينية خاصّة مع أحمد في مواضيع ذات صلة بالسياسة، وبالسار الذي يتبنّاه منهجًا في الحياة والسياسة، بالاعتماد على قراءات جادّة في مواضيع مختلفة، عرف عن أحمد إجادتها، لكنّها نقاشات عابرة يتمّ أغلبها في طريق الذهاب إلى المدرسة والعودة ركوباً على الدراجة، تزداد حدّتها في أوقات التظاهرات، التي كثرت في العام الأوّل بعد الحركة (1959)، حتى بسببها يمكن القول إنّنا، لم نتعلم في تلك السنة الدراسية، ما تعلّمه الذين جاؤوا من قبلنا، لأنّنا كنّا نرغم على الخروج في مظاهرات شبه مستمرّة لنصرة الزعيم، أو للمطالبة بإعدام الخونة والهتاف ضدّ الاستعمار والرجعية، ولأنّ خللاً في العملية التعليمية قد حصل بسبب الزحف الذي فرضه الزعيم، ما يعني انتقال جميع الطلاب على مستوى البلاد، وللمراحل الدراسية كافة الذين لم يجتازوا امتحانات السنة الماضية إلى المستوى الدراسي التالي آلياً، من دون الالتزام بشروط النجاح في الامتحان... سنة بدأت فيها، أو منها فوضى الدراسة وتدني المستوى، واستخدام العنف في التعبير عن حقّ العيش والدفاع عن حقوق البلاد، عنفاً أثبتت السنين والأيام اللاحقة أنّ الكثير من المجازر وأعمال التنكيل والظلم، ارتكبت بعد العام (1958) تحت مسمّياته بحقّ الأبناء، أثبتت أنّه سلوك قد استمرّ هكذا فاعلاً، كأنّه القدر المحتوم لأهل العراق، وأثبتت كذلك أنّه، أي

العنف، انتقل إلى الأطفال والصبية على شكل سلوك تنمّر وتمييز وشعور بالتفوّق، في تلك السنة، وعند الخروج من المدرسة على الدراجات المعهودة، والمرور من بعض الأزقة داخل الصوب الصغير، اعترض مرورنا أكثر من مرّة صبية يلعبون فيها، ينظرون إلينا طلابًا من أهل الريف نظرة استصغار واتّهام بالتخلف، يرّد بعضهم عبارة تصغير عدوانية (أبو المعيد)، عبارة اشتقت في الأصل من كلمة المعدان صفة تُوصف أصحاب الجاموس الذين ينتجون القيمر، وهم عادة سكان المناطق الريفية القريبة من الماء، يطلقها أحدهم، فيكرّرها من بعده آخرون بقدر من التحدي، كلمات جارحة للحياء القروي، تثير في النفوس غير المرتاحة قدرًا من العداء النافر لأهل المدينة، لم يكن هذا العداء العنصري في المشاعر بين أهل المدينة، وبين أهل الريف قد بدأ في أيامنا تلك، إذ كان موجودًا من قبل، وموجودًا مثله بين أهل القرية، وبين سكنة المناطق البعيدة عنها، إنّها نظرة دونية لتصغير الشخص الآخر، ونعته بكلمات، أو وصفه بصفات بذئية، للإقلال من قيمته، يبدو أنّها قد انتقلت من جيل لآخر حتى صارت صفة أو خاصيّة ترافق الجيل، لتنتقل إلى آخر من بعده، كما أنّها لم تقتصر على طُلاب المتوسطة الجمهورية، ولا سكنة حي غريطة، ففي المتوسطة المركزية مثلاً، وفي الصف الثاني، نعت أحدهم علي بالمعيدي، فردّ عليه بضربة في غطاء الرحلة الخشبي، شكاه إلى المدير يحيى الزبيدي الذي أجاب بقصد جبر الخواطر، كلّنا في الأصل معدان، إنّها مشاعر تترك أثرًا سلبيًا، وإن اعتدنا عدم إغارة الاهتمام لمثلها، وعدم الالتفات إلى أصحابها سبيلًا للتخلّص من المواقف التي كانت فيها كفتنا أهل الريف هي الأضعف، حتى أضحى التغاضي والمحافظة على الهدوء، ثمّ الاستمرار في السير هو الدارج في التعامل مع مواقف كهذه، بالتأسيس على قناعة ريفية مسبقة من أنّ صبية

أهل المدينة لا يمتلكون الجرأة الكافية لتنفيذ اعتداء بدني على أهل الريف باستثناء بعض الكلمات، والألفاظ العدائية. إن تكرار التمييز والتنمر اللفظي على أهل الريف، كَوْن في نفوس الشباب والصبية في تلك السنة دورة أو حلقة عدا، فيها التمييز بالضدّ قائم لكلا الطرفين، من جانبنا أهل الريف، كان هناك قائد لحملة الردّ على أهل المدينة حدّ الانتقام حمزة طريخم، صبي من الجيل ذاته، ضخّم البنية، يسكن مع والده الفحّام، منطقة البازول، يقف في أيام الجمع والعطل الرسمية على القنطرة التي تمرّ من عليها سكة الحديد، والتي نقصدها للقراءة أو لزيارة الأقرباء أحياناً، كان حمزة تلميذاً غير مجدّ، يضع في العادة عصاً غليظة (توثية) تحت جلابيته ينتظر الشباب الحليين الذين يمارسون هواية المشي أو القراءة بمحاذات السكة، وحال تقربهم إلى منطقته، يعضّ سبابة يده اليسرى بقوة، يدفعه الألم الناتج عن العض تنفيذ هجوم مباغت على القادم بعصاه، نتيجه ضربة على ظهر الشابّ المقابل إن لم ينجح في التقهقر، وفي حال نجاحه جرياً سريعاً، يتبعه حمزة ركضاً إلى حدود المدينة، ليعود منها كذلك ركضاً، يغمره الشعور بالانتصار حتى حدود القنطرة خطّ دفاعه الأوّل.

تجربة في التجارة

حالت العطلة الصيفية، فجرى التركيز بدايتها على تسويق حاصل البستان إلى العلوة، كان الوقت المستغرق ساعة في الذهاب، ومثله في العودة على ظهر الفرس، وأكثر قليلاً بالنسبة إلى زميلها الحمار، في إحداها صادف منتصف شهر تموز، كان يوماً حارّاً، دفعني إلى التوقّف أمام بائع ثلج قرب الجسر الجديد، لشراء نصف قالب ثلج هدية إلى العائلة بمناسبة بيع الحاصل

بسعر عالٍ، أملاً في التمتع بشرب الماء البارد في ذاك الصيف القائن، وصل من النصف نصفه سالمًا، وضعت الوالدة في إناء، سكبت عليه ماءً، ورّعت منه على الجيران لكسب الثواب، وفي جلسة المساء سأل موسى الكاظم بعد تقديمه الشكر على شربة ماء بارد، لِمَ لا نشرب الماء باردًا هكذا مثل أهل المدينة، سؤال نوقش في اليوم التالي مع علي، وتحول إلى مشروع تجاري لبيع الثلج في محيط القرية، بالاستفادة من الفرس والحمار، بدأ المشروع بقالبين اشتريناها أثناء العودة من بيع الحاصل، وضعناهما في كَفَتَي السابل لأغراض التعادل، وذرناهما بأكياس الجفاف، عرضناهما حال الوصول على طاولة خشبية عتيقة جوار الباب الرئيسة لبیت علي عند ناصية الشارع، بيعا بعد دقائق من عرضهما، فزاد العرض إلى أربعة في اليوم الذي تلاه.

كانت المشكلة في الفاقد من حجم القالب بسبب ذوبان كتلته لطول المسافة، والوقت الذي تستغرقه الفرس خبيثًا برغم الدثار، في الأسبوع الثاني توجّهنا إلى عبد النبي صاحب المحلّ الخاصّ بتجارة العجلات الهوائية، والاتّفاق معه على شراء درّاجة هوائية خاصّة بالنقل الخفيف، لها سلة في المقدّمة تُسمى (بايسكل أبو السلة)، دُفِعَ من سعره الربع (خمسة دنانير)، والباقي خمسة عشر دينارًا تمّ تسديدها على دفعات، فتوسّع العمل عند دخولها الخدمة، وزاد الطلب، وصار الشراء من صاحب المعمل (أبو زاهر) مباشرة، نقلتين في اليوم لعشرة قوالب، تبدأ الأولى ذهابًا قبل شروق الشمس، وتُعاد الثانية قبل الظهر، ومع هذا لم تفِ النقلتان الحاجة المتزايدة على الطلب، قال علي: أتذكّر عربة متروكة في منطقة البازول تعود إلى العمّ كريم شهاب، تنقصها إطارات، دعنا نطلبها منه على سبيل الإعارة.

كان العم كريم جالسًا وقت العصر على كرسي من سعف النخيل أمام البيت، استجاب إلى الطلب من دون نقاش، بل وبارك المشروع، قائلاً: أصلحوها فهي لكم.

كانت نواقصها إطارات وانايب، تأمنت بعد يوم، وبعد تأمينها بيوم رُبطت الفرس، بين عموديهما، وسرنا تجاه القرية، عربة جاهزة لنقل عشرين قالبًا للمرة الواحدة، بارك الخطوة صاحب المعمل، وأكد على ضرورة التخزين السليم لتفادي فقدان، فالصيف حارّ، وأعطى أوصافًا لمخزن مغلف من الداخل بمعدن، أتقن صنعه توفيق نجار القرية، ثمّ وضعه في الشارع جوار البيت، قدّم وجوده فكرة الاستثمار الإضافي، لبيع المشروبات الغازية، ومن ثمّ إيصال الطلبات إلى البيوت بالاستفادة من الدراجة الهوائية التي انتفت الحاجة إليها في النقل من المعمل إلى المخزن وسط القرية.

انتهت العطلة الصيفية لسنة الدراسة المتوسطة الأولى، وكان صافي الربح خمسين دينارًا، كان في ذلك الوقت ثروة، فتحت الآفاق الطفولية إلى كسب المزيد، وزيادة حجم الثروة، فأضيفت إلى تجارة الثلج التي توقفت شتاءً، تجارة النفط، وأضيفت لها لعبة المنضدة لقاء خمسة فلوس لشوطين يدفعها الخاسر، بعد نصب طاولتها التي عملها توفيق على ناصية الشارع أيضًا.

هكذا سار الأمر على ما يرام في العطلة الصيفية الثانية، وقريبًا من نهايتها، اخترمت فكرة شراء سيارة حمل نصف طن، من تلك المعروضة، في معرض زجاجي بعمارة مرجان قريبًا من الجسر الجديد، قال صاحب المعرض لا يمكن بيعها لأسباب تتعلق بالعمر الذي مازال دون السن القانوني، نصح بإيجاد شخص قريب لتسجيلها وقيادتها، عندها عُرض الأمر على الأبوين، لتقديم المساعدة، استمعا للجدوى الاقتصادية، تحمّسا إلى

الفكرة، باتا قريبين بالتدريج من إدارة المشروع "البسيط"، ثم توجّها إلى التدخل في العمل والأسعار ووقت الذهاب والعودة وطريقة العرض، واختلفا في الاجتهاد، ثم راحا يتكلّمان في المجالس والمقهى عن نفع الفكرة، وربما يتفاخران، فمهدوا إلى دخول منافسين في سوق القرية "البسيط" الذي لا يتحمّل المنافسة، كان أوّل المنافسين وأقواهم (مالك الاشكح) الذي اتّفق مع معمل لتوريد الثلج إلى القرية بسيّارته الخاصّة، وبما يفوق حاجتها، فتطلّب خفض الأسعار حدّ المستوى الذي أصبح فيه السعر عديم الجدوى، وتطلّب في نهاية المطاف إيقاف المشروع وفرض الشراكة، (لقد انتهى المشروع بسبب التدخل، عند تذكره بعقلية الحاضر والتطور الزمني، يمكن القول إنّّه كان ناجحاً، وربما قابلاً للتطوير، لكنّه من جهة أخرى وعند النظر إليه من الزوايا الشخصية، يسهل القول إنّّي، وعلى الرغم من البداية المبكرة للعمل في التجارة، فإنّ طبيعتي لا تتوافق مع التجارة، ولا أصلح للعمل التجاري، واستمرّيت في المجال الأكاديمي والبحث والكتابة إلى آخر المشوار، على العكس من علي الذي انتهى به المطاف عاملاً في تجارة التحف والسجاد بعد خوضه تجربة العسكرية ضابطاً في الجيش، ومن ثمّ موظّفاً مدنيّاً في وزارة النقل، ومتقاعدًا بوقت مبكر).

نقطة التحول الأولى

انفضّت الشراكة، وصار التوجّه إلى الدراسة مضاعفًا، كان الخروج إلى الدراسة في تلك الأيام التي سبقت وصول الكهرباء حدود القرية، في الغالب، مشياً في الطرقات لأغراض القراءة، تعود بعضهم الشروع مبكّرًا قبل طلوع الشمس، كان يوم جمعة، وكانت المادّة المنوي مراجعتها هي التاريخ، ثمّ فتح صفحاته

الأولى، لحظة الخروج من البيت عن طريق بستان الرهيمية، فأخذت القدمان وحيدها إلى باب السور، ومنها إلى التلال المجاورة حتى الإمام عمران ابن علي، تمّ الوقوف على التلّ الأسود المجاور لمقامه، بغية استرجاع محتوى الوريقات التي انتهت مراجعتها، فأعطت الحصىلة الجيدة دفعة للسير قُدماً إلى الأمام، بين تلال أخرى ومنخفضات توصل إلى المدينة الأثرية بابل، بانّت وسطها بؤابة عشتار، تستحق التأمل والرجوع بها تاريخياً إلى تلك الحضارة البابلية العظيمة قبل آلاف السنين، لم تكن النية واردة في تلك اللحظات تبادل النظر مع الزوّار، ولا التركيز على الأجانب الذين يتوافدون على المدينة إعجاباً بحضارتها، لكنّ عائلة أوقفت سيارتها الأوبل الحديثة جانباً، أثار شكل السيارة انتباهاً ملحوظاً، لملم تركيز الحواسّ الخمسة من حولها، ترجّل السائق شاباً بعمر الثلاثين، أسمر حنطي، يُحسبُ طويل القامة، ذا جسم رياضي، وهندام حسن، انتقل إلى الجهة الثانية لسيارته النظيفة، فتح بابها، ترجّلت شابة في مقتبل العمر، بشرتها بيضاء صافية، وعينان عسلّيتان، شعرها أسود فاحم، قصّته القصيرة أظهرت جزءاً من رقبتها الطويلة، ترتدي سروالاً أبيض، وقميصاً بنفسجي اللون يُظهر قليلاً من الصدر، تحرّك الشاب من بعدها خطوتين إلى جهة اليمين، فتح الباب الخلفي، أنزل طفلة لا يزيد عمرها عن أربع سنوات، شقراء الشعر، تعتمر قبعة من القش، وسروالاً قصيراً أحمر اللون، وقميصاً أبيض من دون أكمام، مسكها بثقة من إصبع يدها الشمال، ومسكتها الوالدة من إصبع آخر في جهة اليمين، ساروا الثلاثة معاً تجاه الباب، فشارع الموكب، قطعاه مشياً حتى الجنائن المعلّقة، ولما تعثرت في مشيتها حملها على كتفه، مسكت شعر رأسه، راحت تعبّت به من دون انتظام.

كان المنظر لساكن القرية مبهراً، شتّت الانتباه، وأضعف القدرة على التركيز في مادّة الكتاب، تسببت في غلقه، واستبدال المراجعة طوال رحلة العودة، باجترار أفكار عن دوافع هذا الاهتمام بمشهد عائلة بغدادية، ولمّا لم يظهر التفسير المقنع، راحت المقارنة بين العائلة الحضرية، وبين عوائل القرية التقليدية، واستمرّت أفكاراً عن الشباب والمستقبل، وعن الأجيال التي أكمل أصحابها دراستهم في دور المعلمين، واستقرّوا في عيشهم داخل أسوار القرية عيشاً لا يختلف كثيراً عن الآباء، وعند عتبة الباب، حصلت القناعة كاملة، باختلاف سبل العيش بين المدينة والقرية، وبفارق التمتع في مثيرات الحياة، والتيقن أنّ الطريق الذي كان محدّداً في خطط الدراسة مختصراً، تجاه دار المعلمين الابتدائية، لضمان الحصول على وظيفة معلّم، تُبقي صاحبها داخل الأسوار الاجتماعية للقرية، لا تحقّق تطلّعات الذات، حالاً يشبه حال هذه العائلة التي أضحت مثلاً وقدوة، وإن لم يتمّ التعرّف إلّا على مظهرها الخارجي، كانت تلك اللحظة فارقة في مسيرة الحياة، منها اتّخذت قرار الاستمرار في الدراسة الثانوية، وإلغاء فكرة المعلّم إلى الأبد.

الاقتراب من سوخ السياسة

لم تعد الذاكرة قادرة على استرجاع الأسباب التي دفعت للذهاب إلى مركز الحلة على الدراجة الهوائية الخضراء، يوم الجمعة الثامن من شباط (1963)، لكنّها احتفظت بلقطات المشهد الذي تكوّن بعد العودة، بأن فيه اختلال الهدوء الذي ميّز الحياة الاجتماعية للقرية، وتحرك الكبار من الشباب والمسنّين في الشارع قلقاً، وتجمهر أطفال حول الجالسين على أرائك مقهى (لطيف)، بطريقة تشبه ذلك التجمهر الذي حصل صباح الرابع

عشر من تموز (1958) في مقهى (على الله)، كانوا جميعاً ينصتون إلى مذياع يبث بيانات تصدر تبعاً عن مجلس لقيادة الثورة، ينعت الزعيم بالأرعن.

ركنتُ الدراجة في مكانها التقليدي جوار الغرفة في البيت، تمهيداً للعودة إلى الشارع، ومنه إلى المقهى حيث النقاش الجاري عن الثورة، والرئيس عبد السلام، كان أكثر الأصوات وضوحاً صوت علي حسون، يروّجُ لها، يتأمل نجاحها سبيلاً للتخلص من الطغاة، وهكذا استمرّ النقاش حتى اقترب من الصدام مع عبد الأمير علوان الذي عدّها انحرافاً عن المسيرة، وبداية التصدّع في النظام الجمهوري، لكنّ آخرين تدخلوا، منهم العمّ علي، لفضّ الخلاف، وعادت الأذان تصغي إلى البيانات، وبرقيات التأييد وأسماء يتوالى ذكرها لقادة الثورة، بينهم أحمد حسن البكر وعلي صالح السعدي وصالح مهدي عماش وحميد خلخال، أعاد توالي ذكرهم الجدل بين مرّحب ومعارض، انتصب عبد الأمير علوان في الوسط ليقترح، بل ليحثّ على حمل السلاح وقوفاً مع الزعيم، وراح أكثر من ذلك، حدّ الإجهار بالمطالبة لتوزيع السلاح على الشعب لمقاتلة الشوفيين على حدّ زعمه، ردّ غازي محسن بهدوئه المعروف أنّه واثق من نجاح الثورة، قال لقد فات الأوان، فالثورة نجحت، وستوحد الأمة العربية من المحيط إلى الخليج، هكذا استمرّ الجدل مشحوناً بانفعالات العداء رفضاً، وتأييداً لما تبقى من اليوم إلى ما بعد انتصاف الليل، ليعود في اليوم الثاني أخفّ حدّة بعد التيقّن من انتهاء القتال في وزارة الدفاع، وإعلان استسلام الزعيم ومحاكمته في دار الإذاعة، ومن ثمّ إعدامه، تواری لحظتها عبد الأمير وباقي الشيوعيين عن الأنظار، وجلس غازي وعلي حسون وإبراهيم محسن وصالح عزيز، وآخرون من البعثيين في الصدارة، يُنظّرون عن سبل بعث الأمة من جديد، وبعد المغيب انفضّ الجمع، وبدأ سيل من الصور تظهر

تباعاً في الربوع لعبد السلام، وتختفي في المقابل صور الزعيم،
لقد اختفت صورته بسرعة على الرغم من كثرتها، كأنها لم تكن
موجودة في الأصل.

.....

حضر إبراهيم بعد إعلان الاستسلام واستتباب الوضع في
الأرجاء، ومعه علي حسون المسؤول الأعلى مرتبة، قال ستنشغل
الثورة حرساً قومياً، سيكون لنا الفخر بالانتماء إليه، وبعد عدة
أيام من ذلك اليوم حضرا تجمعا لعموم المسجلين في صفوف
الحرس من أهل القرية عقد داخل المدرسة الابتدائية عمران،
ورّعوا علينا المسجلين بدل عروضات عسكرية (قطعة واحدة)،
لُبست في الحال فوق الجلابيات التي تلبس تقليدياً، شعر من لبسها
بنشوة القوة، كأنه امتلاك مفاتيح العسكرية، أو إنه جنرال قاد جيشاً
ربح المعركة الآن، أبلغوا الحاضرين أمراً بالتواجد صباح الغد
في نقطة التفتيش التي فتحت على طريق حلة - بغداد، عند
مكبس التمر، للمساهمة في حماية الثورة، نقطة يمثل موقعها
آنذاك الحدود القصوى لمركز مدينة الحلة قريباً من مستشفى
مرجان.

لقد وقع إقامة النقطة وإدارتها على عاتق أبناء القرية
والمناطق القريبة منها، مهامها الحماية الافتراضية لأمن الثورة،
بعدد من المنتسبين اقترب من الثلاثين، بينهم انتهازيون، نُسب
عليهم صاحب محسن (الطالب في دار المعلمين الابتدائية)، أمراً،
أشار إلى أهم واجب لها، وهو تفتيش السيارات بالمشاركة مع
الانضباط العسكري، مرّ أسبوع على بداية المشاركة في النقطة،
كان التواجد خلاله وتنفيذ واجبات الخفارة من دون سلاح، في
آخر أيام ذلك الأسبوع حضر أنور عبد الهادي والسيد حسوني،
مع صاحب محسن، يستقلون سيارة نصف نقل عائدة إلى مكبس
التمر، سائقها علي الملقب (علي مكبس) كان قد سخرها من

عنده لخدمة الحرس القومي والحزب، (لم يكن علي الأول في تسخير سيارة الدولة وممتلكاتها العامّة للصالح الخاصّ، إذ بان، وفي تلك الحركة على وجه الخصوص، اضطراب معايير الوظيفة والالتزام القيمي، وبادر بسببها سائق هنا، ومدير هناك باستغلال ممتلكات وأدوات الدولة العامّة للصالح الحزبي والشخصي الخاصّ، بدعوى مصلحة الدولة التي يديرها الحزب، من هذا الخلط، ومن هذه الحركة، بدأ التوجّه في استغلال الجهد الحكومي لصالح الحزب الحاكم، حتى صار سياساً مألوفاً أسهم في إحداث شرخ في النظام القيمي والضبطي الحكومي، استمرّ إلى الآن عام (2023).

أنزل علي، وبمساعدة الشباب، بنادق إنجليزية ومسدّسات من على سيارته، ورّعها على قسم من المنتسبين، كانت الحصّة مسدّساً قديماً نوع (وييلي)، ومنذ لحظة استلامه، وطوال أسبوع، بات مستقرّاً بشكل ظاهر بين حزام جلد موروث عن الأب، والجلابية (في أوقات الاستراحة)، وقد أضاف إلى الأنا المراهقة قوّة واعتزازاً غير معهودين، ربّما كان إظهاره بتلك الطريقة الاستعراضية في ذاك العمر مقصوداً، كعلامة لامتلاك السلطة، ورغبة في إراءة الآخرين معالم القوة في الشخصية الريفية التي تعتزّ بالقوّة. قوّة أُضيفت إلى معايير القوّة الشبابية الغريزة، واكتمال معالم الشخصية، موضوع يصعب تفسيره الآن لمرحلة عمرية مرّ عليها أكثر من ستين عاماً، الباقي من ذكراها إشارات عن استقرار ذاك المسدس ثقيل الوزن في الجيب الجانبي للجلابية، واستقرار اليد اليمنى من حوله تتحسّسه طوال رحلة العودة مشياً من النقطة إلى القرية، كأنّه الشيء الأثمن، وعن قطع الشارع ذهاباً وإياباً لمرّتين، كأن هناك رغبة عارمة في النفس لتعريف الجميع بوجود المسدس، سلوك استعراضي مثير عند تذكّره بعد كلّ هذه السنين، يبدو أنّه مقتصر على سني

المراهقة، لا يتوافق مع طبيعة الشخصية بعد نضجها، حيث الابتعاد تمامًا عن طقوس حمل المسدس، أو أيّ سلاح طوال مدّة الخدمة العسكرية، وما بعدها.

عاد صاحب من المقرّ الرئيس للحرس الكائن في محلة (كريطعة)¹²، قال عن غدارة يحملها نوع بور سعيد، قد وصلت العراق مساعدات مصرية لدعم الثورة، استمرّ يلعب بأقسامها، سقطت من يده على الأرض فانطلق الرصاص من فوهتها من دون انتظام، حمد الموجودين الربّ على نجاتهم، كان صاحب غير مدرّب على هذا السلاح، وكذلك باقي المنتسبين، هم جميعاً غير مدرّبين على أيّ سلاح، كأنّ الحرس يفترض في حينها، من يستلم سلاحاً أن يعرف استخدامه، أو أنّه يريد حشد أكبر عدد من حاملي السلاح لغايات يصعب إدراكها من القواعد آنذاك، وعموماً لم يتدرّب الحرس تدريباً عسكرياً، ولم يتدرّبوا على التعامل مع راكبي السيارات الذين يفتشونهم في الليل والنهار، يعتمدون على الاجتهاد، وعلى طبائعهم في التعامل مع المارّة والسيارات، وهم في الغالب شباب مراهقون، لا يصلحون لتطبيق فرض السلطة، وتنفيذ مهامّ التفتيش، أحد أوجهها التحسّية غير

¹². مقر الحرس ببيت كان مملوكاً للسيد أنور الجوهر، استولت عليه الدولة في مشاريعها للتأميم، وأنور ابن محمد حسن الجوهر (1921 - 1986) من شخصيات الحلة المعروفة، خريج كلية الحقوق (1946) لم يعمل في المحاماة، بل امتنّ التجارة فاتقن فنونها، ذكي، مثابر، زواج بين التجارة والصناعة، فأجاد عمله فيهما، له الفضل في تأسيس غرفة تجارة الحلة وبعض المشاريع الصناعية مثل مكبس التمور، ومعمل الفرات للمشروبات الغازية (الكوكا كولا)، والمجرشة، انتخب نائباً عن الحلة في العهد الملكي، نمت أعماله سريعاً حتى بات نهاية الأربعينات من ملاك الأراضي والمشاريع الصناعية، صنّفته حكومة الزعيم إقطاعياً رجعيّاً فصادرت أرضه، وأمّمت مشاريعه، فانتقل للعيش في بغداد، خسرت مدينة الحلة، عمل طوال زمن الزعيم بالضدّ منه، وذلك بتشجيعه ودعمه المادّي لإقامة احتفاليات بمواليد الأئمة التي توحى في العلن أنّها شعائر دينية شيعية، لكن واقعها الخفي، مساع للحط من الزعيم وتشويه سمعة حكمه.

النافعة، كان أولئك الشباب يستعرضون ذواتهم، يكملون نواقص في داخلهم للسيطرة على الآخر، يطلق أحدهم من مسدسه إطلاقاً على السيارة التي لم يمثل صاحبها إلى أوامره في الوقوف، يتعمد بعضهم عدم الوقوف، ولم ينتبه بعضهم الآخر لإشارة الوقوف.

مرّت سيارة باص، سائقها علي حسون شلاش (علي الناعورة)، شاعر شعبي من أبناء القرية، يعرف النقطة تابعة إلى القرية، مسؤوليها من أهل القرية، وكان مالك أشكج كذلك من أهل القرية، أكبر الموجودين عمراً في هذه النقطة، خفيراً واقعاً مع الانضباط العسكري، لم يمثل علي لإشارته في التوقف الحتمي، سحب مالك مسدسه، وأطلق عدّة عيارات على السيارة، أصاب بدنها، توقّف عندها علي، سوّغ عدم وقوفه الثقة المفرطة بأهل القرية، نهره مالك لخرقه القوانين والتجاوز على النقطة، مفسّراً عدم الامتثال، قصداً بالصدّ منه شخصياً.

وفاضل كريم الأكثر التزاماً وتطبيقاً للقوانين، أطلق من بندقيته إطلاقاً على سيارة لم تتوقّف، جرحت شخصاً من أهالي قرية الطهمازية، طالبوه بدفع الفصل بعد أفول نجم الحرس، وتغيّر النظام بعد حركة (18) تشرين، حوادث تشير إلى أنّ سلوك منتسبي الحرس بالمستويات الدنيا كان فوضوياً أقرب إلى الميليشيا الحزبية، وفي المستويات العليا مضطرباً، لا يرقى إلى الهدف الذي وضعه الحزب لتأسيسه قوّة تنافس الجيش، تحمي الحزب وحركته من احتمالات تدخّل العسكر، وكانت قياداته مراقبة سياسية لها طموحات لفرض سلطتها على باقي السلطات الضابطة، إذ كانت لها خطط لمنح قاداته رتباً عسكرية، تمهيداً لتطويره تشكياً عسكرياً يتفوّق على الجيش، (حضر صالح عزيز مساء أحد الأيام لتفتيش النقطة بعد تنسيبه معاوناً لأمر الحرس في الحلة، قال إنّه لم يبق في المنصب طويلاً سيلتحق،

وبعض الرفاق من القيادة والقواطع لدخول دورة عسكرية في
كلية الضباط الاحتياط، يمنحون بعدها رتبة "نواب ضباط"
(حربيين).

ومن تلك المواقف والأحداث الأخرى، إنزال عوائل من بين
الركاب، أو التركيز في التفتيش على سيارات ركابها بنات
شابات، صار المنتسبون المراهقون يشعرون بالزهو والقوة
المفرطة، وصار الناس يشكون تصرفات المنتسبين، أما الكبار
منهم في العمر والمسؤولين، فكانوا يتواجدون في مقر الحرس
على نهر الحلة، ينقذون مهام أخرى، بينها إلقاء القبض على
المطلوبين، خاصة الشيوعيين، والتحقيق معهم في سرداب الدار،
بطريقة لا تخلو من إسقاطات الشعور بالقوة، فأسهموا بتصرفاتهم
وأولئك المراهقين في تكوين صورة سلبية عن الحرس القومي،
لا تختلف كثيراً عن تلك التي تكونت عن المقاومة الشعبية إبان
حكم الزعيم.. تجربة في حال وضعها إلى جانب تجربة أعقتها
عام (1968) لإنشاء سلطة عسكرية مشابهة للجيش الشعبي،
وأخرى سبقتها (المقاومة الشعبية)، يتبين أنها من أكثر التجارب
فشلاً وإثارة للصد من الدولة، تجارب أريد لها أن تكون قوات
لحماية الحكم من أهل البلاد، وبدلاً من أن تبني نفسها لتأمين
الحماية دخلت جميعها في صراع مصالح مع القوات المسلحة،
دفعت الحكومات التي شكّلتها الانحياز إليها على حساب القوات
المسلحة، وأضافت بوجودها سلطة أمنية إلى السلطات المتعددة،
وهي سلطة كونها حديثة وفوقية، قليلة الضبط وغير مدربة، لم
يلتزم منتسبوها بالقوانين والضوابط، وغالوا في القسوة بالتعامل
مع خصوم أحزابهم، الأمر الذي أكثروا فيه من الأخطاء، وأثّروا
سلباً على إدارة العملية الأمنية في البلاد.

تجربة عمل شعبي

قبل انتهاء السنة الدراسية للرابع الثانوي، وفي آخر يوم امتحان، أبلغ مسؤول الاتحاد الوطني لطلبة العراق في ثانوية الحلة الحكم حسن علي¹³، ضرورة التهيؤ يوم السبت القادم أول أيام العطلة الصيفية، للمشاركة في حملة العمل الشعبي، فعالية طلابية، قال إنها ستكون في بغداد أولاً، وسيجري تعميمها إلى باقي المدن في عموم العراق، أكمل من جانبه التنسيق مع مسؤولين في مدينة الحلة، لتأمين سيارات حكومية تنقل جموع الطلاب المشاركة إلى المكان المطلوب، توقّف رتل سيارات الحلة عند الواجهة الشمالية للقسم الداخلي الخاص بطلبة جامعة بغداد في الباب المعظم، وتوقّفت عند المكان سيارات أخرى من مدن أخرى، حتى اكتظّ سكن الطلبة في عطلتهم الصيفية بالشباب المشاركين في العمل تبرّعاً، كان غالب المتبرّعين قد أتوا عن طريق الأوامر الحزبية الطلابية التي صدرت بصيغة تقترب من الأوامر العسكرية، واجبة التنفيذ، ورّع المتبرعون على قاعات المنام حسب المدن، أقيمت في المساء ندوة طلابية حضرها الجميع، أدارها شابّ ثلاثيني أنيق، قيل عنه غضنفر مسؤول في القيادة العليا للاتحاد الوطني لطلبة العراق، ألقى كلمة أشاد بالتجربة التي ستبني العراق، أشار بأن البدء سيكون في الغد، تمام الساعة الثامنة صباحاً موعداً محدّداً للتحرك، حضرت السيارات في موعدها، صعد الشباب يتضاحكون، فرحين

¹³ الحكم من مواليد تكريت، والده يعمل قاضيًا في الحلة التي سكنها طيلة سنوات خدمته، قبل للدراسة في كلية القوة الجوية، وتخرّج طياراً، وفي الحرب العراقية الإيرانية صار مديراً (قائدًا) لطيران الجيش، برتبة فريق ركن، بعدها نُسب محافظاً لبابل، شخصية مرحّة، لديه علاقات واسعة، ترك العراق بعد (2003) ليبقى متنقلاً بين ماليزيا والأردن والسويد، حيث يقيم الأولاد، الى أن توفي في المهجر.

بالتجربة، وبالمشاهد البغدادية، يغثون ويهتفون طول الطريق إلى مدينة الرشاد شرق بغداد، مشروع مكمل لمستشفى الأمراض العقلية.

شرع بعضهم في حفر الأسس لبنايات ملحقة، وراح القسم الآخر لنقل الطابوق ومواد الإنشاء حتى حلول العصر، عادوا جميعاً إلى القسم الداخلي منهكين، طُلب منهم حضور ندوات، لشخصيات جاءت مقتنعة بتأثير الأفكار الثورية على السلوك، واستثارة الهمم، وإعلاء شأن تجربة عدّوها فريدة، هكذا كان واقع الحال لأسبوع من الزمان، تخلّته فرص صحبة للتجوال في المحالّ البغدادية القريبة من الباب المعظم، سجّلت العقول خلالها انبهاراً ببغداد وشوارعها النظيفة وما فيها من نظام، ودّع غضنفر جموع المشاركين نهاية الأسبوع، تمّنّى تكرار التجربة في أماكن أخرى من عراق سيّبنى بسواعد الرجال، قال علي بعد انتهاء كلمة المسؤول: هذه آخر مشاركة لي، لن أكرّرها ثانية، وكانت هي المشاركة الأخيرة، بل والتجربة الأخيرة بعد أن دبّ الخلاف شديداً بين القيادات الشابة للحكومة البعثية، وهي في شهرها العاشر، كانت تلك القيادات لا تمتلك خبرة في الإدارة، والسياسة والتحليل، ولم تتحلّ بمعايير التوافق الحزبي والانسجام، كان من بينهم صقور بأنياب، مقابل حمائم لم يكتمل ريش أجنحتها، وبينهم مدنيون منفتحون بمواجهة عسكريين متشدّدين.

أقول نجم الحرس

لم يكن الجيش مرتاحاً لوجود الحرس القومي، صار نتيجة الاطّلاع على الخطأ، والمخالفة ناقداً لتصرّفات منتسبيه،

معتزلاً عليها في جميع الأحوال، وكان بعضهم من منتسبي الحرس يتصرفون بحماقة مع العسكريين. أوقفَ محمد في نقطة المكبس سيارة أجرة صغيرة بقصد تفتيشها، طلب الهوية من ضابط يرتدي رتبته العسكرية ملازمًا، ردّه الضابط بغضب: ألم ترَ الرتبة العسكرية؟! أجابه بسداجة: وإذا ضابط.

عند هذه الحادثة، ومثلها العشرات، وتوجّهات الحرس الكيفي، وتنفيذ أوامر التوقيف والاعتقال والتحقيق من دون أوامر قضائية، سلوك تطوّرت معالمه سلبيًا، أوصلت الطرفين إلى حافات الاحتكاك المنقّر، صار العسكريون يتحسّسون من وجود الحرس في نقاط التفتيش، وصار منتسبو الحرس يتحسّسون من وجود العسكريين في الشارع، واتّجه المنتسبون لكلا الطرفين للالتفاف حول مراجعهم ضباطًا من الجيش، وأمّرين من الحرس، لمجرد الوقوع في موقف خلاف، وأيديهم جميعًا قريبة من الزناد.

في حادثة محمد والملازم في نقطة المكبس، اندفع منتسبو الحرس لمؤازرة محمد من دون تفهّم الموضوع، ومعرفة القيم العسكرية والأخلاقية، واندفع منتسبو الانضباط للوقوف مع الضابط من دون نقاش، على إثرها حضر في المساء أمر كتيبة الهندسة العسكرية التي تأخذ من معسكر الحلة ثكنة لها مع صالح عزيز معاون أمر الحرس، اتّفقا على تسوية الموضوع، ولملّمة الجراح التي لم تلتئم في باقي مناطق العراق، خاصّة في بغداد التي ثخنت فيها الجراح، ليس بسبب الخلاف مع الجيش، بل وكذلك مع الأهالي المتضرّرين.

بدأ الضرر من الأيام الأولى لتشكيل الحرس، في تلك الأيام وصل لطيف خليل القريب إلى العائلة والعشيرة، منطقة البازول، هاربًا من محاولات الحرس القومي لاعتقاله شيعيًا، كان لطيف

طالبًا في الثانوية، يسكن مع والدته وشقيقه في منطقة علاوي الحلة قريباً من سينما بغداد، داهم الحرس القومي بيتهم، لم يتمكّنوا منه، إذ هرب من على السطح الملاصق لسلسلة البيوت القديمة، وصل منطقة البازول بعد ساعات على درّاجة بخارية، بمعية شقيقه النائب ضابط خيرى، محتمياً بواقع خواله المعروف بعضهم باتجاهاتهم البعثية، حكى عن قصص تعذيب، وقتل عمدي ارتكبتها الحرس قائلًا، لقد تسبّب الحرس في قتل آلاف الشيوعيين، كان يستدعي بعضهم، خاصّة القياديين، يعمل على تصفيتهم في مقرّاته، قُتل أمينهم العام سلام عادل (حسين أحمد الرضي) تعذيباً، وعن مقتله قال لطيف: لقد أُعتقل يوم 19 شباط، وُضع في قصر النهاية، تعرّض إلى تعذيب شديد على يد أفراد من الحرس حتى تشوّه جسده، ولم يعد من السهل التعرّف عليه، وفُتّنت عيناه، ونُقبت أذناه، وقُطعت يداه، وكُسّرت عظامه، وقُتل معه آلاف الشيوعيين والعديد من قادة الحزب، منهم (محمد حسين أبو العيس وحسن عوينة وجمال الحيدري وجورج تلول)، وقال أيضاً إنّ المعتقلات التقليدية والسجون لم تعد تكفي لاستيعاب المزيد، ففتحت النوادي والصالات الرياضية، ودور السينما والملاعب الرياضية معتقلات إضافية، وشكّلت عديد من اللجان لأغراض التحقيق والتصفية، حاول وسطها الرئيس عبد السلام التدخّل، واستيعاب الحرس، ارتدى البدلة العسكرية الخاصّة بهم، نزل إلى شوارع بغداد، يؤدّي عملهم في تفتيش بعض السيارات، لكنّ محاولاته لم تنفع، فالحرس القومي بإمرة النقيب الطيّار منذر توفيق الوندائي، وآخرين من الصقور بقيادة علي صالح السعدي، الرجل الأكثر تطرّفًا في الحزب والحكومة آنذاك، دفعوا تجاه استقلال قرار الحرس عن الجيش، الذي تحدّد برئاسة أركانه الارتباط حسب المرسوم الجمهوري للتشكيل، ودفعوا أيضاً تجاه الانقلاب على رئيس الجمهورية عبد السلام،

وعلى بعض القيادات العليا لحزب البعث، وكان الخلاف يشتدّ مع الأيام والساعات، سيطرت في البداية مجموعة حازم جواد، فطردت وسفّرت مجموعة علي صالح السعدي¹⁴، لتظهر مجموعة أخرى بقيادة ميشيل عفلق الذي وصل بغداد، لتطرد حازم جواد وجماعته، هكذا عمّت الفوضى، وفقدت بغداد خمسة أيام حكومتها والأمن، أضحى الحزب خلالها مشغولاً بإعادة ترتيب بيواته الفرعية على حساب بيت العراق الكبير.

.....

في خضمّ الاختلاف توجّه منذر قائد الحرس صباح يوم الثالث عشر من تشرين إلى قاعدة الحبّانية الجوية، طار منها إلى بغداد بطائرة هوكر هنتر (Hawker Hunter)، ضرب أربعة طائرات ميغ (19) سوفيتية الصنع حديثة كانت تجثو قريباً من مدرجها في قاعدة الرشيد، ليحول دون تدخلها، ثم عاد للتخليق فوق القصر الجمهوري ليضربه، ضربة قيل جاءت في غرفة الرئيس الذي لم يكن موجوداً على كرسيه الرئاسي تلك اللحظات الحرجة، حصيلتها ارتباك وشلل، ومن جانبه استثمر عبد السلام صاحب الخبرة السابقة في تنفيذ الانقلابات تلك الفوضى والانشقاقات، واتفق على تنفيذ انقلاب على الجمهورية التي

14 . علي صالح السعدي أمين سر القيادة القطرية، جاء بعد أمينها العام ومؤسسه في العراق فؤاد الركابي الذي عزل من الأمانة، قاد الحزب في انقلابه على عبد الكريم قاسم عام (1963) وهو في السجن، من أصول كردية، ولد في محلة باب الشيخ ببغداد عام (1928)، انتمى الى الحزب عام (1953)، تخرّج في كلية التجارة ببغداد عام (1955)، شخصية متمردة، انفعالية حادة الطبع، جريئة، معتدة برأيها، مؤمنة بنظرية العنف الثوري لتحقيق الأهداف، من أشد المعارضين للزعيم، وأكثرهم عداوة للشيوعيين، حتى أشيع أنه وراء مجازر قتل ما يقارب (5000) من الشيوعيين بعد نجاح الحركة في 8 شباط عام (1963)، وهو في الجانب الآخر مرح، متواضع، صاحب نكتة، يتصرف بعفوية وبروح شعبية، تعرّض مراراً للاعتقال والسجن والنفي.

يرأسها، مع بعض قادة الحزب العسكريين الرافضين لأفعال الحرس على وجه الخصوص، أمثال أحمد حسن البكر وحردان عبد الغفار وآخرين.

لقد امتدّ الأثر السلبي للفوضى إلى قيادة الحرس في الحلة، كان المنتسبون يجلسون جلّ الوقت على كراسي وأحجار حول نقطة التفتيش، من دون عمل سوى النقاش عن المآل وبغداد وإشاعات تشلّ القدرات، والدخول في حالة إنذار هي الأشدّ (ج)، لموقف عدّ هو الأخطر، لم يُعط صاحب ولا غيره من القادمين لأغراض المراقبة والتفقد، إيضاحاً عن ماهية الخطورة، لكنّ معالمها كانت واضحة في تعابير الوجوه وفي ردود الأفعال، وفي التوجيهات الملحة بضرورة التمسك بالسلاح، وجاء يوم الثامن عشر من تشرين، اختاره عبد السلام لتنفيذ انقلابه، بدأ في صباحه إصدار البيانات عن حركة أسماها في البداية تصحيحية، وعمّدها بلفظ الثورة فيما بعد، بينما وصفها البعثيون بالردة، ركّز عبد السلام في بياناته والتصريحات والأخبار على الحرس القومي، واصفاً إيّاه باللاقومي، وفي الحلة، وفي نقطة المكبس ونقاط أخرى كان العقد كأنّه انفرط حال سماع البيانات المتوالية للانقلاب منذ الصباح، بدأ بعضهم يتسرّب إلى البيوت، وقلّ موجود الحضور إلى النصف، كأنّهم تبخّروا الواحد بعد الآخر، واجتهد الباقون للدفاع عنها حتى آخر المشوار، قال صاحب لنخلق الطريق، خشية تحرك القوات الآخذة من المحاويل معسكراً لها ومهاجمة النقطة في طريقها لاحتلال المدينة، أيّده المنتسبون الباقون من دون نقاش، شمّروا عن سواعدهم، بدأوا جمع جذوع نخيل متروكة وصخور، كأنّهم قد اقتنعوا، أو أقنعوا أنفسهم بإنشاء مانع دفاعي يحول دون تقدّم قوات الجيش.

وقف صاحب في وقت الظهر على حافة النقطة، نادى السائق علي بصوت مسموع، كي يجلب سيارته، وطلب منّا

ثلاثة آخرون الصعود إلى بدنّها، في الوقت الذي أخذ فيه مكانًا له الى جانب السائق، قال لنتوجّه إلى بدالة الحلّة، تمّ دخولها مع مجموعة أخرى من نقطة أخرى، باشرت المجموعتان في التتصّص، وإحكام المراقبة على المكالمات، خاصّة المتبادلة مع بغداد، حتى حلول المساء الذي تمّت بحلوله العودة إلى النقطة، أجرى تعدادًا للموجود، وجده قلّ عن النصف، ووجد الباقين الثابتين يضربون أخماسًا بأسداس، كردّ فعل للتضارب في الأوامر، وكثرة الاشاعات التي شلّت الحركة، إلّا من مشي في المكان والتحدّث عن الحال، والتجمهر حول المذياع عند تكرار البيان، كان صاحب مئزّنًا، ينتقل طوال المساء بين النقطة، وبين المقرّ القيادي للحرس، عاد من آخر جولة قريبًا من الساعة العاشرة مساءً، معلّنًا الانسحاب إلى المقرّ، أسوة بالقواطع الأخرى التي انسحبت من جميع المهامّ، وحال الوصول إلى المقرّ الأعلى وُجِدَ أنّه قد عجّ بالمنتسبين، مجموعة تجلس هنا، وأخرى تقف هناك، تجمعهم نقاشات وأحاديث عن الأخطاء، وانتقاد بعض معالم السلوك، وتقديم اقتراحات بين الحين والحين للهجوم على قوّات الانقلاب في بغداد وتدميرها.

.....

استمرّ الحال على ما هو عليه، فوضى في الأوامر والمقترحات، انقطاع الاتّصال مع مقرّ القيادة في بغداد، وبقاء المذياع وسيلة وحيدة للتعرّف على الموقف الذي تضاعف فيه الإخبار المتواترة مجال الحيرة، وتزيد الاضطراب، كان راديو بغداد يعيد إذاعة البيانات، وبرقيات التأييد لعبد السلام رئيس الجمهورية قائد الانقلاب، وإشارات إلقاء القبض على وزراء ومسؤولين، وحلّ الوزارة البعثية، وتعيين البكر نائبًا للرئيس، واللواء طاهر يحيى المحسوب على البعث رئيسًا للوزراء، واللواء الطيار الركن حردان عبد الغفار قائد القوة الجوية القيادي

البعثي وزيراً للدفاع، عندها التبست على قيادة الحزب والحرس في الحلة، الأمور، حتى حلول الساعة الواحدة من يوم التاسع عشر، حضر قائد الحرس عزيز الحسيني، ومعاوناه حبيب جاسم وصالح عزيز، كأنهم آمنوا بالأمر الواقع ونجاح الانقلاب، قال لقد انتهى كل شيء، على الجميع المغادرة إلى بيوتهم، والاستعداد للنضال من أجل إعادة سلطة الحزب المغتصبة من عبد السلام.

تجمّعنا، منتسبي النقطة المتبقين منها، في سيارة لاندروفر عسكرية، كانت تُستخدم في المقرّ، ركب علي حسون وصاحب في الحوض الأمامي، وصعدنا، الباقين، إلى بدنّها المغطّى بقماش (المشمع)، محتفظين بأسلحتنا، لم نسلّم أفراد النقطة أسلحتنا، رغبة في الاحتفاظ بها أملاً في المشاركة بالنضال ضد الانقلاب، كما كانوا يقولون، تحرّكت السيارة تجاه القرية، يخيم على وجوه ركبائها الاكتئاب، والعتب، وكذلك الصمت الحائر، وصلت في مشيها البطيء حافة المعسكر (حامية الحلة)، وقد تجاوز الوقت الساعة الواحدة والنصف صباحاً، ظهرت نقطة سيطرة أقامتها كتيبة الهندسة العسكرية التابعة إلى الفرقة الأولى، لم تكن في الحسبان، أوقفت السيارة، فزاد الاكتئاب على الوجوه، أصدر ضابط برتبة ملازم أوّل أمراً بالتوقّف، أعقبه أمر آخر بالترجّل وتسليم السلاح، ثم الوقوف بالنسق، أشار في الوقت ذاته إشارة لأحد جنوده بغية تفتيش السيارة، وجد الجندي عشر بنادق والمسدّس الوبلي، عندها أدار الضابط وجهه نحو صفّ الواقفين، تكلم ببعض كلمات فيها إهانة، وذمّ للحرس الذي تهادى في المخالفة والتمردّ على قوانين الدولة، طلب البقاء في حال الانتظار، سار جانباً عدّة أمتار، كأنّه يتّصل من جهاز لاسلكي، عاد من بعده حاملاً ورقة طلب تثبيت الأسماء ونوع السلاح الذي تمّ تسليمه، ومن ثمّ التوجّه إلى البيوت مشياً بعد مصادرة السيارة العسكرية.

توجَّهًا اختلطت، في طريقه مع أولى ساعات الصباح، المشاعر بين الحزن على مصير بان بئسًا، وبين نعمة النجاة من حتمية الاعتقال، وربَّما التحرَّر من قيود الارتباط بخيوط الحرس القومي التي لم تكن متينة، في تلك الليلة، وفي صباح اليوم التالي انتهت حقبة زمن، كانت فيها التناقضات على أشدها، وكانت فيها الآمال بالحياة الأفضل مجرد هراء.

لقد طرَّ فجر التاسع عشر في القرية خاليًا من سلطات الحزب، وأداته في السيطرة والكبت الفكري (الحرس القومي)، نادى عباس الجاسم لأذان الفجر، سأل الوالد عن مآل البدلة العسكرية للحرس، فتمَّ التأشير على مكان وجودها مركونة في إحدى زوايا البيت، أشار من مكانه إلى الوالدة لإيقاد التنور، رماها من دون نقاش، كأته حكم بإعدامها حرقًا، في منظر يثير الشعور بالإثم من إخفاء دليل خدمة حزبية شبه عسكرية تقلَّ عن السنة، لكنَّه ومن زاوية العيش كان الحرق إيذانًا بالعودة إلى الحياة الطبيعية.

أيام الانتظار الطوية

كان الانتظار بعد نجاح الانقلاب على حكم البعث منصبًا على ظهور القبول في الكلية العسكرية، التي تمَّ التقديم إليها من قبل من بوابة الحرس القومي، وإن لم تكن النية في الأصل التوجُّه إليها سبيلًا للعيش في حياة أفضل، ولم يكن في البال الخدمة في المؤسسة العسكرية أساسًا لبناء المستقبل، كان التفكير منصبًا على الجامعة ودراسة القانون بغية امتحان القضاء كأسبقية أولى، ولهذا الموضوع قصَّة بدأت عند استلامنا النتيجة ناجحين والمعدل في حدود السبعين بالمئة، وهذا كافٍ لدخول الجامعة، توجَّهنا إلى مكاتبها للتقديم مركزيًا، ومن ثمَّ الذهاب معًا إلى

موعد الفحص الطبي في مستوصف صحّة الطلاب القائم في الباب المعظم، كان يومًا مشمسًا، قطعت فيه المسافة مشيًا من علاوي الحلّة إلى الباب المعظم، للحفاظ على خزين مال لا يتحمّل أجرة إضافية على أجرة السيارة من الحلّة وإليها، أربعة دراهم للذهاب والعودة، كانت قاعة انتظار الفحص مكتظة، فيها بعض مصاطب للجلوس، من مكان الجلوس في الربع الأخير للقاعة شوهد طالب، يساير طبييًّا، دخل أوّلاً، وأكمل الفحص، خرج مستمتعًا يضحك، وشوهدت من بعده فتاة ذات شعر طويل، ووجه أسمر تماشي ضابطاً يبدو والدها برتبة عقيد، دخلت قبل غيرها، وخرجت تتلوى بغنج أنثوي تضحك، سألت خضير، وما زلنا جالسين في حال الانتظار:

- كم راتب والدك الشرطي؟
- خمسة عشر دينارًا.
- وكم عدد نفوس عائلتكم الإجمالي؟
- اثنا عشر فردًا.
- يعني نصيب الفرد الواحد في عائلتكم أكثر قليلاً من دينار واحد.

عاد خضير يسأل الأسئلة ذاتها، فكانت الإجابة:
دخل والدي أحد عشر دينارًا، يعني نصيب الفرد الواحد من عائلتنا أقلّ من دينار، وحاجة الطالب الجامعي من المصاريف الشهرية ستة دنائير، إيجار غرفة نوم مشاركة، ومثلها ستة على الأقلّ لأغراض العيش اليومي والملبس، وإن خصّص الوالد كلّ راتبه الشهري فلن يكفي، وسوف يحرم الثلاثة عشر فردًا من أفرادها سبل العيش الأوّلية، في تلك الجلسة على مصاطب المستوصف، تمّ التأكّد من عدم إمكانية تحقيق أهدافنا في الدراسة الجامعية، وعدم جدوى إجراء الفحص الطبي، قرّرنا التوقّف وعدم إكمالها، وإبقاء الحلّ انتظارًا محتومًا لنتيجة القبول في

الكّلية العسكرية، وان كان انتظارًا حسب الظنّ من دون جدوى، لأنّ التقديم قد تمّ عن طريق الحزب وحرسه القومي.. انتظارًا انعكس على المزاج سلبيًا بعد تكاثر الإشاعات عن ارتكاب أعمال خطأ من قبل الحزب وأفراد حرسه، ووقوف قيادته ندًا للجيش، وتجاوزهم على الضباط، واعتقال سياسيين وتعذيبهم، وغيرها تهّم كثرت وتضاعفت لفظيًا، حتى صار ذكر الاسم أقرب إلى الشتيمة، وصار وسيطاً مشكوكاً في جدواه للقبول في هذه الكّلية العسكرية، بسببها، وخشية التبعات من الانتماء إلى الحرس، ظهرت فكرة الذهاب إلى النجف، لمناقشة إمكانية الهرب من العراق مع خضير، في أوّل نقطة سيطرة خارج الحلة تجاه النجف أوقف السيارة الباص الخشبية جندي من الانضباط العسكري، نظر نظرة شكّ، وأعاد النظر ثانية، طلب ممّن كان منتسباً إلى الحرس القومي إظهار هويته، عند النظر إليه من قريب وهو يحدّق بالركّاب واحداً بعد الآخر، تبين أنّه حسين الذي خدم في نقطة تفتيش المكبس، سأل فيما إذا تمّ تسليم السلاح؟ كان الردّ إيجاباً، ومعه اندست اليد في جيب السترة الداخلي، أخرجت شهادة الثانوية التي جلبت سبيلاً للدراسة المستقبلية، عُرضت عليه كوثيقة تسليم السلاح، أخذها نظر بها، وفي الصورة، كأنّه يتأكّد، تأكّد حدسي أنّه كان أمّياً لا يقرأ، أعادها مع إشارة إلى السائق بالتحرك، تحرّك السائق، قال الرجل الجالس في الجوار بعد أن عرّف عن نفسه مدرّساً في المتوسطة المركزية: هل حقاً تمّ تسليم السلاح؟ فكانت الإجابة: لقد أخذ عنة من قبل الجيش، ردّ، وهو يبتسم: أرى لو يجري تركيز الشباب على مستقبلهم، فالبلاد بحاجة إلى عقول، وليس إلى مقاتلين، تمّ الاتفاق مع نصيحته بإيماءة خفيفة، وحديث عابر عن الحاضر والمستقبل الأفضل، حتى وقوف السيارة عند منطقة الإسكان في مدينة النجف حيث ينتظر خضير.

ليل النجف في الشتاء، برده قارص، يعطي الجلوس حول المدفأة النفطية علاء الدين متعة تأمل خصبة، وسعة خيال لا توصف، في آخره تمّ الاتفاق على الشروع في تنفيذ فكرة الهرب إلى سوريا، دولة جوار عربي يدير شأنها البعث، هرباً حزبياً غايته المقنعة للذات المراهقة إكمال الدراسة في الكلية العسكرية السورية، موضوعاً لو أُتيحت فرصة العودة إلى مناقشته بعقل ناضج بعد سنين، لأنتج سيلاً من الضحك، على افتراضات الدراسة وخيالات أصحابها، كأنهم قادة في الحزب، تؤهّلهم مراكزهم لفرض رغباتهم على فرع آخر للحزب فشل قادته في الحفاظ على وحدتهم والحكم، طُرحت الفكرة بعد هضمها في اليوم الثاني على والد خضر (عباس الجبر)، دليل الشرطة الهجّانة، ودوريات الجمارك في عموم الصحراء العراقية، ردّ آنذاك ردّاً يحمل أفكاراً وتأمّلات أبوية، وعدّ المساعدة والاصطحاب حتى الحدود عندما تكون له مهمّة في قاطع الصحراء الغربية، كأنّه وضع الحالمين على طاولة الانتظار، كثرت أعذاره والمواعيد، لأسبوعين متتاليين، ولمّا حلّ الثالث، عاود تكرار الأعذار ذاتها والمواعيد، وعاودت خيالات الهرب والدراسة تطفو على السطح الأعلى للذاكرة قبل المنام، لكنّها لم تدم طويلاً، إذ، في ظهيرة اليوم الأوّل من الأسبوع الرابع، كانت فيه الشمس الشتوية ممتعة، وكان الجلوس على سطح الدار لذيذاً، أوقف المذياع برامجه ليقدم إعلاناً صادراً عن الكلية العسكرية، تلا أسماء المرشّحين للقبول في دورتها الثالثة والأربعين، طلب من الذين تردّ أسماؤهم مراجعة مقرّها في الرستمية لإجراء المقابلة الشخصية، والفحوص البدنية.

لقد أوقفت قائمة الأسماء حديثاً عادياً كان جارياً، حوّلت التركيز تجاه متابعتها حسب الحروف الأبجدية، انتهت الحروف الأولى من هذه الأبجدية، تجاوز المذيع حرف الخاء، لم يكن

خضير وارداً، فزاد التركيز على حرف السين عند وصول
عتباته ذكر الاسم واضحاً، ومع هذا جرى ترقيب النشرة
الإخبارية اللاحقة، وانتظارها للتأكد من ذكر الاسم تماماً، كأني
لم أكن مصدقاً، أو إنَّ الدهشة قربتني من حوافّ عدم التصديق،
لكنّ معاودة ذكر الاسم في تلك النشرة اللاحقة أنهت الشكَّ بيقين
لا لبس فيه، وأوقفت سيل الخيالات وتأمل الهرب، ودفعت إلى
العودة السريعة للبيت في القرية، لبدء مشوار حياة أخرى من
نوع آخر.

الفصل الثالث

عبر فنطرة العسكر



رأس القنطرة

كان يوم أربعاء، أوّل أيام السنة المعلّمة بالعام (1964)، تَرَكْتُ في صباحه القرية تغفو على شاطئ نهر الحلة جوار بساتين النخيل، أخذتُ الطريق منها إلى الشارع الرابط ببغداد مشياً، مصحوباً بمحاولات السيطرة على أجزاء من الجسم ترتجف ذاتياً من شدّة البرد، بانتظار سيارة عابرة إلى بغداد، إلى كليتها العسكرية التي حدّد لها القدر أن تكون قاعدة مستقبل لحياة أفضل، لم يكن محسوباً في تلك الأجوبة الناقصة على السؤال التقليدي طوال الدراسة الابتدائية: ماذا تحبّ أن تكون في المستقبل؟

ولم تكن مهنة الضابط واردة في الحسابات العقلية لتلك الأيام، وإن تكلم عنها الوالد وجيله من القرية رواد مقهى (على الله)، بعدّها الأسمى بين المهن، وعن كليتها العسكرية مصنّعاً للأبطال، أسهمت في تخريج قادة، تركوا بصمة في تاريخ العراق، تلك التي تأسّست في الثاني عشر من آذار (1924)، بعد تأسيس الجيش بثلاث سنين، بضوء التوجّهات العسكرية البريطانية والخبرات المهنية العثمانية للضباط الأوائل، بدأت مدرسة عسكرية ملكية، أخذت لها مقراً في الثكنة الشمالية ببغداد، ولمّا تعرضت بغداد الى فيضان أغرق الثكنة عام (1926)، انتقلت إلى الكرادة الشرقية، ومن بعدها عام (1947) إلى ثكنتها الجديدة في الرستمية جنوب معسكر الرشيد، أوّل أمر لها المقدم جميل فهمي، وأوّل نظام حدّد الدراسة فيها ثلاث سنين صدر عام (1945)، تخرّج منها عدّة رؤساء جمهورية، ورؤساء وزارات مثل نور الدين محمود، ونجيب الربيعي، وعبد الكريم قاسم، وعبد السلام عارف، وعبد الرحمن عارف، وطاهر يحيى، وناجي طالب، وأحمد حسن البكر، وعارف عبد الرزاق، وعبد

الرزاق النافيف، ومن اليمن عبد الله السلال، كذلك استقبلت الكلية طلاباً عرباً من الجزائر وليبيا والأردن والبحرين، كان لهم شأن مهم في بلدانهم، لكنّها، في الوقت ذاته، خرّجت آخرين أسهموا في إنبات بذور الخراب في بنية المجتمع العراقي الهشّة، فأدخلوه بلداً نامياً في طريق الثورات والانقلابات، لم يخرج من لهيب نيرانها سليماً إلى العام (2023) السنة التي صدر فيها هذا الكتاب.

سارت السيارة الخشبية برّكّابها الثلاثين متوازنة، كان العقل طوال طريقها مشغولاً باستعراض تلك الأسماء اللامعة لخريجى هذه الكلية، وهذا المستقبل الذي ارتبط بها، وبالأمل في حياة أفضل، غير حياة القرية المحصورة بين البساتين، وبين تلال بابل الأثرية، كأنّ في موقف الانشغال هذا فكراً وداعاً لحياتها إلى الأبد، لقد أخذ الانشغال وقتاً طوال الطريق، لم تتمّ الاستفاقة من تداعياته حتى وصول السيارة موقفها الأخير في علاوي الحلة بوقت مبكر، وقرّ فائضاً يكفي لتناول الفطور، صحن من شوربة العدس مع صمونة بغدادية بعشرة فلوس، إنتاج عربة خشبية أعدت مطعمًا متنقلاً على ناصية الطريق، ويكفي الوصول مشياً إلى المكان الذي حدّده إعلان الإذاعة تجمّعاً للمقبولين، ساحة مفتوحة تقابل وزارة الدفاع الشاخسة في الباب المعظم، استغرق الوصول إليها نصف ساعة مشياً مصحوباً بحقيبة الأشياء، وفرجة على المحالّ التي فتحت أبوابها للارتزاق، والتدقيق بأشكال الحركة الجارية لأهل بغداد، وهم في طريق وجهتهم إلى أعمالهم اليومية.

كان المكان المحدّد للتجمّع يعجّ بالشباب المقبولين، وصلوا بالتوقيت المأمول قبل الساعة الثامنة، تمّ توجيه السؤال عن وجود الاسم لعسكري برتبة نائب ضابط يقف بالمواجهة، ماسكاً بيده اليمنى قائمة أسماء، وعندما أكّد وجوده، وضع العلامة المحدّدة

بقلم الرصاص، تعني الالتحاق، أشار عسكري آخر بعصا يحملها على المكان المخصّص للانتظار وسط الساحة المفتوحة مع الواصلين، جرى الوقوف عند الجهة الأبعد على انفراد بصحبة القلق الريفي، والتطلّع إلى الوجوه عسى التعرف على أحد من مدينة الحلة، زميل دراسة يخفّف ذاك القلق، يقلّل أثر الغربة الذي بدا واضحاً على الوجوه، لم يكن قد حضر أحد منهم حتى اللحظة، وبعد اليأس من إمكانية العثور على أحد حسب التأمّني، استبدلت الإثارة في النظر كنوع من الهرب صوب البناية الرئيسة لوزارة الدفاع، ظهرت أبنيتها تراثية من طابوق، شيّدت قبل عقود، قلعة عراقية تنتصب فوق أطلال أخرى عثمانية، ومن قبلها عباسية، كأنّ القوم هنا في بغداد قد توارثوا هذا المكان، قلاعاً عسكرية ترمز إلى الوطنية الشرعية، تشير وقائع التاريخ أنّ تشييدها بناية لوزارة الدفاع قد بدأ بعد تأسيس الجيش بفترة ليست بعيدة، على موقع كان في الأصل قلعة بغداد التي تجاور باب المعظم في محلّة المخرم العتيقة، القلعة التي أسماها الأتراك بـ(أيج قلعة)، لأنّ سورها يقع داخل المدينة، وسمّيت فيما بعد (الطوب خانة)، أي موضع المدافع، وتقع في زاوية السور الشمالية الغربية من الرصافة، مطّلة على نهر دجلة مقابل قصر المجيدية.

طال النظر إلى تلك الأبنية الجميلة المتناسقة، راح الخيال تجوالاً بين أروقته، بدأ من أقصى اليسار بناية تتّصل بأخرى، وأخرى في الوسط تحاذي دجلة النهر الخالد، تطلّ عليه، وكذلك الحال بالنسبة إلى جهة اليمين، كأنّها مستنسخة طبق الأصل، لتعطي هيبة وطنية لعسكر الدولة، ومعنى للتاريخ يُذكّر المُشاهد ببابل العظيمة ونيوى والنمرود، عاد النظر من بعدها للتدقيق في وجوه الحضور، كان الغالب منهم يدقّقون أيضاً، وبعض، هم القلّة، يقفون مع بعضهم لا يدقّقون، يتبادلون المزاح كنوع آخر

من سلوك التعامل مع قلق الالتحاق وتخفيف الغربة، وفي الجولة الثالثة للتدقيق وقعت العين على حاتم عبد الأمير¹⁵، زميل الدراسة المتوسطة والثانوية، فأنهينا معًا مرحلة كانت ضاغطة بعض الشيء، بوقفة تأمل لوجوه الآخرين، صاروا يتوافدون تبعًا، جوقة إلى الجوار يتكلم أصحابها اللهجة الموصلية، وأخرى قريبة منها إلى اليسار، بلهجة بغدادية، قال أحدهم من الجوقة الأولى إن عمه ضابط في دائرة الإدارة، وقال آخر من الجوقة الثانية إن خاله في رئاسة الأركان، ابتسم حاتم ساخرًا قال: ونحن لسنا أقلّ منهم شأنًا، لي أخ عريف في التموين والنقل، وأبوك كان جنديًا.

توقّف قليلاً عن الكلام، ثمّ أشاح بنظره بعيدًا إلى البناية الوسط بين تلك البنايات التي يوضّح هيكلها بأنّها مقر للوزير، كان كأنه يودّ السؤال، تلكاً أولاً، ثمّ سأل: هل سيشفع العريف وسط هذه المعارف، والامتدادات؟ راح الكلام من بعدها إلى الحلة، وإلى منطقة النيل، وقرية الجمجمة أصل الانتماء، وبالتدرّج التقت العيون مع آخرين من ثانوية الحلة كانوا من بين الملحقين، فتكوّنت جوقة من ستة طلاب هم مجموع المقبولين من أهل مدينة الحلة في هذه الدورة الثالثة والأربعين، التي بلغ مجموع المقبولين في صفوفها بحدود الأربعمئة طالب، (عُدّت الدورة في حينها الأكثر عددًا، وإن استقال منها في الأيام الأولى أكثر من أربعين طالبًا لم يتحمّلوا قساوة حياتها، ورسب آخرون، فتخرّج بحدود (356) ضابطًا، وزعوا غالبيتهم على صنف

¹⁵ حاتم عبد الأمير، مواليد بابل (1946)، ناحية النيل، هادئ الطبع، يثق بالآخر بسهولة، اجتماعي، ميّال للمجازفة، نسّب بعد التخرج أمر فصيل في الفوج الثالث لواء الخامس عشر، ثمّ أمر سرية، نقل بعدها إلى منصب أمر فوج في منطقة العمادية الفرقة (12)، تحرّك مع فوجه إلى جبهة القتال في الحرب مع إيران عام (1982)، أصيب بقصف مدفعي معادي، نقل إلى المستشفى، توفي في الطريق من شدّة النزف.

المشاة، وقليل إلى المدفعية بحدود الـ(15)، وهندسة الميدان والمظليين، والكيمياوي، كانت النسبة الأكبر من المقبولين بحدود التسعين من الموصل، المعروفة بشغف أهلها بالعسكرية، شغفًا يمتدّ إلى زمن العثمانيين الذين أعطوا الموصل أولوية في القبول بجيشهم، فتكوّنت بتعاقب الزمن علاقات إيجابية لهم بالعسكرية، وتقدير عالي المستوى لمهنة الضابط، انتقلت من الزمن العثماني إلى الحكم الوطني، ومن بعد الموصل جاءت بغداد بحدود الخمسين، ومن ثمّ الرمادي وصلاح الدين، وكركوك، تليها محافظات الجنوب، وأخيرًا المحافظات الكردية، السليمانية وأربيل، وقد استقال من الستة الحليين واحد، ورسب آخر، وتخرج فقط (سعد خضير، حاتم عبد الأمير، نصيف جاسم، جبار عبد الحسن).

اليوم الأول

قَطَعَتْ أحاديث هذه الجوقة وباقي الجماعات المتفرقة صافرة ضابط، أعلن من بعدها التجمّع صقّين، فتجمّع الحضور كتلة بشرية من طلاب شباب، جميعهم متحمّسون، تقدّم من بعدها ممثل الإدارة في وزارة الدفاع الرئيس الأول (الرائد)¹⁶ شمس الدين الأعرجي، لقراءة الأسماء، رفع من نبذة صوته عاليًا، قال من يرد اسمه في القراءة يصعد إحدى السيّارات العسكرية، أعاد التأكيد، كلّ ثلاثين طالبًا في سيّارة، كانت تقف في الجوار مرصوفة بالنسق، صعد آخر طالب من مجموعة الثلاثين الذين تبدأ أسمائهم بحرف النون، توقّف الرئيس الأول، عاد إلى

¹⁶ كانت بعض الرتب العسكرية الدارجة للضباط منذ تأسيس الجيش العراقي قد تغيرت عام (1965) وهي (رئيس: نقيب – رئيس أول: رائد – زعيم: عميد – أمير لواء: لواء) ثم ألغي المشير وأستبدل بالمهيب.

دائرته، تقدّم ضابط من الانضباط العسكري إلى سيارة لاندروفر كانت قريبة، أعطى إشارة التحرك، فانسابت السيارات في حركتها رتلًا صار هو في بدايته، مشى الرتل بسرعة محدودة في شوارع بغداد، كانت كأنها مثبتة مسبقًا حتى بلوغ الكلية، وقفت عندها سيارة اللاندروفر، ومن بعدها باقي السيارات جوار بعضها بانتظام وسط ساحة مفتوحة، مكسية بالإسمنت، نزل الثلاثون تبعًا، كان نزولهم فقرًا نشطًا لا يخلو من الضحك المشوب بالتوتر، قال رئيس العرفاء بعد أن عرف عن نفسه جنديل: تجمّعوا ثلاثة صفوف، تحرّكوا لتقفوا مع الآخرين، في مواجهة الملازم رمزي محمود، كان جنديل ضابط الصف الأشهر بين ضباط الصف المعلمين للدورة (43)، فضلًا عن رؤساء العرفاء درودح عناد، وشاهين بريسم، وهويدي، وعطية، وحنون.

وقف الملازم الشاب بقيافته الخارجية الأنيقة، والسيف يتدلّى من وسطه جانبًا، يشدّ الانتباه، أمر بانتظام الصفوف، عاد وطلب الانتظام، منوّهًا بترك الفوضى، وأضاف بعصية مصطنعة: أنتم الآن عسكري، والعسكر منظمون، زاد عندها القلق في نفوس غالب الملتحقين الذين لا يمتلكون أيّة أوليات عن السلوك العسكري وانتظام الصفوف.. قلقٌ من النوع الخفيف، قليل الأثر، غيبتته في خزائن اللاوعي نشوة القبول المتوّج بالالتحاق، وتغيّر الحال، ووقع الحياة الجديدة، أصدر الملازم أمرًا آخر بالمشي، في رتل يحفّ به ضباط صفّ من الجانبين، حتى المطعم، طلب أخذ الأماكن على كراسي من حديد حول طاولات مستطيلة كذلك من حديد، عليها أغطية من القماش المشمّع أبيض اللون، موزّع فوقها الفطور، قطعة من الجبن العربي الأبيض، مع زيتون في صحن من الخزف، وكوب من الألمنيوم، وإناء للشاي، وآخر للحليب وضع بانتظام، أخذ الجميع أماكنهم حول الطاولات،

والعيون شاخصة تجاه طاولة نصبت منفردة في المقدّمة، جلس حولها أمر سرية المستجّد، عزّف عن نفسه الرئيس الأول سامي مجيد، جلس على جانبه عمرو الفصائل، قطع كلام الترحيب الذي بدأه، ضرب بعصاه على الطاولة لينهي توجّه بعضهم بسجيتهم إلى الشروع بتناول الإفطار حال الجلوس حول الطاولات، قال، اترك، ثم أكمل: أنتم الآن عسكر، لا يمكنكم الشروع بالأكل كيفيًّا، الأقدم من يقول لكم ابدأوا، لتبدأوا، وهو من يطلب منكم الانتهاء، فتنهوا على الفور، سكت قليلاً، ثم قال ابدأ، ليبدأ الأربعمئة طالب مستجّدٍ أول فطور لهم في الحياة العسكرية، لم يذمّ عشر دقائق، وقف الرئيس الأوّل ثانية، قال: انه، فعاد الجميع إلى الهدوء، إلّا من همهمات، يصعب تفسيرها.

.....

كان سامي مجيد ضابطاً حازماً، لا يُظهر البهجة على وجهه العسكري، كأنّه يغطّيها بقناع من الضبط الصارم؛ أو يظهر شخصيته العسكرية الميالة أصلاً إلى الجدّ، شكله المميّز، وطوله الفارع، وهندامه الحسن، زاد من هيئته، ومن مستويات احترامه من قبل الطلاب، ومن درجات التوجّس من شخصه حدّ التجنب، كانت المسافة بينه وبين الطلاب بعيدة نسبياً، تدفعهم إلى عدم الاقتراب منه، عصبي المزاج، مغرماً بالقيافة والهندام وبالحرركات، وكان بطبعه مولعاً حدّ الهوس في مسير الاستعراض، إذ، ومع كلّ دورة مستجّدٍ بداية الستينات يقود سريتها، يضع في برنامجه لتعليم المسير رسماً لمئة خطّ أبيض متراصف (من الجص) على السطح الكونكريتي لساحة العرضات، بين الخطّ والآخر خمسة وسبعون سنتمتر، يوقف الطلاب عند حافة الخطّ الأوّل، يصدر الأمر (عادةً سز)، يحسب مئة خطوة، ثم يصدر الأمر الذي يلي (قف)، لا بدّ أن يكون الوقوف على الخطّ الأخير حتمياً، تحمّس مرّة في التدريب على

المسير، أخذ عصا الطبل من الطَّبَّال، بدأ الضرب على واجهته، قال جمَلته المشهورة (وَحَدَّ رَجْلَكَ عَلَى الطَّبْلِ)، فراح يُكَنِّي من ساعتها (سامي طبل)، لم يكن سامي مجيد هو الضابط الوحيد الذي أطلق عليه الطلاب لقبًا يُكَنِّي به، ولم تكن الدورة (43) هي الوحيدة التي تكَنِّي أمرِها، إذ إنَّ طُلَّابَ الكَلِية، ولجميع الدورات يطلقون تسميات، أو كنى للضباط الأمرين والمعلمين لا تفارقهم طوال خدمتهم العسكرية، حتى صار هذا السلوك شائعًا بين عموم الدورات، حدودًا بات من النادر فيها أن يسلم ضابط في الكلية من كناية يطلقها الطُّلاب الذين كأنهم يترَبَّصون زلة، أو هفوة، أو تكرار لفظ، أو كلمة تخرج في الحال، منها يصيغون لقبًا يكونَ به، لينتشر في الحال، يبقى ملازمًا له إلى الممات، وكانت الكنى الدارِجة لضبَّاط الكلية للمدَّة الزمنية التي تواجدت فيها الدورة (43) هي (الملازم. عصام الشوك: عصفور الشوك – م. أول عبد الكريم العيثاوي: بنت الريف – م. أول رمزي محمود: صوفيا لورين – نقيب. صباح علي غالب: زبيدة ثروت – م. أول فاضل عباس المهدي: فاضل سيانة – الرائد عبد الرزاق الانصاري: چوقي – الملازم. خالد الجبوري: خالد كفتة – م. أول نبيل خليل سعيد: نبيل پوز – م. أول عدنان الخدران: عنتر – م. أول محمد عبد القادر: مالك الحزين – م. أول عدنان الشربتي: عدنان جلكان – ر. ر باسل محمود: باسل عريدة – نقيب غانم خضر: غانم قروانه – الملازم. نبيل عبد القادر: أبو بريس، وأمر الكلية سنة (1966) العميد الركن عدنان عبد الجليل: شكوكو)، في حقيقة الأمر يصعب إيجاد تفسير مقبول لظاهرة إطلاق الكنى المستمرة في الكلية العسكرية، ومع هذا يمكن وضعها في خانة التنفيس عن مشاعر الشحن الانفعالي التنافسي في دواخل الطُّلاب تجاه معلِّمهم، وكأنما يقلُّ الطالب بتوجهه هذا (الكنية) أثر الفعل الضاغط عليه في الموقف

التدريبي، أو الدراسي (سلوكًا لفظيًا أو بدنيًا)، من دون أن يتحمّل ملامة، أو شعورًا بالذنب، ونادرًا ما نجى ضابط في الكلية من الكناية والتوصيف، وكان أمر الكلية عرفان من الناجين على الرغم من قساوته المفرطة، وشدة تطبيقاته لمعايير الضبط.

بدأ سامي مجيد توزيع الطلاب على الفصائل بعد الانتهاء من الفطور الترحيبي، والتي تحدّدت بثمانية، بدأت بالفصيل (17)، وانتهت بالرابع والعشرين، توقّف في قراءة الأسماء عند الطالب صونار رشاد (تركمانى) من كركوك، قال بلغة الأب: ابني سوف تتخرّج ملازمًا في الجيش مستقبلًا، وجنودك أغلبهم من الجنوب، يصعب عليهم لفظ اسمك (ملازم صون)، تلكأ قليلًا، ثمّ سأل: هل تعرف الصون باللهجة الجنوبية؟ أجاب صونار: - كلا سيدي.

رد بثقة: إنّهُ روث الحمير، وهذه التسمية إذا ما لهجوا بها الجنود فلا تليق بالضابط، كما أنّها ستؤثّر على العلاقة بينك وبينهم، عليه أقترح أن تغيّر اسمك إلى اسم آخر، أرى في نهاد اسمًا مناسبًا، وهو تركمانى أيضًا، وأرى أن ترفع بإجازتك القادمة طلبًا للتبديل، سأرّوجه لك، مع توصية بالإسراع في إنجاز المطلوب، أجابه باحترام: نعم سيدي.. وقد فعلها وغير الاسم إلى نهاد.

أفضى التوزيع على الفصائل ذهابي وحاتم إلى الفصيل (17)، تقدّم من هذا الفصيل الملازم الأوّل خالد أمّرا، يرافقه عبد الحافظ عريقًا، مشوا بالفصيل إلى بناية من عدّة بنايات متشابهة، توقّفوا في باحتها، وقبل المباشرة بالخطوة التي تلت، نوّه خالد على أنّ التنقل للطالب المستجد، من أيّ مكان إلى آخر، سيكون هرولة، وسيُحسب المشي مخالفة، يحقّ للطالب الأقدم من المتوسط والمتقدّم التنبيه والمحاسبة، باشر من بعدها التوزيع إلى أربعة حضائر، لكلّ حضيرة عشرة منتسبين، ومن بعدها بدأ

الشروع بتسليم التجهيزات، أدوات حلاقة ومناشف وشراشف وملابس نوم وبدلة تدريب عسكرية، وقميص وسروال عسكري، وحذاء عرضات (البسطال)، وبرنص (منشفة)، لم تكن القياسات محسوبة، بدأت أولى خطوات التعامل معها، تبادل التجهيزات تبعاً للقياس بين الزملاء، جاءت من بعدها خطوة أكثر تقدماً في ضبط القياسات، حضر فيها خياطو الكلية ليعيدوا الترتيب، (تقريب) الملابس العسكرية منها حسب القياس، أعطى من بعدها مهلة لعشر دقائق وقتاً لترتيب التجهيزات في دولا ب حديدي رصاصي اللون بظلفتين، دخل بعد انتهائهما دورة تفتش دولا ب بعد آخر، قال أمر الحاضرة (ن ع) علي حسين¹⁷ من الدورة (41)، ليقف كل طالب أمام دولا ب ه، فوقف الجميع بانتظار مروه، وصل إلى الدولا ب الذي أقف أمامه، نظر إلى داخله، لم يتكلم، مدّ عصاه إلى نهايته، سحب التجهيزات بعثرها على الأرض، قال بغضب، أعد ترتيبها من جديد، وكان محققاً في قوله، وفي طلبة إعادة الترتيب، نوّه النائب العريف علي عن صوت بوق يبدأ الساعة التاسعة والنصف مساءً، قال عنه بوق النوم، ارتبط صوته فيما بعد بنهاية يوم شاقّ، فكوّن اشتراطاً إيجابياً للنوم بأسرع وقت ممكن، أطفأ نور القاعة حال انتهاء

¹⁷. علي حسين من مدينة العمارة، لعائلة فلاحية كادحة، بدأ عصامياً، عمل صباغ دور في العطلة الصيفية، ليعين عائلته ويدعم دراسته، حتى قبله في الكلية العسكرية عام 1962 بدورتها الحادية والأربعين، تميّز بها نشاطاً، طويل القامة، سمار بشرته أدكن، قوي البنية، رياضي عرف عنه المشاركة في لعبة العشرية ورمي الرمح، لقب من أيام الكلية العسكرية علي عريبد، انتمى إلى القوّات الخاصة بعد تخرّجه، وتمييز فيها، شارك في معارك الشمال مع الاكراد، وفي الحرب العراقية الإيرانية بكفاءة، وكان شجاعاً منقذاً جيّداً للأوامر العسكرية، آخر منصب له كان أمر لواء قوات خاصة، عانى من مشاكل اجتماعية، وُجد مقتولاً، وقد اتُهمت زوجته الأولى، وولده منها في جريمة قتله.

عزف البوق وأمر بالنوم، لكنّه عاد ونوّه إلى بوق آخر سيكون في تمام الساعة الخامسة والنصف صباحًا، هو بوق النهوض، وهكذا فعل أمرو الفصائل الأخرى، كانوا لهذه السرية المستجد (الفصيل 17: م. أول خالد عبد الفتاح النورجي - الفصيل 18: م. أول محمد عبد القادر حسن - الفصيل 19: م. أول عبد الجبار غائب - الفصيل 20: م. أول عبد الستار عبد الجبار - الفصيل 21: الملازم باسل عبد الله الحافظ - الفصيل 22: م. أول فاروق علوان المشايخي - الفصيل 23: الملازم سهيل الأعظمي - الفصيل 24: الرئيس حسام الدين عبد الحميد، أمّا عرفاء الفصائل فكانوا من المتقدّم الدرة (41) حسب تسلسل الفصائل عبد الحافظ - ستار - علي - مغيرة - موفق - فؤاد - عبد الوهاب - ثم قحطان، فصيل 24).

.....

تقدّم نائب عريف كنوش من الجوق الموسيقي المكنّى (مونتغمري)، لقرب الشبه بينه وبين مونتغمري الإنجليزي، أحد أشهر قادة الحرب العالمية الثانية، عزف بوق النهوض، فصاح نائب العريف علي انهض، قال: المتاح عشر دقائق، لحلاقة الذقن، ولبس القيافة العسكرية المطلوبة، وترتيب (اليطغ) أي الفراش، ثم الوقوف في صف لتفتيش الحاضرة.

وقفت الحاضرة بعد انتهاء الدقائق العشرة في الشرفة (الطارمة) المجاورة لمنامها، فتّشها علي، وأعطى إيعازًا بالتحرك هرولة، بغية التجمع مع باقي حضائر الفصيل الأربع بالباحة المقابلة للبناية، استعدادًا لتفتيش أمر الفصيل، وإيذانًا ببداية يوم تدريب جديد، كانت الدقائق العشرة في الأيام الأولى تكفيننا أنا وحاتم، ويزيد منها دقيقتان حتى موعد التفتيش، فكنا نتناوب على الأولوية في الوقوف برهط الحاضرة، لكنّ هذا لم يستمر، إذ لاحظ ن. ع علي تكرار الأولوية لعدة أيام متتالية، سأل عن هذا

الفارق في الحضور، علم أنه يعود لعدم حلاقة الذقن، لأنّ الشعر على الوجه لم ينبت بما يكفي لحلقته، على العكس من معظم الزملاء الذين نبت شعر لحاهم حدّ الحاجة إلى الحلاقة كلّ يومٍ، عندها قال: لا بد لكم من حلاقة اللحية، قال حاتم: لكنّها لم تنبت بعد، ردّ بحزم: لا تجادل، هكذا هي السياقات، احلقها كي تنبت، بدأت عندها حلاقة اللحية، ومن بعد أيام تمّ تعلّم التحايل على فعلها، إذ يجري التنفيذ الحقيقي مرّة في الأسبوع، وتمثّل الحلاقة صوريّاً لباقي الأيام، وطوال فترة المستجد، لتستقرّ الحلاقة بين يوم وآخر، فترة المتوسط والمتقدّم، كانت لحية فاضل حسين أغزر اللحي بين منتسبي الفصيل، تعلّم هو الآخر التحايل لحلقها مرّتين في اليوم، إحداهما في الصباح، والأخرى في المساء، للتوافق مع طلبات أمر الفصيل عند تمريره ورقة على الوجه في أن لا تخرج صوتاً بالاحتكاك، كان موضوع الحلاقة ضروريّاً، ليس للحي فقط، بل وكذلك لشعر الرأس التي حدّدت حلقته بالنمرة (4)، وفي حالات العقوبة تكون النمرة (صفر) وعلى يد الحلاق المعروف "أبو جريان"¹⁸.

الأيام الآخر

كان اليوم الثاني مخصّصاً للتدريب على بعض الحركات اللازمة، وتعلّم الضبط، بدأ هرولة، وانتهى مثلها هرولة بوقع أسرع، وبعض الكعوب الطرية للطلّاب قد سلخت من كثر التحرك والهرولة، ودفعت بعضهم إلى تقديم استقالته وتغيير نهج

¹⁸. أبو جريان رجل جاوز عمره أعمار الوسط بكثير، ضخّم الجثة، قصير القامة بالمقارنة مع باقي الحلاقين، خدمته حلاقاً في الكلية طويلة، ضعيف البصر، الأمر الذي دفع زملائه إيكال مهمة حلاقة النمرة (صفر) له حصريّاً، وبرغم خبرته يخرج الرأس المحلوق من تحت ماكنته اليدوية مثيراً للضحك.

الحياة، أمر من بعدها ضابط الخفر تجميع السرية، بدأ سلسلة تبليغات، أولها سيكون النزول لهذا الأسبوع فقط، سيعقبه حجز إلزامي لجميع طلاب الدورة، خمسة وأربعون يومًا هو السياق المتبع مع الدورات المستجدة، وثانيها جلب جميع الاحتياجات المطلوبة التي بلغ أمرو الفصائل شراءها من السوق المحلية أهمها (البراص، وإبر خياطة وكشتبان)، وثالثًا، سيكون التجمع لأغراض العودة في تمام الساعة السادسة عصرًا من يوم الغد، الجمعة في ساحة الخلاني.

.....

حضر أمر الفصيل ظهيرة اليوم الأخير من الشهر الأول، طلب التجمع، بدأ توزيع الراتب، كان ثمانية دنانير، قال هناك استقطاعات تخصّ (المجلة، المكتبة، السينما، الحلاق، البهو، الحمام)، أشار إلى إمكانية الشراء بالتقسيط من حانوت الكلية الذي تعاقد مع محالّ وأشخاص لعرض البضائع (ملابس، وساعات، ومعدات)، تستقطع من الراتب مبالغ بسيطة، فكان صافي الراتب فيما بعد لم يزد عن أربعة دنانير، بل يقلّ أحيانًا، لكنّه مبلغ كان في ذاك الوقت كافيًا، تمّ وضعه في الجيب مع قدر من الرضى عالي المستوى، أعطي نصفه إلى الوالدة بعد انتهاء فترة الحجز والنزول، فصار سيافًا ثابتًا من أوّل راتب إلى آخر استحقاق نهاية الشهر الخامس (1966)، ختم الأمر حديثه ذاك عن الراتب بالإشارة إلى قرار أمر الكلية عرفان استقطاع مبلغ يقارب الدينار شهريًا، سيُحفظ في المصرف أمانة تستلم قبل الاحتفال بالتخرج، للاستفادة منها في شراء بعض الاحتياجات الضرورية، وخياطة البدلة العسكرية.

تدارسنا، الطلاب، شأن راتبنا، توجّهت مع تحسين إلى الحانوت لتحقيق طموحات شراء مؤجلة، اختار كلّ منا ساعة (نيقادا)، سعرها الأجل ستة دنانير، وافق على تقسيطها الملزم

علي الفلّلي، ضابط الحانوت نصف دينار في الشهر، في عصر
ذاك اليوم، وبعد إتمام وقت الرياضة، أمر الملازم عصام عبود
الشوك ضابط الخفر منتسبي السرية التجمع على الفور، قال:
سنقوم بإجراء مظاهرة لكيّ حذاء العرضات (البسطال)، علق
عدنان حسين¹⁹ بصوت خافت: (ولكم حتى البسطال يكوي؟)،
تنبه عصام إلى جهة الصوت من دون التعرّف على المصدر،
سأل: من المتكلم؟ لم يجب أحد من حضيرتنا التي يتواجد قربها
الملازم عصام، ولم يشغل باله أكثر في التفتيش عن المصدر،
قال يهرول الجميع حول الساحة عشرين مرّة، بعد انتهاء
المظاهرة، ثمّ عاد إلى موضوع الكيّ لتلك البساطيل المصنوعة
من الجلد المُحبّب أسود اللون.
وقف عصام في الوسط، أبقى عصاه جانباً، مسك "بسطالاً"
جديداً، وضع على مقدّمته مقداراً قليلاً من الطلاء الأسود، سحب

¹⁹ عدنان حسين من عائلة بغدادية، والده مشاور قانوني لوزارة الدفاع، ذكي
نحيف، وزنه يقل عن الستين كيلوغرام طوال سني الدراسة الثلاث، اجتماعي
مرح، وطني، ميّال إلى المخالفة، نزل مصارعاً على مستوى الجيش للوزن
الخفيف، تُسبب بعد التخرج إلى صنف المدفعية، عمل أمر رعيّل، وكان كفوّاء،
ثمّ معلماً في مدرسة المدفعية، وعضواً في لجنة الصنف، وبعد تخرّجه من كلية
الأركان عمل ضابط ركن، لا يحيد عن الحق، قليل المرونة في هذا المجال، لهذا
وبسبب كثرة أخطاء البيئة حوله واحتجاجة عليها، واجه مشاكل في العلاقة مع
المحيط العسكري والحزبي، واجه مشاكل نفسية، أحيل بسببها على التقاعد برتبة
عقيد ركن منتصف الثمانينات، وهو في قمة الشباب، وبقي أعزب معزولاً في
بيته في زيونة، حتى وفاته عام (2019) إثر تعرضه إلى جلطة أسقطته على
أرضية الحمام من دون أن يدركه أحد ليومين، إذ اعتدّ وخذلّون جبر زيارته
باستمرار، وفي إحداها ليلاً، لم يجب على الجرس ولا على ضرب الباب، ولم
يرد على الهاتف النقال، توجّهنا إلى جاره الذي أكد عدم رؤيته من يومين، سألناه
عن بيت أخيه علي القريب من بيته، فتعهد الذهاب إليه، وفي اليوم الثاني عدنا
عصرًا، فأخبرنا الجار بمجيئ أولاد أخيه، وعند دخولهم البيت وجدوه بأخر
الأنفاس مستلقياً على أرضية الحمام فاقد الوعي، نقلوه إلى مستشفى الشيخ زايد،
وفيها وافته المنية.

من بعدها مكواة حامية، وشرع بالكيّ، أعاد من بعد تمريرها على جميع الأجزاء، وضع مقداراً آخر من الطلاء، وأعقبه بدهان، وبدأ بتمرير الفرشاة بحركة مستقيمة حتى بات البسطال في لمعانه أقرب إلى المرأة، عرضه على الحضور، طلب تقليده في عملية الكي هذه الليلة، ثم عاد ليشرف على تنفيذ العقوبة هرولة، فكانت العقوبة الأولى، فتحت الباب لسلسلة عقوبات لم تتوقّف حتى اليوم الأخير في الكلية، كانت العقوبة التي تلت بطلها خلدون جبر الحافظ²⁰، لتعمّده مخالفة توقيت وقع الأقدام للفصيل أثناء المسير، إذ كان قد ضرب بمقدمة بسطاله مؤخرة بسطال خالد الذي يسير أمامه في التشكيل، فأدّى إلى الارتباك، حصل بسببها على عقوبته حرمان إذن لأسبوع، وساعة تعليم إضافي نقّذها باقتدار، وفي آخر دقيقة منها قال أمر الفصيل (اترك الأرض)، اختار خلدون بالأمر، قال (وين أولي)، فأمر العريف تقديمه مذنباً، كان المذنب في تقديمه يرتدي قيافة خاصّة، قميصاً مع السروال القصير (قبل إلغائه)، والبسطال مع الكيتر صيفاً، وفي الشتاء البدلة الداخلية والبسطال مع الكيتر من دون نطاق، وفي حالات حرمان الإذن يستمرّ المعاقب في لبسها طول الأسبوع، عاد منها خلدون محمّلاً حرمان أسبوعين، إذن، بقي على إثرها هو ومهند محمود المحكوم كذلك بحرمان الإذن، لم ينزلا مع باقي الطلاب يوم الخميس الذي أعقب انتهاء فترة

²⁰ خلدون جبر الحافظ، مواليد العمارة (1943)، مرج، ذو أفكار يسارية، مخلص في عمله، أكثر طلاب الدورة مخالفة، حتى بات اسمه يتصدر نشرات القسم الأول، نسب بعد التخرج إلى صنف المشاة، اختار الفرقة الأولى عند التوزيع، ثم مغاوير الفرقة، خدم أمراً لسرية في ل 14 وأمر سرية في ل 19، ثم أمر فوج، اشترك في القتال بمعارك الشمال وفي الحرب العراقية الإيرانية، أحيل على التقاعد برتبة مقدم عام (1983)، بعد إعدام ابن شقيقته بتهمة الانتماء إلى حزب الدعوة، عاد إلى الجيش بعد سقوط النظام مستفيداً من قانون المفصولين السياسيين، وأحيل على التقاعد برتبة لواء.

الحجز، وسجّلا أنّهما مخالفان يتكرّر اسمهما كثيرًا في أوامر القسم الأول عند قراءتها من ضباط الخفر قبل النزول، لكنّ الأشهر من بين المخالفين هو مهند، كان كأنّه يتعمّد المخالفة، حتى تسبّب سجّله الوفير بالعقوبات إلى رسوبه في السنة الدراسية الأولى (المستجد) وفصله من الكلية، إلّا أنّ والده الذي يريد منه ضابطًا، توسّط لقبوله في كلّية القوّة الجوية عن طريق معارف له طيارين، ومع هذا استمرّ مخالفًا في تلك الكلية، وتسجّل في سجّلاتها أكثر المخالفين، وبسبب مخالفات في دروس الطيران العملي رسب مهند، وكانت قوانين الكلية آنذاك تحيل الطالب الراسب في العملي إلى الكلية العسكرية، طالبًا في المستوى المتوسط،²¹ فعاد مهند إلى الكلية مع الدورة الرابعة والأربعين، التقاه عند المطعم يوم عودته الأول أمر فصيله السابق باسل الحافظ، خاطبه باللهجة الموصلية قائلاً: أشنو مهند عائدون.

ردّ مبتسمًا: نعم سيدي، والعود أحمد، غضب باسل، من ردّه، فبادر بتوجيه العقوبة له، ساعتيّ تعليم إضافي، استجاب لها مهند بالقول: بدت رحمة الله، فزاد غضب باسل، وأمر تقديمه مذنبًا، وكان الأجرأ بين المخالفين، سلمان بدري الناصري، يليه عياض هاني، ولسلمان قصّة تختلف عن باقي المخالفين المعروفين في الكلية، تُدلّل أنّ كثرة مخالفاته وشدّتها تتعلّق بعدم رغبته الاستمرار بالدراسة العسكرية، إذ قال مرّة إنّهُ كلّما نوى ترك الكلية حال بينه وبين التنفيذ زميله وابن منطقته بسام عبد

²¹. تخرج مهند محمود مع الدورة (44) ملازمًا عام (1967)، ضابط شجاع حتى استشهاده في الحرب العراقية الإيرانية، لم يكن يأبه للعقوبة أثناء الدراسة في الكلية، كأنّه مجبول على المخالفة كنوع من التحدّي لضوابط المجتمع وقوانينه، ولم يعر اهتمامًا إلى نظم الكلية التي تحسب المخالفة إخلالًا بالضبط، وتحسب العقوبة تقويمًا للخلل، بسببها تكونت له صورة الطالب المخالف، لم تتغير حتى اليوم الأخير من حياته في الكلية.

الكريم، وأكد أنه يوم عوقب فيه أربع ساعات تعليم إضافي، و"أسبوعين حرمان إذن" بعد فترة الحجز الشاملة، فُكّر جدًّا بالاستقالة، وكان مع بسام في المغاسل يتهيئان للنوم، سأله ماذا ستعمل في الجمعيتين القادمتين، فثار سلمان بوجهه قائلاً: أفُكّر "يومياً" ترك الكلية، لكّني، وبسببك لم أتركها، إذ إنك صديق طفولتي ودراستي، وابن منطقتي، وطولك نصف طولي (بكد زري)، إذا ما تركتها واستمرّيت أنت بها، سيشتت بي أهل المنطقة، وسيقولون كيف استمرّ بسام وهرب سلمان؟

كان في سلوك سلمان المخالف قدر من التحديّ، لازمه طوال مرحلة شبابه، إذ وبعد تخرّجه خدم أمر فصيل في لواء المشاة المستقلّ (25)، ثمّ في سرية مقر اللواء اختلف مع ضابط ركن الثالث استخبارات (ن. ركن رحيم) الذي كتب عنه بعد عام (1970) تقريراً إلى الاستخبارات العسكرية، لا علاقة له بالاختلاف معه في العمل، بل ذكر أنّ له نشاطاً قومياً ناصرياً، أحيل بسببها على التقاعد برتبة م. أول، وعيّن في الضمان الاجتماعي بوزارة العمل والشؤون الاجتماعية، فكان غير متألّف مع الوظيفة المذكورة أيضاً، فاتّجه لدراسة القانون في الجامعة المستنصرية، ثمّ أتمّ دراسته الماجستير في القاهرة والدكتوراه في فرنسا، نجح في التدريس بالجامعة المستنصرية، ومن بعدها في جامعتي قطر والإمارات.

إنّ من طبيعة الحياة ووقعها في الكلية، وسياقات الإدارة والتعامل مع المخالفة، وسَمّ بعضهم مخالفاً، ولصقّ تهمة المخالفة بهم في بعض المواقف وإن لم يخالفوا، وفي أحد المواقف هرول الجميع صوب قاعات النوم بعد التعداد المسائي، وبينهم خلدون، الذي أكمل الأيام الخمسة الماضية من الأسبوع دونما عقاب، قال خلال الهرولة معاً: أحمد الله، سأذهب هذا الأسبوع إلى مدينتي العمارة، فقد اشتقت كثيراً بعد سيل من عقوبات حرمان الإذن

لأربعة أسابيع متتالية، فكّ، وهو في الطريق مهرولاً، نطاقه النسيجي، فتح أزرار قميصه، ثمّ خلعه حال دخول القاعة، وأكمل خلع ما تبقى من قيافته قبل الآخرين، ارتدى ثياب النوم، ثمّ استلقى الأوّل على فراشه من بين أفراد الحاضرة، مطمئناً عدم تجاوز الوقت بحلول بوق النوم وتسجيل مخالفة، لا يريد تسجيلها لهذا الأسبوع، ولمّا عمّ الهدوء أرجاء القاعة، أجرى أمر الحاضرة جولته الاعتيادية، مرّ من بعد دقائق عشرة رئيس العرفاء الأقدم (أرشد الزبياري)²² لإجراء جولة تفتيشية غير معادة، كان الجميع وقتها قد غطّ في نومه إلّا خلدون بقي يفكر في النزول ليوم غد الخميس، سمع خطوات قريبة من سريره، فتح عينيه ليرى، فالتقت بعيني رئيس العرفاء، الذي سأل: أنت خلدون، لماذا لم تنم بعد؟

- والله لم يأتني النوم.
- ألم تسمع بوق النوم؟
- نعم، سمعته، واستلقيت على فراشي في وضع النوم.

²² أرشد محمد أحمد الزبياري، رئيس العرفاء الأقدم للدورة (41)، ولد في قضاء عقرة عام (1942)، من عائلة كردية لها وزنها في المجتمع الكردي، شخصيته قيادية، قوي البنية، له ثقة مفرطة بالذات، صوته جهوري، له هيبة، تخرج من الكلية العسكرية عام (1964)، ومن كلية الأركان عام (1974)، شخصية ذات تأثير في المحيط الذي يتواجد فيه، عمل أمر فصيل وسرية مشاة، وأمر قوة مغاوير، شارك في حروب الجيش بمنطقة كردستان الى جانب الحكومة، لعشيرته عداء تقليدي مع عشيرة السيد البارزاني الذي يقود الحركة الكردية، عمل ملحفاً عسكرياً في يوغسلافيا، ثم محافظاً للسليمانية، ثمّ وزيراً للدولة إلى عام (2003)، ليتحول من بعده إلى العمل السياسي، فشكّل حزباً لم يحصل على شعبية، توقّى عام (2021) وهو شقيق عبد الله الزبياري من الدورة (43) الذي نسب بعد التخرج إلى صنف المشاة، ثم تحوّل إلى الدروع، قُتل بثأر عشائري وهو برتبة مقدم، كان عبد الله منضبطاً، شجاعاً.

- لكنك لم تنم، وإذا لم يأتك النوم عليك أن تغمض عينيك حتى تنام، فأنت والحالة هذه مخالفاً لبوق النوم، ومعاقباً ساعة تعليم إضافي.

.....
لم تشكّل المخالفة التقليدية للطلاب مشكلة تزعج الإدارة العليا للكلية، لأنها خاصية في الشخصية الطلابية، تقلّ ممارسات الضبط شدتها، ويعمل التدريب وتكرار العقوبات على تعديل السلوك المخالف لأصحابها في أحيان كثيرة، لكن المشكلة الأكبر منها، والأكثر تأثيراً هي اضطراب الشخصية لدى بعضهم إلى المستوى الذي لا تنفع العقوبة في تعديل السلوك المخالف، أو غير السوي لهم، وهؤلاء الـ "بعض" يُقبلون في الكلية نتيجة التوسّط، وعدم الخضوع إلى الفحوص الطبية النفسية، خاصّة قبل منتصف الثمانينات التي لم يكن موجوداً من قبل حلولها أيّة فحوصات نفسية، إذ، وبسبب عدم وجودها، قُبِلَ بعضهم (القليل) من المضطربين، أو ضعيفي الشخصية، (لا يصلحون إلى الخدمة العسكرية)، لكنهم أكملوا الدراسة فيها، واجتازوا الاختبارات النظرية والعملية، ونسّبوا لقيادة جنود فشلوا في قيادتهم، كان من بين طلاب هذه الدورة (43) حمد، التحق وهو في العمر يكبر الآخرين بحدود (3 - 4) سنين، نسب إلى الفصيل (23)، سريع الغضب، غير اجتماعي، ذو مزاج متقلب، شكّاك، محطّ انتقاد الطلاب، وأرض خصبة لمقابلهم، كان نضال عبد الحميد، أوّل من اكتشفه، وبدأ عمل المقلب لشخصه، فاتحاً الباب للآخرين السير على نهجه، وأولى مقالبه حصلت في التعداد المسائي عندما عمّ الهدوء، وابتعد العريف قليلاً لتقديم الموجود، قال نضال بصوت خافت، (عيص)، كلمة ليس لها معنى جاءت على الوزن اللفظي لاسم والده عيد، وانتشرت كناية له، ثار حمد حال سماعها، ردّ بكلمة (يا ابن القحبة)، بعدها

بأسبوع كتب أحد الطلاب على الطاولة التي يجلس عليها حمد في الصف الدراسي (spay) غضب عند مشاهدتها، وحمل الطاولة متوجّهاً بها إلى مقرّ الكلية شاكياً.. سلوك شجع عادل المعروف ببساطته النصب أو التنمر عليه، إذ جاء عادل مع بدء امتحانات نهاية السنة، قاصداً طارق أحمد العلي عريف الفصيل، سأله: كيف لي أن أكون شقاوة؟

ردّ طارق بجدّ مغلف بالهزل: اضرب حمد. أخذها عادل مسلّمة، وخطّط لتنفيذها في التعداد المسائي، وعند تجمّع الفصيل، وقبل السير تجاه الساحة، قال بصوت مسموع (عيص)، ردّ حمد بغضب: أيا قواد، عندها خرج عادل طويل القامة من الصفّ، وجه لكمة لوجه حمد أسقطته أرضاً، فصار هرج بالفصيل، تصادف لحظة حصوله مرور أمر السرية النقيب عبد العال الياسري، سأل طارق: ما هذه الفوضى؟ أجابه: شجار بسيط بين عادل وحمد.

ردّ عبد العال: إنهما مجنونان، ثمّ أصدر أمراً بالقول: فتش عن الذي كان السبب، واجلبه لي في الحال. شعر طارق بالهرج، وبوقوعه في مأزق، لأنّه هو السبب، وللتخلّص منه قصد مدحت جهاد رئيس عرفاء السرية، الذي حمّل الطرفين المسؤولية، الأمر الذي دفع عبد العال وضعهما في السجن إلى نهاية امتحانات آخر السنة.

استمرّ حمد هكذا محطّ الأنظار حتى ترك الجيش والعراق بداية الحرب العراقية الإيرانية، قيل من بعدها قد شوهد في أحد جوامع ألمانيا يعمل إماماً، وكان هناك كنعان، الضعيف، الخامل، المكتئب، الذي قضى سني الدراسة الثلاث منعزلاً، لا يحبّذ الاختلاط بأحد، وكان كذلك بعد تحرّجه، حتى أدمن شرب الكحول، وأحيل على التقاعد مبكّراً، عاش بعد إحالته أقرب إلى

المتشرّد، يتسكّع في الشوارع، ينام على أرصفتها في بعض الأحيان.

مفارقان عابرة

بدأت حياة الكلية في سنتها الأولى ضاغطة، وبدأت الحاجة النفسية إلى قدر من الترويح الذاتي ينتجه الطلاب أنفسهم، ومن بين أشكال الترويح التي انتجت في حفلات التدريب الإجمالي هو الغناء، وكلّما سمح الموقف، حتى اشتهر بعضهم بوصلات محرّفة عن أغاني مشهورة، مثل (ليش جرسينج كصيرة إردانه)، التي حرّفها وأدّاها بصوته الجمهوري عبد الكريم، ومن بينه أيضًا بعض المقالب المعدّة لأغراض الهزار، حصل أحدها في أوج شتاء السنة الأولى للمستجدّ، خلال الذهاب إلى حمام الكليّة الحجري المدفأ بالحطب، كان الذهاب إلى الحمام وفقًا لجدول تضعه الكلية لعموم الفصائل والسرايا، وحسب سياقات دخول تحتم ترك الطالب قيافته العسكرية والبرنص في خانات معدّة للتخزين المؤقت عند المدخل، أكمل إبراهيم سليمان نادر²³ استحمامه قبل انتهاء المدة المقرّرة، فخرج بعد التنشيف وارتداء قيافته إلى الخانة التي يضع فيها هشام ملابسه، وأخذ البرنص، وعند الخروج فتش هشام عن البرنص، وفتش معه فوزي المسؤول عن الحمام، فلم يجدها، غضب هشام، وأخذ يشتم من كان السبب، واضطرّ أخيرًا إلى ارتداء قيافته التي تبلّلت هي

²³. إبراهيم سليمان نادر، تولّد الموصل عام (1944) ضابط ملتزم، مرج، جادّ في الأمور العسكرية والاجتماعية، تدرّج في المناصب القيادية، أمر فصيل وسرية وفوج ثم أمر لواء (806) خلال الحرب العراقية الإيرانية، عمل في مجال التدريب أمر فصيل في الكلية العسكرية، وضابط ركن التدريب فل2، ثمّ ضابط في مديرية المشاة، وأحيل منها على التقاعد عام (1989)، براتب لواء، يتمتّع بذاكرة قوية تؤهله حمل لقب ذاكرة الدورة.

الأخرى، والوقوف في التعداد المسائي كما هو بملابسه المبلة في أجواء باردة.

ولم تسلم الرياضة من بعض المقالب، وهي التي تأخذ حيزاً كبيراً من بناء القدرات البدنية والعقلية للطلاب، إذ إنّ لها في الجدول ساعتين "صباحية" لمرة في الأسبوع، وساعتين بعد الظهر كلّ يوم، لأغراض التمرين وممارسة جميع الألعاب، فضلاً عن فعالية السلاالم للاستعراض التي تأخذ وقتاً أكثر من استحقاقها، في أيامها الأولى جرت محاولة واحدة للتسجيل ضمن فريق كرة القدم، لم تنجح لشدة المنافسة من لاعبين جيدين من عموم العراق، أمثال علي حسين كاظم، ونصيف جاسم، وعبد الكريم رسمي، الأمر الذي دفع التوجّه صوب السويدية طوال مدة المستجد، كان سواد الطلاب يتوجّهون بالضرورة إلى السويدية، الرياضيون المتميزون في ألعاب الكرة والساحة والميدان هم النخبة، كانت السويدية قد أعدت لبناء الجسم، وكذلك لأغراض الاستعراض الرياضي الذي تجريه الكلية سنوياً، وتشارك به في استعراضات الجيش الرياضية، بقيادة محمود يونس، ومعاونة محمد علي، وبنيامين، وعباس عنيفة، لكن محمود²⁴ كان الأنشط، والأكثر تخصصاً في إتقان جميع حركاتها، أمّا مقالبها وأفعال الدعابة والاستهزاء في مجالها، فكانت شائعة في فعالية السلاالم. توجّهت السرية إلى الساحة الإسمنتية لممارسة هذه الفعالية، شرع الطلاب بوضع السلاالم عمودياً وتثبيتها على الأرض من الأسفل، وشرع آخرون لاعتلائها والوقوف بتوازن على عتبة

²⁴ محمود يونس، بدأ جندياً في الأصل، رياضي، تدرّج حتى رتبة نائب ضابط، ولما بلغ السن القانوني أحيل على التقاعد، تعاقدت معه الكلية بصفته المدنية مدرّباً، رشيقياً نشطاً، مخلصاً في عمله، متحمساً، لإتمام مهامه في توحيد حركات المجموعة مع السلاالم التي تختلف في مجالها الحركات، استمرّ في عمله حتى وفاته بعمر قارب الثمانين.

السَّلْمَةُ الأعلى، لتأدية حركات ضمن الفعالية العامّة، وقف حمد في الأعلى، ومسك عبد الجبار قاعدة السَّلْم، تعتمد إمالة قليلاً، فمال معه حمد الواقف في الأعلى، وقبل سقوطه، صاح بصوت عالٍ: امسكو زين ابن القواد، سمعه القرييون، الذين أصيبوا بنوبة ضحك دفعتهم إلى إمالة سلالهم وسقوط من عليها وإفشال الفعالية، وقبول العقاب الجماعي، ساعة هرولة بعد انتهاء وقت الرياضة، لكنّ السلال معروفة بحسن تنظيمها ومشاركتها الاستعراض الرياضي السنوي للكلية، والآخر المخصّص للجيش، وكانت هناك فعاليات أخرى عابرة، بينها الضاحية.

حضر تجمّعاً للسرية المقدم شوقي عبود أمر جناح الألعاب وأمرها، وأمرو الفصائل، كان حضور الطلاب بملابس الرياضة (التراكسود)، وكانت الفترة المسائية الاعتيادية، شرح المقدم طبيعة الفعالية وكيفية الانطلاق من الكلية، تجاه الشارع الشرقي لقناة الجيش، ثمّ الاستمرار به حتى صدر القناة على نهر دجلة، والعودة على الشارع الغربي إلى الكلية، قدّر المسافة ثمانية عشرة كيلو متر، حتّى أمراء الفصائل فصائلهم على ضرورة إكمالها، أكّدوا وجود أقراص ستسلّم عند انعطافة العودة لضمان تأكيد الوصول، وأكّدوا كذلك وجود ضابط صفت على كلّ جسر يربط غرب القناة بشرقها لمنع العبور، وعقوبات حرمان إذن ستطال آخر ثلاثين متسابقاً، كان الشهر رمضان، والوقت صيفاً، وكان الغالب صيماً، أطلق شوقي صافرة البداية، ركض الجميع، ركضاً جاداً، وبعد الكيلو الثاني من البداية، حلّ علي حسين في الموقع الأوّل، كنت قريباً منه طوال طريق الذهاب والعودة، حتّى الجسر المؤدّي إلى الجامعة المستنصرية، نظرت إلى الجانب الثاني من الطريق كان بعض الطلاب يهرولون ببطء، وآخرون يمشون كذلك ببطء، سأل بسام بصوت عالٍ، فيما إذا كانت هناك أقراص تسلّم بالفعل عند النقطة الموجودة في صدر القناة، أجابه

علي بالنفي، عندها خلع هو وسلمان بدري وآخرين
التراكسودات، وضعوها فوق رؤوسهم، وعبروا القناة خوضاً،
وبعبورهم اختصروا أكثر من نصف المسافة، لمسيرة المتسابقين
ركضاً حتى النهاية التي سجلوا عند وصولها، وصولاً من أول
أربعين، وتخلّصوا من العقوبة.

في جوانب الاستعلاء المديني

لم تختلف الكلية العسكرية كبيئة اجتماعية عن باقي البيئات
لما يتعلّق بالتمييز، أو الاستعلاء في النظرة إلى الآخر، كأنّ
الحال أو النظرة إلى الفوقية قد انتقلت من تلك التي كانت
محصورة بين أهل المدينة وأهل الريف، إلى أهل بغداد وباقي
المحافظات، الجنوبية منها على وجه الخصوص، وإن لم يجر
التطرّق إليها في العلن، كان منتصف الأسبوع من الشهر الأخير
للسنة الدراسية الأولى المستجدّ، قد جلس ليل الأربعاء أغلب
أفراد الحاضرة على أسرّتهم في استراحة بعد المذاكرة المسائية،
قال عصام: رأيكم أن نلتقي خفية في مساء الغد وبالملايس
المدينة في الأمباسي، أيّده عدنان، وكان الاثنان صديقين قرييين،
تسمح صداقتهما بتوجيه الأسئلة والاستفسار، وتبادل الهزار،
عندها سألت في الحال وبقدر من الاستغراب عن الأمباسي
مكاناً، ماذا يكون؟ ضحك البغداديون في الحاضرة بقسوة،
لمستوى أضحى مجالاً للتندرّ والاستهزاء المثير، كأنّ من يجهل
معنى الاسم هذا جاهل، وكنقيض لما حصل أو للتخلّص من تلك
الاستثارة، تمّ الاتصال بعد التعداد بسهام زميل في الحاضرة
الثانية، بغدادي، له خبرة شبابية اجتماعية لا تقلّ عن خبرة
الآخرين، بل وتفوقهم في المجالات الخاصة، سألته بطريقة لا
تثير الغرابة عن الباصّ الذي يذهب إلى موقع الأمباسي، بحجة

اللقاء مع أصدقاء، أعطى الرقم برحابة صدر، ودلّ على الموقع من دون تعليق، وعند حلول الغد ظهر يوم الخميس، وبعد النفاذ من شبّاك العقوبات، ألغيت فكرة الذهاب إلى الحلّة، واستبدلتها بالتوجّه إلى الكرّادة لحجز سرير للمنام في فندق الصخرة، وشراء قميص مائل إلى الزرقة، ارتديته في الحال، أبقيته متدلياً على السروال الخاكي، وبعد إيداع الحقيبة في غرفة الفندق، وحلول الساعة التاسعة مساءً، هو الوقت الذي اتّفق على وقعه عصام موعداً مع عدنان، وصل الباص إلى الموقع على ضفاف دجلة عند مفرق المسبح، تبيّن الأُمبَاسي نادياً ليلياً (ملهى)، وتبين المكان غريباً لمن يقصده أوّل مرّة، حدث بعض التردّد في الدخول، لأنّ اكتشافه يعني تسجيل مخالفتين، الأولى ارتداء الملابس المدنية، والثانية دخول مكان لهو يمنع دخوله، عقوبتهما قاسية، وفي خطوات معدودة تجاه الباب اتّخذ قرار المجازفة بالدخول، كان الانضباط الواقف جوارها مشغولاً يتكلّم مع شابّين سبقا في التّقدم للدخول، فأثت المجازفة ثمارها، واختير مكاناً على طاولة في زاوية مستورة عن النظر لقاعة مفتوحة، يعمّها ضياء خافت، كانت المفاجئة، عوائل أخذت لها طاولات، وطاولات تنتصب عليها زجاجات البيرة وأنواع المشروبات، وفرقة إسبانية تستعرض فنون الرقص، أعقبتها راقصة مصرية. تأخر النادل قليلاً، تقدّم بعد ربع ساعة للسؤال عن طلبات المشروب، جرى التحدّج بتأجيلها قليلاً بانتظار أصدقاء، إذ لم أجرب شرب الكحول من قبل، وعندما أكملت الراقصة وصلتها، تمّت المغادرة من دون تسجيل أيّة مخالفة، وفي ليلة الجمعة على السبت، وقبل بوق النوم سألت عدنان هل نقّذا الوعد بالذهاب إلى الأُمبَاسي، ردّ بالنفي، لأنّهم تردّدوا قبل التنفيذ خشية كشفهم من قبل الانضباط العسكري الموجود عادة عند الباب، أجبته، لكن الانضباط لم يدقّق في الدخول في الأمس، سأل كيف؟ فتّم تقديم

الشرح مفصلاً عن المكان والفعاليات، والتمتّع بالأجواء التي كانت سائدة، عندها أغلق باب الاستهزاء، وفتحت أبواباً للمتعة الدنيوية من دون توازن بين مستلزمات وكلف الحياة وحاجات النفس الفعلية إلى الترويح، استمرّ فتحها بشكل مفرط طوال سبع سنين بعد التخرّج من الكلية.

.....
لم يكن الاستهزاء بالأخر هو السلوك اللفظي الوحيد السائد في مجتمع الكلية وخارجها، بل وكان هناك ميل لتداول ألفاظ تنمّ عن التجريح وخدش الحياء حتى بين الضباط، وإن كانت تخرج من الأفواه أحياناً في حالات الانفعال الغاضب وبشكل عفوي غير مقصود.

كان الفصل (21) المستجدّ عائداً من التدريب، يسير بانتظام، حتى أدخله القدوة من دون عمد في بركة ماء، تسبّب السير بها مع الضرب بشدة على الكعب إلى تطاير الماء على الجانبين، رشقات أثارت الضحك بين المنتسبين، وأربكت المسير، أعطى بعد اجتيازها أمر الفصل الملازم باسل الحافظ إيعاز التوقف، قائلاً: (فصيل الخرا.. قف)، سأل بعد التوقف: من يعرف أكثر فصيل خرا بالكلية؟ ردّ هشام محمود بصوت عالٍ: فصيل (21) سيدي، أجابه باسل بتلقائية محلية: (إنجب خرا²⁵، اشلون تحكي على فصيلك)، وفي أخرى كان قد عاد الفصل (23) من المذاكرة المسائية، أرجعه أمره م. أول سهيل الأعظمي (ضابط الخفر) إلى الساحة الداخلية، ليعمل تعداداً هو الأخير لذلك اليوم، أعطى إيعازاً: من اليمين عدّ، فأعلن آخر واحد عن الرقم (39)، عاد سهيل وعدّهم واحداً بعد الآخر، تبين أنّ موجودهم (40)، وكرّر الإيعاز ثانية (من اليمين عدّ) نطق الأخير للمرة الثانية بالعدد (39)، تحيّر سهيل وحاول تجاوز

²⁵ تعني باللهجة العراقية أمراً بالسكوت، والخرا أي الغائط.

الموقف، بإعطاء إيعاز التفرّق، فتفرّق الفصيل تجاه قاعتهم هرولة، إلّا عبد الله الذي تبين أنّه غاطاً في غفوة عميقة، قال عنه حمار، وتركه واقفاً، حتى الصحوّة الذاتية بعد نصف ساعة، وقد تكرّرت الحالة مع الفصيل (22) الذي كان في طريقه إلى المطعم لتناول الفطور، وحال مروره من أمام صالون الحلاقة، حيث يقف الملازم دحام راضي العسل، في وضع المراقبة العابرة للسير، وهو كذلك يراقب لاحظ طالباً في الوسط يسير بوقع حركة مختلفة، وجّه له الكلام فجأة بالقول: انت مناك حمار وجذّ رجلك، لم يدرك أيّ من الطلاب أنّه المقصود، لأنّ الفصيل مستجّد، والسير حتى هذا اليوم لم يكن مضبوطاً على وفق السياقات، يخطأ فيه العديد من الطلاب في الحركات ذات الصلة بتوحيد وقع الاقدام مع حركة المجموعة، احتجّ بسام عبد الكريم²⁶ بالقول: كيف يقال لنا حمير ونحن طلاب سنصبح ضباطاً، عاقبه دحام، زادت شدّة الاحتجاج، وصل أمرها إلى أمر الكلية عرفان، الذي أرسل في طلب دحام وبسام لشرح الواقعة، وعَدّ عدم التكرار، ولام دحام على خطأ غير مسموح به تجاه الطلاب.

وفي درس التعبئة، كان المدرّس الرئيس الأوّل الركن محمد حسن شلاش، المعروف بهدوئه ودمائه خلقه وندرة انفعاله، يعيد

²⁶ بسام عبد الكريم الناصري، مواليد بغداد (1945) من أصول تكرتية، سكنت عائلته بغداد، هادئ، جاذ، عمل أمر فصيل مشاة، بعد إكماله الأركان عمل ضابط ركن في الاستخبارات، ثم ملحّقاً عسكرياً في ألمانيا، آخر منصب له مدير شعبة إعداد البلاد للحرب في مديرية التخطيط، أحيل على التقاعد عام (1988) لزيادة في الوزن، عمل في التجارة، اختطف ولده الأصغر عام (2004)، وأطلق سراحه لقاء فدية، وفي (2006) حصل هجوم على بيته في منطقة زيونة واختطف ولده الأكبر، وعلى الرغم من دفعه الفدية ثلاثين ألف دولار، وجده في الطب العدلي مقتولاً لأسباب طائفية على الأغلب، انتقل بعدها للعيش في الامارات العربية المتحدة.

فقرة في سياق الدرس، كأنه يشكّ في استيعابها، ويشكّ في حالة نعاس عمّت الصف، أعطى أمرًا بالنهوض والجلوس بقصد التنشيط، ومع هذا بقيت علامات النعاس قائمة، سأل عن نوع الفطور، أجاب مثنى معكرونة مع بصل سيّدي، ردّ لهذا أنتم هكذا، كرّر أمر النهوض، ثمّ غيّر الفقرة إلى أخرى تتعلّق ببعض تجاربه المثيرة أيام الكلية وفي الوحدات فيها تشويق، ومع هذا تتأب هشام فاتحاً فمه واسعاً، بطريقة أخرج صوتاً ناشراً سمعه من كان خارج القاعة، عندها خرج محمد عن طوره قال: (تُؤَل)، حتى الاثنا عشر بان من فمك.

إنّ سلوك التجاوز اللفظي، وبرغم تدخّل أمرو الكلية أحياناً، فقد استمرّ، واستمرّ تداول بعض الألفاظ والكلمات النابية، أكثرها تداولاً طوال تواجد الدورة (چرسي، دبنگ، أثول، قشمر، غنم، حمير، هوش).

الأمر عرفان

حضر المقدّم الركن عرفان عبد القادر جهة المشاجب قبل استلام السلاح، بندقية نصف آلية روسية الصنع (سيمنوف)، وقف عدّة خطوات يراقب المشهد عن قرب، غاب من بعدها ليحضر في يوم آخر عند الملعب، وآخر كان قد جلس فيه آخر الصف يسمع الرائد المصري صلاح الدين عثمان يلقي درساً في اللغة العبرية، كان عرفان أمرًا نشطاً ذكيًا، منضبطاً، حريصاً على إكساب الطالب المعرفة المهنية، والتكيّف على الحياة العسكرية، طالما أصرّ على الدراسة ثلاث سنين تقويمية، لاعتقاده الجازم أنّها لازمة لإحداث فعل التكيّف، واكتساب القيم المهنية العسكرية، حضر التعداد الصباحي، استلم الموجود شخصيًا، أعطى الإيعاز (استرخ) قال: يصادف اليوم عيد

الشجرة، لا بدّ أن نشارك، ثمّ أعطى الأمر لجميع السرايا التحرك، فتقدّم سامي مجيد فصائل السرية المستجد عند انتظامها في تشكيل الرتل، سار بها على الشارع العامّ تجاه معسكر الرشيد، أوقفها بعد السدّة الترابية الفاصلة بين موقع الكلية والمعسكر، كانت هناك سيارات عسكرية تحمل أشجار الكالبتوز، وسيّارات حوضية لنقل الماء، وقف عرفان جوارها، وعصا التبختر محصورة تحت ذراعه الشمال، قال: من الجيد إسهام العسكر في تنمية البلاد، وتشجير الأرض، لجعل العراق أخضر، لنبدأ الآن، فتوجّه الطلبة أولاً إلى حمولة السيارات من الأشجار، كلّ اثنين يُنزلان شجرة يزرعانها على خطّ شبه مستقيم رُسم على الأرض بمادّة الجص، يبعد بحدود المترين عن حافة التبليط، وتبعد الشجرة عن الأخرى خمسة أمتار، حدّدها سامي مجيد على ذلك الخطّ المستقيم بعصاه، وعند الانتهاء من زراعة الشجرة تعود المجموعة لزراعة أخرى، وهكذا تمّ إنجاز المشروع في أقلّ من ساعتين اقتطعت من حصّة الرياضة، كان خلالها الجميع منهمكين في الزراعة، تنفيذاً للأمر، من دون التفاعل مع موضوع الخضرة، التي لم يدرك ماهيتها الطالب في سني الشباب، كان سامي مجيد يتجول بين المجاميع، يراقب النقل والحفر والإنبات، توقّف عند مجموعتنا خلال الحفر لزراعة الشجرة الثالثة، بدا مرتاحاً من نشاطها الجادّ، فكّر قليلاً، ثمّ قال: سيأتي يوم وبعضكم فيه ضباط في هذه الكلية، يتنقلون على هذا الطريق، يتذكّرون هذه الأشجار التي زرعوها ويفتخرون.

لقد تحقّقت نبوءة سامي مجيد، إذ وبعد سنين من التخرّج والعمل في الجيش، تمّ الذهاب إلى الكلية لإلقاء محاضرة عن الحرب النفسية، جرى التوقّف عند الشجرة التي تمت المساهمة في زراعتها الأولى بعد السدّة الترابية، وكانت قد نمت وقاومت إلى نهاية الثمانينات، ولما وُضعت القدمان إلى جوارها، سرى

الشعور بالفخر للمساهمة في زراعتها، بينما باقي الأشجار لم تستمر في المقاومة، لأنّ مشكلتها، وعموم المشاريع في الإدامة والمتابعة، وفي تغيّر اهتمامات المسؤولين، إذ إنّ الملاحظ على السلوك العامّ في مؤسسات الدولة هو أنّه عندما يبادر أمر أو قائد أو سياسي في مشروع يستهويه، يبذل جهدًا في إتمامه، ويتمّه حسب الأصول، لكنّه لن يتابع باقي خطوات الإدامة، حتى هذا المشروع الذي اكتمل في يوم عمل بسيط، وأديم بخطوات لاحقة سقيًا بالسيارة الحوضية، قد أهملَ بالتدريج بعد ترك عرفان الكّلية، ونقل سامي مجيد خارجها، وتوقّف السيارة الحوضية عن نقل المياه من النهر، فمات قسم من الشجر، وقضي على القسم الآخر شتاء عام (1991) يوم قُصِفَت الكهرباء، وتوقّفت إمدادات الكيوسين، وتحوّل بعض من أهل بغداد تجاه الهجوم لاقتطاع الأشجار، بغية تقطيعها، وتجفيفها حطبًا لتدفئتهم في ذلك الشتاء القارص، فغابت كثير من الأشجار، وقُضي على جهود بدأت منذ الزمن الملكي لعمل حزام أخضر حول بغداد ومدن العراق، وبقيت تلك الجهود مجرد شعارات، لم تتنفذ حتى عام (2023) التي شكت فيه جميع مدن العراق من شدة الغبار لغالب أيام السنة، بسبب تجريف البساتين وقطع الأشجار، وقلة المناطق الخضراء، كما أنّ الحكومة في منتصف السبعينات، خطت خطوات جيدة لتشجير حواف الطرق الخارجية التي تربط بين المحافظات، نجحت فيها بشكل ملموس، لكنّها مشاريع طالها الإهمال، وطال أشجارها التقطيع أسوة بغيرها.

كما أنّ عرفان معروف بعدالته المفرطة وإنصافه في التعامل مع الطلاب، وميله إلى تطبيق القانون على الجميع، إذ إنّهُ سمح لطلاب الدورة حضور لعبة كرة القدم في ملعب الكشافة كمشجعين لمنتخبنا العسكري أمام المنتخب التركي، على الرغم من سريان فترة الحجز خمسة وأربعين يومًا بداية الالتحاق، وبعد

أخذنا الأماكن على المدرّجات، تسلّل خمسة طلاب بينهم سمير أيوب، وغسان راجي وعبد الهادي جميل (ابن اخت الرئيس عبد السلام) إلى خارج الملعب، قفزوا من على السياج، استقلّوا سيارة تكسي نقلتهم إلى بيوتهم في أماكن متفرّقة من بغداد، واتّفقوا على العودة قبل انتهاء المباراة، عادوا من بعدها إلى الملعب بالطريقة ذاتها تسلّلًا، إلى المدرّجات التي يتواجد فوق مصاطبها الفصيل، لكنهم كُشِفوا من العريف، ففُذِّموا مذنبين إلى أمر الكلية الذي حكم بفصلهم، حسب صلاحية يتمتّع بها لمستوى صلاحية قائد فرقة، تعطيه حقّ الفصل لأيّ طالب يخالف ضوابط الكلية وقيمها العسكرية؛ أو لا يليق سلوكه بمهنية الضابط، وصل الخبر رئيس الجمهورية عبد السلام، فأرسل له محمود شيت خطاب للتوسّط والحيولة دون فصل عبد الهادي، مع رجاء معاقبته أيّة عقوبة انضباطية يراها مناسبة، لكنّ عرفان رفض الرجاء، ما دفع عبد السلام إلى تقليل صلاحية أمر الكلية من قائد فرقة إلى أمر لواء، عندها سحبت من عرفان صلاحية الفصل، وانتقلت حصرًا إلى رئيس أركان الجيش الذي أمر معاقبة عبد الهادي عقوبة انضباطية، ولمّا وجد عرفان نفسه مقيّدًا، أمر بإلغاء فصل الطلاب الثلاثة، وفي اليوم الثاني جمع الكلية، تكلم بألم عن التدخّل في شؤونها، وعن وجود طلاب غير ملائمين، أسماهم (بالحبربشية).

وعلى وجه العموم فإنّ عرفان معروف على مستوى الجيش، ومتّفق بين عموم ضباط ذلك الجيل والأجيال القريبة على أن وُضِعَ الكلية في زمنه من حيث التدريب والضبط والالتزام قد تحسّن بعد مرورها بانتكاسة ضبطية إبّان انقلاب الثامن من شباط عام (1963)، حتى عُرفت الدورة الثالثة والأربعين بعد تخرّجها بدورة عرفان، إشادة بحسن إعداد خريجها، كما أنّ عرفان العسكري المنضبط كانت له ارتباطات

بتنظيم الناصريين، انعكست على توجّهاته في تنظيم وتدريب الكلية، إذ بدأ التوجّه صوب مصر، وأوّل عمل عمله غيّر التنظيم السائد فيها، ثمّ غيّر من شكل القيافة الخارجية، التي كانت نسخة من القيافة الإنجليزية لكلية ساندهيرست (الأزرق شتاءً، والأبيض صيفاً)، إلى القيافة المصرية (الخاكي صيفاً، وفي الشتاء)، هذا وقد دفعته ميوله تلك إلى الاشتراك في المحاولة الانقلابية الفاشلة بقيادة اللواء الطيار عارف عبد الرزاق، ودفعت الحكومة تسفيره مع باقي المشاركين إلى مصر التي عاش فيها لاجئاً سياسياً، وعاد منها إلى بغداد بعد فترة من الاحتلال (2003)، ساعياً إلى ترميم بيته المتروك، فتوفّي فيه عام (2008).

.....
 إنّ الحديث عن عرفان ضابطاً وأمراً للكلية، من وجهة نظر خريجي الدورة (43) يضعه في مصافّ المتميزين، إذ نجح في فرض الالتزام بالمدّة القانونية للدراسة فيها ثلاث سنين تقويمية، استفادت منه الدورة مهنياً، فكانت الأولى في زمنها قد أتمّت تواجداً لسنين ثلاث، على عكس بعض دورات سبقتها، قد اختصرت الدراسة فيها لسنين، وأحياناً أقلّ، وكان لهذه السنوات الثلاث أثر في اكتساب مستوى عالٍ من الضبط والمعرفة المهنية، والتطبّع بالحياة العسكرية، خرّجت ضباطاً بمستويات قيادية عليا، ففي النصف الأوّل من السبعينات كان هناك أكثر من عشرين ضابطاً من الدورة شغلوا مناصب آمري فصائل ومعلمين في الكلية²⁷، كما أنّ ضباطاً من الدورة تقلّدوا مناصب

²⁷ صبحي حسين الربيعي (أعدم)، خلدون جبر الحافظ (لواء)، رياض حسن الداود (توفي برتبة رائد في حادث غير قتالي في الحرب العراقية الإيرانية)، فرات هادي (فقد في الحرب برتبة مقدم)، أمجد صالح القرغولي (عم. ر)، صلاح حسن (فقد بالقادسية)، نضال عبد الحميد، (عقيد)، وائل سعدي الدباس (أصيب بالقادسية برتبة مقدم)، سمير أيوب مطر (عم. ر)، صباح حسون، (فريق)، غانم صالح العزاوي (ل. ر)، عبد المنعم الشخيلي، جواد رومي (لواء)،

قيادية عالية في الجيش والدولة²⁸، وآخرين أصرت الكلية على رسوبهم في السنة الأولى (المستجد)²⁹، لكن عرفان لم يكن هو الأمر الوحيد الناجح والمنصف في تاريخ الكلية، إذ اعتادت الوزارة من قبل تنسيب أمرين لهذه المؤسسة المهمة، منصفين وأكفاء، خاصة في المدّة الزمنية التي سبقت تسييس الجيش بعد عام (1963)، وقد تميّز بعضهم بمواقف أثبتوا فيها قدرًا كبيرًا من الإنصاف وتحمل المسؤولية، ففي تموز (1960) بدأت ممارسات تخرّج الدورة (38)، وقد طرح على مجلس الكلية موضوع التصديق على الخريج الأول، الذي كان من نصيب الطالب شوكت أحمد عطا³⁰، لكن أمر سريته اعترض مشيرًا إلى

باسم خليل (أول من استشهد من ضباط الدورة بالقادسية، رائد ركن)، عبد الكريم زينل، أمر كتيبة دبابات، فاضل عباس السامرائي، إبراهيم سليمان نادر (عميد)، عبد الستار حمادة، وعادل يوسف المالكي، (أصيب في القادسية وبترت يده).

²⁸ الفريق الأول سلطان هاشم وزير دفاع، والفريق ثابت سلطان معاون رئيس الأركان للعمليات وقائد الفيلق الثالث، والفريق ناصر سعيد قائد الفيلق الخامس والمفتش العام، والفريق سعد خضير مدير عام ومستشار، وتقلّد آخرون منصب قائد فرقة بينهم، عم. ر زيد جواد، ل. ر صباح إسماعيل فرحان، ل. ر أزه ر سعد الله، ل. ر إسماعيل عبد القادر، عم. ر أحمد راكان، ل. ر غانم سلطان البصو، ولواء ركن غانم العزاوي.

²⁹ الذين رسبوا في السنة الأولى وتحولوا إلى الدورة (44) هم: مهند محمود، صباح محمود العنبر، محد طاهر العناز، عدنان خلف، محمد مضر، صالح وتوت، هتيمي نكه الدليمي، وإبراهيم حسين الجبوري، وهيثم حسين العمر، وخالد البگوع (1)

³⁰ الفريق شوكت أحمد عطا الصميدعي، من سكنة بغداد، أصله من عائلة موصلية متدينة، لها جامع في الموصل يحمل اسمها (جامع الصميدعي)، متفوق في جميع مراحل الدراسة، حلّ الأول في الكلية العسكرية، وكذلك في كلية الأركان، ضابط من صنف الدروع، كفوء، مرن، "بسيط"، متحضّر محبوب من رؤوسه، تدرّج في جميع المناصب القيادية، أمر كتيبة وأمر لواء وقائد فرقة وفيلق، ثم أمرًا للأكاديمية العسكرية، أشترك في الحرب العراقية الإيرانية منذ بدايتها، وعُرف بحسن قيادته، وعلاقته الجيدة بقاتته وأمره، لا يميل إلى استخدام

تقرير كتبته الاستخبارات العسكرية عنه يفيد بانتمائه إلى حزب البعث العربي الاشتراكي، ويحدّد اسم مسؤوله صدام حسين، واقتراح أي أمر السرية (منعاً للإحراج الأمني) تغيير النتيجة وجعله ثانيًا؛ أو ثالثًا، أيّد الطرح مجلس الكلية، لكنّ أمرها حسن صبري محمد علي، (المكّنّى من قبل الطلاب حسن سكراب)، رفض المقترح لوجود مخالفة أخلاقية لا يتحمّل مسؤوليتها، وفي اليوم الثاني كان في ديوان الوزارة عند سكرتير الزعيم حيث العرف الجاري آنذاك توجّه أمر الكلية إلى رئيس الوزراء لتقديم الدعوة له رعاية التخرج، وفي أوّل المقابلة سأله، أي الزعيم: من المتخرّج الأوّل لهذه الدورة؟ أجابه من دون تردّد: طالب يدعى شوكت أحمد، ثمّ روى له تفاصيل قصّته، وما دار في اجتماع مجلس الكليّة، وتوجّهات تغيير النتيجة بسبب تقرير الاستخبارات، عندها أعاد صيغة السؤال:

- ما رأيك أنت أمر الكلية؟

عبّر عن رأي قوامه استمرار شوكت في الموقع الأوّل، لأنّه استحقاق، وبالنسبة إلى المعلومات تبقى مسألة أخرى يمكن التعامل معها لاحقاً.

ردّ الزعيم: كان ينتظر هذا الجواب، أحمد الله أنّه لم يأت العكس، ولو كان كذلك العكس دعمًا للرأي الخاصّ في تغيير النتيجة، لكانت الإحالة على التقاعد قد حصلت على الفور.

حضر الزعيم في اليوم الثاني حفل التخرج، باشر توزيع الجوائز على الخريجين الأوائل، تقدّم منه الطالب الأوّل شوكت، ليستلم هديته مسدسًا، تفحص الزعيم شاجور المسدّس (المخزن)، وجده خاليًا من الإطلاقات الحيّة، وهي العادة الجارية في تسليم المسدّس فارغًا من العتاد، عندها طلب من الأمر إحضار عتاد

العنف والإيذاء، وهو سلوك درج عليه بعض القادة مع المنتسبين طوال الحرب، عاش في المنفى (الأردن) بعد التغيير عام (2003).

حيّ، وضعه في الشاجور، الذي أخذ مكانه في المسدس، ومن ثمّ قدّمه هديه إلى شوكت، خاطبه بلهجة الأب قائلاً: سأقدم هذا المسدس بعتاده كاملاً، أمل أن لا يوجّه إلى إخوانك في هذا الجيش، ولا إلى الدولة، وأن يقتصر توجيهه إلى العدو، ردّ شوكت معاهداً بعدم توجيهه إلّا للعدو، وزاد في تعهده عدم خيانتة قائداً، وبهذا الصدد يتداول أبناء الدورة (38) رواية مفادها أنّه، وقبل يوم من حركة (8) شباط (1963)، حضر شخص بعثي لتبليغ الملازم شوكت رسالة من مسؤوله الحزبي حتمية التهيؤ للمشاركة في الثورة (الحركة) ضدّ الزعيم، اعتذر شوكت عن المشاركة، مؤكّداً أنّه قد أعطاه وعداً بعدم خيانتة.

.....

ركّزت الكلية في اهتماماتها زمن عرفان على البنية والقابلية البدنية، ولم تتجاوز الفروسية التي خصّصت لها ساعتين صباحية يومًا في الأسبوع بإشراف الرئيس الأوّل محمد سالم، فضلاً عن الرياضة التي يدير جناحها المقدّم شوقي عبود، وفي مجالهما حدثت قصص ومفارقات، منها مراهنات لنضال عبد الحميد مع فاروق على إيقاع حمد من على حصانه أثناء التدريب، قبل الرهان ديناراً واحداً، قصد نضال رئيس العرفاء معلّم الفروسية بعد الاتفاق وإطلاع أفراد الحضيّة كشهود، أعطاه ربع دينار، أقنعه تخصيص حصاناً شرساً إلى حمد، ركب حمد ذاك الحصان، وسار به خبيّاً، اقترب إليه نضال من الخلف، وخز مؤخّرتة بدبوس كان يحمله لهذا الغرض، ردّ الحصان برفسة من أرجله الخلفية، واستمرّ بالرفس والدوران في المكان، أختلّ توازن حمد، سقط من على ظهر الحصان، وهو يشتمّ قائلاً: (أولاد الحرام وين ما أروح ألقاكم)، كان معلّم الفروسية متساهلين، وكنا مع حاتم وعدنان مجموعة مخالفة اعتادت الخروج عن السير خبيّاً، وخرق تحديدات المسافة في السير

نصف طول حصان بين حصان وآخر، وفي أحد الدروس، قال عدنان ذو الخيال الخصب، دعنا نعمل جولة في تخوم الرستمية على ظهور الأحصنة، أيّده حاتم بشدّة، وفي بداية الدرس، ضرب عدنان بطن حصانه بمهماز كان قد جلبه خصيصاً، وأرخى له العنان على غير هدى فانطلق الحصان، تبعناه بحجّة السعي للسيطرة على حصانه، وبعد الابتعاد عن الرهط كفاية، تحوّل الجري إلى جولة في المنطقة انتهت بعقوبة أسبوعين حرمان إذن.

.....
أتمّ المستجّد أشهرًا من التعليم المُنظّم، والتدريب على الضبط واستيعاب بعض الدروس النظرية (التاريخ العسكري، الجغرافية العسكرية، التعبئة، التحصين، اللغات - الإنجليزي - الروسي - العبري، الفيزياء والقانون)، بدأ التهيؤ للانتقال إلى التطبيقات العملية لتمرارين المعركة على مستوى الحاضرة والفصيل، تدريب إجمالي، حدّته الكلية لجميع طلابها، هذه السنة في منطقة البوسيف جنوب الموصل، تجمّعت السرية في ساحة العروض بكامل التجهيزات السفرية (الخوذة الفولاذية، حقيبة الظهر، الخيمة السفرية، الزمزمة، مجرفة، مع البندقية)، أعطى أمرو الفصائل إيعازًا بالإركاب، في السيارات العسكرية، وأوعز أمر السرية التحرك رتلًا إلى محطة القطار العالمية، اصطفت الفصائل على الرصيف، لتأخذ مكانها في عربات النقل العام، وبعد التأكّد من أخذ الجميع أماكنهم، أطلق ضابط الخفر، صافرته مهّدت لصافرة أخرى صدرت عن مراقب الخط، فانطلق القطار يزأر في تمام الساعة الثامنة مساءً، وصل محطة الموصل في حدود الساعة السابعة صباح اليوم الذي تلا، نزل أمرو السرايا أولاً، ومن بعدهم أمرو الفصائل، اصطفت الفصائل بالنسق، جرى التعداد الصباحي خارج المحطة، بدأت من بعده

السرايا استعراضًا عسكريًا، من مكانها في المحطة، مرورًا في شارع نينوى، وسط الأهالي، موصليون اصطقوا على أرصفة الشارع يحيون المستعرضين، زغردت بعض النسوة اعتزازًا بأبنائها، وفخرًا بانتمائهم إلى العسكرية المقدسة، لتنتهي المسيرة الاستعراضية الراجلة عند دار الضباط الراسية على شاطئ دجلة جوار جسر الحرية، وتبدأ أخرى راكبة في سيارات عسكرية، توقفت داخل معسكر البوسيف، أشار آمر السرية على يمين الشارع الوسطي موقعًا لمخيّم السرية، قال لكلّ فصيل خيمة (400 پاوند)، فمدّ المنتسبون فرشهم السفرية، وضعوا حقائبهم عند الرأس، لأخذ قسط من الراحة.

زار عرفان السرية في تدريبها الإجمالي، أمر أن تكون وجبات الطعام الثلاثة مطابقة لما يتناوله الجندي في الوحدات، فغيّر الطباخون سياقات الطبخ، قدّموا الفطور في اليوم التالي صمونة من النوع الأسمر الصلب، مع رأس بصل لكلّ طالب، فحدثت همهمات وتعليقات بين طلاب الفصيل (22)، وتأخّر عن تناول الفطور بشكل غير معتاد، فسّره رئيس العرفاء امتناعًا، أمرهم آمر الفصيل لبس التجهيزات السفرية كاملة واستلام السلاح، ثمّ الهرولة إلى خارج المعسكر، ومن بعدها بدأ سلسلة أوامر للبروك والنهوض والزحف، لمسافة طويلة على أرض عُرفت بالوعورة امتدت إلى حافة النهر، والعودة على السياق نفسه، حتى حلول الظهر، الذي حضر فيه آمر السرية غداءً شارك الفصيل قصعته من الرزّ ومرق خالٍ من اللحم، كما يقدّم للجنود.

.....
بدأ التجمّع صباح اليوم الأوّل من الأسبوع الثاني للتدريب الإجمالي بكامل التجهيزات السفرية، اصطقّت الفصائل، بالتشكيل الثلاثي، وضعت الحقائب على الظهر، تتدلّت من جوانبها

المجرفة، إحدى معدّات الحفر، وَغُلِّقَت البنادق على الكتف، فتش
أمرو الفصائل فصائلهم، ومُلِئَت الزمزميات ماءً، اقتصر الشرب
منها جرعة واحدة بأمر مسبق، مقداره ملء غطاء الزمزمة.

وقف سامي مجيد أمام السرية في مكان وسط، استلم
الموجود من الضابط الأقدم، قال في منهج التدريب لهذا اليوم
مسيرة تَحْمُل راجلة، ثم أعطى إيعازًا بالمسير، بدأت الفصائل
سيرها بالتعاقب على الشارع العام لمئات الأمتار، انحرفت
وجهتها فيما بعد إلى آخر ترابي تجاه حَمَام العليل جنوبًا، كان
أمرو الفصائل يسيرون إلى جوار فصائلهم، يحثّون على الانتظام
بالمسير، وترديد نشيد (نحن سور للوطن)، يتبارون في علو
الأصوات الصادرة عن فصائلهم، يردّدون مع تعاقب الخطوات،
والنبرات العابرة للصوت كلمة (أعلى)، هكذا استمرّ وقع المسير
لخمسین دقيقة أعطى الأمر بانتهائها استراحة قصيرة، قال خمسة
دقائق، تتكرّر كلّ خمسین دقيقة، وضع سيارة نقل عسكرية
(زِيل) تسير إلى الخلف لالتقاط من يخفق في الوصول إلى خطّ
النهاية، قلّة هم الذين أخفقوا قبل الكيلو متر العشرين، أعطى حال
الوصول إليها استراحة الدقائق الخمسة، مع أمر بإفراغ الزمزمة
من الماء، بادر هو إفراغ زمزميته، وأشار إلى أمري الفصائل
لعمل الشيء ذاته، ثمّ أعطى إشارة المسير، لكنّ نشاط الغالبية قد
تضاءل على حافة الكيلو متر الخامس والعشرين، حتى بات من
الصعب توحيد حركة الأقدام في سير أراده أمرو الفصائل أن
يكون نظاميًا طول تلك المسافة.

كان سامي مجيد في المقدّمة نشطًا ينتظر سريته، أشار على
ساحة ترابية مستوية، تحاذي ضفّة دجلة الغربية، قسمها بين تلك
الفصائل الثمانية، سمح بشرب الماء من النهر، فجرى التهافت،
مدّ بعضهم جسده على البطن، وراح يشرب بشراهة، أطلق
صافرة التجمّع، ثم أعطى أمرًا لتناول وجبة الأكل، أرزاق جافّة

محمولة في حقيبة الظهر، ونصب الخيم السفرية، وجّه أن يشبك كلّ اثنين خيمتيهما لتكون واحدة يتشاركانهما في النوم، طلب ضابط الخفر خلع الأحذية والوقوف حفاة في رتل مفرد بغية المرور على حوض معدني مدوّر (الطشت) فيه ماء مع محلول البرمنغنات، قال يغطس الواحد قدميه في الحوض من أجل التعقيم، ويمكن من بعدها السباحة في النهر لمن يرغب، حدّد المدة المسموح بها ساعة واحدة فقط، فاستعجل الطلاب، تبديل ملابسهم والنزول إلى النهر بالملابس الداخلية، إذ لم تكن السباحة في النهر من ضمن الحسابات، قال حاتم: دعنا نسبح مع التيار لنرى ماذا بعد.

- لكنّه قد يجرفنا بعيداً، وتحسب علينا مخالفة، وسجلّنا مليء بالمخالفات.

- دعك من هذا الهراء وانزل عميقاً، سوف لن يلحظ أحد. كانت السباحة مع تيّار الماء الجارف سهلة، أوصلتنا نحن الاثنين بوقت قصير لمسافة تزيد عن ثلاثة كيلو مترات جنوباً، أدركناها بعيدة عن المعسكر، قال حاتم، كفى سباحة، لنعود في الحال مشياً بين مزارع البنجر، كان في إحداها ينتصب كوخ إلى جواره سيدة تقف خلف تنّور تخبز، تمّ التعرّيج عليها بعد الشعور بقسوة الجوع، سألت هي أولاً عن سبب التواجد هنا، وقد اقترب الوقت من المغيب، أجابها: طلاب من الكلية العسكرية، أغرانا التيار الجارف للماء فوجدنا أنفسنا في هذه المنطقة بعيدين عن المخيم، ضحكت من حماقة الشباب، وقدمت ثمناً لضحكاتها رغيفين من خبز تعدّه للعشاء، ثم أشارت إلى طريق مختصر يصل المخيم المطلوب، لكنّه طريق لم تكن الهرولة عليه كافية للوصول قبل التعداد، فتسجّل تأخيراً كلّ الواحد ساعتَي تعليم إضافي، وأسبوعين حرمان إذن.

في الأسبوع الأخير من هذا التدريب كان هناك تمرين على المسير بالحُك (القُنْبَاص) ليلاً، تاه فيه الفصيل العشرون عند تلّ حلاب، وصل عائداً المعسكر متأخراً أكثر من ساعة، عوقب من قبل سامي مجيد ساعتَي تعليم إضافي تنفّذ في الحال، وفي الليلة قبل الأخيرة، وعند انتصاف الليل، والمعسكر في هدوء تامّ حصلت غارة شكلية على الخيم من قبل دورة للقوات الخاصة بإشراف شكري العزاوي، ودحام راضي العسل، ونواف نايف الرومي، نفّذت بالعتاد الخلب، اختطفت عدداً من الطلاب، مؤهت غارتها جيّداً حتى ظنّ بعضٌ من الضباط أنّه هجوم للأكراد، إذ سُمع معلم التحصين م. أول عبد الستار يقول بعصبيه (أولي هجموا علينا العصاة).

كان أمر الكلية هو العارف الوحيد تفاصيل الغارة تدريباً لتلك القوات الخاصة، مقتنعاً أنّ تنفيذها سيساهم في مساعدة الطلاب على التطبّع لأجواء المعارك، أُعلن بعد تلك الغارة عن تنفيذ فعالية الرمي بالعتاد الحي لإتمام آخر مراحل التدريب، فتولّدت رهبة لدى بعض الطلاب، لأنّ غالبهم لم يخبروا الرمي بعتاد حقيقي هكذا، ولم يتحسّسوا ارتداد البندقية من قبل، تجمّعت السرية عند ساحة أعدت لأغراض الرمي، قدّم كلّ أمر فصيل إيجازاً عن الرمي، وأعاد درساً للتسديد والتصويب، وذكر بأهمية الخطّ الوهمي الممتد بين الفرضة والشعيرة، توقّفت آنذاك سيارة حمل عسكرية، تقدّم منها سامي مجيد، ذكر أنّ المئة فلس التي استقطعتها من الراتب الشهري لجميع طلاب الدورة في الشهر الماضي، كانت لشراء صحن من الخزف ستكون أهدافاً ثابتة (الدريئة)، ذكر ضرورة التسديد عليها رصاصتين، لكلّ رام، أمر بتقسيم الطّلاب إلى إرسالات، لكل إرسال عشرة طلاب، وهكذا بدأ الرمي الحقيقي الأوّل، كان فيه توجس يسير، ورهبة، انتهت بعد الإطلاقة الأولى، وكالمعتاد حقق بعضهم إصابة الهدف

بالرخصة الأولى، وقلة هم الذين فشلوا بعد نفاذ الذخيرة رصاصتين.

وقف سامي مجيد في ساحة العرضات قبل التمتع بالعطلة الصيفية التي بدأت في الأول من تموز، قال ستنتهي في الأول من أيلول، أشاد بالنتائج التي حققتها الدورة، أكد فخره بتركيز التدريب لهذه السنة الأولى المستجد على المشاة، قال من يتقن فن المشاة سيبدع في جميع الصنوف، في تلك الأثناء تخرجت الدورة (41)، ودمجت الدورة (42) مع الثالثة والأربعين إثر اتهام منتسبيها، أو ما تبقى من منتسبيها بالانتماء إلى حزب البعث، وبعد هذا الدمج الكيفي، لم تعد هناك دورة لمستوى المتقدم، بل وحدث فراغ عند التحاق الدورة الجديدة (44)، عدته خللاً ضابطياً، فعُدلت عن قرارها في دمج الدورة (42)، واتخذت قراراً آخر، أعادت الأمور إلى نصابها، ودفعت بها إلى مستوى المتقدم من دون المرور بمرحلة المتوسط، وتم تخريجها عام (1965) بعد إكمالها الدراسة سنتين.

عثة على طريق الالتزام القيمي

بدأت العطلة الصيفية، وعاد وقع الحياة الشبابية في القرية، جلوساً نادراً في المقهى، ونزولاً شبه يومي إلى مركز مدينة الحلة، حتى حلول موسم قطاف التمر، وفي أثناءه حدث شجار داخل أسوار القرية بين الخال حسين الداود، وبين حسون المسافر، الذي كان ابنه الوسط حمزة زميلاً لغالبية سني الدراسة الابتدائية والثانوية، إبان سكن عائلته في القرية، قادمة من ريفها، وكان قد قُبل أيضاً في الكلية العسكرية بدورتها (43)، أصل الحكاية ذهب الخال إلى بستان صغير (البو عودة)، ورثه مزارعاً، ومعه طاقم القطاف (الصاعود والطواشات)، اعترضه

حسون وأبناؤه بدعوى ضمان إنتاج البساتين جميعها من مالها الأصلي (الجادرجي)، منعه من إتمام عمله، ولمّا أصرّ على حقّه تحولوا إلى ضربه بالعصي، وصل الخبر أهل القرية، بقوة انفعالية نقلت الشجار إلى جيل الشباب، فوجدتُ أنا وعلي أنفسنا طرفاً مباشراً فيه.

كانت عائلة حمزة تسكن الزقاق المقابل لبيت علي، وقف أصغر أبنائها في الباب مراقباً، وخرج حمزة مع آخر يصغره في العمر يشتمان، ويشيران بعصي يحملانها تُعَبِّرُ عن نيات اعتداء، جرت محاولة إيقافهما، فتماديا في الشتم، ما دفع الدخول إلى البيت تفادياً لتصادم غير محبذ، فسّر الدخول هرباً، فتقدّما من الباب وزادا من وتيرة الشتم والطرق عليها بحدّة، عندها خرجنا نحن الاثنان، حاملين عصيّاً، زادها علي سكينّة تكريب نخيل، معدّات اشتباك، زادت من عدوانية المقابل وحتمت حصوله، وإسقاط إحدى عشرة سنة من علاقات الطفولة والمدرسة، اشتباك انسحب على إثره حمزة إلى الزقاق، حصل على ضربة عصي أعلى الرأس، تدخّل شباب قرييون وقفوا حاجزاً بين الخصمين وفضّوا الاشتباك، وراح كلّ واحد إلى بيته كأَيّ شجار عابر لم يُفَضّ إلى خسائر تستحق القطيعة، لكنّ العصبية لم تهفت، إذ، وبعد الفجر، حضرت سيارة شرطة، ومعها أمر إلقاء القبض على الاثنين، بتهمة اعتداء اثنين من الحرس القومي على طالب في الكليّة العسكرية.

أخذ مفوّض شرطة الإفادة، تأكّد من أنّ الخصم كذلك طالباً في الكليّة العسكرية، قرّر القاضي التسفير إليها، وإعلامها أصل القضية، لأنّها الوحدة العسكرية للمتهم، نصف نهار في مركز الشرطة، أقرب إلى المحتجز منه إلى الموقوف، فلمّا حلّت الساعة الواحدة ظهرًا جاء الشرطي عبد الحسين، يمسك أوراق الإحالة وأصفاً وضعها بكتا اليدين تقليدًا للتسفير ونقل

الموقوفين، ومن بعد التأكد من إحكام الغلق بدأ السير من المركز إلى موقف سيارات الأجرة، العاملة على خطّ حلة بغداد بقصد الذهاب مأمورًا إلى الكلية لتسليم طالب متهم، كان منظر الأصفاد مخجلًا، أشار انتباه المارة، وأثار كذلك حوارًا وديًا مع عبد الحسين، اقتنع في نهايته أنّ الأمر مجرد شجار، لا يتطلب وضع الأصفاد، نزعها، ثم سار إلى الجوار بهدوء حتى لحظة وصول الكلية في تمام الساعة الثانية بعد منتصف الليل، كان ضابط الخفر يومها الملازم نبيل، استلم العهدة والأوراق، وأمر الإيداع في السجن الخاص، كان السجن عبارة عن غرفة مربعة يقترب ضلعها من خمسة أمتار، تجاور مشاجب السلاح، سجنًا كان موجودًا بين جدرانه الأربعة طلاب آخرون، بينهم فاضل البراك من الدورة المتخرجة (41) (صار مديرًا لجهاز المخابرات فيما بعد)، وخالد أحمد رمضان مفصولًا من الدورة (42) (عضو فرع لاحقًا)، والطالب أحمد عبد الرحيم يمانى من الدورة (43) (سفيرًا لبلده بعد حين)، جميعهم موقوفون بتهمة الانتماء إلى حزب البعث، أسبوع وأُرسل فاضل البراك إلى الأمن، وأُطلق سراح خالد، وهناك في القرية كان التحرك حثيثًا لجعل الشجار عاديًا بعيدًا عن الحرس القومي والسياسة، وصل على إثره العمّ علي شهاب وسيطًا بالتأسيس على معرفة له سابقة بمساعد أمر الكلية العميد نشأة ماهر تمتدّ إلى ما قبل عشرة أعوام، كان فيها العمّ ضابط صف معلّم، أدرك نشأة طبيعة الفعل وساهم في التبرير بضبط الإفادة، حيث لم يتبين للمجلس التحقيقي وجود علاقة سياسية بالموضوع الذي تثبت شجارًا عاديًا، فتّم غلق المجلس وإطلاق السراح، وعُدّ مدّة التوقيف شهرًا عقوبة انضباطية، أُطلق من بعدها السراح، وقد مضى على الدوام في السنة الثانية (المتوسط) يومان.

سنة ثانية

لم يختلف وقع الحياة في الكلية إبان المتوسط عن المستجد من نواحي التدريب والدراسة، كان المتوسط في واقع الحال متممًا للمستجد، لكنّه، ومن جهة أخرى، تميّز بنشاطين متناقضين، الأوّل قوامه المغالاة بالمخالفة حدًّا تمّ تسجيل الاسم مع قائمة المخالفين العتاة (خلدون جبر، حاتم عبد الأمير، مهند محمود، صباح الساموك، عياض هاني، ناصر خلف، ماجد صالح، حمد عيد، أدهم سعيد، عدنان حسين، عزيز الياسري، سيف الدين عبد الرحمن، كمال سعيد، طه حامد، سعدي شهاب، وسلمان بدري الناصري)، والثاني الاندفاع صوب الرياضة، ودخول مضمار ألعاب القوى، في الركض لمسافات طويلة، (1500، و3000 متر حواجز)، تحقّق في ركضة الثلاثة آلاف تقدّمًا ملموسًا، ووقتًا طول مدّة التهيؤ والممارسات فكنت أنا الأوّل على الكلية، وفي يوم السباق بدأ الانطلاق بقوة، حققت فيها لفة كاملة على بعض المتسابقين، إلّا أنّه، وفي المئتي متر الأخيرة، وعند اجتياز عادل مجيد آخر المتسابقين، مدّ قدمه إلى الجانب الذي منه يتمّ الاجتياز لغرض الإعاقة، وإحداث فعل العثرة، وقد حصل ما أراده، عثرة سقوط على الأرض، وإلى أن أصلحت وضعها وأعدت التوازن كان نصيف المتسابق الثاني من السرية التي ينتمي إليها عادل ذاتها قد أصبح هو الأوّل، وضعّ تمّ تصحيحه في ممارسات اختيار المشاركين في هذه المسافة (3000 متر) على مستوى الجيش، إذ تمّ الحلول أولاً، ومن بعد جاء نصيف ثانيًا، وتسجيل التسلسل السادس على مستوى الجيش، وفي السنة ذاتها تمّت المشاركة مع فريق السرية في سباق (400 متر بريد)، وقد حصل الفريق على المركز الأوّل.

لم تكن الرياضة في وقتها اهتمامًا احترافيًا، بل رغبة لا تعدو هواية عابرة، وملاذًا طوال مرحلتَي المتوسط والمتقدم للتخلص من لعبة السلاالم، وكسب التقدير اللازم للذات، لذلك لم يكن هناك أداء للتمارين منظمًا، ولا اغتنام للقدرة الجسمية، وتطويرها لتحقيق التفوق في مجال يحسب حيويًا، كان كلّ شيء أقرب إلى مفهوم الصدفة وعبور المرحلة، وحسب الظنّ كان سلوكًا يعود إلى طبيعة العيش حياة ريفية، فيها الطموح محدود، ويقلّ وسطها التخطيط، وتكثر معالم السلوك الأنّي، التقيت مع نصيف جاسم (من أبناء الدورة)، يسكن مركز مدينة الحلة عند ملعب الإدارة المحلية في حي الجزائر، عصر يوم الجمعة لحضور مهرجان رياضي على مستوى المدينة قبل ساعات من الالتحاق بالكلية، كان نصيف يرتدي ملابس الرياضة، قال إنّه سيشارك في سباق (800 متر) إلى صالح نادي الحلة، وألحّ في المشاركة لصالح النادي في ركضتي (800 و1500 متر) دعمًا للنادي، وإلى قريبه رئيس ذلك النادي، كانت الإجابة بتناول الغداء قبل ساعة، وعدم إجراء تمارين إحماء، والسباق سيبدأ بعد دقائق، لكنّه عاود الإلحاح برجاء قوي هذه المرّة، لوعده أعطاه بوجود مشارك يمثّله في الركضتين المذكورتين، فجرى التنازل عند رغبته، وتغيير الملابس على المصاطب المجاورة، واستلام الملابس الخاصّة بالسباق والرقم المخصّص (12)، ودخول المضمار، فكانت النتيجة الثالث على المحافظة في الركضتين.

.....

اقتربت السنة الثانية (المتوسط) من نهايتها، وتحدّد موعد التدريب الإجمالي ومكانه المحور الممتدّ من مدينة ديالى إلى خانقين، تحرّكت سيارات الزيل العسكرية من وسط الكلية صباحًا، حمل الجميع تجهيزاتهم السفرية، وصلت منطقة الصدور قريبًا من الظهر، نصب الطلاب خيمًا سفرية، لكلّ خيمة طالبان،

ولكلّ فصيل قاطعه ضمن السرية التي باتت تضمّ المستويات الدراسية الثلاثة، بعد تحوّل شكل التنظيم من سرية للمستجد بثمانية فصائل، وأخرى للمتوسّط، وثالثة للمتقدم إلى ست سرايا (محمد القاسم، سعد بن أبي الوقاص، خالد بن الوليد، أبو عبيدة الجراح، المثنى بن حارثة، وصلاح الدين الأيوبي)، تضمّ السرية منهمّ فصيلاً لكلّ مستوى دراسي، بدأ التدريب من منطقة السعدية، شاملاً لكلّ صفحات القتال، تقدماً وهجومًا ودفاعًا وانسحابًا بمستوى سرية، شرعت فيه سرايا الكلية بالتقدّم، ونفذت هجومًا على تلال في حميرين، ثمّ اتخذت موضعًا دفاعيًا قرب المنصورية، وبعد الانسحاب أخذت موضعًا دفاعيًا جديدًا في دراويشكة، ومنه تمّت العودة إلى الكلية بعد مضي شهر على وجه التحديد، شهر لا يخلو من المفارقات والمخالفات ومزح الشباب، إذ، وفي تمرين الدفاع، تهيأت الفصائل لحفر الخنادق الشقيّة والملاجئ، وزع أمر الفصيل حضائره، وأمر بالشروع في الحفر، كانت الأرض صخرية، لم يوافق على تبديل المكان بآخر، فأخذ الحفر حسب الدور وقتًا حتى موعد الغداء، كان صاحب نوبة الحفر منهمّكًا في عمله حسب الدور، يذر التراب الذي يجمعه من الحفر خارج الملجأ، وكان التكليف جلب الغداء، في الصحن المعدني (القصعة)، تمّ التوجّه إلى المطبخ، والعودة منه بوجبة رز مكسية بمرق الباذنجان، وضع على حافة الخندق، فتجمّعت الحاضرة من حولها، وهم جياع، اتفقوا على ترك صاحبهم منهمّكًا في الحفر، لأغراض الهزار، لكنّه علم بالأمر حال الشروع بتناول الطعام، فقام بملء المجرفة كومة تراب، قذفها إلى الأعلى، جاءت جميعها داخل القصعة، قال واحدة بواحدة، لكنّهم لم ييأسوا، فقد ازاح خلدون التراب من على خليط الرز، وبدأ في تناول الوجبة رزًا مخلوطًا بالتراب، ثمّ تبعه الآخرون.

كانت منطقة التمرين مشهورة بالسحالي (العطاء) متوسطة الحجم نسبياً، وفي أحد التمارين، تحرّك الفصيل ضمن تشكيل السرية إلى خطّ الشروع، تمّ تركيب الحراب على بنادق السيمنوف، وأثناء الصولة خرجت عدّة سحالي، باتت تركّض باتجاهات مختلفة زادت من سرعة بعضهم، بينهم عدنان وحاتم للّحاق بها وطعنها بالحراب وقلّدهم آخرون، عندها انتهى التمرين بتأخّر تشكيل الفصيل في الصولة عن باقي فصائل السرية، وبتعليم إضافي بكامل التجهيزات السفرية، تبين أثناء التنفيذ أنّ طلاباً من فصائل أخرى ارتكبوا المخالفة ذاتها.

سنة ثالثة

واستمرّ الوقع هكذا في السنة الثالثة (المتقدّم) تدريباً أكثر نضجاً ورياضة أكثر تقدّماً وتطبّعاً إلى الحياة العسكرية، اقترب مستواه من أن يكون الأعلى، إذ صارت هذه الحياة مقبولة كأنّها الفرصة المناسبة لتحقيق الذات، أمّا تدريبها الإجمالي، فقد اقتصر على الحروب الجبلية، إذ عسكرت الكليّة بطلّابها للمستويات الثلاثة في منطقة سنجار، أرض مفتوحة تحاذي الجبل، وبدأ التدريب على المrabاة، والتنقّل وعمل الدوريات، والهجوم على نقاط حصينة، لينتهي بسباق تسلّق إلى جبل سنجار، بداه علي حسين في المقدّمة، كان علي رياضياً قد احتفظ في تفوّقه بالجري لمسافات طويلة، وكذلك في كرة القدم، وحافظ على شخصيته الهادئة المرنة، الراضية، وكان كذلك طوال خدمته في وحدات المشاة حتى إحالته على التقاعد برتبة عميد، كان علي عند الجري متوازناً بسرعة تقترب من الثبات حتى النهاية، كأنّه حافلة ديزل تسير على طريق مستوٍ ذي اتجاه واحد، لا يمكن تجاوزها، جنّت من بعده في ذلك السباق، ثمّ نصيف جاسم وعبد

الوهاب القصاب³¹ حتى وصول القمّة، وفي طريق العودة، اقتضى النزول من على حافّات شبه حادّة تشرف على وادٍ سحيق، استعان بعضهم ببعض، واستعان أغلبهم بعصام علي الذي كان أشبه بالجسر القائم للعبور، كانت هناك قرى متفرّقة من الأزيدية قرب تلك الحافّات، بيوتها منحوتة في الجبل، حولها عيون ماء وأشجار تين وأعناب، ورجال يجلسون جماعات، تميّزهم شوارب كثّة طويلة، ونسوة جميلات يتطلعن بملابسهنّ الزاهية، وأطفال يلعبون لعب التسلّق والدرجة على الصخور البارزة، أبطأ علي عند المرور من عندها، وأبطأ من بعده المتسابقون، كأنّهم يأخذون استراحة، ظهر عندها عصام يؤكّد عبور آخر المتسابقين، كان عصام مصارعاً في الوزن الثقيل، بدأ مشواره من مدينته الأعظمية، ومن ناديها الرياضي قبل دخوله الكليّة العسكرية، جاء إليها بطلاً على مستوى النوادي، فصار بطلها حال الالتحاق، وكذلك بطل الجيش، استمرّ في التألّق حتى دخل البطولة على مستوى الجيوش العربية، وحاز عليها بطلاً باقتدار، كان عصام قويّ البنية، طويل القامة، ذا جسم عضلي ضخم، يزيد وزنه عن (100) كغم، ودوداً مرحّاً، مخلصاً في عمله، قضى معظم خدمته في مجال الرياضة، نُقل بداية الحرب العراقية الإيرانية إلى منصب آمر فوج وهو برتبة رائد، لم يعمل في الوحدات الفعّالة من قبل، جاء نقله تلبية للحاجة

³¹ عبد الوهاب عبد الستار القصاب، مواليد بغداد (1946) ذكي، مجّد، كاتب وباحث، كان في التخرّج من العشرة الأوائل، راح إلى الصنف الكيميائي، عمل معظم خدمته في القوة البحرية أمراً لفصيلها الكيميائي، ثمّ أمراً لصنفها الكيميائي ومديراً للتسليح والتجهيز البحري، ثمّ معاوناً لقائد القوة البحرية للشؤون الإدارية، وأمين السرّ البحري لرئاسة أركان الجيش ورئيس أركان قيادة منطقة المواصلات الجنوبية التي أُحيل منها على التقاعد عام (1991) برتبة لواء ركن.

إلى ضبّاط مشاة، وأمري وحدات، وقد استشهد في هذه الحرب بعد قليل من مباشرته المنصب أمر فوج.

عادت الدورة من آخر معسكر تدريب إجمالي إلى ثكنتها في الرستمية، نزل الجميع بعد ظهر الخميس إلا القليل من المحكومين حرمان إذن بسبب مخالفات إبان ذلك المعسكر، قال عصام قبل النزول ليُجلب كلّ فرد في الحاضرة، أكله من بيت أهله، عشاءً مشتركاً ليوم غد الجمعة، أيده الجميع، وتركوا الخيار لكلّ فرد في تحديد النوع، قلت، ونحن المحكومون بحرمان إذن، كيف نسوّي الأمر، ردّ بحزم: أنتم، المعاقبين، عليكم تهيئة المشروبات الغازية قنينة لكلّ فرد، وعن نفسه أكّد الخيار من الآن قدراً من الدولة، الأكلة المفضّلة له، ولغالب أهل بغداد، سأله حاتم: كيف تجلب القدر، أجب، أنّ له نزلاً في المصارعة الحرّة على بطولة الجيش عصر غد الجمعة، تسمح الكلية في مثل حالته الالتحاق إليها منفرداً، وسيلتحق بمساعدة صديق يملك سيّارته الخاصّة، سيغتنمها في إدخال القدير، قال عدنان: إنّهُ سيجلب دجاجتين مشويتين، يحشرهما في الشنطة، وسيغلّفهما جيّداً لتفادي انتشار رائحة الشواء جهد الإمكان، وعن نفسه أكّد تحسين³² جلب كباب عشرة أسياخ، ونوّه فاضل حسين بتكفل كيلوين من اللحم المشوي، هكذا انتظر الجميع مساء الجمعة، وانتظرناها، نحن المعاقبين، على أحرّ من الجمر، وصلت

³². تحسين حمزة نسب بعد التخرج إلى الفوج الأوّل لواء الثاني فوج 2، هادي الطبع، منضبط، شجاع، حوشر فصيلة بعد مباشرته بأشهر في ربيّة منزلة من قبل قوّة كردية في حرب الشمال، مع هذا استمر يقاتل هو وجنوده بكفاءة عالية لأكثر من أسبوع، حتى الوصول إليه بدبابة كان يقودها بنفسه الملازم الأوّل شوكت عطا الذي كان أمر سرية دبابات وفكّ عنه الحصار، كرّمه قائد الفرقة إبراهيم فيصل الأنصاري، وكذلك شوكت قدماً لمدة ستة أشهر، فكان أول من يحصل على تكريم من أبناء الدورة.

باصات النقل، وأجريّ التعداد، وسأل بعضهم بعضًا عن التزاماته في جلب الأكل المتفق عليه، تبين التزام فاضل فقط بما تعهد به، ونكث الآخرون وعودهم، وبدأت الحجج تتوالى، وهم في موقف التسويغ، وصل عصام يحمل قدرًا من الألمنيوم، مغطى بقماش، يتغزل بمفرداته دولمة أعدتها والدته خصيصًا لهذا اليوم، قال باعتباره صاحب الفكرة والرجل الأقوى بدنيًا في الحاضرة: لنفترض بطانية أحد المعاقبين المعفيين من المشاركة على الأرض، وكلّ يجلب ما تعهد به، ضحك عدنان، قال: لم يسمح له الوقت شراء الدجاجتين، لأنّه وصل ساحة الخلاني متأخرًا، خشي عدم اللحاق بالباصات، أكّد تحسين تخوّفه من اكتشاف أمره حال دون تنفيذ وعده، ردّ عصام بعصبية قال، لن يتقدّم أحد إلى الدولة، وإن تجرأ أحد وتقدّم، فسيرميّه خارج القاعة، فتح غطاء القدر، انتشرت الرائحة بالأرجاء، جلس متربّعًا، كأنّه يحتضن القدر، راح يتناول قطعًا ملفوفة، يعرّزها بمفردات غزل بطعمها اللذيذ، فسأل لعاب الآخرين، حيث لم يقاوموا الرائحة والتشويق، فهجم عليه التسعة مرّة واحدة، قاوم بداية، ولمّا وجد الكفة ستتفوق عليه في هذا الموقف، بسق في القدر وهو يضحك، متحدّيًا من يجرأ على الأكل سواه، لكنّه لم ينجح، إذ عاودت الحاضرة الهجوم، واحتلال القدر واللاتيان عليه حتى تشطيبه، وهم غارقون في الضحك.

.....

كانت الكلية، ومنذ تأسيسها محط أنظار الدولة، واهتمام الرؤساء، ومن قبلهم الملوك، وكان الرؤساء، طوال حقبة الجمهورية إلى آخر رئيس هو البكر، هم خريجيها، يزورونها ويشيدون بالإعداد وال ضبط، وكان عبد السلام أكثر الرؤساء اهتمامًا بها، إذ أخذ يكرّر زيارته لحرمها، إذ دعا طلابها والضباط على مائدة إفطار أقامها في القصر، آخر رمضان له

قبل مقتله بحادث طائرة، هياً أمرو السرايا فصائلهم للدورات الثلاث، ارتدى الجميع قيافة النزول الخارجية، استقلوا باصات نقل الركاب التي دخلت باحة القصر بانتظام، تفاجأت المراسم من عدد الحضور، بدأ الارتباك كأنّ سوء فهم قد حصل، تحتمّ البقاء في وضع الوقوف تحت القبة الرئيسة للقصر الجمهوري والممرّات، شرع القارئ المصري عبد الباسط عبد الصمد بتلاوة آيات من الذكر الحكيم، جاء شخص من المراسم طلب اختيار سبعين طالباً لمشاركة الرئيس إفطاره، وزّع الأمرون العدد على السرايا والدورات، وأبقوا الآخرين في وضع الوقوف، تقدّم عبد السلام بعد إتمامه هو والضيوف طقوس الإفطار، اعتذر عن سوء الفهم الحاصل، وعدم تيسر المكان الكافي لجميع الطلاب، مسوّغاً بحساب أعدّه المعنيون في المراسم سبعين طالباً فقط، كما أنّ النثرية لا تكفي لتغطية مصاريف إفطار هذا العدد الكبير، ختم التسويغ بسوء فهم حصل، وسعى من قبل القصر لمفاتحة وزارة المالية للموافقة على زيادة تخصيصات النثرية، كانت تخصيصات النثرية والصرفيات الخاصة للقصر الجمهوري آنذاك، ومن قبله القصر الملكي، على وفق الميزانية السنوية، محدودة، ومحسوبة جيّداً بالحدود الدنيا، ويتمّ الصرف منها حسب أبواب تحددها وزارة المالية، كما تخضع حساباتها الختامية إلى تدقيق دائرة الرقابة المالية، وهناك العديد من الروايات في الزمن الملكي عن احتياج الملك إلى أموال يسيرة لترميم بيته، أو لأغراض أخرى، فيقدّم طلباً للاستلاف، وكذلك رؤساء وزارات، وقد استمرّت السياقات المالية هذه في الزمن الجمهوري الأوّل عبد الكريم قاسم والثاني عبد السلام والثالث عبد الرحمن، وإلى حدّ ما الرابع أحمد حسن البكر الذي بدأت في عهده الثاني بعد انتصاف السبعينات تتّسع الصلاحيات والتخصيصات، وقد أختلّت تلك الموازين في الصرف ومقادير التخصيصات في الجمهورية

الخامسة صدام حسين الذي فتح أبواب الميزانية الخاصة بالقصر، ونسب محاسباً يحتكم على المال جوار مقرّه، يغدق منه على الوزراء والحزبيين والقادة العسكريين والمراجعين الذين يحظون بمكافئ مقابلته، وكان مؤمناً جداً بسياسة الثواب والعقاب في إدارة الدولة، وكانت إثباتاته في الأعمّ هبات مالية من المال العام.

مقتل الرئيس

توقّف البثّ العادي لإذاعة وتلفزيون بغداد مساء يوم 13 نيسان (1966)، وتحولت مادّته التقليدية إلى تلاوة آيات من القرآن الكريم، فانتبه الطلاب بحدسهم العالي لمصاب قد حصل، وقبل التحقق من الحدس، انشغل قيس عبد الرحمن الطالب في السنة الثانية (المتوسّط) في سريتنا (محمد القاسم) بجمع بعض حوائجه، في نية النزول، على غير العادة، إذ ليس من عادة قيس ابن رئيس أركان الجيش، وابن أخ الرئيس استغلال وضعه القرابي، والتجاوز على ضوابط الكلية وقوانينها، بل كان على العكس من هذا ملتزماً، منضبطاً، مؤدّباً، كان في تلك اللحظة مشغولاً، وقد التفت من حوله بعض طلاب الفصيل، يدفعهم الفضول لمعرفة السبب، فكان ردّه أنّ مكروهاً حصل للرئيس، لكنّه لم يفصح، وبعد مغادرته الكلية بدقائق أعلن تلفزيون الدولة وإذاعاتها المحليّة، مقتل الرئيس بتحطّم طائرته السمتية أثناء توجهها من ناحية النشوة إلى مركز البصرة، وأوضح أنّ طائرته من بين ثلاثة تابعة إلى الرف الجمهوري أقلعت من المكان هي التي تحطّمت، وأنّ التحقيق جارٍ بكيفية تحطّمها، وحدّد بيان لاحق مكان التحطّم في النشوة، وهي في طريقها إلى المطار، متوّهاً إلى وجود عاصفة ترابية.

لقد أُدخِلَ الجيش في الإنذار (ج)، وأُعلن عن منع التجوال طوال ساعات الليل، وسرت شائعات من أن مقتل الرئيس ضمن سياق مؤامرة محتملة، على الرغم من عدم حدوث أيّ فعل بعد السقوط يعزّز الاشاعات التي ربطت الحادث بوجود مؤامرة، كما أنّ اللجان الفنية، وخبراء سلامة الطيران لم يشيروا إلى أيّة أسباب فنية محدّدة لسقوط الطائرة، وإن أشار الإعلان الرسمي إلى وجود خلل فني نتيجة عاصفة رملية، لكن إشارات وردت من ضباط طيارين برتب عالية، نوّهت عن عدم امتلاك النقيب الطيار خالد محمد كريم الذي يقود طائرة الرئيس خبرة مناسبة في الطيران الليلي، وكذا طيران الآلات في الأجواء الرديئة، وورد أيضًا أنّ ضابطاً برتبة عالية في قاعدة الرشيد الجوية نصّح بعدم طيران الرئيس ليلًا لعدم امتلاك الطيارين الخبرة الكافية للطيران الليلي، لكن تمسك رؤساء العشائر في منطقة النشوة، وإفراطهم في الاحتفاء بالرئيس وانسجامه معهم، تسبّب في التجاوز على تحديدات الخبرة ورداءة الجو، ومع هذا، وعلى الرغم من استنتاجات لجنة التحقيق الحكومية برئاسة القاضي سالم محمد عزت، من أنّ السبب الرئيس لسقوط طائرة الرئيس يعود إلى العواصف الترابية التي هبّت على منطقة النشوة، وانعدام مدى الرؤيا، وقلة خبرة الطيار في الطيران بمثل تلك الأجواء، فإن الاشاعات استمرّت ترجّح إسقاطها عمدًا لقتل الرئيس.. إشاعات وظنون وشكوك، دفعت مديرية الاستخبارات العسكرية إرسال كتاب سرّي إلى أمر فوج الحرس الجمهوري الرائد الركن عبد الرزاق صالح العبيدي، تشير فيه إلى معلومات عن محاولة للشيوخيين الاستيلاء على نعش الرئيس، ورميه في نهر دجلة، انتقامًا لعبد الكريم قاسم الذي رمى جثمانه البعثيون في ذلك النهر بعد نبش القبر، عندها تعزّزت الحراسات حول القصر الجمهوري، ساهم في قسم منها بعض طلاب الدورة إلى اليوم

الثاني الذي أعلن فيه بعد اجتماع مجلس الدفاع الأعلى انتخاب عبد الرحمن عارف رئيساً للجمهورية.

تحدّد عصر يوم السبت السادس عشر من نيسان لتشيع الرئيس، وجرى تجمّع سرايا الكلية بدوراتها الثلاث، في كرامة مريم قرب القصر الجمهوري للمشاركة في التشييع، حيث حملت عربة مدفعاً تجرها ستة أحصنة، نعش الرئيس ملفوفاً بالعلم العراقي، شرعت بالسير الجنائزي البطيء على وقع الموسيقى من ساحة القصر، في تمام الساعة (1515)، يرافقها على الجانبين اثنا عشر ضابطاً من الحرس الجمهوري، توجّهت تجاه ساحة الشواف، كانت مراسم التشييع مهيبة، وجديدة على العراقيين الذين لم يشهدوا تشييعاً رسمياً لقائد، أو رئيس لعدة عقود، إذ تعودوا في عصرهم الحديث على الانقلابات العسكرية، التي تنتهي بمقتل الملك أو الرئيس، ودفنه على عجل من دون تشييع، كان راكبو الدراجات البخارية من الشرطة في الأمام، خلفهم كردوس لخيالة من الكلية العسكرية، يليهم الجوق الموسيقي للجيش بلباس المراسم، ثم سرية حرس جمهوري كذلك بلباس المراسم، وجاءت من بعدها كراديس الكلية العسكرية، ثم كوكبة من رجال الدين تقدّمت النعش، يليهم المرافقون، حاملو أوسمة الرئيس، وطلاب من الكلية يحملون أكاليل زهور، يليهم أفراد من عائلة الرئيس وأصدقائه المقربين، ووفد على مستوى عالٍ من الجمهورية العربية المتحدة برئاسة المشير عبد الحكيم عامر، وعبد الخالق حسونة الأمين العام للجامعة العربية، وأحمد الشقيري رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، ووفود من البحرين والسودان وليبيا والسعودية، وعمان والأردن والجزائر وتركيا وسويسرا والولايات المتحدة الأمريكية.

توقّف المشيِّعون في ساحة الشواف، أنزلَ ضبّاط الحرس الجمهوري الجثمان من فوق العربة، نقلوه إلى سيارة عسكرية

مكتشوفة، انطلقت من الساحة إلى شارع الشواف، فشارع 14 تموز وساحة دمشق، جسر الخِر، ساحة قطمان، حي اليرموك، فطريق الفلوجة حتى جامع الشيخ ضاري، مثواه الأخير.

فنون الصاعقة

عاد مجموعة ضباط من دورة للصاعقة في مصر منتصف الستينات³³، بدأوا حملة ترويج لهذا الصنف الحديث، وسعوا لدمجه مع صنف المظليين، ألقى م. أول شكري العزاوي، باستعراضية عالية، محاضرة على الدورة الثالثة والأربعين قبل تخرّجها بشهور، نوّه إلى الصنف ومهاراته الخاصة، أعطى أمثلة للقدرات، والبطولات على مستوى الجيوش العالمية، اقترب أكثر من الجيش المصري، وفاعلية قوّاته الخاصة للعمل في أصعب الظروف، على إثرها حصلت هذه المجموعة على قوّة دفع وتأييد من رئاسة الأركان، أقرت أمر الكلية، ومجلس إدارتها، لإدخال منتسبي الدورة تدريباً مكثّفاً لقوات الصاعقة قبل تخرّجها بقليل، مدّته شهر، بينما تستغرق الدورة الرسمية لمنح الصنف خمسة وأربعين يوماً، وللمعلمين ثلاثة أشهر، اختصرتها الكلية، بالتأسيس على امتلاكنا نحن الطلاب بنية بدنية جيّدة، تؤهّلنا للشروع في تنفيذ متطلّبات التدريب العنيف، الذي بدأ بمقادير تفوق شدّتها كثيراً تلك التدريبات التقليدية للكلية، أعلن دحام في الأسبوع الثالث عن فاعلية تدريبية خاصة على الكمان

³³ كان أوّل المتخرجين من دورة القوّات الخاصة في مصر المقدم محمد عطية البدري، وآخرون برتب (م. أول وملازم) علي خميس الحواس، شكري العزاوي، دحام راضي العسل، فاضل المدلل، إبراهيم سماري، عادل محمد البياتي، هاشم محمد الدباغ، ظاهر علي، عباس مزعل.

الليالية، تمّ توزيع الفصائل إلى مجاميع، رُوِّدَت الواحدة منها بقنباص، ومخطّط مسيرٍ يختلف عن المجاميع الأخرى، لكنّها تلتقي جميعها في مثابة تقترب من سلمان باك، كانت المجموعة الثانية في الحاضرة مكوّنة منّي وحاتم وعدنان، مسك عدنان القنباص، سار في المقدّمة، لم ندقّق من بعده، لأنّ قدراته عالية في قراءة الخريطة وتحديد الاتجاه، درج عدنان مشيًا، تعمّد إدخال المجموعة في بيوت متفرّقة من الطين، بداية حلول الليل، سأل عن كبير القرية، فأشار الصبية على مضيف، قالوا هو الشيخ راهي، رحّب الشيخ بالشباب الثلاثة، أخذ يتحدّث عن أيّام شبابه جنديًا في الفرقة الثانية، قاتل في منطقة راوندوز، وجُرح في القتال، أصرّ على العشاء خروفاً أحضره للنحر، ولما وجد الوقت يداهم ضيوفه، والإصرار بادٍ على وجوههم للالتحاق بزملائهم، قدّم اللبن الخائر والخبز الحارّ ومقادير من التمر الزهدي، فكانت وجبة لذيذة، حوّل عدنان من بعدها الاتجاه إلى المثابة المشار عليها في الخريطة، أوصلت الثلاثة آخر مجموعات الواصلين، سأل دحام أمر الفعّالية عن السبب، كانت الإجابة نيهًا، لم يقتنع بها، لكنّه هزّ رأسه علامة القبول.

اقتربت الدورة من نهايتها، نفّذ المدربون تمرينًا نهاريًا للتحمل، اصطادوا ثعلبًا وبعض أفاعٍ تمّ شيهها، تناولوا قطعًا منها، مثلوا قبولًا في تناولها منقطع النظير، وأعطونا بعض الطلاب قطعًا أخرى تمّ تناولها بقبول أقلّ، انتهى ذاك التمرين بالقفز من عجلات الزيل، ثلاث مرات لثلاث سرعات، كان آخرها (60) كيلو متر في الساعة، فتدحرج بعضهم، ورُضّت أجسام بعضهم الآخر، إلّا من استطاع التنفيذ بشكل صحيح لقفزة يكون فيها الجزء العلوي من الجسم مائلًا إلى الأمام قدرًا كبيرًا، يعدله زخم السرعة المعاكس، فيسقط بوضع يقترب من الوقوف وهو المطلوب، وفي اليوم الذي تلاه اصطحب الدورة شكري ودحام

إلى جسر الصرافية، جمعوا الفصائل تحت الجسر، عزل شكري متقني السباحة، عن غير المتقنين، كان أكثر من خمسين طالباً لا يجيدون السباحة، وقف في مقدّمهم طارق أحمد العلي، صعدوا بالرتل المفرد إلى أعلى الجسر تباعاً، كان النظر إلى الماء من الأعلى فيه خشية، تبدو المسافة من الدكة الخشبية المربوطة بالحافة الحديدية للجسر إلى سطح الماء أبعد من حقيقتها، وصل طارق إلى الحافة، سأله شكري: هل حقاً لا تجيد السباحة وأنت بصراوي؟ أجاب أنّه لا يجيدها بالفعل.

وقف طارق على الدكة الخشبية، عيناه إلى الأمام، يتجنّب النظر إلى الماء، قال، وهو يشرع بالتنفيذ، (الفدائي طارق جاهز للقفز)، لكنّ شكري لم يعط إيعاز القفز، قال، كما كنت، ثمّ أكمل: أنّ همتك للقفز، وأنت لا تجيد السباحة، تعني الشجاعة، عليه تُعفى من القفز، ثمّ أمره بالنزول إلى الأسفل، والوقوف في صفّ القافزين، فكان طارق هو الوحيد الذي لم يقفز، وعُدّ ناجحاً في اختبار القفز، جاء من بعده الطالب المغربي عبد الكبير، اقترب من الدكة الخشبية، امتنع عن التقدّم، مسكّه من بدلته في الخلف ضابط صفّ معلّم أعدّ لأغراض الدفع القسري عند الامتناع، استسلم عبد الكبير، وبدأ تقديم نفسه حسب السياق، وبدلاً من تقديمها (الفدائي عبد الكبير عثمان جاهز للقفز)³⁴، بدأ القول

³⁴. كان في الدورة (43) طلبة عرب، فمن المغرب عبد الكبير، ومن اليمن محمد أبو لحوم وأحمد عبد الرحيم الذي صار سفيراً لبلده منتصف الثمانينات، وحسين الكبسي الذي التحق بعد التخرج بجامعة الإمام المناهضة للنظام الجمهوري، ومحسن الجبري الذي عرف بشدّة تكاسله وضعف قابليته البدنية، ففي صبيحة أحد أيام المستجد لم ينهض محسن من النوم بعد عزف بوق النهوض، حاول معه أمر الحاضرة بكلّ الوسائل فلم ينهض، بان كآته ميت أو فاقد الوعي، نقل على الفور إلى مستشفى الكلية، وتبين بعد غسل معدته أنّه تناول حبوب فالسيوم، أعترف بأنه قد زاد الجرعة هذه المرة لينام ولا يخرج للتدريب في الصباح، كما عرف بشراسته في التدخين، وفي آخر تدريب إجمالي كان يخبئ السجائر في مخزن

(المرحوم عبد...)، لم يكمل اسم والده الذي غاب بين بلعومه والخلق بعد أن حصل على دفعة قوية من ضابط الصف، سقط على إثرها في الماء بغير انتظام، سارع منقذون متخصصون للحيلولة دون غرقه.

تقدّم الرتل الآخر، العارفون بآلية السباحة للقفز من دون نجّادات، كان الأوّل في رتل الوقوف، ياسين حمد، المعروف بتديّنه، قدّم اسمه كما هو مطلوب، ثم أضاف من عنده حال الشروع بالقفز (ياالله) فجاءت ممتدّة على طوال المسافة من أعلى الجسر حتى ارتطامه بالماء، أما رحيم الجميلي فقد وقف على الدكّة باعتدال، بدأ تقديم اسمه (الفدائي رحيم)، وبدلاً من جاهز للقفز استبدلها باللهجة الدارجة (ما أقفز) كرّرها مرتين، فتقدّم منه ضابط الصفّ المعني بالدفع، مسك جسمه بإحكام ودفع به بقوة أوصلته الماء سالماً، جاء دوري في القفز بعد رحيم، تمّ الوقوف على الدكّة بانتظام، والنظر إلى الماء، بدا كأنّه في هوة عميقة، جال في الخاطر حقيقة تتعلّق بقفز العشرات من هذا العلو من دون إصابة، وبالتالي بإمكان أيّ أحد القفز بأمان، فتمّ ترديد الاسم كاملاً حسب السياق، وتنفيذ أمر القفز حال تلقّيه.

كان القفز أحد الاختبارات الخاصّة بإكمال الدورة، جاء من بعده اختبار للاشتباك القريب، جرى في حلبة خاصّة أنشئت في الطرف البعيد لساحة العروض على شكل دائرة مسيّجة بأكياس من الرمل، مملوءة كذلك بالرمل، يقترب محيطها من عشرة أمتار، يدخلها أكثر من واحد في المرّة الواحدة، يشتبك مع جنود

بنديّة السيمونوف، وعندما سلّم أمر الفصيل إطلاقات خبّ لتتفيذ واجب الصولة على الهدف، بدأت تتناثر سكاثر محسن، تدرّج محسن في الجيش اليماني ليصل إلى وزير دفاع، كما التحقت مجموعة من اليمانيين من أبناء العشائر بالدورة في المتوسط، ودربوا بشكل منفصل، ومن البحرين أحمد عبد الكريم وعبد الجبار عبد الله.

معلمين من القوّات الخاصّة، يتطلّب التخلّص من هجمات عصي يمسكونها، إذ يهجم الواحد منهم بقوة في محاولة الضرب المتوالي على جسم الطالب، ويستمرّ به إلى أن يمسك المضروب عصا الضارب، عندها يتوقّف الضرب، ويسمح بالخروج من الحلبة، أكثر من تلقى ضرباً هو عصام علي ونضال عبد الحميد، عشرات العصي تحمّلتها أجسادهم القوية المعضّلة، أمّا سليمان بدري فقد دخل الحلبة متحدّياً، دافع عن نفسه باقتدار، دار دورة كاملة حول الحلبة، بصق قليلاً من الرمل الذي دخل فمه من سقطة على الظهر، لاحظه شكري، فأمره بالتهام الرمل والبصاق معاً، وفي تمرين لتطعيم المعركة بدأ الزحف على الظهر تحت أسلاك شائكة ارتفاعها عن الأرض أكثر قليلاً من ارتفاع جسم الإنسان، كان دحام يمسك بندقية آلية محشّوة بالعتاد الحيّ، يطلق النار حول جسم الزاحف، وقريباً من الرأس، ومثله يفعل ضباط آخرون، كان صوت الرصاص قد أحدث قرعة في الأذان، استمرّت حتى الدخول في نفق من براميل متّصلة مع بعضها، يصبّ على سطحها العلوي ضابط الصف نفطاً ليزيد من سعي حريقها طوال مدّة المرور من خلالها، ولما اقترب منها سمير أيوب³⁵ رشّ ضابط الصف نفطاً وصل "بدلته" عن طريق الخطأ، فأخذتها النار، لكنّه استمرّ إلى حوض الماء الأسن، وتسلقّ الجدار بالحبال، وهناك سقط، فنقلته سيارة الإسعاف التي كانت موجودة إلى مستشفى الرشيد لإصابته بحروق في مناطق متفرّقة من الجسم.

³⁵ سمير أيوب العبيدي مواليد (1945) بغداد الفضل، عمل آمر فصيل وسرية مشاة في لواء العشرين، والكلية العسكرية، تخرج من كلية الأركان الأردنية، وجامعة البكر للدراسات العسكرية العليا، حصل على بكالوريوس في القانون والسياسة من الجامعة المستنصرية، عمل آمر فوج ولواء وضابط ركن في الفيلق، ومدرّس في جامعة البكر وعميد الكلية العسكرية ومدير صنف المشاة، أُحيل على التقاعد عام (2003) برتبة لواء ركن.

بعد إتمام جميع الفعّاليات والاختبارات، اختار شاكر كدوساً من أربعين طالباً استعداداً للمشاركة في استعراض التخرّج هرولة بطريقة القوّات الخاصّة، كنت أنا وحاتم من بينهم.

طالب في يومه الأخير

في الأيام الأخيرة قبل التخرّج، كان الجوُّ حارّاً، وقاعات المنام لم تكن مكيفّة، وكانت متابعات ضبّاط الصف قد ضعفت، وقلّت التفتيشات التي يقوم بها الضبّاط أمرو الفصائل، فزادت في المقابل الجرأة على مخالفة بعض ممنوعات، ومن بين ممنوعات التي خرقت في تلك الأيام الصيفية، النوم على السطح من بعض الطلاب، القلّة من الطلاب، بغية التمتّع بهواء الليل الأقلّ حرارة، إذ، وبعد بوق النوم، تمّ التسلّل مع المخدّة والفراش، صعوداً إلى السطح، مدّت الفرش على الأرض المغسولة مسبقاً، وقبل ثلاث ليالٍ من التخرّج صعد المتسلّلون كالمعتاد، بينهم هشام المعروف بنومه العميق، أخذوا معهم هذه المرّة أكواب شاي كي تساعد على السهر، ويتمّ التمتّع بتذكّرها إحدى الليالي الأخيرة، ولما غفل هشام قليلاً، وُضعت في كوبه حبة قاليوم، عجّلت من منامه قبل اكتمال السهرة، وحال دخوله مرحلة النوم العميق حدّ الشخير، حُمِلَ مع فراشه إلى السطح الثاني غير المشغول بسبب كثرة الانقاض المبعثرة وسطه، تُركَ بينها، صحا عند بوق النهوض الصباحي، تفاجأ بالمكان، أخذ فراشه ونزل مسرعاً يكلم نفسه: أين أنا!

قبل يومين من التخرج حضر مساعد أمر الكلية الرائد إبراهيم الطالب، وضبّاط يمثلون صنوف الجيش، قال سيتمّ التوزيع على الصنوف، أكّد حاجة المشاة سيّد الصنوف إلى

حصّة الأسد، حدّد للمدفعية خمسة عشر، ولهندسة الميدان أقلّ منها، وكذلك للدروع، والمظليين، وأضاف لمن يختار صنف المشاة حقّ اختيار الفرقة العسكرية التي يريد، ومن لم يختّر، يدخل القرعة على الصنوف، فإن جاء اسمه في الصنف الذي يريده يُثبّت عليه، ومن لم يظهر سوف ينسب إلى الفرق حسب الاحتياج.

سألتُ حاتم الواقف إلى جانبي: ماذا تقول؟ هل تستحق المجازفة ودخول قرعة المدفعية أم اختيار المشاة، وضمان الفرقة الأولى التي تتوزّع ألويتها على وسط وجنوب العراق؟ أجاب أنّه يفضّل الفرقة الأولى، وينصح بتفضيلها، أمّا عدنان حسين، فقد عرّضت عليه فكرة التفضيل، قال إنّهُ سيختار المدفعية، ردّ حاتم بالقول إنّ العدد المطلوب إلى المدفعية قليل، واحتمالات الحظّ في هذه الحالة محدودة، أجاب، وهو يضحك، أنّه سيذهب إلى المدفعية.

انتهت القرعة على صنف المدفعية، لم يظهر اسم عدنان بين المحظوظين، عوتب لمجازفته هذه، وفراقه المحتوم ذهاباً إلى إحدى فرق المشاة الثانية أو الرابعة، اللتين تقاتلان في الشمال، ضحك واثقاً، وأعاد التأكيد أنّه سيذهب إلى المدفعية، وفعلًا ذهب إلى المدفعية، (إذ، وعند مراجعة مديرية إدارة الضباط بعد انتهاء العطلة لغرض استلام كتب الالتحاق إلى الفرق والصنوف بعد الإجازة، استلم عدنان كتابه منسباً إلى صنف المدفعية، لم يكن عدنان المنسب الوحيد إلى الصنوف بالوساطة المبطّنة، بل وهناك آخرون حصلوا على ما يريدون، وآخرون غيّرُوا صنوفهم بعد التخرّج بمدة زمنية، خاصّة الدروع والصواريخ).

بدأت استعدادات التخرّج صباح اليوم السادس من الشهر السادس حزيران، العام (1966)، استعرض كردوس القوّات الخاصّة مع باقي كراديس المسير، وحيا أمير الكويت الشيخ

جابر الصباح الخريجين المستعرضين، بعد حضوره زائراً البلاد مع رئيس الجمهورية عبد الرحمن، بدءاً معاً توزيع الجوائز على الأوائل، منح الخريج الأول سامي جاسم محمد مسدساً³⁶، ومُنح الفارس الأول وطبان أحمد تركي سرجاً ضباطياً³⁷، والرياضي الأول علي حسين كاظم كأساً، ومُنح السيف للطالب الأول في الضبط رئيس العرفاء الأقدم عبد الملك عبد الله الحمداني³⁸، أمّا الأول على دورة الصاعقة كان مدحت جهاد، الذي أصيب بكسر أثناء التدريب.

انتهى الاستعراض، قرأ مدير الدائرة القانونية لوزارة الدفاع المرسوم الجمهوري بمنح رتبة الملازم، كان الشعور أثناء قراءته منعشاً، يقترب في الوصف من حالة شخص أزيح من على صدره وزناً ضاعطاً كاد يخنقه، ثم تُلّي من بعده القسم، ردّده الخريجون بصوت عالٍ (أقسم بالله العظيم، وبكتابه الكريم،

³⁶ سامي جاسم تولد بغداد (1943) مجدّ، ذكي عمل أمر رجيل م/ط وأمر بطرية وأمر لواء الصواريخ (145) وأمر قاطع الدفاع الجوي الخامس أحيّل على التقاعد عام (2000) برتبة عميد.

³⁷ وطبان أحمد مواليد الفلوجة محافظة الانبار، التحق بعد تخرّجه بصنف الخيالة، ضابط منضبط، في لهجته أقرب إلى الصحراء منه إلى المدينة، خريج كلية الأركان الأردنية، آخر منصب له رئيس أركان الفرقة (27)، وعند اشتداد المعارك في الحرب مع ايران في قاطع مهران استخدم كأمر لواء، حيث استشهد في المعركة.

³⁸ عبد الملك الحمداني، مواليد الموصل، كان مع علي حيدر الأكبر عمراً للعموم طلاب الدورة، عمل قبل دخوله الكلية العسكرية في مهنة التضميم، مرگب اسنان، التحق بعد التخرج في صنف المدفعية، ثم مرافقاً لقائد الفرقة الخامسة، وبعد إتمامه الدراسة في كلية الأركان تعيّن آمراً لكلية الأمن القومي التابعة على جهاز المخابرات، توفي في مزرعة له مع ولده اختناقاً في غاز ينبعث من المدفئة النفطية، أمّا رؤساء عرفاء السرايا من الدورة فهم (فاروق عبد الأمير لسرية سعد، غانم العزاوي لسرية أبي عبيدة، علي حيدر لسرية المثني، غانم محمد مصطفى لسرية خالد، فاروق محمد لسرية صلاح الدين، عبد الله الزبياري لسرية محمد القاسم).

وأقسم بشرفي أن أكون وفياً للشعب، مخلصاً لهذا الوطن، وأن أخدم وطني خدمة صادقة في البرّ والبحر والجوّ، والله على ما أقول شهيد).

عادت الكراديس فيما بعد إلى القاعات، وتوجّهت إليها كذلك العوائل الحاضرة، بينها (الوالد والوالدة)، بقيا في حال انتظار بالحديقة المواجهة لبناية السرية، في حين توجّه الخريجون كلّ إلى دولا به الخاصّ مستعجلاً، أخرج "بدلته" العسكرية، التي جاهد على خياطتها عند عبد الستار المعروف بجودة خياطته، خياطاً للبدل العسكرية، باكستاني يجيد الصنعة، استقرّ في بغداد، وتزوّج من سيّدة موصلية، له ورشة خياطة في الكلية، ومحلّ في شارع الرشيد عند السنك، أغلق محله والورشة بداية السبعينات، ليعيش بين البغداديين.

مسك الخريجون "بدلهم" المعلّمة بنجمتين، كانوا كأهمّ يتسابقون مع الذات المستعجلة على ارتدائها، كأنّ السنوات الدراسية الثلاث قد توجّبت بهذه اللحظة، ازدحم أفراد الحاضرة أمام المرأة المثبتة في الجانب، ليس للتأكّد من إتمام قيافتهم كما كان يجري من قبل، بل ليروا أنفسهم ضباطاً أوّل مرّة، حضر من بعيد مشعل شريف يرتدي قيافة الدروس بنطالاً خاكياً وقميصاً أبيض، وهو يضحك بقدر من الاستهزاء، وربّما التعجّب، سأله إبراهيم عن قيافته الرسمية ضابطاً، فعاود الضحك قهقهة، ثم قال: لقد أصرّت والدة أن تجلب بنفسها الرتبة نجمة من الذهب، وقد التقيتها والوالد بعد الاستعراض، راحت تزغرد وتبارك، ومن ثمّ أخرجت من جيبها نجمة واحدة، تقدّمت منيّ وأعطتني إياها فرحة، ثمّ أخذتني بالأحضان كأني ابن الثالثة، تضحك فرحة مرّة، وتبكي من الفرح مرّة أخرى، ولمّا سألتها: هذه نجمة واحدة (تك)، ردّت بثقة عالية نعم، إنها واحدة كما أنت قلت سئمّنح الرتبة نجمة، وأنها اشترت النجمة ذهباً، أكّد مشعل

في نهاية حديثه أنّه سيذهب بهذه القيافة إلى بغداد كي يشتري التّكّ الثاني نجمة أخرى.

.....

راح مشعل مشغولاً بفكرة الذهاب على السوق لشراء نجمة، وتوجّه حامد إلى دولابه، ليرتدي "بدلته" العسكرية بنجمتيها على الكتف، لحقّ به أمر الفصيل، قال له مخاطباً: أعرفك حقّ المعرفة مدخناً شرهاً، أشمّ رائحة الدخان في ملابسك أثناء الوقوف في الصفّ مع الفصيل، أجريت العديد من التفتيشات اليومية داخل دولابك وبين طيّات السرير، ولم أعثر على أثر للسجائر، فأعلنت العجز مع نفسي، وأوقفت التفتيش قبل شهر من هذا اليوم الذي جنّت فيه خصيصاً كي أعرف منك شخصياً ذلك المكان، ضحك حامد وأجاب ببرود: سيدي، إنّها في الدولاب، وما زالت كذلك في الدولاب، وإن تمّ التفتيش بدقة فستعثر عليها في الدولاب، وعلى سبيل الهزار توجّه أمر الفصيل وأجرى تفتيشاً دقيقاً داخل الدولاب، ومن حوله وقف جميع الضباط أفراد الحاضرة المتخرّجون يتابعون المشهد، فلم يعثر على أثر للسجائر، قال أشعر بالعجز للمرّة الثانية، عندها مدّ حامد يده داخل الدولاب، سحب علبة ألوان خشبية مشاة على محتوياتها أقلام من النوع الطويل، أفرغها على السرير، تبين أنّها من النوع القصير، وكان قد وضع سيجارة أسفل كلّ قلم ل يبدو من الأعلى طويلاً يغطّي السجائر المخبأة في الأسفل، عندها ضحك أمر الفصيل حدّ الفهقهة، عانقه، والآخرون الواقفين من حوله، وودّعهم فرحاً بتخرّجهم.

تراحم الخريجون على باص المصلحة، وعلى سيارات التّكسي، وقليل من جاءت عائلته بسيارتها الخاصة لتقلّه إلى البيت، وصل الغالبية مركز بغداد، يسرون فرادى أو جماعات، يتمتّعون باليوم الأوّل مشياً في شوارعها الجميلة بالملابس

العسكرية ضباطاً شباباً، لم يتوقفوا عن المشي، أصرّ سعيد كاظم³⁹ الذهاب إلى النادي العسكري جوار وزارة الدفاع في الباب المعظم، أيده عدنان، ولم يمانع حاتم، فوجدت المجموعة نفسها على طاولة واحدة في النادي الذي شوهد من الداخل أول مرة، قال سعيد كنت طوال السنوات الثلاث أحتسي البيرة خفية، وكنت أطلع إلى اليوم الذي أشرع باحتسائها في العلن، وحلّ هذا اليوم الذي سأنفد ما تمنيتّه طوال تلك السنين، طلب مشروباً من البيرة لمن يرغب على حسابه الخاص، كانت هناك إلى الجوار طاولة أخرى، يجلس عليها غياث إبراهيم⁴⁰ وآخرون، أمر سعيد النادل دمج الطاولتين، فزاد الجالسون من حولها عن العشرة، عادوا من بعد الغداء الصاحب إلى الكلية، لحضور حفلة عشاء

39. سعيد كاظم نعمة، كان طالبا في كلية القوة الجوية، فشل في اختبار الطيران، فنقل إلى الكلية العسكرية بدورتها (43)، شجاع، شخصية جريئة، مرحلة، متحدية، ميّال على المخالفة، لديه استعداد للمجازفة أو حتى المقامرة، تنسّب بعد التخرج إلى صنف المشاة وإلى الفوج الثالث لواء الرابع من الفرقة الثانية، وبعد أشهر قليلة من التخرج، جلس مع بعض ضباط وحدته بعد العودة من التدريب، يلعب لعبة الموت مقامرة بحياته لقاء رهان بخمسة دنانير، ولعبة الموت هذه أو الروليت الروسي، لعبة حظّ قاتلة، نشأت بداية في روسيا على يد الجنود في مواضع القتال، لإثارة بعضهم بعضاً، ومن بينهم انتشرت إلى بقاع العالم، وهي أن يضع اللاعب المتحدّي أو المراهن إطلاقاً واحدة في الأسطوانة الخاصة بالمسدس الذي يتّسع إلى ست إطلاقات، ويقوم بتدويرها بسرعة ثمّ يعيدها إلى وضع الإطلاق، ثم يضغط على الزناد، فيكون احتمال وجود الإطلاق مقابل الزناد واحد من ستة، وهكذا فعل سعيد الذي أشار الأصدقاء أنّه لعبها من قبل عدّة مرات، بقصد التحدي والمقامرة، فجاءت هذه المرة مقابل الزناد، وانطلقت حال الضغط قربية هشمت جميعته، فتسجل أنّه أول من توفي من الدورة (43).

40. غياث بغدادي من أمّ سورية، طالب مجد، متّزن، نسّب بعد التخرج إلى لواء المشاة العشرين، ضابطٌ جيد، بعد ترقّيته إلى م. أول بقليل قدّم طلب إجازة لزيارة أجداده لوالدته في سوريا، ومن هناك توجه إلى إسبانيا، تاركاً العراق والخدمة العسكرية، فتسجّل أنّه الأول في الدورة يحسب هارباً إلى خارج البلاد، قيل كانت له قصّة حب لابنة خالته التي تقيم في إسبانيا، تزوجها وأقام هناك.

أقامها أمر الكلية على شرف الدورة المتخرّجة، تمّ دخول المطعم فرادى أوّل مرّة، والتوجّه إلى الأمكنة السابقة حسب الفصائل والسرايا التي أخذ الجلوس عليها ثلاث سنين، تقدّم العميد الركن عدنان أحمد عبد الجليل أمر الكلية للترحيب بالرئيس عبد الرحمن، شاكرًا حضوره دعوة العشاء تكريمًا للدورة، اصطحبه إلى طاولة جلس حولها بعض من خريجي الدورة الأوائل، استأذنه الجلوس في الصدارة، لكنّه أصرّ على أن يكون جوار المتخرّجين، كأنّه واحد منهم، كان عبد الرحمن متواضعًا، انتهى العشاء، وتفرّق الخريجون ثانية، في آخر يوم لهم في هذه الكلية، عندها تمّ التوجّه مع حاتم إلى باص، من بين عدّة باصات مهيّأة لنقل الخريجين إلى الباب الشرقي، ومنه تمّ التوجّه بسيارة تكسي إلى علاوي الحلة، ومن ثمّ بأخرى إلى مدينة الحلة، حيث الافتراق متوجّهاً هو إلى منطقة النيل، ومتّجهاً أنا إلى قرية الجمجمة للتمتّع بإجازة الأيام العشرة، فتسجّل هذا اليوم السادس من حزيران هو اليوم الأخير طالبًا في الكلية، والأوّل ضابطًا في الجيش العراقي.

الفصل الرابع

أوراق من مفكرة ضابط



ضابط في يومه الأول

انتهت تلك الإجازة التي منحتها الكلية، قصيرة نسبياً بعد التخرّج، كان التنقّل طولها حرّاً بين قرية الجمجمة، وبين مدينة الحلة، تأكيداً على ما يبدو لذات جديدة قوامها ضابط، لم يكمل العشرين من العمر، مرت سريعة، راح القصد قبل انتهائها بيوم واحد صوب المراجعة الحتمية لمديرية إدارة الضباط، بناية تجاور البناية التراثية لوزارة الدفاع الممتدة من الباب المعظم إلى حافة الميدان، كانت هي الأخرى تراثية، أخذ منها الملك فيصل الأوّل سكناً مؤقتاً، في مقدّمتها غرفة صغيرة خُصّصت للاستعلامات، جلس على كرسي لها حول طاولة خشبية نائب ضابط، بان الشيب واضحاً على مفرقيه، ومع هذا كان نشطاً، أدّى التحية من مكانه واقفاً، رجا الجلوس على كنبه جوار آخرين، كانوا جالسين، طلب الاسم، كأنه يعرف من الشكل غالب المراجعين لهذا اليوم ضباطاً أحداثاً، وصلوا لاستلام كتب إلحاقهم إلى وحدات نسّبوإ إليها بعد تخرّجهم ضباطاً قبل أيام، غاب ذاك النائب ضابط عشر دقائق، عاد يحمل رزمة كتب التحاق إلى فرق الجيش الخمسة، سأله حاتم عن مقرّ الفرقة الأولى، أجاب بوثوق مدينة أربيل سيّدي، أشار عندها حاتم صوب الخطوة القادمة حوانيت الجيش، لشراء يطغ سفرياً⁴¹، وحذاءً للعرضات، وبعض حاجات متفرقة، فوحدات الفرقة مفتوحة لأغراض القتال في الشمال، وبالمرة التعرّيج على

⁴¹. اليطغ مصطلح دارج بالعسكرية العراقية، جاء من كلمة (Yatak) التركية، يبدو نقله الضباط القادمون من العسكرية التركية، والمؤسسون الأوائل للجيش العراقي، وهو عبارة عن فراش داخل حاوية من قماش عسكري، يحسب من التجهيزات السفرية للضباط والمراتب، يصطحب في الحركات العسكرية، والتدريب الاجمالي.

الانضباط العسكري، لتسجيل الأسماء في قوائم حجز التذاكر بالقطار الذهاب إلى الموصل، اقترح بعد الانتهاء من مشاورها القيام بجولة مفتوحة في شارع الرشيد مشياً، ختامها غداءً في النادي العسكري، فاستقرّ حال المشي أربعة ضباط بمجموعتين، تسيران تباغاً على أرصفة الشارع الرابضة تحت أعمدة غالبيها من الطابوق، ختمت بالعودة إلى الحلة نهاية اليوم استعداداً، ليوم آخر هو الأخير في إجازة الانتقال إلى الحياة العملية، عند حلول عصره، تمّ التوجّه إلى سيارة عبس الخشبية، بصحبة الوالدة مودّعة، بمشاعر مبعثرة بين الفرح فخرًا بالضابط، وبين الخوف من خسائر حرب الشمال، فذاكرتها تحتفظ بأسماء جنود من القرية قُتلوا في تلك الحرب.

كانت السيارة الواقفة أولاً في الدور القائم لسيارات التكتسي الذهابية إلى بغداد، شوفرليت موديل (1957)، أشرت إلى السائق حجز الكرسيين الأماميين، أو كما يسمّيها السائقون أهل الآنة، والمتعاملون معهم، الحوض الأمامي، (ضابط ذاك الزمان يحتكم على قيم فيها مستويات الرفعة، والاعتزاز بالذات المهنية، عالية، يجلس في المقدّمة، تؤهّله القيمة الاجتماعية الجلوس في المقدّمة، ويسمح له الآخرون بذلك احتراماً).

انطلقت تلك السيارة ذات اللون الأسود، توقّفت في نقطة السيطرة عند مدخل بغداد قريباً من مفرق الدورة حدود المدينة آنذاك، أدّى التحية جندي من الانضباط العسكري، قدّم دفترًا، رجا بصيغة عسكرية كتابة الاسم والرتبة والوحدة، والتوقيع إزائه (الضباط فقط يكتبون أسماءهم في دفاتر موجودة في جميع النقاط العسكرية)، كان الاعتقاد في ذاك الزمان وجود التوقيع بهذه الصيغة إجراءً إداريًا للمحافظة على سلامة الضابط، وتبيّن فيما بعد أنّه إجراء أمني احترازي، لمعرفة التحرك الفعلي للضابط، خشية الاشتراك في مؤامرات درج الضباط الاشتراك

في تنفيذها، علمًا أنّ جميع الحكومات بعد أوّل انقلاب نجح للضباط عام (1958) تخشى مشاركتهم في تنفيذ انقلاب.. إجراء جاءت به وزارة الدفاع بعد العام المذكور، استمرّ إلى بداية الحرب العراقية الإيرانية، ثمّ توقّف بعد أن أحكمت الاستخبارات العسكرية الطوق على تحرّكات الضباط، وأحسنّت إحصاء أنفاسهم.

لم يكن لدى السائق مانع من الاستدارة إلى محطة القطار العالمية، تلك البناية الجميلة ذات الطراز المعماري البريطاني، واحدة من توأم ثلاثي، أوّله بريطاني، وثانيه هندي، وشيّد الثالث هنا في العراق، لتكون حسب التمنّيات مركزًا لقطارات تمتدّ على دول المنطقة جميعها وأوربا، لكنّ الذين جاؤوا من بعد لم ينجحوا في تحقيق تلك الأمنيات، قبلوا بمآلها حتى عام (2023) محطة محليّة تنقلهم إلى البصرة والموصل، وأضيفت إليها حديثًا كربلاء في قطارات هي الأبطأ في المنطقة والعالم.

كان حاتم في الانتظار عند مكتب الانضباط العسكري داخل بناية المحطة، المكتظّ بالضباط الساعين إلى قطع التذاكر إلى الموصل، نهض النقيب حسن من على كرسيّه الخشبي، طمأن الجميع حتمية سفرهم، وأشار إلى طلب من عنده إضافة عربتي نوم لاستيعاب أكثر من خمسين ضابطًا نسّبوا إلى الفرقة حديثًا، ومثلهم ضباط من الفرقة انتهت إجازاتهم، ومن وحدات فرق أخرى تعمل في المنطقة الشمالية، حسم أمر التذاكر سريعًا، فأضحت الوجهة صوب الرصيف الرقم (1)، كان يعجّ بضباط وصلوا من قبل، في حال انتظار هادئ لحركة القطار الصاعد إلى الموصل، بالساعة التاسعة مساءً.

وُضِعَتْ الحاجيات واليطغ في غرفة لسريرين، يعلو أحدهما الآخر، كذلك فعل حاتم الشريك الفاعل في غرفة، تجاورها أخرى طبق الأصل، خُصّصت إلى وائل سعدي وصباح

الأعظمي⁴²، صديقان، تمّ النزول وإياهم للمشّي معًا على الرصيف، مشيًا لا يخلو من التبختر برتبة الملازم، كأنّ الأيام العشرة لم تكف لإشباع الحاجة النفسية إلى الاعتزاز بالرتبة، على رصيف تجمع فوقه أكثر من خمسين ضابطًا يحملون كتب تنسب إلى فرقة المشاة الأولى، بألويتها الثلاثة (1 - 14 - 15)، ضمن قاطع مسؤولية تمتدّ من حدود مدينة الموصل مع أربيل في أسكي كلك إلى قضاء راوندوز.

قطار الموصل

تحرك القطار من رصيفه تمام التاسعة مساءً، مأكنة ديزل في المقدّمة، تجرّ عشر عربات، تطلق أصواتًا مميّزة للتنبيه، على الرغم من العوارض اليدوية المنصوبة على تقاطع الطرق مع سكة تشكو تعرجًا واضحًا من بعيد، سائقو قطارات ذاك الزمان وهذا الزمان، لا يطمئنون إلى تلك العوارض، ولا إلى التزام العابرين، حيث المجازفة غير المتأنية لبعضهم بالحيدان من خلفها لاجتياز السكة بطريقة لا تخلو من التحدي والمخالفة، أو من الاستجابة لدوافع العجالة الموهومة.

أبدل غالب الضباط الخريجون حال تحرّك القطار، ملابسه العسكرية، ارتدوا أخرى مدنية، رغبة منهم في التحرّر من ضوابط القيافة العسكرية والتزاماتها، تجمعوا من غير اتفاق

⁴². وائل سعدي، من بغداد، خدم في الجيش كأمر فصيل وسرية في الفوج الثاني لواء المشاة الخامس عشر، وفي الحرب العراقية تسلم مهامّ أمر فوج ثم أمر لواء، وأحيل على التقاعد برتبة عميد، صباح الأعظمي، عمل أمر فصيل في الفوج الثالث لواء المشاة الخامس عشر، ثمّ أمر سرية وفوج، شخصية بغدادية مرحة، يحفظ ويحكي كثيرًا من الطرف، أصيب بداية الحرب العراقية الإيرانية بجروح بليغة، أحيل على التقاعد برتبة مقدّم.

مسبق عند عربة المطعم، قال النادل ذو الخمسين عامًا بعد تعديل سترته البيضاء النظيفة، لقد ازدحم المطعم، سأل عن درجة السفر، ولما تبين أنها عربات نوم، قال خيار الجلوس في تلك الغرفة هو الأمثل، اقترح تسجيل الطلبات، تعهّد إيصالها في دقائق معدودات، أيّد صباح هذا الرأي، عدّه سديدًا، اقترح وائل فتح الحاجز الخشبي بين الغرفتين لتكون غرفة واحدة بأربعة أسرة، صالحة للسهر، وبعد تلقّيه التأييد، بدأ تدوين طلبه، قننّي بيرة فريدة وبعض المقبلات، تبعه حاتم، ومن ثمّ صباح الذي خصّ نفسه هو الآخر قننيتين، ثمّ التفت ليسأل عن الطلب، أجبت بهدوء، لم يسبق لي شرب الكحول، قال صباح لا بدّ أن تجرّب، لا يكون الضابط ضابطاً إن لم يجرّب، ثمّ ضحك بفهقة عالية سمعها الجالسون في الغرفة المجاورة، وأكمل قوله: سجّل له زجاجة واحدة على حسابي.

- لم زجاجة واحدة؟ سألت باحتجاج سافر، ردّ بقدر من الممازحة: لأنّ من يبدأ الشرب أوّل مرّة، عليه البدء بوقع خفيف، خشية فقدان المفصوح للآثان.

لقد أثارت إجابته وجع مسألة الأمباسي واتّجاهات التقليل من القدر الذي تمّ تجاوزه من قبل، فأشير إلى النادل أن يثبت الطلب، مثلها اثنان، فتح حاتم الطاولة الخشبية الجانبية، وضع حقائب في الفسحة الوسط بين الأسرة القائمة طابقين، عمل طاولة غطاها بشرشف جلبه النادل بشكل مخصوص، دقائق، وصلت بعد انتهائها كلّ الطلبات، ودقائق أخرى تمّ فيها تكرار المزيد من الطلبات، ومن بعدها فتحت أبواب الغرفة (الكابينات)، فكان جميع أصحابها من الضباط قد فعلوا مثل ما فعل أصحاب هذه الغرفة، فتحوّلت أجواء العربة إلى ما يشبه الاحتفال، حثّمت طلب المزيد، نصح وائل عدم مسايرة الآخرين وطلب المزيد، لحداثة التجريب، لكن دوافع عدم إعطاء انطباع بالمنزلة الأقل

دفعت إلى عدم الالتفات إلى النصيحة، فحُتِمَتْ آخر الطلبات بالساعة الثانية عشر، قال النادل سيغلق المطعم في هذا التوقيت، لكن صخب الشباب استمرّ إلى الساعة الثانية من بعد انتصاف الليل، إذ حسبوا احتياطاً في الطلبات يكفي إلى تلك الساعة المتأخرة من الليل.

.....

توقّف القطار متمهلاً في محطة الموصل، لم يتأخّر الشباب عن توقيتات النزول، وإن سهرُوا ساعتين بعد انتصاف الليل، كان هناك ضابط من انضباط الفرقة الأولى بالانتظار، وحافلات استأجرتها للنقل إلى مقرّها في أربيل، أقترح تناول الفطور في النادي العسكري، ومن موقعه يتمّ الانطلاق، ساعتين من الحركة، رتلاً من ثلاث حافلات تحرسها سيارتان عسكريتان مُلئتَا بالجنود المسلّحين، تمّ الترحّل منها عند بلوغها باحة النادي العسكري في أربيل، والتوجّه إلى قاعة وقف في مقدّمتها قائد الفرقة العميد الركن زكي حسين حلمي⁴³، مستقبلاً، وإلى جانب اليسار اصطفّ باقي ضباط ركنه، مدّ يده مصافحاً، وعند اكتمال مراسم الاستقبال والترحيب أشاد بتاريخ الفرقة من فوجها الأوّل، (فوج موسى الكاظم)، ومساهماتها في القتال ضد الصهاينة بفلسطين، قدّم شرحاً يسيّرًا لطبيعة القتال الجبلي والمسؤولية الوطنية لمقاتلة العصاة، (تماشياً مع التسمية الرسمية الدارجة آنذاك لمقاتلي الأكراد)، تسمية بدأت منذ السنين الأولى التي حصل فيها القتال بعد تأسيس الدولة العراقية بقليل، وإلى العام

⁴³. زكي حسين حلمي ضابط محترف، شخصيته قوية، يهابه المنتسبون حدّ الخوف، أنيق في ملبسه، يوحى شكله بالحزم والشدة، مهني، يسعى إلى تطبيق الضوابط العسكرية بحذافيرها، قاد الفرقة الأولى لسنوات بكفاءة عالية، بغدادي الأصل، أكاديمي، معلوماته العسكرية جيّدة وانضباطه عالي المستوى، تقديره من أقرانه وقادته جيد.

(1947) الذي تمكن فيه الجيش العراقي بالتعاون مع القوات البريطانية من فرض السيطرة، وإجبار الملا مصطفى القائد الثائر مع خمسمئة مقاتل، أغلبهم من البرزانيين التوجّه إلى الاتحاد السوفيتي إثر فشل جمهورية مها آباد الكردية، لقد عاش الملا مصطفى هناك حتى صدور عفو الزعيم عام (1958)، لكنّه ترك بغداد وعاد إلى الجبل عام (1961)، ليبدأ حركة جديدة أعيدت معها التسمية الرسمية (عصاة)، استمرّت تلك الحركة، واستمرّ معها القتال مدّاً وجزراً، تخلّلتها محاولات للفهم والتصالح تفضي إلى هدنه، سرعان ما تنتهي لتبدأ مرحلة قتال أخرى، والحال هكذا إلى عام (1991) الذي استقطع فيه مجلس الأمن الدولي منطقة أمانة للأكراد، وفرض حظراً جويّاً عليها عند خط العرض (36) شمالاً.

عرج القائد على هذا الموضوع بعجالة، وانتقل إلى آخر قائلاً: لقد شكّلت الفرقة قوَّات مغاوير مستقلّة ترتبط بمقرّها، تحتاج إلى ضبّاط أحداث، سأل فيما إذا كان أحد من الضباط راغباً في الانتماء إلى هذه القوّة، نهض خلدون جبر، وعزيز الياسري، وحمزة حسون، وسبعة آخرون، اقترب منّي عزيز، وأيّده خلدون طالبين النهوض، والالتحاق معهم إلى المغاوير بالتأسيس على القابلية البدنية الجيّدة والعلاقة المتميزة معهم، تمّ الاعتذار، من دون الإفصاح عن السبب الأساس، خلاف قديم مع حمزة لا يراود له التجديد.

أشار القائد إلى قاعة أعدّ فيها الغداء، وعلى مائدته أشار ضرورة دخول الضبّاط الأحداث دورة في الحروب الجبلية، تؤهّلهم لأن يكونوا أمري فصائل في وحدات تقاتل قتالاً جبليّاً خاصّاً، تحرّكت السيارات العسكرية بحمولتها كاملة من الضبّاط، سارت رتلاً تتقدّمه سيارة زيل جلس على جانبيها جنود مسلحون بكامل تجهيزاتهم القتالية، وأخرى في الخلف على الغرار ذاته،

سارت هي والرتل تجاه صلاح الدين، بدأت تتسلق جبلاً، تزار على طريقه المتعرج باستدارات حادة قاربت الأربعة عشر، توقفت بعد آخرها، عند شارع وضعت على جانبه قطعة رسمية للتعريف بالمكان مصيف صلاح الدين، عند هذا المكان، تغير كل شيء، وتسكرت كل المعالم، شارع تنتقل عليه سيارات عسكرية تجر مدافع، وأخرى تحمل جنوداً، وثالثة تنقل عتاداً، على جانبيه، تتراصف مقاهٍ ومطاعم روادها جنود مسلحون وضعوا بنادقهم جانباً لتناول وجبة غداء، وعلى أرصفته يسير مواطنون أكراد ينظرون نظرات انقسموا فيها بين مستغرب غير راضٍ، وبين آخر راضٍ على مضض، وهم جميعاً خائفون، لا يطمئنون إلى ردود الأفعال، التي خبروا قسماً منها قاسية، لم يكن في سياقات وقواعد الاشتباك تقييد لردود الأفعال القاسية، فتعلم منها المواطنون الأكراد الخشية من مشاهد العسكر والسلاح، لم يتوقف الرتل في صلاح الدين، وإن أبطأ السرعة لتسهيل مرور أرتال أخرى، لوحدات تنتقل تجاه شقلاوة، راوندوز، الأمر الذي تسبب في الوصول إلى المعسكر المطلوب (سبيلك) في ثلاثة ساعات.

كان المعسكر مكتظاً بالجنود والخيم والأسلحة والسيارات، وبعض ضباط من المقر في الانتظار، بينهم العقيد مدير إدارة الفرقة، ونقيب أشير له أمر الدورة، ورع المدير الضباط الملتحقون على خيم معدة مسبقاً، خمسة في كل خيمة، أعاد التوزيع على شاكلتها الذكريات السابقة لحياة التدريب الإجمالي في الكلية العسكرية التي يطمح العقل تجاوزها سريعاً.

بدأ اليوم الأول لمنهاج الدورة، دروساً نظرية في الصباح، وأخرى على منضدة رمل بعد الظهر، مهدت إلى تنفيذ تمارين عملية، وإجراء زيارات إلى وحدات توزعت فصائلها على شكل رباعية فوق القمم المحيطة، ودروساً أخرى حول طبيعة القتال في

الحروب الجبلية، كان وقع الحياة شهرًا لهذه الدورة مملاً، اسهم بعض الشيء للتمهيد إلى الانتقال من حياة الطالب في الكلية إلى الضابط في الوحدات، حضر في اليوم الأخير العقيد مدير الإدارة، يسير إلى جانبه نائب ضابط يحمل أوراقًا تجمعها إضبارة، أمر بالوقوف في صفٍّ بالنسق، بدأ توزيع كتب التنسيب، فكان النصيب وحاتم عبد الأمير، وصباح الأعظمي، وشاكر محمود، وقاسم محمد صادق، ومحمد هليل إلى الفوج الثالث لواء المشاة الخامس عشر، مشيرًا إزاء كلٍّ منهم، الفصيل الذي سيقوده أمراء، والسرية التي ينتسب إليها الفصيل، وكان الفصيل المشار إزاء اسمي فصيل مقاومة الدبابات في سرية الإسناد.

مفكرة أمر فصيل

سَلَّم مدير الإدارة في آخر مطاف الدورة كتب التنسيب، كلُّ إلى وحدته، أشار إلى سيارات (غاز أسلحة) قد اصطفت جانبًا في ساحة مسيجة بالأسلاك الشائكة قريبًا من المقرِّ، قال ستنتقل المنسّبين إلى الوحدات ضمن قاطع المسؤولية، آخر تلك السيارات من جهة اليسار، كانت قد لصقت على زجاجها الأمامي ورقة تعريف بيضاء، كُتِب عليها بالخطِّ الكوفي (ف3 لَمْش 15)، تَجَمَّعنا عندها نحن الخمسة المنسّبين، قال قاسم: أنا الأقدم بفارق الدرجات، فأخذ مكانه جلوسًا على الكرسي الأمامي جوار السائق، وأخذنا الأربعة أماكننا في الخلف، سارت بنا بطيئة تجاه الشمال الشرقي إلى ناحية خليفان، حيث المقرّ المتقدّم للفوج. كان الوقت قد قارب الواحدة ظهرًا، نهض الملازم سامي البياتي⁴⁴ أمر سرية المقرّ من على كرسي حديد كان جالسًا عليه

44. سامي في الأصل من كركوك، كان ضابطًا طيارًا في القوة الجوية، أحيل إلى المشاة، هادئ الطبع، بسيط، ملتزم.

خلف طاولة تُطوى، كذلك من حديد في خيمة له عيار الحجم (80 باون)، قال بعد الترحيب، ينتظركم الأمر، وخطا تجاهه أولاً، تبعه الخمسة إلى خيمة عيارها (180 باون) منصوبة على جنب، فوق أروقة من الحجر، تتوسطها طاولة وكُرسي حديد، وقف إلى جوارها المقدم الركن محمد حسن شلاش، لم يكن المقدم ذو البشرة السمراء الحنطية، والبنية الضعيفة، غريباً علينا نحن الخمسة، ولا كذلك السجّارة التي لم تفارق شفّته، إذ كان مدرّساً للتعبية في الكلية، ومؤلفاً لكتاب يدرّس فيها عن الجغرافية العسكرية، معروف من عموم الطلاب بهدوئه والرزانة، والثقة بالنفس، وتحمل المسؤولية، والمهنية العالية، والانضباط العالي، وحبّ العمل، (شغل منصب آمر لواء، وأحيل على التقاعد برتبة عميد ركن)، رحّب أولاً، ثم عاد إلى كرسيه، استعرض الأسماء، وجّه أمر سرية المقرّ نشر الالتحاق، ثم أخرج خريطة من درج مكتبه، مشاراً عليها مواقع السرايا في التلّول المحيطة بالناحية، وداخل مضيق غلي علي بيگ، التفت جانباً قال لا نشاط لفصيل مقاومة الدبابات، إذ إنّ الاكراد يقاتلون بتعبئة حرب العصابات، ليست لديهم دبابات، توقّف قليلاً عند هذه المفردة، ضحك، ثم عَقَبَ بالقول ومن يدري مستقبلاً، وعاد بالحديث إلى سياقه، قائلاً: عليه سيتمّ التنسيب إلى الفصيل الثاني، من السرية الثالثة، ولمّا أكمل الترحيب وتقديم بعض النصّح، عرج على جغرافية المنطقة، وعوامل التأثير على الفوج والتهديدات المحتملة، مؤكّداً على حالة الدفاع التي يتّخذها في ظروف يقلّ فيها النشاط العسكري الكردي بالمنطقة لتوقّف القتال، لكنّ هذا لا يلغي آلية الحيلة والحذر، بعدها أشار إلى الملازم سامي ضرورة الانتقال إلى مطعم الضباط، فقد حان الغداء.

كان المطعم سقيفة من أغصان الشجر، حيكت أضلاعها الثلاثة بإمعان، وبقيّ الرابع مفتوحاً على ساقية ماء جارٍ يفضي

إلى غلي علي بك، ورُتّب السقف من شجر الحَوْر (القوَّغ) تغطيه حصران، تسمّى باللهجة الدارجة (كبرة)، استمرّ الأمر في كلامه العام عن الخدمة العسكرية، لم يتطرّق إلى الحياة والشؤون الشخصية، طلب من أمر السرية بعد انتهاء الطعام حضور الأدلاء، لاصطحاب الضباط الذين تنفتح سراياهم خارج المعسكر، بينهم السرية الثالثة التي أخذ مقرّها والفصيل الأول موضعاً على تلّ يشرف على الناحية، وتوزّع الفصيلان الأخريان على تلّين منفصلين، مشرفّين على جانب آخر من الناحية، تفصل بينهما مسافة تزيد عن الألف متر.

.....

وصل الدليل مقرّ السرية، وقد اختفت الشمس من وادٍ بين جبلين، كان مقرّها في مجمله تلاً يتوسّط تلالاً متقاربة في الشكل، أشار إلى ملجأ أمر السرية، أو مقرّه حفرة رصفت أركانها بالحجر، جوار ملاجئ أخرى للمنتسبين، سُقّفت جميعها بأغصان أشجار تنمو في المنطقة طبيعياً، وخشب الحَوْر، (لا يتهبّب المنتسبون من الجيش والشرطة عندما يحلّون للعمل في المنطقة من أخذ حاجتهم منها متى شاؤوا، ولا توجد تعليمات واضحة تمنع التجاوز، كما لا توجد تخصيصات مالية لغرض إنشاء وتحصين الملاجئ، والمقرّات تحول دون التجاوز على مزارع الخشب والغابات).

جرى الاقتراب من الغرفة الملجأ، وقبل الوصول إليها خرج أمر السرية الملازم عبد المنعم عبد الله⁴⁵، مدّ يده للمصافحة والترحيب، وبعد الجلوس أخذ الحديث عن انفتاح الفصائل والمهام، عرج على طبيعة المنطقة، حصر المخاطر، وألها

⁴⁵ عبد المنعم عبد الله، ضابط من الدورة (40) مرحرّ بنحفظ، يتخلّق بأخلاق الجنوب، من مواليد مدينة العمارة، أسير في الحرب العراقية الإيرانية.

التسلّل، واحتمالات المباغطة في هجمات قد تحصل فجأة، إذا ما تعطلّ وقف إطلاق النار، الذي يسهل تعطيله، لعدم توافر الثقة بين الدولة والأكراد، أخذ في حديثه ساعة، توارت من بعدها الشمس تمامًا، وحلّ المغيب، قال لا أحبذ التنقّل ليلاً، ستقضي الليلة ضيقاً، وفي الصباح سيكون الدليل جاهزاً للوصول إلى الفصيل الثاني الذي أخذ من التلّ الأيسر ربيّة (ربيّة) له، أشار على التلّ في خريطة تبينّ موقعه أسفل جبل كورك.

انتهى منع من مراسم الترحيب والشرح وتبيان المهام، كان بطبعه لا يؤدّ الإطالة في الكلام، نادى على المراسل حمزة، طالباً الشروع، ثمّ استأذن الانتقال إلى مكانه المفضّل، دكّة تجاوز سياج الربيّة من الداخل، ترتفع عن أرضها مقدّاراً جعلها مشرفة على عموم الوادي، ومجرى الماء القريب، يبدو كأنّها المكان التقليدي لجلوسه، والضيوف ساعات الغروب، وفي النصف الأوّل من الليل.

جلب حمزة في خطوته الأولى للشروع الكرسيين الحديديين، وطاولة خشبية مصنّعة محلياً، وفي الخطوة الثانية عاد، وبين يديه صينية من الألمنيوم، حمولتها أربعة صحن من المقبّلات موزّعة بين اللبن، وسلّطة الخضار، ومكسّرات يغلب عليها الجوز، يتوسّطها ورق ماء وقدحان نحيفان، وزجاجة عرق محليّ، قال عنه منع فيما بعد يُجلب خصيصاً من قرية ديانا القريبة من قضاء راوندوز، وضعها حمزة بتأنٍ على الطاولة الخشبية، وانصرف مع إشارة إلى أنّه باقٍ في أتمّ الاستعداد لتلبية الطلبات، اعتذر منع عن عدم وجود الثلج، بطريقة، كأنه افترض احتراف ضيفه شرب العرق، فحصل على ابتسامة مجاملة، على الرغم من الجهل بسياقات المجاملة في مثل مواقف كهذه، لكن منع لم يتوقّف، بل وسار تجاه طقوسه، فتح القنينة، سكب منها في قدح مقابل، وأكمل في القدح الثاني من جهته، كان

يمائله كأنه القرين، ومن بعدها، مسك الدورق وصار يسكب الماء على كمّ العرق النقي في القدحين، فتحول خليطاً أقرب إلى لون الحليب، كان تسلسل الأشياء، والطقوس، وهيبة الأمر والمكان، لم تفسح المجال للاعتذار المسبق عن عدم شرب العرق، وبعد إكماله ومسك القدح إيذاناً بالشرب ترحاباً، حلت الجرأة على تقديم الاعتذار، مع الثناء على هذه الضيافة وتقديم الشكر، ضحك بودّ، قال إنه الشراب الميسور هنا، وهو سيّد المشروبات الكحولية، أكد على أنّ غالب الضبّاط هنا في هذا الفوج والأفواج الأخرى يشربونه، لأنّ الوقت يمرّ بطيئاً حدّ الضجر، وهو الدواء الملائم لتخفيف الضجر، بل ويحوّله إلى متعة لا تضاهى في التعامل مع الرتابة والبطء، وقبول الظلام، والنوم العميق بلا كوابيس، رفع الكأس ثانية بعد الانتهاء من مقطوعة تسويغ جميلة، قال لنشرب بصحّة الالتحاق إلى السرية الثالثة، فكان القدح الأول، أعقبه آخر وآخر، وكان حمزة يقدّم بين الحين والحين، ناتج مطبخه الخاصّ، مشويات من لحم خروف، دُبّح صباحاً، هو استحقاق الأرزاق لمبتسبي السرية، وهكذا استمرّ الحال جلسة مفتوحة في هواء نقي، دامت إلى انتصاف الليل، لتسجّل ليلة مميّزة هي الأولى في الحياة العملية، يصحّ لموضوعها عنوان: يوم الالتحاق الأوّل مقروناً بقنينة عرق.

تمّ النهوض في الصباح مبكّراً، وارتداء قيافة القتال العسكرية، والتوجّه صوب الأمر منعم، كان قد أخذ مكانه حول الطاولة التي انتقلت إلى موقعها الأصلي في المقرّ الرسمي، بات يقَلّب بعض أوراق منفردة، بينما انشغل حمزة في إعداد الفطور، أوماً بعد ردّ التحية للجلوس، أخرج خريطة مشاراً عليها نياسم التسلّل المحتملة، تمرّ أغلبها قريباً من التلّ الأيسر مقرّ الفصيل الثاني، عرج من بعدها على القرى الموجودة، والوحدات القريبة،

ومن ثمّ الأرزاق والطبخ ونظام الإجازات، ختم حديثه إشادة بعريف الفصيل الثاني جبار، سأل بعد إتمام الفطور عن الدليل، فتقدّم نائب عريف كامل، سار في طريق كان هو فيه بالمقدّمة، لنصف ساعة انتهى عند تلّ مرتفع تعلوه ربيّة هي المقرّ القائم للفصيل، تلّ يشرف على عموم المنطقة المحيطة، يجاوره لمسافة أبعد تلّ آخر يرابي من فوقه الفصيل الثالث، وهكذا باقي التلال والمرتفعات التي تشرف عليها من الأعلى قمّة جبل كورك الجرداء، تلك التي تحتفظ بالثلج باقيًا بين أجوافها، والأخاديد طول السنة بسبب درجات الحرارة المنخفضة.

.....

جبار عريف الفصيل، قاده لسنتين متواصلتين بعد نقل أمره الملازم فيصل، موجود الضباط في هذه السرية إبان تلك المرحلة الزمنية، ضابط واحد، هو الأمر منع، وأصبح اثنين، جبار رجل قارب الأربعين في العمر، يرجع في الأصل إلى ريف مدينة العمارة، طويل القامة، أسمر البشرة، نشط، وارث لجسم رياضي قوي، يتصنّع العبوس عند اشتداد البأس، يخافه جنود الفصيل، يتعاملون معه ذلك الأب المتشدّد، قدّم نفسه خارج سياج الربيّة، عريقاً للفصيل، أشار إلى حضائره الثلاثة، قد توزّعت على ثلاثة أجزاء من محيط الربيّة الدائري، جدار من الحجر، بمزاغل تشرف على المنطقة التي تمتد مئات الأمتار، ومرابض للرمي تغطّي مساحة بالنظر عريضة، تتداخل مع التي في الجوار، وملاجئ مسقّفة بأغصان، يعلوها صفيح، وطبقة أكياس رمل، فوقها كومة أحجار، للحماية من قنابر الهاون، لكلّ حضيرة، ملجأ يكفيها للنوم، ومثلها آخر، أكثر سعة، لأمر الفصيل، وضعت داخله طاولة وكُرسي حديد، وسرير، كذلك، حديد حسب القياس. أشار جبار إلى أخذ استراحة، قبل اللقاء بأمرى الحضائر، ومن بعدهم الجنود منتسبي الفصيل، فكان لقاء لا يخلو من

تحسّب قلق، يتعلّق بالعمر، كون العريف وأمري الحضائر، وغالب الجنود أكبر عمراً من أمرهم، وأكثر اطلاعاً في قضايا الميدان، ومعرفة بالتضاريس وطرق التسلّل، وأثر الليل والظلام.. قلقٌ خفّ بالتدريج حتى تلاشى تماماً، بعد التركيز في الدقائق الأولى لأن يكون تعارفاً، كانوا تواقين، لمعرفة أمرهم الجديد، وأصوله، وبعض الطبائع والأفكار، والتعريف بأنفسهم، انتهى بعبارات أقرب إلى التقليدية، في التعاون معاً لإبقاء الفصيل في المقدّمة، وتنفيذ المهام المطلوب تنفيذها طبقاً للسياقات العسكرية السائدة آنذاك، قال جبار بعد انتهاء اللقاء وتفرّق الجنود إلى ملاجئهم: هل أبقى المراسل السابق لأمر الفصيل مراسلاً؟ فجاءت الإجابة: يتطلّب الاختيار الصائب يوماً واحداً على أقلّ تقدير، ردّ بثقة: ليس كلّ الجنود مستعدّين للعمل مراسلين عند الضباط، فالأمزجة متباينة، والاستعدادات مختلفة بين هذا وذاك. كانت المعلومات التي عبرها أمر السرية بصيغة نصيحة لا تشجع إبقاء المراسل ذاته لأمر الفصيل السابق مراسلاً، ولم يعط سبباً لنصيحته، وعموماً اقتنع جبار بالإجابة وتقبّلها أمراً واقعاً، دفعه إلى تقديم شرح عن واقع الفصيل، سئل وماذا بشأن التدريب والرياضة؟ فأجاب: لا يوجد تدريب ولا أيّ نشاط رياضي، ولم تتفدّ نشرة التدريب، فالسرية موزّعة فصائلها على ربايا، تخلو من أماكن ملائمة للتدريب.

ظلّ الجبل كورك

كان اليوم التالي صحواً، حجب الجبل كورك، عن سفحه والتلال التي تتوزع عليها الفصائل، تلك الشمس ساعة شروقها، هزّ جبار رأسه علامة تنفيذ أمر الخروج مشياً في جولة استطلاع تشمل عموم الوادي وحدود المسؤولية، أجاب خلالها تفصيلاً عن

كلّ منتسب، كان كأنّه يحفظ سجلاً عنهم موثقاً في ذاكرته اللّماعة، وفي طريق العودة تمّ التعرّيج على مقرّ السرية، للسلام على الأمر، وعرض فكرة تقسيم الموجود الفعلي للفصيل نصفين، أوّله للحراسة والمراقبة، وثانيه لممارسة الرياضة، ساعتين على أقلّ تقدير، جرياً على الطريق الترابي القريب، وتسلق تلك النياسم التي تربط بين الربايا الموزّعة في المنطقة، قبل الرجل هذه الفكرة على الفور، نوّه إلى تعميمها على باقي الفصائل، أصرّ على البقاء إلى وقت العشاء، عندها استأذن جبار الذهاب إلى فصيله، إذ لا يحبّذ بقاءه من دون أمر وعريف، كان الرجل حريصاً، يتحمّل المسؤولية.

مسك منعم عتلة الهاتف السلكي (57 Tay الروسي)، بسبّابته وإبهام اليمين، وضع الحاكية قريباً من إذنه اليسار، لفّ بالعتلة عدّة مرّات، طلب من مخابر في المقرّ تأمين الاتصال بأمر سرية الإسناد، فكان الملازم الأوّل طارق مدحت⁴⁶، على الطرف الثاني من الخطّ، راح يمازحه عن إجازة قضوها معاً، وعن علاقات بينهم خاصّة، ختم المكالمة بالرغبة في حضوره مقرّ السرية لتناول العشاء، على شرف ضابط التحق حديثاً إلى السرية، لم يترك مجالاً للنقاش كأنّه أمرٌ أصدره، وبدأ، من بعد التأكد من حضور طارق، الاتّصال تباغاً بالمساعد (ن. ض. ت. ح) ريسان العسل، وأمر السرية الثانية، الملازم منعم يسر⁴⁷

⁴⁶ طارق، ضابط، خرّيج الدورة (39) بغدادي ذو شخصية، انبساطية مرحة، يتمنّع بقدرات عالية في تكوين العلاقات العامة، يميل إلى التمتع بالحياة، معروف على مستوى ضباط الجيش القريبين من عمره وأعمار الشباب، ومعروفة سيارته الفولكسفاغن البيضاء، وقضائه معظم اجازاته متنقلاً بها وبزته العسكرية، بين شارعي الرشيد والنهر، تأخّر عن أقرانه في موضوع الزواج، متسامح لا يعرف الحقد، أحيل على التقاعد برتبة عقيد، توقّي مبكراً.

⁴⁷ ريسان شخصية بصرية مرحة، عمل مساعداً لأمر الفوج، ناجح في عمله، علاقاته الاجتماعية بالضباط جيدة، انتقل من الخدمة في صنف المشاة والفوج

وأمر سرية المقرّ الملازم سامي، نوّه لما يتعلّق بالآخرين من أمري السرايا، وجودهم في الإجازات الدورية، وبعد تضبيب الموعد والحضور عاود الاتصال بالمساعد، رجاه إخبار الأمر ليكون على علم بالدعوة، وأنّه قد رتب الجانب الأمني حتى انتهاء العشاء والعودة إلى المقرّات.

انتهت تلك الليلة لتفتح الطريق إلى دعوات متتالية من باقي أمري السرايا وتعارف، سهّل تكوين علاقات جيدة بين ضباط الفوج، كان غالبهم برتبة ملازم، باستثناء طارق الذي ترقّى إلى رتبة م. أول قبل شهر، والملازم أول إسماعيل داوود، ومعاون الأمر الرائد محمود صادق الوعد، (محمود كان مختلفاً عن الضباط الآخرين، يتميز بشدّة انضباطه، وسعة الإحباط في داخله، وقلة الطموح العسكري، إذ، وحال إكماله الخدمة خمسة عشر سنة، المضمونة للحصول على التقاعد حسب القانون العسكري، قدّم طلباً للتقاعد وحصل عليه، وعاش ما تبقى من حياته في بغداد).

.....

منظر القمّة الجرداء لجبل كورك في الليل مثير للتحديّ، شكلها عند السقوط المائل لضوء القمر على ما تبقى من الثلج في أجوافها البيضاء مبهر، تتوهّج أسطحها كأنّها الفضة السويسرية، تنتشظى وسطها الأشعة حزمًا لتسقط على الوادي بانسيابية تعطي الأمل في الحياة، كان الفصيل الثاني هو الأقرب إلى تلك الأشعة

الثالث إلى الصفادع البشرية في قيادة القوّة البحرية، أما منعم ضابط خريج الدورة (40) فبصري كذلك، أصيب بالخطأ أثناء تفتيشه السلاح بإطلاقه في فخذه، إبان تواجد الفوج في حوض راوندوز، أكمل كلية الأركان، عمل بعد تخرّجه منها في أحد ألوية الفرقة السابعة، ثم ضابط ركن في مقرّها، وضابط ركن في مقرّ الفيلق الأوّل، وبعد اتّهام قائد الفيلق اللواء الركن وليد محمود سيرت بالاشتراك في مؤامرة مع محمد عايش وإعدامه، أُحيل منعم وضباط آخرون إلى وظيفة مدنية في مديرية النقل البحري، وهو برتبة مقدّم ركن.

والسفنح، وهو المعني بالتنسيق مع سرية من الفوج الثاني لواء المشاة الرابع عشر، وهي في وضع المراقبة أعلى القمّة، يجري التنسيق معها عن طريق الهاتف الميداني بأسلاكه الممدودة بين مقرّها في الأعلى، وبين الفصيل الثاني في الأسفل، سياقات التحسّب تقتضي الاتّصال روتينيًا مرّتين في اليوم، وفي حالات الشكّ يمكن إجراء الاتّصال في أيّ وقت من الليل أو النهار، سئل جبار إبان تبادل الاتّصال الروتيني عن أمر السرية المرابية على القمّة، بغية التعرف عليه وتسهيل وقع التنسيق، أجاب الملازم الأول رضا عبود القريشي، فكانت مفاجئة، هو ابن القرية ذاتها الجمجمة، ذلك العصامي الذي التحق في دورة خاصّة فتحها الزعيم لمدة ستة أشهر في كلية الاحتياط، للناجحين والراسبين (الزحف) من الخامس الثانوي منح خريجها رتبة نائب ضابط تلميذ حربي (ن. ض. ت. ح)، يبقى فيها أمر فصيل تحت التدريب لأربع سنوات، يترقّى بعدها إلى رتبة ملازم، (كان اثنان من أبناء القرية قد دخلوا هذه الدورة، منهم رضا، والثاني رحيم عمران، أحيانًا كلاهما على التقاعد برتبة عقيد، إذ كانت ضوابط الجيش وقوانينه، لا تسمح للضباط الاحتياط الترقية أكثر من رتبة عقيد).

رحّب رضا كثيرًا في أوّل اتّصال معه، وهنّأ بالتخرّج، تفاجأ قبل حلول ظهر اليوم التالي، وصولي إلى مقرّه زائرًا لم يتوقعه، لمصاعب التسلّق من السفح، وكثرة القطوع، قال مسرورًا إنّ بلوغ القمّة الجرداء مشيًّا، وهي الأعلى في المنطقة مجازفة، سيقم على سلامة الوصول دعوة غداء، سأل عن تفاصيل الطريق، والوقت المستغرق، فكانت الإجابة: حُزِمَ الأمر في التوجه صباح هذا اليوم المشمس، لم يمانع أمر السرية تنفيذه لأغراض التنسيق، وتبادل الدعم عند الحاجة، تمّ مسك العصا المساعدة في تمام الساعة السادسة صباحًا، نصح بها جبار وسيلة

اتّكأ عند الانحناء في الصعود الحادّ، كانت البداية ربيّة الفصيل، والدليل سلك الهاتف الممدود بينها وبين القمة، كانت متابعته لازمة مع بعض الحَيَدان في أحيان يمرّ فيها بين قطوع وحافات قائمة لا يمكن تسلّقها، والطريق على العموم وعر وموحش، استمرّ التسلّق ست ساعات، وأخذ استراحة جلوس على صخرة تخلّلها تأمّل واستطلاع المكان، وتخلّلها أيضاً لحظات لوم للذات على هذه المجازفة واتّخاذ القرار، كان سفح الجبل بدءاً من الوادي، وحتى القمة مغطى بأشجار البلوط البري، وأخرى من الكمثرى، والتواءات وقطوع ومساحات يضيع في ثناياها جيش بأكمله، وقبل انتهاء الدقائق الأخيرة للساعة السادسة من زمن التسلّق، تمّ التقاط الأنفاس هنا في هذا المقر المشيد عند القمة.

سارع رضا لإصدار أوامره في نحر خروف، وتهيئة الغداء، دعا على مائدته أمري فصائل سريته، أعقبه جولة حول القمة، وسط الكتل الثلجية المتبقّية، واستمرّ هكذا حتى اقتراب حلول العصر قبل ساعات تكفي الوصول في طريق العودة قبل المغيب، صار القرار على العودة حال حلولها، اقترح إرسال جنديين لأغراض الحماية، خشية الانحراف عن الطريق وحصول التوهان، أو التأخّر في الطريق، تمّ الاعتذار عن الموافقة، بحجّة السهولة في العودة، فكانت بالفعل سهلة، لم تستغرق من الوقت سوى ساعتين من دون الحاجة إلى أخذ استراحة.

طعم الإجازة الدورية

انتهى الشهر الأول خدمة عسكرية ميدانية، استحقّ من بعد انتهائها التمتع بالإجازة الدورية، بعد استلام الراتب (58) ثمان

وخمسين دينارًا هو الصافي من الكلّي بعد الاستقطاع المستحقّ عدة دنانير، مضافًا لهذا الصافي ثمانية عشر دينارًا بدل حركات، فزاد الدخل عن سبعين، عُدتْ في وقتها ثروة، سُلِمَ منها ثلاثون إلى الوالدة لتكون سيقًا، أو استحقاقًا شهريًا، وتمّ صرف الباقي في بغداد للمتّع، استنزفت آخر دينار في آخر يوم من الإجازة، كان الإفراط في المتّع مشكلة حسب الظن، لازمت أهل الريف أكثر من سكّان المدن، إذ إنّ النشأة الأولى لصبي الريف تتمّ في الغالب من دون إشباع الحاجات الأساسية، فأشكال اللعب المتاحة بسيطة، لا تثير في داخل النفس الرغبة في التحدّي، ولا تشبع الحاجة إلى التخفيف من التوتر، والاختلاط الطفولي بين الجنسين شبه معدوم، والمعرفة حول الطبيعة والغرائز والأجهزة التناسلية مشوّهة أو غير ميسورة، بسببها، وعوامل أخرى، ينشأ الطفل وفي داخله كثير من الأسئلة عن الشريك واللذة، وكيفية تصريف الطاقة، وفي ميوله رغبات شديدة للإشباع بأيّة وسائل وإن كانت غير شرعية، كما أنّ أهل الريف يغالون في مسائل الاغتصاب والقتل غسلاً للعار، الأمر الذي يكوّن عند بعضهم غير القليل جوّاً نفسياً غريزياً مغالى فيه، يرافق الشباب بعد البلوغ، وقد يلزم بعضهم بعد الزواج، وعلى هذا الأساس كان غالب الدخل المالي من الرواتب العالية، يذهب على المتّع، في الوقت الذي توجّه فيه بعض الأقران من سكان المدن إلى تكوين أسس عيش رصينة، سجّل أغلبهم من أوّل يوم تخرجهم في جمعية بناء المساكن للضباط، حصلوا منها على أرض، وسلف من المصرف العقاري لتشييد دار، وبعض آخر توجّه إلى مشاركة زملاء في التجارة والأعمال الحرّة، بينما توجّهت للتسجيل في جمعية بناء المساكن حسب نصيحة الأمر بعد التخرّج بشهرين، لكنّي لم أسدد القسط الأوّل خمسة عشر دينارًا، ولما تنبّهت للحاجة الملحة إلى بيت بعد العزم على الزواج، قالت الجمعية يجب أن تبدأ

الاشتراك من جديد، وتبعًا لمسقط الرأس، وبدأت المشوار من عام (1973) لتغيير مكان تولّدي، إلى عام (1980) ليسجل الاسم مع الذين تقدّموا للتسجيل أخيرًا، الأمر الذي مهّد إلى الحصول على قطعة أرض من الجمعية عام (1981) واكمال بنائها عام (1982)، في حين أكمل بعضهم من ضباط الدورة بيوتًا لهم في مدينة زيونة والوزيرية منذ العام (1967).

عزلة الله المخروطي

صدرت الأوامر قبل استحقاق الإجازة الثانية، بغية تحرّك الفوج سريعًا إلى وادي راوندوز، وتحديد مهمّته المراباة على تلّ أخذ اسمًا له من الطبيعة القائمة (ظهر السمكة)، كانت فلسفة القيادة العسكرية آنذاك، مسك المواقع الحاکمة، سواء تأزّم الوضع الأمني مع الأكراد أو لم يتأزّم، لإضافة نقاط قوّة في التعامل، والتفاوض معهم عند استدعاء الحاجة، وكانت فلسفة الأكراد، التقرب من المدن وزيادة التواجد الثوري المنظم داخلها، بغية الاستفادة منها في أيّ تصادم مع الحكومة والجيش ومضاعفة النقاط، كان كلا الطرفين لا يثقان ببعضهما، يحاولان زيادة نقاط الضغط، وليس فتح الطرق والتمهيد إلى السلام، وعلى وفق هذا المنطق تمّ التحرك صوب الموقع الجديد، ظهر السمكة، تلّ مرتفع جنوب شرق جبل زوزك، يمتدّ مئات الأمتار، نحيف من الأعلى، وبما يشبه الظهر المقوّس للسمكة، جعلته الفرقة خطّ المراباة الدفاعي الأول في منطقة راوندوز، خطًا يمتدّ من جبل هندرين، ثم زوزيك، اللذين يتواجد على أغلب قممهما الأكراد.

فتح أمر الفوج مقرّه جوار قرية (گرو عمر آغا)، وزّع مهام المراباة على خريطة، كان نصيب الفصيل الثاني ربيّة تقع في

أقصى اليسار على تلّ مشار على الخريطة بالتلّ المخروطي، تلّ منعزل عن الظهر كان مشغولاً، وعموم ظهر السمكة من وحدات تتبع الفرقة الثانية، انسحبت منه في آخر اتّفاق سلام مع الأكراد، أمرت رئاسة الأركان العودة إليه، تحسباً لنقض الاتّفاق، إذ كثيراً ما كانت الاتّفاقات تنقض من الجانبين، لأسباب لا تستحق النقض منطقياً، بدأ منتسبو الفصيل عملهم في إعادة تأهيل الربيّة على تلّها المخروطي، تمتين سياجها الخارجي، بإعادة الأحجار التي خرجت من مكانها بفعل التعرية، وتحسين ساحة الرمي بإزالة بعض الحشائش والشجيرات، وردم الحفر، ثمّ تنظيف الملاحي، وزيادة تحكيمها لتكون صالحة لمهامّ الدفاع، ومنع التسلّل المحتمل في منطقة، كان التسلّل في محيطها وارداً من هوة تفصل ربيّة التلّ المخروطي عن ربيّة في اليسار يشغلها الفصيل الأوّل، ومع كلّ هذه الجاهزية، بقي التسلّل وارداً، لا يمكن القطع في السيطرة عليه، أو الحيلولة دون حصوله في الليل على وجه الخصوص، وبقيت الحياة في الربايا وعموم المناطق الجبلية رتيبة، منفرة، يمرّ من خلالها الوقت بطيئاً حدّ الملل، وكانت الطبيعة والمسافة بينها ربيّة، وأقرب ربيّة للسرية قد أضافت إلى الرتابة قسوة حياة وعزلة، وجعلها الوادي المشجّر الوعر موسوماً بالخطورة، لكنّ الرتابة تُكسّر نهائياً، بالنزول إلى النهر الجاري أسفل السفح بين الحين والحين لاصطياد السمك الذي يكثر فيه، يجري الصيد بالقنابر اليدوية الهجومية، أو بإطلاقات البندقية، بعد وضع بقايا الطعام في أعماق حفرة في المجرى قبل يوم، كان كثير من الضبّاط العاملين في المناطق الشمالية الكردية من هواة الصيد بهذه الطريقة، يلجؤون إليها وسيلة تكاد تكون وحيدة مع بعض الاستثناءات، لا يعيرون اهتماماً للتعليمات العسكرية التي تمنع استخدام السلاح في غير القتال، والقوانين المدنية التي تمنع هذا النوع من الصيد، تعدّه

جائراً يودي بمجمل السمك في منطقة التفجير، ومن جميع الأعمار والأحجام، ويودي أحياناً قليلة بفقدان حياة القائم به، إذ، وفي منطقة الكلي، اعتاد الملازم الأوّل محمد صيد الأسماك بهذه الطريقة، وفي إحدى المرّات وضع للسمك علفاً من بقايا طعام جنوده، وجاء مع مراسله في اليوم الثاني بقصد الصيد، رفع مسمار الأمان للرمانة اليدوية، حاول قذفها إلى الماء، فانزلقت قدمه من على صخرة يقف عليها كانت رطبة، فانحدر بجسمه الضخم إلى وسط المجرى حال انفجارها، فأصابته في مقتل.

كذلك تُكسر الرتابة بقراءة الكتب والمجلات التي يتمّ تبادلها بين الضباط، أول كتاب تمّت قراءته كاملاً (مروج الذهب للمسعودي)، كتاباً استعير من ابن العم رحيم كريم شهاب، وتُكسر أيضاً بالنزول إلى مقرّ الفوج مرتين في الأسبوع، للاستحمام، وتناول الطعام مجتمعاً في مطعم الضباط، والسماح بالذهاب إلى قرية ديانا وقضاء راوندوز، كان الأمر في لقاءاته ينوّه عن تلك الرتابة والضجر المعنوي، وعن مخاطر المراقبة، ويخصّ التلّ المخروطي بحصة تحذير أكثر، مذكّراً بتعرّض التلّ كربينة مشرفة على منطقة واسعة ممتدّة، لهجمات متكرّرة من الأكراد طوال مراحل القتال، تبادلوا خلالها طرفان يتقاتلان للسيطرة عليه أكثر من مرّة، كانت الأخيرة لصالح الجيش الذي تمسّك به موقعاً تمّ تحصينه جيّداً، وكانت هناك ربيبة في الوسط، مقرّاً للسرية، صارت أشبه بالملتقى للضباط من آمري السرايا والفصائل في النهار، الذي يزحف فيه الوقت أحياناً ليأخذ وطراً من الليل، كان طارق مدحت يزور هذه الربيبة كثيراً، وكان منعمرها أمرها مضيافاً، ودوداً، منفتحاً على الحياة، علاقتها مع المنتسبين علاقة خاصة، هم فيها قريبون منه، يطيعونه بودّ، وكان طارق يملأ الجوّ الذي يكون وسطه مرحاً في التعامل مع الجميع، حتى مع أكراد المنطقة، المصنّفين خصماً من الناحية العسكرية،

تجاوز بطبعه الإنساني، سياقات التعامل الحذر معهم كسكان محليين، وأصبح صديقاً لباعة العسل والجوز من أهالي القرى المنتشرة في المنطقة، يوصلون بضاعتهم إلى مقرّه في الوقت الذي يريد.

.....

في مقرّ الفوج، وفي تلك الحقبة الزمنية طوال سنة بعد التخرّج، اعتاد فيها الأمر عمل حفلة شهرية، غداء إلى المنتسبين من ضباط الصف والجنود، تُنحَر له خراف عدّة، يُطَبَخ الرز مضاعفاً وأنواعاً من المرق، وللضباط عشاءً مصحوباً باستحقاق لكل ضابط قنينتي بيرة، كان الملازم محمد لا يشرب أكثر من قنينة، وأحياناً لا يكمل نصفها، وكانت مجموعة الملازمين قد تعرّز موجودها بإضافة أربعة التحقوا إلى الفوج حديثاً من خريجي الدورة (44)، تشكّلت معهم صداقات قريبة، حتى أضحت مجموعة الملازمين مكوّنة من (سعد خضير، حاتم عبد الأمير، فؤاد حسين، محمود جاسم، صباح الأعظمي، جدوع خلف)، وتطوّرت العلاقات حدّ التحايل في الجلوس إلى جانب الملازم محمد في محاولة الاستيلاء على باقي حصّته القنينة، أمّا الضباط الموجودون في الربايا البعيدة نسبياً فيأمر بإيصال حصصهم من البيرة إليها، إلّا ربيّة التلّ المخروطي، يُحسَب وصول البيرة إليها مجازفة غير محسوبة، وكان في كلّ موسم يعمل احتفالاً فنياً أوسع من الدعوة الشهرية، يجلب فرقة عجر، يسمح فيها للجنود التعبير عن فرحهم غناء ورقصاً كما يشتهون، ينظر إلى الفوج كعائلة، بل مملكة مستقلة، قالها مرّة وهو يتفرّج على فرق للسرايا تتسابق في لعبة كرة الطائرة أنّ الفوج مملكة، وكان هو في مملكته يرتبط بعلاقات جيّدة مع أمر اللواء العقيد الركن طالب محمد كاظم، ويوم طلب منه فصيل لحماية مقرّ اللواء الكائن في بافستيان، نهاية مضيق گلي علي بك، أصدر أمراً بأن

يُكأَف الفصل الثاني للسرية الثالثة بالمهمّة، وفي صباح اليوم الثاني، سار بسيارته (غاز قيادة)، تبعه الفصل في سيارّة زيل حتى مقرّ اللواء، عند اجتياز الباب النظامي توقّف في الساحة المخصّصة لعجلات الضيوف، ترجّل، ومن بعده الفصل، الذي وقف بالنسق الثلاثي، ثمّ تقدّم نحو أمر اللواء الواقف في حال انتظار، أدّى التحية العسكرية، قال إنّه الفصل المخصّص للحماية، سيّدي، وبعدها سرّت وإياه مع أمر اللواء إلى مقرّه، وفي سياق الحديث أوصاه بالفصل خيرًا، ثمّ التفت إليّ طالبًا أن يكون الفصل نموذجًا للطاعة والمهنية وتنفيذ الأوامر، ختمها باللهجة المحلية (أن ترفعون رأس الفوج).

شهران هي المدّة التي طلبها أمر اللواء، حتى اكتمال تدريب القوّة المقترحة للحماية، كانت فترة راحة واستجمام بالمقارنة مع مراباة التلّ المخروطي، فواجبات الحراسة روتينية، وتأمين الحماية إلى أمر اللواء في تنقله، والاستطلاع، يسيرة، إذ إنّ العقيد لا يميل بطبعه إلى الخروج من مقرّه كثيرًا، وكان الأمتع ما في الشهرين ليلاً، حيث العرض السينمائي اليومي بعد فترة العشاء بآلات عرض (8 ملم) للأفلام الخاصّة، كان العقيد منفتحًا بأرائه مثل غالبية ضبّاط عصره، وكانت تربطه بغالبية شيوخ الأكراد في المنطقة علاقات شخصية، تسمح لهم تزويده بمثل تلك الأفلام المعروفة بالأبيض والأسود.

أربيل المدينة والمعسكر

نفّذ الفوج ربيع عام (1967) أمر الحركات الصادر من قيادة الفرقة لتسليم مواضعه على ظهر السمكة إلى الفوج الأوّل، والانتقال إلى منطقة أربيل لإعادة التدريب، عسكر في المنطقة المفتوحة خارج المدينة بمحاذاة الطريق المتّجه إلى الموصل، بدأ

التدريب الأساسي من حدود الحاضرة صعودًا إلى مستوى الفوج في صفحات القتال كافة، ختمه بهجومً بالعتاد الحيّ على أهداف جبلية، من خلاله تمّ التعرف على مفهوم التلوّن في الشخصية العسكرية، إذ، وبعد تحديد الأهداف المطلوب معالجتها بالهوانات كأحد مخرجات التمرين، حضر أمر اللواء وقائد الفرقة العميد الركن زكي حسين حلمي، معًا إلى ساحة التمرين، وتابعًا معًا كلّ خطوات التقدّم والهجوم حتى حدود الصولة، أشادوا عندها بدقّة التنفيذ، وبجهود الأمر في الإعداد والإشراف، وفي نقاش أثاره الأمر بحضور القادة عن دقّة الرمي، سأل قائد الفرقة أمر فصيل الهاون الملازم قاسم عن عدد قنابر هاواناته التي أصابت هدفها، ردّ بثقة مفرطة: لقد سقطت جميعها في الموقع حسب الإحداثيات المثبتة، وبعد انتهاء النقاش وتوديع القائد وأمر اللواء، اصطحب أمر الفوج جميع الضباط المشاركين مشيًا للاطلاع على كلّ الخطوات من منطقة التجمّع إلى خطّ الشروع، توقّف عند الأهداف المحدّدة لكلّ سرية، وأعاد السؤال ذاته عن نسب الإصابة للأهداف، أصرّ قاسم على الرقم (100%)، عندها طلب التوجّه إلى المنطقة التي حدّد إحداثياتها أهدافًا للقصف، تفاجأ الواصلون بحمار مربوط وسطها سرًّا، باقٍ على قيد الحياة سالمٍ، اقترب منه تفحصه جيّدًا، وبعد التأكد من سلامته، التفت إلى الملازم، قال جميع قنابرك لم تصب هدفها، وطلب منه قياس المسافة من انفلاق كلّ منها إلى المكان الذي يقف فيه الحمار وسطًا حسب الإحداثيات المحدّدة، تبيّن أنّ أقرب قنبرة قد انفلقت خمسين مترًا عن الحمار، نظر على إثرها إلى قاسم نظرة عتب، قال: تعلّموا أن تكونوا دقيقين، إنّها أرواح جنودكم، أجاب قاسم: نعم سيدي، وإن شاء الله في المرّة القادمة ستكون جميع القنابر في الهدف.

لقد استمرّ قاسم في التسويغ، والسعي لجعل السبب ذا صلة بتصفير مدافع الهاون (82 ملم)، لكن الأمر لم يستمع إليه، وترك المكان، ركب سيارته، وعاد إلى خيمته في المعسكر، يشرف على استعدادات غداء أقامه الفوج على شرف قائد الفرقة وأمر اللواء، وفي المساء أقام القائد حفل عشاء في النادي العسكري، على شرف الفوج الذي يحسبه من خيرة أفواج الفرقة، حضره عديد من الضباط القادة والأمريين.

كان التواجد في محيط أربيل مريحًا، فالنادي العسكري ملاذًا ترفيهيًا يكاد تؤمّه كلّ يوم مجموعة الملازمين في المساء حتى انتصاف الليل، وزادت عليه ملاذًا آخر لأيام الجمع والخميس، تقضى بعضها في الموصل، تجاوزًا على التعليمات التي تؤكد عدم ترك المعسكر إلى مدينة أخرى خارج حدود أربيل، في هذا المعسكر صار م. أول كاظم قائدًا روحياً لمجموعة، تمشي خلفه عصر الخميس إلى مرأب النقل، تستقلّ سيارة تكسي إلى الموصل، تسهر في أحد نواديها الليلية قريبًا من صباح الجمعة، لتعود إلى أربيل بعد تناول الفطور في منطقة الدواسة، تكرر الأمر ثلاث مرات، وقبل تنفيذ الرابعة أرسل الأمر على كاظم، أخبره بمنع الذهاب إلى الموصل، لأنّ السيطرة العسكرية اشتكت من عدم تنفيذ ضباط الفوج توجيهات التوقيع في دفاترها، امتثلت مجموعة الملازمين لأمر أمر الفوج، وفي الأسبوع الثاني، وبعد العودة من التدريب، تمّ الشعور بارتفاع مفاجئ لدرجة حرارة الجسم، راجعت على إثرها طبيب الفوج، بعد فحص أولي، أمر سائق سيارة الإسعاف بالتهبؤ، ولما سُئل عن المشكلة، قال مجرد شكوك، يودّ التأكد من بعض تحاليل، وفحوص تجري فقط في مستشفى أربيل العسكري، فكانت النتيجة ملاريا، مُنحت على إثرها إجازة لأسبوع، ونصيحة البقاء تحت المراقبة، قال الأمر، سأمّنح الملازم حاتم إجازة أيضًا لغرض المرافقة إلى الحلة،

وبين وجود طائرة سمنية في شقة نزول الفرقة، ستعود إلى قاعدتها في الموصل، ونيته الاتصال برئيس أركانها، كي يحصل منه على موافقة ركوبها إلى الموصل، ومن هناك أخذ القطار النازل إلى بغداد، فتم كل شيء حسب تخطيطه.

هبطت الطائرة في القاعدة الجوية، ومنها استقلت سيارة عسكرية إلى فندق المحطة، لأخذ الاستراحة، انتظاراً لموعد القطار في الساعة التاسعة، طلب الغداء في بهو الفندق، قال حاتم، سأطلب صحنين من الرقي الموصل المشهور بحلواته، وبعد تناول الصحن الذي لا تزيد القطع فيه عن خمسة، سأل عن الحساب، فجاء النادل بورقة سجل فيها ستة دراهم للصحن، انفع حاتم على مقدار هذا الغلاء، وبدأ بانتقاد الفندق وخدمته وهذا الاستغلال، قائلاً معقوله (شيف) الرقي بهذا المقدار، ونحن في مزارعنا نبيع حمل الرقي بستة دراهم، بعدها اضطر إلى دفع حق الصحنين مناصفة، مؤكداً أنها ستكون المرة الأخيرة التي يتناول فيها الرقي في الموصل.

.....

انتهى أسبوع إجازة مرضية إضافية منحها مستشفى الحلة العسكري، بعد رقود في ردهة الباطنية خمسة أيام، وعادت الحياة إلى طبيعتها في المعسكر الكائن على أطراف أربيل، مع تبشير حلول الربيع في هذه المدينة الجميلة، وقد كسا الخضار أرضها المتموجة، وأزهار ترى صفرتها وسط المعسكر، واحد وعشرون يوماً انقضت، وزّع المساعد في اليوم الثاني والعشرين الإجازات الدورية في مطعم الضباط بعد العشاء، وحال إكمال توزيعها نظر الأمر إلى مجموعة الملازمين في جلوسهم التقليدي وسط الطاولة، وعلى اليمين، قال مخاطباً يمكن للمجازين منها المصاحبة في سيارته الخاصة إلى بغداد، خير من الذهاب في سيارات الأجرة، حدد الساعة السابعة صباحاً ساعة شروع،

حضرنا ثلاثة قبل الوقت المحدّد بدقائق معدودات، فالأمر شديد التمسك بالتوقيتات والمواعيد، كانت السيارة، نوع مرسيدس، بأرقام أردنية، اشتراها من الملازم الأوّل واثق، كان قد جلبها من السوق الحرّة الأردني، مثل غيره من ضباط اعتاد العاملون منهم في وحدات الجبهة الشرقية آنذاك شراء سيارات لا تخضع إلى نظام الجمارك عند بيعها تصديرًا لغير الأردنيين، يدخلون بها العراق بملابسهم العسكرية، حيث لا تمنعهم سلطة الجمارك من الدخول، ولا تتدخل شرطة المرور في ضوابط إيقافهم، وهي على الأغلب لم تنتبه إليها مخالفة حتى انقضاء أشهر ودخول عشرات السيارات، ولمّا تنبهت أصدرت تعليمات لتحديد الشراء، ومقادير الجمارك المفروضة، وسبل تبديل اللوحات إلى عراقية.

أدار الأمر محرّك سيارته سوداء اللون، بعد صعودنا نحن الثلاثة إلى الحوض الخلفي احتراماً له، ضحك من مكانه، قال ليأتي أحدكم إلى جانبي، حاولنا التمتّع زيادة في الاحترام، تصادف مرور طارق مدحت، وقد أدرك الحرج وعدم فهم الأصول، تقدّم مخاطبًا باللهجة البغدادية: (تبقون غشمة، ياله واحد منكم ينتقل بصف الأمر، قابل هو سايق مال ابّهاكم)، عندها أدركنا مقدار الهفوة التي ارتكبت، وخلال تناول الفطور بدعوة منه في منطقة (طوز خورما تو)، تمّ الاعتذار، وفي العودة بعد انتهاء الإجازة تمّ تجاوز تلك الهفوة، بمبادرة من حاتم للجلوس إلى جانبه في الأمام، أمّا هو فلم يتوقّف عندها، كانت نظرته إلى الضباط الشباب نظرة أبوة حكيمة، وكانت الأجواء في أربيل وعموم العراق مشحونة بانفعال التوتر المتصاعد بين العرب وإسرائيل، وكان العموم يتابعون الوقع، وهم جالسون جلّ الوقت أمام المذياع، يشحنون أنفسهم بمثيرات التوتر من إعلام لا يقاوم، زادت وتيرة الأناشيد التي تُتلا في الإذاعة، وتضاعفت مناسيب التكرار، وتوجّه الشعراء الكبار منهم، والمبتدئون لقراءة

أشعار تزيد الحماس، بات ضباط الفوج يسمعون في خيمهم، أو في بهو الضباط، يفتش الواحد منهم عن وسيلة كي يعيد السماع، حتى وهو في أثناء الواجب حماية أمنية لطريق أربيل أسكي كلك، أو أربيل صلاح الدين، يدفع سماعها والتفاعل معها صوب التمني الجاد للمشاركة في حرب، صار العرب من المحيط إلى الخليج دعاة شنها لإبادة إسرائيل، يرددون بأفواه مفتوحة أغاني المطربة أم كلثوم، وهي تدعو في العلن إلى رمي أولئك الإسرائيليين المغتصبين في البحر.

تأخر الأمر على غير عادته عن حضور الغداء الجماعي في مطعم الضباط، لاحظ الملازم ريسان المساعد قدرًا من الاستغراب في وجوه الضباط، فسره سؤالًا عن السبب، أجاب باختصار وبصوت بادٍ عليه الأسف أنّ الأمر مشغول في تسليم شؤون الإدارة إلى المعاون، لتنفيذ أمر النقل أمرًا لفوج، استلم أمر الحركة إلى مصر صباح هذا اليوم هو الفوج الأول، اللواء الأول، طلب التجمع في ساحة العرضات بعد نصف ساعة للتوديع، بدا من خلال الموقع أنّ إرساله فوجًا عراقيًا كان رمزيًا لدعم الجيش المصري، وقد أرسل من قبله سرب طائرات هوكر هنتر بريطانية الصنع أشيد بأداء طياريه في القتال، وأرسلت بعض الوحدات من جيوش عربية، أغلبها وصل مصر بعد إعلان وقف إطلاق النار في حرب لم توقعها العرب، ولم يستعدوا لها، فتعرضوا إلى مباغته من الإسرائيليين، حرب تعدّ أسوأ حروب العرب مع إسرائيل بعد حرب العام (1948) من حيث النتائج السلبية وترك الأثر، بدأتها إسرائيل يوم 1967/6/5 كحرب وقائية من وجهة نظرها، وأنهتها يوم العاشر من الشهر ذاته، أدارها العرب بطريقة استعراضية متخلفة واستخبارات قاصرة، خسروها بستة أيام أسموها بعد الاعتراف بحصولها (نكسة حزيران)، وأسماها الإسرائيليون

الذين كسبوا بتفوق كبير وبدعم أمريكي وفير بـ(حرب الأيام الستة)، كانت الجيوش المشاركة من الجانب العربي أربعة جيوش (مصر، والعراق، والأردن، وسوريا)، نتيجتها الميدانية احتلال إسرائيل سيناء المصرية وغزة والضفة الغربية الفلسطينية والجولان السورية، وخسائر بالأرواح قُدرت في الجانب العربي (15000 – 25000)، وفي الجانب الإسرائيلي بحدود (800)، ونتيجتها النفسية، انكسار للإرادة واختلال المشاعر الوطنية، وبذرة شعور بالدونية، وهبوط في المعنويات، ونتائجها السياسية تفرّق العرب، واستسلام تدريجي وقناعة بعدم القدرة على مواجهة إسرائيل، وخسارة القسم الشرقي من القدس لصالح إسرائيل، وكذلك الجولان والتمهيد إلى اتفاقات سلام حضرها العرب ضعفاء.. نتائج لم يتجاوز آثارها العرب حتى الآن عام (2023).

أيام الهدنة

لم تدم تلك الحرب سوى أيام ستة، ومن بعدها خيمَ الانكسار النفسي على الوجوه، ومع هذا عادت الحياة العامة إلى طبيعتها، وعاود العسكر برامج التدريب بحجة الاستعداد لحرب أخرى حتمية، وعاد الهدوء إلى الشارع، في عهد الرئيس عبد الرحمن عارف (1966 – 1968) الذي كان الوضع إبّانها مستقرًا، بل هو الأكثر استقرارًا بالمقارنة مع باقي العهود التي سبقته باستثناء الملكية، وكانت انتكاسة الحرب قد مدّت الهدوء إلى الشمال حيث الرغبة المشتركة لكلا الطرفين المتصارعين تعزيز الهدنة الهشة، وبدأوا معًا مسعى الوصول إلى اتفاق يرضيهما، على الرغم من أنّ خبرات الماضي تشير إلى صعوبة رضاهما، وتشير حتمية الفشل، وحتمية الافتعال عمدًا إلى مشكلة عند

الانتقال إلى التفاصيل، حيث لا يثق الطرفان ببعضهما، ولا تقبل الأطراف الخارجية اتفاقات كهذه قبل تحقيق الأهداف، التي لا يدرك الطرفان طبيعتها، وعمومًا في هذه الهدنة التي حصلت إبان رئاسة عبد الرحمن للجمهورية عام (1967) أخذ طوالها الاكراد استراحة لتنظيم صفوفهم، ومدّ نفوذ تنظيمهم تجاه المدن الكردية الثلاث، واستفاد الجيش من الفرصة للتدريب، وإعادة تأهيل وحداته، وترصين دفاعاته ومراباته فوق القمم الجبلية، وفي هذه الأثناء استلم اللواء الخامس عشر أوامر الحركة إلى مدينة الديوانية لأغراض التدريب، وضع سلاحه وعتاده، والمعدّات، والعفش في سيارات أمّنتها الفرقة، سارت برتل واستراحات طريق إلى محطة السكك الحديدية في مدينة كركوك، أفرغت حمولتها على متن عربات نقل مكشوفة، وأخذ الجنود أماكنهم في عربات النقل العام، والضباط في أخرى مخصصة للنمام، انطلق القطار حال الحصول على تمام خبر التحميل من المحطة قبل الظهر، وصل محطة شرق بغداد في الشيخ عمر، صباح اليوم الذي تلا، بسبب كثرة التوقّفات، نزلت منه سيارات الفوج، ودُعِمَت بأخرى من المقرّ العام، حملت كلّ موجوداته، وباقي أفواج اللواء، توجّهت بأرتال ونظام تنقّل واستراحات طريق إلى معسكر الديوانية، ذلك المعسكر الذي كان معسكرًا دائمًا للواء الرابع عشر، وحال تفريغ الحمولة وتوزيع الجنود على القاعات، واكتمال المقرّات، بدأ الضباط في الجلسات الخاصة يتساءلون عن سبب المجيء إلى الديوانية، دون البصرة، المعسكر الدائم للواء، فتبين، لاحقًا، أنّ هذا لم يكن اعتباطًا، فالتدريب وإعادة التنظيم كانت غاية، والغاية الأهم ضبط سلوك العشائر التي بدأت معالم التمرد تسري بين صفوفها، خاصيّة تمتلكها العشيرة العراقية، التي عادة ما تشعر بالقوّة حدّ التمرد على ضوابط الدولة وقوانينها مع كلّ شعور بضعف، أو وهن

لسلطاتها، وكان عهد عبد الرحمن المنفتح، المتساهل، الحرّ لا يتوافق مع طبيعة العراقيين الذين تعودوا العيش تحت سلطان القوة، حدًّا أصبحت فيه، أي القوة، سبيلًا لانصياعهم إلى ضوابطها، عليه أوحوا إلى أنفسهم أنّ حكم عبد الرحمن هو الأضعف، وبدأوا التمرد عليه، إذ، وحال التمرّك في المعسكر الجديد جنوب غرب الديوانية، صدرت الأوامر لانتفاخ سرايا الفوج على مناطق العشائر الموزعة في المنطقة، فكانت السرية الثالثة قد انتشرت في شمال قضاء الخضر تجاه السماوة، حيث التحرك الملموس لعشيرة (الظوالم)، وكانت التعليمات تقتضي استعراض القوة، وتجنّب الاحتكاك بمسليحيها، إلّا دفاعًا عن النفس، وفي الحالات الضرورية القصوى، لكن أيّ نوع من الاحتكاك لم يحصل، فالأمر (المقدّم الركن طارق) كان موزونًا، وعارفًا بطبيعة عشائر الفرات الأوسط، الأمر الذي سهّل أداء المهمة وقصر أمدها، لكنّ فيضان نهر الفرات لم يدع اللواء باقيًا في معسكره للتدريب، إذ سرعان ما صدرت الأوامر بالتحرك والانفتاح لأغراض درء الخطر، فتحرّكت أفواج اللواء الثلاثة على طول المنطقة الممتدة من السماوة إلى الرميثة، وكان نصيب الفصيل الثاني قرية إلى الشمال من الرميثة، غالب بيوتها من طين، تقترب في مواقعها المتفرقة من النهر، يكثر في محيطها النخيل وأشجار التوت، والبعوض، تديرها النساء، أغلب الباقيين من الرجال، شيوخ في السنّ، أمّا الشباب فأضحوا عمّالًا في الكويت، يأتون قرينتهم في إجازات بين سنة وأخرى، ومع هذا خلت ملامح القرية ووجوه سكانها، المهذّدون بالفيضان من أية معالم رفاه توحى بعمل رجالها في تلك الدولة الخليجية الغنية، كانت قلة الرجال أو شحّتهم مشكلة للقرية، ومشكلة المنتسبين إلى الفصيل في الوقت ذاته، إذ باتت الخشية عالية من الاقتراب إلى الأهالي، فطباع أهلها عشائرية، والعشائر لا تثق بالدولة، ولا

تنصاع إلى سلطاتها، والجنود في الغالب شباب مكلفون يصعب التكهّن بتصرفاتهم، ويصعب أكثر في حالات الاقتراب، أو الاختلاط بالسكان، وخبرة الجيوش في التعامل مع السكّان لا تحبّذ الاختلاط، وبسببها أخذ الفصيل له موقعاً، يبعد منّي متر خارج القرية، نصبّ عنده الخيم، وسقائف من حصران البواري وسعف النخيل، وأجريّ وسطه لقاء بالمنتسبين، للتذكير بعادات أهل المنطقة وقيمها الاجتماعية، وامتدادات الجميع إلى عشائر لا بدّ من الالتزام بقيمها، فاستمرّ التواجد ثلاثة أسابيع، بذل فيها الجنود جهوداً حثيثة على شكل وجبات عمل طوال الليل والنهار، يتبادلون فيها الأدوار لمراقبة السدود وتقويتها، والتعامل مع النضج، والثغرات التي تحصل بتدعيمها أكياساً من الرمل.

انكسرت إحدى السداد في قاطع الفصيل مرّة واحدة فقط، فرعت نسوة القرية، وقفت إلى جانب الجنود، وأرسل أمر السرية دعماً من جنوده مدداً ومعدّات، ساعدوا في السيطرة وإعادتها إلى سابق عهدها في يوم عمل انتهى عند المساء، لم يحصل من بعدها خرق حتى انخفاض المناسيب، وتأكد الجهات المعنية زوال الخطر، عندها صدرت الأوامر بالانسحاب إلى المعسكر، وقبل المغادرة تجمّعت بحدود مئة امرأة وشيخ، هم الفاعلون من سكّان القرية، وبعض أطفال قدّموا شكرهم والامتنان، فكانوا مجتمعاً "بسيطاً" تحرّكه الأساطير والحكايات، وكانت المشكلة الأكبر طوال فترة الانفتاح لأغراض الفيضان هو البعوض الذي تضاعف وجوده كنتيجة حتمية لانتساع مسطّحات الماء الراكدة، وزادت شراسته لسعاً، حتى اضطرّ غالبية الضباط الذهاب إلى المقرّ مساءً والتواجد في ضيافة طبيب الفوج الملازم الأوّل فؤاد، وسؤاله كلّ يوم عن وسيلة نافعة لتحاشي ذلك اللسع المؤذي للبعوض، فكانت الإجابة التقليدية على أطراف لسانه (عليكم شرب العرق)، تعبيراً عن الجزع الشخصي من كثر استخدامه

المراهم التي لم تعد تنفع لتفادي الأذى والانزعاج، فاضطرّ هو إلى شربه كلّ يوم عند المغيب، وتقديم النصيح على سبيل الطرافة لشربه دواءً وحيداً يساعد الدماغ على عدم الاستفاقة عند اللسع، وتسويغته لأجل الهزار، من أن إفرازات التعرّق بعد الشرب تُهدئ البعوضة، وتجعلها أقلّ عدوانية، فتخفّف من قدرتها على اللسع.

كان فؤاد ضابط احتياط بصرياً، مرحّاً، علاقاته الاجتماعية واسعة، طبيباً كفوءاً، تجده طوال النهار قادراً على توزيع وقته بين تقديم العلاج لمن يحتاجه من دون تردّد، وقراءة كتب الطبّ، استعداداً لخوض امتحان تنافسي للتخصّص في أمراض القلب، وتجد باحة خيمته، من أوّل الليل، كأنّها تحوّلت إلى نادٍ ليلي، ومطعم متخصص في السمك (المسكوف)، لقد زيّد الفيضان وفرة السمك، وقلّ من أسعاره، حدّاً وصل سعر سمكة يزيد وزنها على خمسة كيلو غرامات ربع دينار، الأمر الذي دفع الضباط للتوجّه اليومي لإحياء حفل شواء من السمك (المسكوف).

عودة البعث

عاد الفوج إلى حاله الطبيعي، تدريب وإعادة تنظيم، وحافظت الهدنة على استقرار بقائها في الشمال، والتحق إلى الفوج ضباط أكراد، وآخرون متّهمون بالشيوعية بعفو خاصّ، فازداد الرخاء على مستوى القاعدة الشعبية، وبدأ المواطن يحسّ قدراً من الحرّية في إبداء الرأي حدّ الانتقاد العلني للحكومة والرئيس، ومن جانبه بادر رئيس الوزراء عبد الرحمن البزاز رجل القانون المتمدّن، نشر أفكاره ونياته عن إقامة حكم مدني في البلاد، وحلّ إشكالات العلاقة مع الأكراد، وخطأ بعض

الخطوات، لتعزيز الثقة بينهم، وبين الحكومة التي يرأسها، وفي المقابل نشطت حلقات النقاش بين الضباط داخل الوحدات العسكرية، وفي النوادي، يشوب بعضها القلق عن ضعف الدولة، أو ضعف الرئيس عبد الرحمن، كأنهم لم يتعودوا العيش في ظلّ نظام حكم لا يحسب ديكتاتورياً، وفي الوقت ذاته أظهر بعض الضباط القدامى من القوميين والبعثيين، الخشية من تمكّن الشيوعيين من الانقلاب على عبد الرحمن، خشية أو قلقاً، يبدو أنّه قد بدأ عند المستويات العليا للقيادات العسكرية، ومنها انتقل إلى الضباط الأعداء، ويبدو أيضاً أنّ تلك القيادات بدأت تخطّط جدّياً لتفادي سيطرة الشيوعيين، أو القوميين على مقاليد الحكم، بالتأسيس على دعاوى ضعف الرئيس، حتى أصبح الجوّ السياسي كأنه ملبّدًا بالغيوم، وأصبحت بعض الأحزاب في الساحة تتحرّك ليل نهار لتحقيق انقلاب على الرئيس الذي أعمت بصيرته الثقة المفرطة بالمعية والآخرين، بينهم حزب البعث (جناح اليمين) المعروف بجراته، ومقدرته الفائقة على المناورة، متقدّماً على شقيقه جناح اليسار في خطوات التنفيذ، وإن امتلك هذا اليسار من الضباط على مستوى القادة والأميرين غير القليل، وارتباط قوي مع السوريين، ومتقدّماً كذلك على القوميين الذين لا يقلّ تواجدهم في الجيش عن تواجد البعثيين، بل ويفوقونهم عدداً. كانت القيادة العسكرية لجناح اليمين البعثي في تلك الأثناء (أحمد حسن البكر، صدام حسين، صالح مهدي عماش، حردان عبد الغفار)، هم، باستثناء صدام، ضباط متقاعدون، لجميعهم علاقات تنظيمية حزبية داخل الجيش، وهم، في العموم، موصوفون بالجرأة والخبرة الجيدة في تنفيذ الانقلابات، إذ كان غالبهم قريباً من حركة تموز (1958)، وإن لم يشارك فيها، كما أن (البكر وعماش وحردان) كانوا قادة لحركة 8 شباط (1963)، وكان حردان مشاركاً في حركة 18 تشرين (1963)

طرفاً رئيساً، والبكر وصادم غير بعيدين عنها، وعلى هذا يمكن القول لقد توافق دهاء البكر، وذكاء صدام، وجرأة حردان، توليفة استطاعت إقناع العقيد الركن إبراهيم الداود، أمر لواء الحرس الجمهوري القريب من الرئيس، قيل عنه إقناع قد تمّ من خلال الأخ الأصغر للعقيد الملازم الأول عبد الوهاب بعثي الاتجاه، وقيل أيضاً إنّ قناعة الداود بالمشاركة قد جاءت عن طريق المساومة التي دخلها طرفاً مع عبد الرزاق النايف، مقابل البعثيين طرفاً آخر، إذ يعزّز أصحاب هذا الرأي رأيهم هذا من أنّ عبد الوهاب قد أُعِدِمَ بتهمة المشاركة في مؤامرة عبد الغني الراوي، مؤامرة لم يشارك فيها أصلاً، ويرجّحون أنّ إعدامه قد تمّ بجريرة أخيه إبراهيم وتشقياً به.

لقد استطاعت مجموعة البكر إقناع المقدّم سعدون غيدان أمر كتيبة الدبابات للمشاركة، والتنسيق مع المقدّم الركن عبد الرزاق النايف معاون مدير الاستخبارات، القائم بأعمالها، ومثلما اختلفت الآراء حول مشاركة الداود، اختلفت كذلك الروايات حول مشاركة النايف، إذ قيل إنّّه قد فاجأ القيادة البعثية في أحد اجتماعاتها التي تهىء بها للحركة، ووضعهم أمام خيارين محرجين، أما إفشاء سرّ محاولتهم إلى الرئيس عبد الرحمن، أو القبول به شريكاً رئيساً، ومنحه منصب رئيس الوزراء، بينما يؤكّد آخرون على حصول اتّصالات بين الحزب وبين عبد الرزاق، والداود، وغيدان نتجت عن اتّفاق مشاركة وتوزيع المناصب مسبقاً، وهذا الرأي هو الأكثر منطقياً، إذ من غير المعقول تعقد قيادة الحزب الحساسة ذات الخبرة الطويلة اجتماعاً في مكان وزمان قابل للخرق من جهة استخبارية كانت هي الفاعلة في ذلك الزمان، ومع هذا يمكن القول إنّ مشاركة الداود والنايف في الانقلاب كانت العامل الحاسم في نجاحه، من دون إراقة قطرة دم يتحسّس البعثيون إراقتها في ذلك الوقت، ويمكن

القول أيضًا إنَّها كانت توليفة لم تتمكّن الأحزاب الأخرى إنتاجها، فاليسار البعثي، وكذلك القوميون، لا يؤمنون بالمشي مصاحبة مع آخرين بعضهم محسوب على الغرب (النايف)، وآخرين يتّهمون بالرجعية، في حين كان البعث اليميني، أو كتلة (البكر صدام) مرنة تؤمن بالتعامل مع المتاح، والتعامل معه في أقرب وقت متاح، وهذا ما حصل وأنتج جهدًا انقلابيًا، أعلن عنه صبيحة يوم الأربعاء السابع عشر من تموز (1968) في بيان من الإذاعة والتلفزيون، وصف الحركة بالثورة البيضاء، لسهولة النجاح من دون إراقة دماء.

ترك ضبّاط الفوج مكاتبهم حال سماع البيان، غادروا مقرّات سرايهم والفصائل، ليتجمّعوا عند البهو، بدأوا سلسلة تحليلات متوالية، انقسم فيها الموجودون، مجاميع حسب الرأي والمعتقد، فكان الضابط الآلي جاسم يرى ضرورة الإسراع بإرسال برقية تأييد تحمل تواريخ ضبّاط الفوج وأسمائهم، لم يؤيده من الضبّاط سوى اثنين، وامتنع الأمر م. ر طارق ومجموعة الملازمين، عن اتّخاذ أيّ ردّ فعل بانتظار ما سيصدر عن رئاسة الأركان، تماشيًا مع معايير الضبط والقيم العسكرية، وبالنتيجة أرسل جاسم برقية تحمل اسمه أذيعت عصرًا من إذاعة بغداد، أمّا الضبّاط المحسوبون على الاتجاه القومي بينهم م. أول عدنان الخدران، و م. أول إسماعيل داوود كانوا قلقين، فضّلوا عدم اتّخاذ أيّ ردّ فعل، ومتابعة التوجّه الجديد للحكومة والتصرف بضوئها، لكن عموم الضبّاط كانوا ميّالين لاستكشاف ما ستؤول إليه الأحوال، حتى أعلن في الثلاثين من تموز عن ثورة تصحيحية لمسار الثورة القائمة في (17) تموز، نقّذها بعملية استخبارية دقيقة الثنائي أحمد حسن البكر وصدام بمساعدة بعثيين آخرين، نكثوا العهد، أراحوا عبد الرزاق من رئاسة الوزراء، عيّنه سفيرًا،

اعتقلوا الداود وزير الدفاع في الأردن، أرسلوه إلى المغرب سفيراً، وبذا انتهت فاعلية التولية، وسيطر الجناح البعثي على وفق فلسفته في التعامل مع الواقع المتاح، ومن بعده تفرّد بالحكم من دون منازع.

.....

لقد استمرّ الهدوء في المؤسسة العسكرية ووحداتها، وكذلك في الشارع بعد فضّ الشراكة مع النايف والداود، وقُلّ الضبّاط توجّسهم من النظام البعثي الجديد، بل واعتادوا عليه، خاصّة أولئك الذين عاصروا تجربة العام (1963) المتهمة بالقسوة وارتكاب أعمال وحشية، وتعامل سيئ مع الضبّاط الشيوعيين والقوميين، ومن جانبها استمرّت القيادة في تسكين الوضع في الشمال، حافظت على هدوء مشوب بالحذر، كانت لا تريد تأزيم الموقف، وإثارة آراء بالصدّ، وهي لم تُنْثَبْ أقدامها في الداخل بشكل موثوق بعد، ولم تكوّن صداقات، أو تحالفات في الخارج تعينها في مواجهة أيّ جهد مضادّ لاستمرار وجودها، لكنّها لم تتمكّن من رأب صدع ظهر واضحاً مع إيران، إذ بدأت معالم توتّر على الحدود مع الجارة القويّة، خصوصاً في مدينة البصرة وخانقين، على إثرها صدرت الأوامر لنقل اللواء إلى معسكره الدائم في الشعبية غرب البصرة، آخر يوم لمجموعة الملازمين في الديوانية كان احتفالاً في معسكر للجعر (الكيولية) جنوب المدينة في منطقة الشوملي، أخذت فيه المعدات الإدارية للسهر في سيارة الملازم حسين السياب (فوكسهول)، تمّ التوجّه صوب الشيخ حسوني الشخصية المسيطرة على حيّ من الخيم خاصّ بأولئك الجعر.. حسوني رجل مرح، توثقت العلاقة معه طوال أشهر التواجد في هذه المدينة الأقرب بطباعها إلى الريف، بدأت السهرة في باحة تقابل خيمته المميّزة، استمرّت قريباً من شروق الشمس، تمت العودة من بعدها إلى المعسكر، لتبديل القيافة إلى

العسكرية، والشروع بقيادة الفصائل إلى محطة القطار بغية إركابها في عربات تكدست في المحطة.

قطار الشعبية

تحرك القطار من محطة الديوانية في الساعة العاشرة، متجهاً إلى محطة قطار الشعبية، ومنها إلى المعسكر الدائم للواء غير البعيد عن المحطة، كان المعسكر نظامياً، قاعات وغرفاً لأمري السرايا، وغرفة لكلّ أمري الفصائل في السرية الواحدة، ومقرّاً منفصلاً للفوج، ومطعمًا للضباط، توزّعت السرايا والفصائل على أماكنها المعلمة بقطع كانت مثبتة على الجدران يسار الأبواب، وكان الأثاث القديم من الطاولات الخشبية والحديدية والأرائك باقية في أماكنها بحاجة إلى تجديد.

كان اليوم الثاني في المعسكر يوم خميس، استقرّت السرايا في أماكنها، أعطى الأمر بعد الظهر، إجازة لعموم الفوج عدا القليل من المنتسبين، أبقاهم لأغراض الخفارة والحراسة، حدّد نهايتها صباح يوم الأحد، مع التأكيد على ضرورة البدء في عملية إعادة التنظيم والتدريب.

جلست مجموعة الملازمين ظهر الخميس للتشاور في شأن العطلة، فضّلت البقاء في البصرة، بغية التعرف عليها، وهم على هذا الحال يخطّطون ويجتهدون، دخل الملازم الأوّل جاسم، على الخطّ، وهو العارف جيّداً بالبصرة، إذ كان في الفوج قبل تحرّكه إلى الشمال، قال غيّرُوا ملابسكم، واستعدّوا للذهاب إلى المدينة في غضون ساعة، وأضاف أنّ البصرة تستحق التعرف عليها عن قرب، وحال انقضاء الساعة جاء بسيارة غاز قيادة، أمر السائق بالتحرّك صوب الشارع الوطني، وفي نهايته أعطى الإيعاز سرّاً بالاستدارة إلى الكورنيش، ثمّ أمره بالتوقف حال

الوصول إلى بدايته، مقابل فندق ذي طراز قديم من الشناشيل، قال لنجلس قليلاً في كازينو أخذت من الجرف لها حصّة، وأخذ ضلعها الأمامي الزجاجي وضعاً بمحاذاة الماء، أضاف لجمال مكانها متعة التفرّج على السفن العابرة والبواخر الراسية، ومراكب صغيرة تنقل الركّاب بين ضفّتي الشطّ.

استمرّ جاسم العارف بالبصرة وخبايا المكان في تقديم الشرح المفصّل عن الشطّ والشوارع والأزقة، أخذ ساعة، اقترح بعدها بصيغة تقترب من الأمر، الذهاب إلى النادي العسكري، للاطلاع، وتناول العشاء على طاولات حدائقه الجميلة، والتأكّد بالمرّة من وجود غرف شاغرة للسكن بدل النوم في المعسكر، الذي صار مملاً، أخذنا نحن الخمسة أماكننا حول طاولة في الحديقة الأمامية المفروشة بالثيل، عزا مدير إدارة النادي عدم وجود غرف نوم شاغرة، لشغل جميعها من ضبّاط البحرية، حتى قال على سبيل المزاح، لا يوجد سرير واحد، نصح تسجيل الأسماء لغرض الحجز، وانتظار أحد يُنقل خارج البصرة، أمّا جاسم الخبير بها، فقد قال لم يبق حلّ سوى تأجير بيت أو شقة، فاجتمعت المجموعة، واتّخذ القرار باستئجار شقة، وبدأ الجهد مورّعاً، أشار معاون المقدم حسين الشيخ علي⁴⁸، الاستعانة بنسيبه قصي، فهو بصري وشاب أعزب قريب من أعمار المجموعة، قادر على تقديم الدلالة والمشورة، فنّم التوجّه ناحيته، كان في الانتظار للقيام بجولة على طول البصرة وعرضها، والقرار على شقة في منطقة الجمهورية، أربعة غرف نوم

⁴⁸ حسين الشيخ علي، بغدادي من باب الشيخ، مرح، منفتح، توفيق، يبدو أنه قد مر بشباب أشبع فيه جل حاجاته الاجتماعية، فبقي قريباً من مشاعر الشباب، وبقي مرتبطاً بمجموعة الملازمين بعلاقات جيّدة طوال قيادته الفوج، وتسّمه منصب أمر لواء في الشمال، ومن بعد التقاعد، لم تنقطع العلاقة معه إلى وقت قريب من مماته، بدأ حياته العملية في اللواء الخامس عشر بعد تخرّجه من الكلية العسكرية، وتزوج من سيدة بصرية عائلتها معروفة، واستمر بالبصرة.

وصالة، تجاوز سعر إيجارها الشهري عشرة دنانير بقليل، تقاسمها أربعة من مجموعة الملازمين (سعد، فؤاد، حاتم، ومحمود)، كانت منطقة الجمهورية شعبية، يبدو كأنها قد تورمت، وتوسّعت في السكن من منطقة صغيرة لاستقرار البصريين ذوي الدخل المحدود، إلى حي كبير بعد عام (1958)، غصّ بالقادمين من أطراف البصرة ومناطقها المزدهمة سعيًا للاستقرار في ربوعها، وتغير اسمها على الفور من الفيصلية إلى الجمهورية، كانت جمهورية الزعيم قد أسست إلى سياسة انفتاح في السكن دونما تخطيط، معطية المجال لتأسيس مدن للفقراء تحيط بمراكز المدن القائمة، كما حصل لمدينة الثورة والشعلة في بغداد.

لقد شهدت تلك الشقّة سنتين من أيام الشباب، كان لموقعها في الطابق الثاني، وسط الحي أثر في تكوين أجواء للراحة، ولناصيتها على شارع مزدحم أثر، لكن الأثر الأكبر، يعود لطبيعة البصريين الذين يتمتّعون بمفهوم للحرية الشخصية يفوق عموم مناطق العراق، وتحضّر، وانفتاح على الأجانب والأغراب، كذلك يفوق باقي العراقيين، لا يميل البصريون إلى الانغلاق، ولا إلى إثارة المشاكل، فهم في المجمل مرحون ودودون، يؤازرون الحرية.

خرج جاسم على الشقّة قبل مغيب يوم الجمعة، اقترح التوجّه إلى الشارع الوطني، أوقف السائق سيارته قريبًا من نادٍ ليلي، اقترح تخصيص الليلة سهرّة عند مسرحه، أمر السائق الذهاب والعودة في تمام الساعة الواحدة بعد انتصاف الليل، دخل جاسم، ذلك النادي، الملهى، منتصب القامة، معتدًا بحاله، يستعرض في مشيته كمن ملك المكان، ومن بعده أربعة من جماعة الملازمين، جال في القاعة المضاءة بألوان متعدّدة، وقف قريبًا من المسرح، نظر إلى طاولة في الزاوية، أمر النادل تهيأتها لخمس أشخاص،

قال بصوت منخفض النبرة سأدفع الحساب، ومن بعده يتمّ التقاسم مشاركة، هكذا هي الأصول لديمومة الوجهة، كانت فرقة إسبانية تقدّم عرضاً لرقصة الفلامنكو، وكانت سحابة دخان تقترب من السقف مخلوطة بروائح الخمور، وكان الرواد من الطبقات الاجتماعية كافة، وعديد من الضباط الشباب، بسببهم وكثرة المشاكل التي يثيرونها في الداخل، خصّص انضباط البصرة عسكرياً بواجب الوقوف في المدخل، مخوّل وحده بالتعامل مع الضباط، وهم في العموم يحترمون وقوفه، مستثنون من رسم الدخول.

عاد المجازون من إجازتهم، أشار أمر الفوج المقدّم الركن شهاب أثناء تناول الفطور الصباحي إلى نشرة التدريب، وضرورة السعي لتطبيق فقراتها كما هي، قدّم رؤيته لتطبيقها حرفياً، عاد إلى مكتبه، وفي البريد الذي قدّم له وجد كتاب نقله إلى بغداد كما يوّد، ووجد نقلي من أمر الفصيل الثاني إلى منصب المساعد، وتثبيت الملازم فؤاد من المجموعة نائباً للمساعد، وضابطاً للاستخبارات، بدأ المقدّم شهاب رزم أمتعته، بعد تلفون ورده من مقدّم اللواء المقدم الركن صباح علي غالب يفيد بتسليم العهدة إلى المقدم حسين الشيخ علي أمراً بالوكالة، وفي حفل التوديع المسائي، حضر أمر اللواء العقيد الركن (محمد عباس مظلوم)، أشاد بالفوج وضباطه وبأمره، في الوقت الذي أبدى الأمر الجديد وكالة، الاستعداد لتطبيق المناهج بالسير على الرؤية ذاتها، وهكذا استمرّ أشهراً أنجزت فيها غالبية الفقرات الخاصة بالنشرة، وحال إكمالها صدرت الأوامر للتحرك والانفتاح على شطّ العرب، وقبل تنفيذ الانفتاح تمّ التمتع مع حاتم في إجازة دورية، إلى مدينة الحلة، وحال الوصول محطة قطارتها تمّ الاتفاق على لقاء في ناديها القريب من ضفة النهر

عند المساء، دار على مائدة العشاء نقاش حول السيارات، وهوايات ركوبها، وإمكانية شراء واحدة من المعارض في الغد، ضحك حاتم مستغرباً، وسأل عن الكيف، ودينار من المبلغ المطلوب لم يكن ميسوراً في الجيب! كانت الإجابة لا تخلو من التحدي: سنرى ما سيحصل في الغد.

تمّ دخول مديرية الحسابات العسكرية، في الساعة الثامنة صباحاً، موعد بداية الدوام، فُدِّمَ الطلب لتزويج سلفة من مصرف الرافدين، يخصّصها للضباط بكفالة المديرية، مئة وخمسون ديناراً، تسدّد أقساطاً سهلة التسديد، نصف ساعة كانت كافية للموافقة وإعداد صيغة كتاب إلى المصرف، وعند الساعة الواحدة كان المبلغ كاملاً في الجيب، دفع إلى الاتصال هاتفياً بالصديق كنعان عبد الرسول، الطالب في الطبّ والخبير في السيارات⁴⁹، طلباً للمساعدة في شراء سيارة مقدّمتها جاهزة، مئة وخمسون ديناراً، أكّد ضرورة انتظار حلول العصر، حيث الوقت المناسب لفتح المعارض أبوابها في شارع النضال، جرى التجوال بينها، معرضاً بعد آخر، وقع نظره على سيارة إنجليزية (فوكسهول) موديل (1958)، قال اقتصادية، وقليلة العطلات، حسم سعرها مع المالك (550) دينار، دفع مبلغ السلفة مقدّمة، وجزأ الباقي أقساطاً على شكل كمبيالات شهرية، الواحدة بخمسة

⁴⁹ كنعان من عائلة تعود إلى الشامية في الديوانية، والده تاجر ميسور، سكن بغداد في بيت له بمحاذاة قناة الجيش من جهة منطقة جميلة، تعرّفت عليه عن طريق صديقه الملازم محمود من مجموعة الملازمين، ذكي، له ولع شديد بميكانيك السيارات، يتبرّع لإصلاح سيارات أصدقائه والعائلة، عمل له ورشة خاصّة في مرأب البيت، حاول الذهاب الى كلية الهندسة بعد إتمامه الثانوية رغبة في داخله ملحّة، عارضه والده مصرّاً على دراسة الطب، أطاع الأمر ودرس الطبّ، عمل طبيباً في قضاء المحمودية، واستمرّ في هوايته الميكانيك لمدّة ليست قصيرة.

وعشرين دينارًا، سلّم واستلم المفاتيح، رجا إيصاله إلى البيت، استغرب الشراء من دون إجادة السياقة التي هي شرط للقيادة، اقترحت إعطائي دروسًا سريعة لتعلّم السياقة، قاد عندها السيارة صوب الفناة، ومن هناك بدأ مشوار التعليم ساعة واحدة، كانت كافية للقيادة بقدر من المجازفة، قال من بعد إتمامها إنّه لا يتحمّل مسؤولية القيادة إلى مدينة الحلّة، وفي اليوم الثاني تلقّى هاتفًا بسلامة الوصول قبل الساعة الثانية عشر ليلاً، مر شهران على هذه السيارة، وردية اللون، تخلّلتها إجازتان، في نهاية الإجازة الثانية طرأت فكرة الزيارة المفاجئة لابن الخالة خضير عباس في بيت الأهل بمدينة النجف، تمّ تناول الفطور بعد يوم صيام مع علي، عُرضت عليه فكرة الزيارة، أيّدها، وشجّع التوجّه صوب النجف على الفور، بدأ المشوار انطلاقًا بسرعة تُحسب عالية على سيارات ذاك الزمان، اعترض علي على السرعة، أشار رجل يودّ اصطحابه بعد مدينة الكفل بقليل، وبعد رفع الرّجل من على الدواسة، تمهيدًا للوقوف، كانت السيارة قد ابتعدت عنه مسافة تزيد عن المئة متر، حثّمت إلغاء الفكرة، ومعاودة السيرة بالسرعة ذاتها، حتى دخول مدينة الكوفة، وقبل اجتياز نهايتها، كان الظلام قد حلّ، وحافلة توقّفت على اليمين لإنزال راكب، حال دخان العادم الخارج من محرّكها كثيفًا دون تمييزه، ظهرت عند الخروج من دوامة الدخان، سيّدة تمسك طفلة تحاول العبور إلى الجهة الثانية من الشارع، كان الموقف حرجًا، والسرعة نسبيًا عالية داخل المدينة، وتقدير الموقف، خياران صعبان، إذ يؤدّي الانحراف صوب اليمين الاصطدام بالسيارة الواقفة، بينما يفضي التوجّه صوب اليسار الخروج من الشارع تجاه الدور السكنية، تمّ الضغط على دواسة الوقوف، فزحفت السيارة قسرًا تجاه الأمام، ارتطمت بالسيدة، تهشّم زجاجها الأمامي، والمقدّمة، كانت السيدة خشنّة، حُمِلت بمساعدة بعض الحضور، وُضعت

على الفور في الحوض الخلفي للسيارة، والتوجّه بها إلى المستشفى الرئيس للمدينة، أكّد الطبيب وفاتها اثر ضربة في الرأس، عندها تمّ مراجعة مركز الشرطة بقصد الإبلاغ، وتسجيل الحادث، ومن بعده الذهاب إلى بيت الخالة، فالقانون لا يُجيز توقيف ضابط إلاّ بموافقة رئيس الأركان.

في اليوم التالي أودعت السيارة محلاً للتصليح، وبدأ مشوار تقديم الفصل العشائري لذوي الفقيدة من آل جمال الدين، ذهب رجال من العشيرة غلى الناصرية، حيث المركز الرئيس لعشيرة السيدة، وانتهى الفصل ديّة بأربعمئة دينار.

على ضفاف شط العرب

في البصرة كان العمل حديثاً لتنفيذ أمر الانفتاح على ضفّة شطّ العرب، وتوزيع السرايا على منطقة من شمال السببة حتى كوت الزين، كان بعضها يتواجد في بساتين تعود ملكيتها إلى الشيخ الكويتي جراح الصباح، له بيت بناه، ومضيف على الضفّة مباشرة، يقضي فيه بعض الأيام وأياماً أخرى يقضيها في بيته بمدينة الكويت، كما أنّ لعائلة الصباح في المنطقة بساتين وبيتاً كبيراً يقترب من القلعة شبه متروك، استخدمته القوّات البريطانية في الحرب العالمية الأولى، إذ ما زالت حتى ذلك التاريخ كتابات وارشادات باللغة الإنجليزية موجودة على جدرانه القديمة، وفي إحدى مرّات التجوال في المنطقة، واستطلاع الضفّة والشط، تمّ اللقاء بالشيخ جراح، دعا لشرب القهوة في مضيفه، وبالتدرّج تطوّرت العلاقة بينه، وكان إنساناً وقوراً قريباً من العراق والعراقيين، وبين الأمر وضباط المقر، إلى مستوى صداقة تسمح التواجد بالمضيف في بعض الليالي، وتسمح كذلك استعارة قارب له ذي محرّك واحد للصيد في موسم سمك الصبور على وجه

الخصوص، وفي إحدى المرّات اقتربت من الزورق دورية إيرانية بزورقها السريع، فأعطى فؤاد الموجود على الساحل إشارة العودة السريعة، وحال الاستدارة لتنفيذ العودة استجاب الإيرانيون بالاستدارة صوب جهتهم الحدودية، حادث عابر نوقش مع الأمر صباح اليوم الثاني، فأمر منع الصيد تفاديًا لأيّ احتكاك بالإيرانيين، غير مرغوب حصوله من قبل القيادة، ونصح فلاحو الشيخ جراح تجنّب الاحتكاك، كأنّهم يتكلّمون عن خبرة جوار لأهل إيران، لم يكونوا مرتاحين لها من عشرات السنين، كان أولئك الفلاحون "بسطاء"، يحضرون المضيف كلّ يوم عندما يكون الشيخ موجودًا، يسهرون معه، يحسبهم باقي الفلاحين في المنطقة مدللين، يحسدونهم على الاحتفاظ بما يزرعونه ملكًا لهم، وحاصل التمور كذلك لهم، ويزيد عليهم مساعدات مالية، وأخرى في المناسبات.

.....
مر شهر واحد على الانفتاح، عزّز الفوج مواضعه على الشطّ، ردّ الأمر بعد انتهاء الفطور الصباحي، على مكالمة هاتفية لأمر اللواء يخبره فيها عن ضيف كبير في الطريق لزيارة اللواء، قال إنّ اقتراح اقتصارها على الفوج الثالث لحسن تنظيم انفتاحه، بدأت عندها التحضيرات السريعة، بقدر مبالغ فيه، قبل إتمامها، وكما هو مطلوب وصل موكب الزائر، تتقدّمه سيارة من الانضباط العسكري، وقفت عند المقرّ الميداني للفوج، تبعتها في الوقوف سيارة رئاسية مرسيديس سوداء، ترجّل منها نائب رئيس الجمهورية صالح مهدي عماش، يرافقه أمر اللواء، سلّم على الضباط الواقفين في النسق لغرض الاستقبال، اصطحبه الأمر إلى باحة عند المقرّ، وضعت على أرضها الترابية كراسي تكفي الضباط الموجودين، جلس قليلًا، طلب مشاهدة المواضع على الأرض، وقف على ضفة الشطّ، تطلّع إلى الجانب الآخر منه، ثمّ

عاد، لإلقاء خطبة بالمنتسبين، غلب عليها الأمل بانبعاث الأمة العربية من جديد، وبجيش عقائدي بعثي يوحدّها من المحيط إلى الخليج، تقدّم منه عند انتهاء موجة التصفيق رئيس عرفاء الوحدة جاسم بمبادرة منه شخصياً ألقى شعراً، مدح الضيف فيه، وفاض في المدح حدّاً حوّله في النهاية إلى أراجيز شعبية، ودبكات، انعشت مزاج النائب، وأثارت عتّباً في نفوس الضبّاط يتعلّق بخروج جاسم عن السياقات العسكرية، وبعد ظهر اليوم الذي غادر فيه النائب مقرّ الفوج، رن جرس الهاتف في خيمة المساعد، كان المتكلّم المسؤول الحزبي العسكري للبصرة م. أول خضر الدوري، طلب إرسال جاسم وبعض ضبّاط الصفّ إلى البصرة للاجتماع بأعضاء المكتب العسكري، وطلب حضوري مساء اليوم الذي يليه، كذلك للاجتماع، وفي ذلك الاجتماع، سأل عزيز الياصري عن أسباب الوقوف شخصياً بالضدّ من تحرّكات وأنشطة ضبّاط الصف الحزبيين والتضييق عليهم، ومن خلال الحديث بيّن أنّ رئيس العرفاء جاسم، هو من طرح الشكوى، مؤكّداً فيها عدم تخصيص سيارة لهم لحضور الاجتماعات، والتحيزّ للمنتسبين من أهالي مدينة الحلة، ومحابة الضبّاط على حساب ضبّاط الصفّ والجنود، لكن عزيز ختم حديثه بعدم الاقتناع، وأنّ الشكوى فيها جنبه شخصية تقتضي التحسّب والحذر مستقبلاً، ومن باب التحسّب تمّت مناقشة الموضوع مع الأمر، الذي طلب من ضابط الاستخبارات التحقق من جميع الأقوال سرّياً، راح على إثرها الملازم فؤاد، بمتابعة بعض الأوليات، فتبيّن أنّ رئيس العرفاء هذا، يستغل الجنود لأغراضه الخاصّة، وميّل إلى تحريضهم على الضبّاط، وهنات أخرى دفعت الأمر إلى الكتابة بها إلى اللواء كتاباً سرّياً للغاية، طلب فيه إحالة جاسم على التقاعد برتبة أدنى، استغرقت الموافقة شهراً، عاد الجواب موافقة مشفوعة بختم الوزير، عرف جاسم تفاصيلها

عصر اليوم، حضر إلى مكتب المساعد باكيًا معتذرًا، ثم منحنيًا على البسطل لتقبيله، أملًا في إلغاء الأمر، لكن الأمر لم يلغ، وهو، وإن مثل خطوة تجاه ضبط السلوك الحزبي للجنود وضباط الصف، في واقع الحال لم يجد نفعًا، لأن الانتماء الحزبي لهذا المستوى العسكري، جعلهم بالنهاية يتكتلون نقابيًا، ويستغلون وضعهم الحزبي لأغراضهم الشخصية، مما عرض الضبط العسكري إلى التصدع، مشكلة، وبدلاً من أن يعالجها الحزب، زاد من الأخطاء في ارتكابها، إذ أنشأ تنظيمًا لضباط الصف في جميع الوحدات والمؤسسات موازيًا لتنظيم الضباط، وفي مراحل لاحقة منحهم، أي ضباط الصف ونواب الضباط، الدرجات الحزبية المتقدمة على رتب بعض الضباط، بينهم رئيس العرفاء الآلي للفوج، إذ، وبعد حصوله على عضوية قيادة الفرقة في الحزب، مُنح رتبة ملازم، وأصبح الضابط الآلي للفوج.

خفّ التوتر مع إيران نسبيًا، وصارت غالب المهام أثناء الانفتاح في المنطقة ذاتها (كوت الزين) روتينية، وبدأت تصل الفوج أوامر وتكليفات بمهام أخرى لا علاقة لها بموضوع إيران، بينها مسك نقطة الحدود العراقية الكويتية في صفوان، (كانت هذه النقطة تُمسك عسكريًا، وكان الضباط وكبار مسؤولي المحافظة يجتازون الحدود من هذه النقطة بموافقة أمرها العسكري، من دون جوازات بغية الوصول إلى نقطة الحدود الكويتية التي فيها سوق حرّة تحوي بضائع متفرقة، أهمّها السجائر، كانت السجائر الرائجة آنذاك، الروثمان، وسعر التّكة (عشرة علب) نصف دينار عراقي، وكانت قيمة الدينار آنذاك، تفوق قيمة الدينار الكويتي في السوق الدولية)، نُسب فؤاد أمرًا لهذه النقطة، وصار ضباط الفوج يترددون على مقرّه مرارًا وعبور الحدود إلى جهة تلك السوق الحرّة، وفي زيارة لمضيف

الشيخ جراح، وجّه دعوة لزيارته في الكويت وحضور مناسبة اجتماعية، عُرضَ الموضوع على الأمر، قال إنها مسألة شخصية، تنحى إبان التهيؤ لها جلّ المجموعة تردّدًا لاحتمالات التوجّس أو المساءلة، لم أتردّد يومها في الذهاب، قصدت أمر مركز استخبارات البصرة مستفيدًا من العلاقة الخاصة به، عرضت عليه الموضوع بصفة شخصية، أخرج من درج مكتبه جوازًا عراقيًا فارغًا، سأل عن الاسم المطلوب، تمّ اختيار عباس كاظم، خطّه باليد، وثبّت في سجلّ الجوازات المصروفة في حقل خاصّ، مهمّة رسميّة، وصلتُ عصر اليوم الثاني مكتب فؤاد في نقطة الحدود، ومن ثمّ التوجّه معه إلى أمر النقطة الكويتية، قدّم لنا القهوة، نوّه عن وصول أحد معارفه عائدًا من البصرة متوجّهًا إلى الكويت، استأذنه المصاحبة، قبلَ الرجل من دون نقاش، حال انطلاقه بدأ الكلام عن البصرة وأيامها، وأقارب له من العشيرة يقيمون في الزبير، توقّف عند بلوغ بيت الشيخ جراح، قصرًا في منطقة يسكنها غالبية شيوخ آل الصباح.

رحّب الشيخ بالقدوم، خصّص جناحًا وسيّارة بسائقها، وانتهت الليلة الأولى سهرة في ديوانيته (مضيف)، حضرها كويتيون، أغلبهم يتغنّون بأيّام العراق والبصرة التي يدخلونها بهوياتهم العادية، خاصّة في أيّام الخميس والعطل الرسمية، للسهر في نواديها الليلية والبارات، يتسوّقون اللحوم والأسماك والخضر، ثم يعودون بسياراتهم إلى الكويت، كأنّهم يتنقّلون بين مدينة وبين أخرى ضمن حدود بلدهم، وكان البصريون هم أيضًا يودّون الكويتيين، يتصاهرون معهم، وهناك الكثير من البصريين يعيشون في الكويت، ومنهم من تجسّس كويتيًا، أسبوعًا كانت الإجازة غير الرسمية فُضيت في الكويت، اشترت في آخر يوم منها سيارة فولكس واجن موديل (1962) بخمسة وسبعين دينارًا، تمّ التوجّه بها إلى البصرة، واستخدمها في التنقّل

والسفرات، إلى منطقة الأثل، وإلى نهران عمر معسكر الغجر، وفي سفرة صحراوية قريباً من جبل سنام، كان في داخل هذه السيارة مجموعة الملازمين الخمسة وعبد الأمير سادسهم، وكان الطريق ترابياً مكسواً بقليل من الحصى، وفي استدارة جرت في آخرها محاولة التخفيف من السرعة، باستخدام الموقف، انزلقت عندها إطارات السيارة وفقدت السيطرة عليها، انقلبت متدحرجة ثلاث مرّات لتستقرّ على ظهرها، تكسّر زجاجها من كلّ الجهات، وبدأ الدخان يتصاعد من الحوض الخلفي، فشلت محاولة فتح البابين، وزادت كثافة الدخان حدّاً ينذر بحصول حريق، خرج فؤاد الجالس على الكرسي الأمامي من فتحة تركها الزجاج الأمامي المهشّم، تبعه حاتم والآخرين، فكان الأخير محمود، طويل القامة خشن المظهر، حاول الخروج مرّة، وعاد إلى مكانه خائباً عصبياً يندب حظه، قال اخرج أنت، فجاءت الإجابة، عليك تكرار المحاولة بقوة، بدأ المحاولة، وبذل الخارجون مساعيهم في سحبه من الأعلى، فاندفع محمود بنشاط الساعي إلى النفاذ من حريق بدأت حرارته تلسع، داسّ بحذاءه العسكري على رأسي الحاسر، فخرجت صرخة (آخ) من شدّة الألم، حاولت دفعه من أسفل الحذاء بكلتا اليدين، وأخيراً تكّلت محاولته بالنجاح، وقد تمزّقت بدلتة العسكرية، عندها تمّ الاتّكاء بكلتا القدمين على الكرسي الذي بدأ سريان النار في بدنه، نجحت المحاولة الأولى، بعد أن طالبت النار جزءاً من السروال للساق اليسرى، صاح عبد الأمير لنعدّل السيارة، فتمّ تعديل وضعها إلى الطبيعي، وقال صباح انثروا التراب على مصدر النار، أسهم رمل الصحراء بإطفائها قبل الوصول إلى خزان الوقود، وبعد إخمادها تركت في المكان، والعودة مشياً، ومن ثمّ إرسال سيارة عسكرية لسحبها إلى ورشة في محلة الجمهورية أعادت تصليحها، وطلاءها باللون الأبيض، لم تنصح تلك السيارة بعد

عملية الإصلاح، بيعت بعد سنة من الحادثة بسعر يزيد عن سعر شرائها مئة دينار.

.....

بعد أسبوع من تلك الحادثة، وفي الساعات الأولى للدوام الصباحي، وصل إلى مكتب المساعد بريد السرية الثانية، في داخله كشف عن سرقة بندقية نوع كلاشينكوف، شكّل على وفقه الأمر مجلساً تحقيقياً برئاسة المساعد وعضوية نائبه، والملازم محمود أمر الفصيل الثالث⁵⁰، تمّ حصر المشتبه بهم أربعة هم القريبون من المشجب، تقلّص من بعدها العدد إلى اثنين يترددان على مأمور المشجب، ومن ثمّ إلى واحد شوهد قريباً من المكان قبل فقدان، رفض الاعتراف بارتكابه الفعل، وفشل المجلس بطرق التحقيق التقليدية إلزامه الاعتراف سارقاً لهذه البندقية بعد تأكيد ثلاثة جنود، مشاهدته خارجاً من المشجب يحمل كيساً غير نظامي، تبرّع محمود بإخراج الاعتراف منه بالقوة، طلب منه التوجّه أولاً جهة الإمام العباس، لتكثيف اليدين، وترديد القسم الآتي: (وحق العباس أبو رأس الحار لم أسرق البندقية)، أقسم الجندي بسهولة، فزاد غضب محمود المقتنع تماماً أنّه السارق، ربطه على جذع نخلة قريبة من المقرّ، مسك مجرفة بيده اليمنى، هدده علناً بضربه إن لم يعترف، ولما أصرّ على عدم الاعتراف، انهال عليه ضرباً بتلك المجرفة، جاءت إحداها على رأسه، أثت عليه في الحال، نُقل إلى مستشفى البصرة العسكري، ثبتت الوفاة نتيجة التهشّم الحادّ للجزء العلوي من الجمجمة، بدأت من بعد إجراءات نقل الجثمان إلى عائلته في منطقة الحيانية، حضر

50. محمود جاسم موزة، من بغداد باب الشيخ، ترجع جذوره إلى عائلة عصامية، نُسب بعد تخرجه أمر فصيل الثالث في السرية الثالثة، نقل بعد سنوات إلى فوج مقاتلة الدبابات، استشهد بداية الحرب العراقية الإيرانية عن طريق القصف.

جميع ضباط الفوج الفاتحة المقامة على روحه، سدّدوا كلفتها مبلغًا جُمع بالاتفاق تازرًا، مع أجور الدفن، وبعد انتهاء المراسيم، تمّ التوجّه إلى العائلة بقصد دفع الفصل (ثلاثمئة دينار)، كي تتنازل عن حقّها في المطالبة بالدم، وبقيّ الحقّ العام، إذ قصرّ المجلس التحقيقي محمود باستخدامه العنف لانتزاع الاعتراف، كان الأمر ملّمًا في التعاملات الإدارية، وصاحب خبرة في مجالها، أشار على محمود تقديم طلب إلى وزير الدفاع الفريق الأوّل حماد شهاب يرجو إعفائه من الملاحقة القانونية لعدم تعمّده الفعل المؤدّي إلى الوفاة، وأشار أيضًا إلى ضرورة التوسّط عند الوزير، فتمّ التوجّه إلى خضر الدوري المسؤول الحزبي، بادر الرجل إلى تأمين الاتصال الهاتفي بأمين سرّ الوزارة، لتسهيل عرض الطلب على الوزير، الذي وافق على إيقاف التعقيبات القانونية، عندها نجا محمود من عقوبة سجن كانت شبه محقّقة.

عملية الغزال

عاد الفوج إلى معسكره الدائم في الشعبية، جوار القاعدة الجوية التي أسّسها البريطانيون عام (1920)، وعاد الأمر إلى أساليبه في التأكيد على التدريب، وتنفيذ النشرة بحذافيرها، وحثّ الضباط على الاشتراك في دورات التطوير، وبعد أيّام أرسل في طلبي، قال رشحتك في دورة مغاوير لثلاثة أشهر في الهند، مقعد واحد إلى الجيش العراقي يتنافس عليه امتحانًا ومقابلة مرشحين آخرين من عموم الجيش، كان الترشيح مستعجلًا، تمّ عن طريق الاتصال التلفوني مع مقدّم اللواء الذي أيّد الترشيح، وطلب إعداد كتاب الإرسال إلى مديرية التدريب العسكري اليوم، والتوجّه غدًا السبت، لأداء الامتحان، وفي باب المديرية عند الدخول، كان الملازم إبراهيم من أبناء الدورة خارجًا، سألته بعد السلام فيما إذا

كان وجوده لأغراض الامتحان، أجاب من دون تردد أنّه جاء ليأخذ كتابه إلى الجوازات، لغرض السفر إلى الهند الأسبوع القادم، بغية الاشتراك في دورة المغاوير مرشحاً عن الجيش، ثمّ استأذن الانصراف على عجل لإكمال معاملة الجواز، كانت مفاجأة غير سارّة، ومع هذا تمّ مواصلة المشوار حسب السياقات الرسمية، حيث الدخول أولاً على رئيس القسم المختصّ، لتسليم كتاب الترشيح، استلمه من دون تعليق، وأخرج من درج مكتبه دفترًا وورقة أسئلة، حدّد ساعة لإكمال الإجابة، بعد انتهائها قدّم جريدة باللغة الإنجليزية قال اقرأ، وعند الانتهاء من القراءة، أكّد أنّ النتيجة ستصل الفوج حال اكتمال التصحيح والمقارنة مع إجابات باقي المرشحين، إلّا أن النتيجة لم تصل بطبيعة الحال.

في آخر الأسبوع الثاني لتواجد اللواء في معسكره الدائم بالشعبية، بدأ العقيد الركن محمد عباس مظلوم أمر اللواء⁵¹، جولة لزيارة أفواجه، بدءًا من الفوج الثالث، تمّت مرافقته طوال الجولة كمسؤول حزبي، بان الحرج واضحًا لفارق العمر والرتبة العسكرية وطبيعة المسؤولية، ومن جانبه، استوعبها على مضض، بعض علامات عدم الرضا كانت باديةً على حديثه الذي تعمّد إدخاله في مواضيع عامّة، تكلم عن المستقبل ومهنية الجيش، وبعد دقائق من المشي، كأنّه اطمأنّ لبعض الإجابات التي لا تتعارض مع غالب طروحاته، فغيّر الحديث تجاه حيادية الجيش، ومفهوم العقائدية، انتقد تجربة ما بعد (1958)، ووجود الخلايا الحزبية في صفوفه، دفعت بالمراتب حدود التمرّد على الضباط، ورفع الحبال للمطالبة بشنقهم، لكنّي تجنبت النقاش، وابتعدت عن التعبير عن آرائي في الموضوع، إذ كان الرجل موزونًا، ذا تجربة، وعلم، يلزم المقابل الاستماع اليه، كما أنّ

⁵¹ محمد عباس مظلوم، ضابط ذو ثقة عالية بالنفس، مهني يدافع عن آرائه حول استقلالية ومهنية الجيش.

فارق الرتبة يحتم استماع الأقلّ قدمًا للآخر الأعلى رتبة، لكن هذا الضابط ومثله ضباط عديدون، لم يثبتوا تجاه طوفان تسييس الجيش وعقائديته، بدأوا بعد ما يقارب السنة، وأكثر قليلاً من عمر انقلاب (1968) التساقط تبعاً، سبقهم رئيس أركان الجيش المعروف بمهنيته الجيدة اللواء الركن إبراهيم فيصل الانصاري بالتأمر، وهو في الأصل لم يتأمر، (إذن وفي لقاء معه بدمشق عام 2005، سألته عن مسألة التأمر، أكد أنها افتراء بعثي، لإزاحته وإحلال ضابط آخر موالٍ للحزب كرئيس للأركان، وذكر أنه تعرّض إلى تعذيب وإذلال من دون ذنب ارتكبه)، ومن بعد إزاحته بدأ تغيير غالب قادة الفرق، وبدأ تأثير المكتب العسكري في الترشيح إلى مناصب القيادة، والزحف التدريجي إلى مستوى الأمرين، والنقل والترشيح إلى الدورات والإيفادات حزبياً، لم يسلم العقيد محمد من توجهات التسييس، إذ، وبعد شهر من تلك الزيارة، حضر مقرّ اللواء ضابطان من الاستخبارات العسكرية، اصطحابه مخفوراً إلى بغداد بسيارة خاصّة، جرت متابعة وضعه أمراً جيّداً ومنصفاً وكفوؤاً، فأذيع اسمه مع قائمة من اتهموا بالاشتراك في مؤامرة بقيادة اللواء الركن عبد الغني الراوي (عملية الغزال) المدعومة من شاه إيران.

إنّ النظر إلى آراء العقيد، وكثيراً من الضباط القادة من جيله والأجيال التي سبقته حول الاستقلالية والمهنية ومديات تأثيرها على الضبط والأداء، مسائل لم يدرك غالبية الضباط الحزبيون على وجه الخصوص أبعادها، كأنّ عمى نفسياً قد أصابهم حال دون مشاهدتهم الحقيقة، وطرشاً ألمّ بهم جعلهم لا يسمعون أو لا يستمعون إلى الرأي الآخر، ولكنّ النظر إليها بعد أكثر من خمسين سنة من ظهورها، يتبيّن أنّ الحزب كان متعمّداً في سلوكه هذا، إذ زاد بالتدريج سيطرته على مقاليد السلطة والجيش، ووسّع من تواجد تنظيمه، داخل المؤسسة العسكرية،

فأصبح في كلّ وحدة منظّمة حزبية تشكّل منظمة أكبر على مستوى اللواء، وهكذا أكبر على مستوى الفرقة، ولحين إقرار صيغة التنظيم الفرقي بعد عام (1970)، لتتطوّر السعة فرقة حزبية على مستوى اللواء، وشعبة لقيادة الفرقة، وفرع على مستوى الفيلق، وصار القول الفصل في قضايا النقل لجميع المناصب والترشيح والترقية إلى المكتب العسكري، وبما يفوق قرار الوزارة، وإن كان وزيرها بعثياً قيادياً، وصار للمنظمة الحزبية في الوحدة، كلمة تعلو كلمة الأمر باستثناء المسائل التي تهمّ التدريب والقتال، وأثبتت تجارب الحروب تأثير هذه الحزبية سلّبا على مستويات الأداء القتالي.

استمرّ العمل هكذا، وفي وسطه قال خضر الدوري، هناك توجّه لدعم الاستخبارات العسكرية وتطويرها، بالتأسيس على الضباط الشباب، ورشّحتك للنقل إليها عن تنظيم البصرة، وأضاف ضرورة التهيؤ، فإنّ أمر النقل سيصدر في غضون أسبوع، وبعد انقضاءه صدر الأمر نقلاً من مساعد أمر فوج الثالث لواء المشاة الخامس عشر إلى مديرية الاستخبارات العسكرية، أقام الأمر حسين الشيخ علي حفل توديع، ومنح إجازة انفكاك لمُدّة أسبوع، أنهت حقبة من الخدمة العسكرية الميدانية، وفتحت الباب لنوع آخر من الخدمة العسكرية الاستخبارية.

الفصل الخامس

الحرب النفسية في أروقة الاستخبارات



نقطة النحول الثانية

كان الثالث عشر من تموز (1970) يوماً قد انتهت فيه علاقتي المهنية مع صنف المشاة، يوماً صيفياً، توجهت في صباحه صوب الاستخبارات العسكرية في بنائها الكائنة على يمين المجموعة التراثية لبنايات وزارة الدفاع، بدأت الخطوة الأولى مروراً بالاستعلامات، غرفة على يسار المدخل، ذات محتويات متواضعة نظيفة، تبرز وسطها طاولة خشبية جلس من حولها شاب يرتدي "بدلة" دكناء اللون، يصعب تمييزه، ضابطاً كان في ذاك الوقت أم واحداً من المراتب، فتح من بعد عبارات الترحيب التقليدية، كتاب الالتحاق الممهور بدرجة سرّي، قرأه بتمعن، ثم قرع جرساً، أدخل جندياً بكامل قيافته النظيفة، استلم الكتاب، وتوجّه صوب الشعبة الرابعة، كانت تلك الشعبة، الإدارية، مقرّها ثلاث غرف في بناية خلف البناية الرئيسية، تتشارك، والشعبة الخامسة الفنيّة، شغلها مناصفة، رحّب مديرها النقيب حكمت، بابتسامة تنمّ عن طيبة اجتماعية، وأشار إلى أنّ التنسيب قد تمّ بأمر المدير، ضابط ركن القسم الخاص بالمتقاعدين، كان حكمت من ضباط الاحتياط المستمرين بالخدمة العسكرية، يعود في الأصل إلى مدينة الكاظمية، معروفاً بالرزانة وحسن الخلق، والإخلاص في العمل، ومن بعد إشارته تلك رفع سماعة هاتف داخلي، كلّم مدير الشعبة الثالثة الرائد الركن عدنان خير الله⁵²، أخبره حصول الالتحاق، وأمر جندي الاستعلامات

⁵² . عدنان خير الله طلفاح مواليد تكريت (1940)، ضابط خريج الكلية العسكرية بدورتها الثامنة والثلاثين، صنف الدروع، تدرّب على الطيران في نادي فرانس، وحول صفه إلى طيار، عمل أمر مركز استخبارات في السليمانية والبصرة، ذكي، جريء، مرح، له علاقات اجتماعية واسعة، يميل إلى المتع الدنياوية واللّهو، هو شقيق السيدة ساجدة خير الله زوجة صدام حسين، أعطته هذه القرابة وزواجه من السيدة هيفاء ابنة رئيس الجمهورية أحمد حسن البكر قوة

الباقى فى حال الانتظار، الذهاب معًا إلى تلك الشعبة التى أخذت من الطابق الثانى للبنىة الرئيسة مقرًا لمديرها وضباط الأقسام، غرفٌ تقسمت متقابلة حول ممرٍ طويل، تفصله عن مقر المديرية باب خشبية من صاج مدهون باللون البنى، مفتوحة فى غالب الأحيان، ردّ عدنان التحية بحرارة المعرفة السابقة به أيام العمل الحزبى فى البصرة، تلك التى يحكمها لصالحه فارق القدم العسكري، والعمرى، أعاد الترحيب ثانية بعد قدح من الشاي، أكد على أهمية قسم المتقاعدين، أخرج من درج مكتبه ورقة مكتوبًا عليها بالخط الأخضر، توصية إلى مدير الاستخبارات (ضرورة تكوين علاقات مع الضباط المتقاعدين، الاستفادة منهم، ومراقبة حركتهم بشكل دقيق).

راحت العيون تدقق فى التوقيع والاسم، كان لصدام حسين نائب رئيس مجلس قيادة الثورة، موضوعها توصية يشير منها

دفع، لنتبوًا المناصب القيادية والرتب العسكرية مبكرًا، حاصل على الماجستير فى العلوم العسكرية (الأركان) وبكالوريوس فى اللغة الإنجليزية، وبكالوريوس أخرى فى القانون والسياسية، نقل من المديرية التى لم يعمل فيها طويلًا إلى أمر كتيبة دبابات 14 رمضان، الكتيبة المهمة فى خطة أمن بغداد، بعدها إلى أمر لواء المدرع العاشر، العنصر الأهم فى خطة الأمن المذكورة، تدرّج سريعًا فى الحزب، وهو برتبة عقيد صار عضو قيادة قطرية، متقدمًا عن جيله سنوات، ثم وزيرًا للدولة، يرتبط به لواء العاشر والحرس الجمهورى، كتمهيد لاستيزاره وزارة الدفاع، أدار الوزارة بشكل معقول باستثناء مسألة البريد الرسمى الذى كان يتأخر فى مكتبه طويلًا حتى فى أيام الحرب، له شعبية ملموسة بين الضباط والجنود، لم يكن ميثالًا إلى توجيه العقوبات القاسية، والإعدام التى سار عليها صدام فى الحرب العراقية الإيرانية، إذ عُرف عنه الدفاع عن الضباط كلما كان ذلك ممكنًا، قُتل عام (1989) فى حادث تحطم طائرة سمنية ألق بها من الشمال متجهًا إلى بغداد فى ظروف أجواء قيل عنها غير ملائمة، ومع هذا أثّرت حول الموضوع الشكوك التى نوهت إلى أنّ حادث التحطم كان متعمدًا، وإنّ حسين كامل وراء الموضوع بأمر من صدام حسين، لكنه تخمين لم يثبت عمليًا، كان العمل الاستخبارى تحت إمرته مثالًا، يعطى فسحة اجتهد استخبارية للضابط، تفوق غيره من المديرين.

ضمنًا إلى سعة الاهتمام الشخصي بالجهد الاستخباري، وإلى تحمّله مسؤولية الإشراف عليه، والجهد الأمني العام للبلاد، سرعان ما انتهت مفردات المجاملة والتوجيه، وحال انتهائها قرع جرسًا أحضر نائب ضابط رزاق، طلب منه تسليم مفاتيح القسم، وهو مكتب من غرفة تحتلّ موقعًا لها بداية الممرّ، بمواجهة مكتبه، مكوّناته خانات خشبية وضعت على ثلاثة أركان من الغرفة، تبدأ عند الملامسة السطحية مع بلاطها لتنتهي عند ملامسة أخرى للسقف، وقد امتلأت أضاير يغطّي بعضها التراب.

لم يعطِ ضباط الأقسام مجالًا للبدء وأخذ الانفاس، إذ وفدوا تبعًا لتبادل التحايا، كان غالبهم "ملازمين أوائل" من الدورة الثانية والأربعين (ياسين عباس، حميد قاسم، جابر عصاد، عوني عباس)، تلك الدورة العقائدية التي أعيد منتسبوها ضباطًا عام (1968) بعد تسريحهم منها عام (1964)، كان آخر القادمين الملازم سنان عبد الجبار⁵³، قال لنذهب إلى مطعم

⁵³ سنان ضابط من الدورة (44)، ذكي، عقليته استخبارية، ترجع أصوله إلى مدينة النجف، عمل ضابط ركن قسم، ثم أمر سرية الأمن في المديرية، وبعد إتمام دراسة الأركان صار ضابط ركن استخبارات فرقة، ثم مدير شعبة، ثم معاون مدير الاستخبارات عند اشتعال الحرب مع الكويت عام (1990)، ثم حرب الخليج الثانية التي أجبر فيها العراق على مغادرة الكويت، وصل في الحزب إلى مستوى عضو قيادة فرع، وآخر منصب له إلى يوم احتلال بغداد محافظ ميسان، اعتُقل بعد الاحتلال بأشهر، وتوفي إثر سقوط قبيرة هاون على الخيمة التي كان يسكنها كمتعقل، ضابط جيّد، وصف طوال خدمته الحزبية والعسكرية بالصدق مع نفسه والإخلاص في عمله، في لقاء معه على ناصية الشارع العام بمنطقة الوزيرية قرب جامع العمري عام (1992)، وفي سياق الحديث معه عن الشؤون العسكرية والاستخبارية، وسؤال عن أسباب عدم الانسحاب من الكويت، وقبول المواجهة مع حشد قوات أممية تزيد عن ثلاثين جيشًا بقيادة أمريكا، الدولة الأقوى في العالم، أجاب وبشكل صريح أنّهم كمعاونية معلومات أعدت إلى القيادة العامة للقوات المسلحة تقدير موقف استخبارات،

الضباط بغية تناول الفطور جماعياً، هكذا هي السياقات، كان المطعم بناء منفصلاً خارج التصميم الأصلي للوزارة، اقتطع من الحديقة الأمامية المواجهة لبناية المديرية، أخذ الضباط حول طاولته الممتدة أماكن لهم، أكثر من ثلاثين ضابطاً في ذاك الصباح، وعند تمام العاشرة دخل المدير، العميد الركن عبد الله الحديثي، وقف جميع الضباط احتراماً، حتى استقرّ جالساً على كرسيه عند رأس الطاولة، سأل عن الضباط الملتحقين حديثاً، فتمّ التقديم أصولياً، أعقب السؤال أسئلة عابرة، غالبها بقصد التعرف على بعض القدرات والاهتمامات، رحّب من بعدها، مع تمنيات التوفيق في العمل الاستخباري الذي وصفه مقروناً بالدقة والإخلاص، والذكاء عالي المستوى.

كان الحديثي ذكياً من خيرة مديري الاستخبارات، إذ تخرّج الأوّل على الكلية العسكرية بدورتها السابعة والعشرين عام (1950)، كذلك كان الأوّل على كلية الأركان العراقية، ومتفوقاً في دراسته الأركان في كلية القادة والأركان البريطانية كامبرلي عام (1963)، وكان ناجحاً طوال سيرته العسكرية التي عمل خلالها، فضلاً عن الاستخبارات معلّماً وضابط ركن وقائد فرقة، وأمراً للكلية العسكرية وكلية الأركان، ثمّ قائد فيلق، ورئيس جامعة البكر ومعاون رئيس أركان الجيش، مشهوداً له بالضبط وحسن الأخلاق، والأتزان إلى يوم إحالته على التقاعد عام (1982).

اقتُرحت فيه خيارات، أوّلها الانسحاب من الكويت قبل التصادم المحتوم، وأكّد أنّه، وفي مناقشة لتقارير حول الموضوع باجتماع للقيادة حضره صدام الذي مسك تقدير موقف الاستخبارات وعزله على جنب، قال في حينه لا يمكن مناقشته لأنّه غير واقعي.

اليوم الأول في الاستخبارات

كان اليوم الأول في العمل الاستخباري طويلاً، مشوّفاً، يختلف تمامًا عن وقع العمل في الوحدات، تمّ التوجّه في بدايته إلى مراجعة متأنّية لمحتوى الأضابير الاستخبارية للضباط المتقاعدين منذ تأسيس الجيش، وإلى عام (1970)، كان هناك دافع قوي، قوامه حبّ الاستطلاع، والرغبة الشخصية للتعرف على التاريخ الحاكم للضباط القدامى في الجيش، وطبيعة الاتّهامات الأمنية، وخروقات ذاك الزمان، ولتحقيقها صار سياق العمل مراجعة تبدأ عند الساعة الثامنة صباحاً حيث الشروع بالدوام الرسمي، ومن قبلها أحياناً، لتمدّد إلى انتهاء الدوام المسائي في حدود الثامنة، ومن بعدها أحياناً إلى انتصاف الليل، وقد استغرق وقت المراجعة المسحية لتلك الآلاف من الأضابير شهرين، كان بعضها يتكدّس حول الفراش الذي مدّ على أرضية الغرفة، مكاناً للمبيت، بغية كسب المزيد من الوقت، كما أنّ المديرية آنذاك لا تحتكم على بناية مستقلة، ولم يكن لديها دور ضيافة كما أضحت فيما بعد، إذ إنّها تشكّل "بسيط"، يعود تسلسله التاريخي شعبة تأسست في الحركات العسكرية، ثمّ مديرية في دائرة العمليات، لرئاسة أركان الجيش، صلاحياتها محدودة، وملاكها عام (1970) مقرّ من المدير، وسكرتيه م. أوّل إحسان الصباغ، وضابط أمن م. أوّل عبد الجبار الحديثي، يرتبط به فصيل أمن أمره الملازم سنان عبد الجبار وخمس شعب:

الأولى: الاستخبارات وأقسامها" (إيران، تركيا، إسرائيل، الدول العربية، الدول الأوروبية)، ومديرها نقيب ركن.

الثانية: الأمن المدني، وأقسامها: (الأحزاب والحركات السياسية، الجاليات الأجنبية، قسم الشمال)، ومديرها النقيب

الركن رحيم التكريتي، لكنّ مهامّ هذه الشعبة تغيّرت بعد تأسيس جهاز المخابرات التي أنيطت به تلك المهام.

الثالثة: الأمن العسكري، وأقسامها: (المدني، المتقاعدون، القوّة الجوية، القوّة البحرية، المقرّ العام، فرق الجيش العسكرية)، ومديرها الرائد الركن عدنان خير الله.

الرابعة: الإدارية، (الإدارة، الخدمات، والنقلية)، ومديرها النقيب حكمت.

الخامسة: الفنيّة، (التشفير، وكسر التشفير، والمعدّات الخاصّة)، ومديرها الرائد الركن محمد سمير، ضابط المخابرة المتفوّق في الصنف، المعروف بهدوئه وجدّيته في العمل وإخلاصه، استمرّ في إدارة الشعبة الفنيّة بكفاءة، وعند تطوير هيكلها التنظيمي إلى معاونية فنية، عيّن على رأسها معاونًا فنيًا حتى استشهاده في حادثة تفجير جهاز استراق معلومات إسرائيلي، ولهذا الجهاز قصّة بدأت عند تحسّن العلاقات مع سوريا عام (1978)، صار هناك بعض التعاون الاستخباري بين الدولتين، وجهازيهما الاستخباريين، سافر إليها محمد سمير المعاون الفني، ومدير الشعبة الثامنة (الفنيّة) لأغراض التنسيق والإطّلاع الفني، وهناك في دمشق أطلعهم السوريون على اكتشاف الروس شبكة تجسس إسرائيلية تزرع أجهزة تنصّت على خطوط الهاتف الرئيسية في الأراضي السورية لاستراق المكالمات من جهاز تجسّس خاص، يعمل على مبدأ البثّ السريع المضغوط (Short Betsy Trans motion)، لتسجيل المكالمات وبثّها إلى وسيلة التقاط طرفية، تعيد بثّها بالشكل الاعتيادي، وقد فكّك الروس الجهاز، وعملوا عنه كراسًا خاصًا باللغة الروسية، مترجمًا إلى العربية، أعطوا نسخة منه إلى الوفد الاستخباري العراقي، مع الإشارة إلى احتمالات عالية لوجود شبكات إسرائيلية نصبت مثله في العراق، وبقي الموضوع تحت

المتابعة والرصد، وفي عام (1984) كان هناك جرّافة (bulldozer) تسير على الطريق خارج مدينة الرطبة لتأدية أعمال خدمية، وأثناء سيرها أراد السائق إيقافها، فاكشف عطل الموقف (البريك)، ولتفادي الضرر وإيقافها قسراً، توجه بها إلى تلّ قريب، حصل فيه انفجار حال الاصطدام به، بادرت المديرية تشكيل لجنة برئاسة مدير الشعبة الثامنة، وعضوية ضباط من عدّة جهات عسكرية وهندسية، استعدّت للذهاب إلى الموقع، تدخل محمد سمير، وقرّر الذهاب بنفسه كمعاون فنيّ، واصطحب معه النقيب مراد من الشعبة الفنية، وصلوا بالساعة (0300) إلى مركز استخبارات الرطبة، ومنه توجهوا على الفور إلى الموقع مع النقيب سفيان آمر المركز للكشف واتخاذ الإجراءات اللازمة، تبينّ لهم أن التلّ المذكور تلّ صناعي، وفوقه هوائي (Antenna)، أخذ من طبيعة الأرض شكلاً له لأغراض التمويه، مربوط بجهاز استراق على خطّ القابلو العسكري المحوري الذي نفّذته شركة أريكسون السويدية.

بدأوا الحفر بطريقة الفزعة، وحال الوصول إلى الجهاز المثبت تحت الأرض انفجر، وكان جميع أعضاء اللجنة والمعنيين متجمعين حول مكان الحفر، فطالهم الانفجار، فمنهم من استشهد في الحال مثل المقدم جاسم مدير الشعبة الخامسة، ومنهم من أصيب بجروح خفيفة مثل النقيب سفيان، وجروح أشدّ مصحوبة بحروق مثل محمد سمير الذي نُقل على إثرها إلى مستشفى الرشيد العسكري، حيث أجرى أطباؤها المعروفين له عدّة عمليات، وأبدلوا دمه عدّة مرات، فاكشفوا وجود سموم في الدم بعد كلّ عملية تبديل، وعند فحص الشظايا، تبين أنّ الجهاز مغطّى بموادّ سامة تنتشّط عند الانفجار لتكون قاتلة، وفعلاً توفّي جميع الذين كانوا قريبين من الانفجار بينهم سفيان الذي كان جرحه مجرّد خدش قريب من العين، وتبينّ فيما بعد أنّ في

الجهاز مفتاحًا مايكرو (Micro switch) عندما يكون في حال التشغيل (on) يهيئه إلى الانفجار عند أي محاولة لتفكيكه، أو رفعه من المكان، لذا يقتضي التعامل معه، وضعه على حال الإيقاف (of)، وهو ما لم يكتشفه الجندي المعني بالحفر عند بلوغه العمق الذي كان فيه الجهاز منصوبًا، ومحاولته الرفع، وتبين من خلال المتابعة أنّ طائرة سمّية مجهزة خصيصًا تحلق في أجواء إسرائيل بارتفاعات عالية للسيطرة على تلك الأجهزة المزروعة، ونقل المكالمات الهاتفية العادية والمشققة منها إلى مختبرات خاصّة للتعامل معها استخباريًا.

كانت المديرية على وفق هذا التشكيل، وطوال حقبة الستينيات، وإلى منتصف السبعينات تُحسب تشكيلاً "بسيطاً"، بصلاحيات استخبارية وأمنية محدودة، حتى لم يكن لديها سجن خاصّ بها، ولا مكان لتوقيف وحجز المتهمين، واقع يتماشى مع حقيقة أنّ الحقبة الزمنية التي سبقت عام (1968) يندر أن يتوقّف خلالها ضابط، باستثناء التبعات التي تعقب الانقلابات العسكرية، وما ينجم عنها من حمى سجن قسري واحتجاز، كان الضابط الموقوف، أو المحتجز، لأيّ سبب كان، يُرسل إلى السجن المركزي للجيش المعروف بالسجن الرقم واحد في معسكر الرشيد، أو يُوضّع في أماكن أخرى مؤقتة، واقع استخباري أو تنظيمي، وُضع في الأصل لتأمين حاجة الجيش إلى المعلومات الصحيحة (الاستخبارات) لتنفيذ مهام القتال والردع، قليلة هي حالات اعتقال الضباط، لعلّوا منزلتهم، ورصانة السياقات والتقاليد العسكرية، لكنّها حالة قيّمة لم تدم طويلاً، فقد حرفت الانقلابات بعضها، وزادت مشاركة الضباط في تلك الانقلابات عملية حرفها، وأجهز على الباقي منها، انقلاب تموز (1968)، الذي مثّل نجاحه بالنسبة إلى الجيش والعمل الاستخباري فاصلاً بين مرحلتين، كانت الأولى مهنية إلى حدّ ما،

تعمل فيها الاستخبارات لأغراض الجيش، وأضحت في الثانية أداة بيد الحزب لاضطهاد الضباط وتطويعهم، سبيلاً للمحافظة على استمرار حكم البلاد، لقد تغيّرت المديرية واقعاً، وبدأت مع بداية المرحلة الثانية التخطيط لإنشاء بناية خاصة بها، وحصلت على موافقة الحكومة على تخصيص قطعة أرض اختارتها في جانب الكرخ من بغداد، جهة الكاظمية يسار جسر الأئمة، كانت بستاناً في الأصل لأحد المواطنين، واستمكتها الدولة على وفق قوانين المصادرة التي كانت سارية، بنت فيها الشركة العامة للمقاولات وشركة (FDSP) اليوغسلافية مقرّاً في الوسط، وشققاً سكنية، ونادياً على النهر، وسجناً اشتهر بقساوته تحت تسمية الشعبة الخامسة، شهد إعدام صدام، وآخرين من المحسوبين على نظامه.

خطوات في الأدلة الاستخبارية

لقد احتلت الاستخبارات والأمن أولوية في اهتمامات الدولة عام (1970)، جرى التركيز على تعزيز مكانتهما، وتنفيذ خطط التبعيث الاستخباري، وتحويل المهام التقليدية للاستخبارات إلى الأمن العسكري، توجّهاً أمنياً، مؤدجاً لم يكن متداولاً في المؤسسة العسكرية من قبل، ولتحقيقه نُسبَ العديد من المنقولين في القائمة التي ضمّت بحدود الخمسين ضابطاً مرشّحاً عن طريق الحزب إلى الشعبة الثالثة منتصف عام (1970)، وخصّصت ثكنة البلاط الملكي السابقة في منطقة الكسرة إلى الاستخبارات، لتكون مكاناً للتوقيف والاحتجاز وإجراء التحقيق، ومقرّاً لسرية الأمن التي كانت فصيلاً من قبل، ومع هذا التوجّه، أو التحول فقد حافظت بعض السياقات العسكرية في التعامل مع الضباط، وأصول التوقيف على وقعها الماضي إلى حدود تلك

السنة، إذ لا يُلقى القبض على ضابط إلا بموافقة رئيس الأركان، وقرار من الدائرة القانونية، والسعي إلى أن يعامل الضابط الموقوف بقدر من الاحترام حتى ثبوت الإدانة، يسمح له مغادرة غرفة التوقيف لقضاء بعض الوقت خارجها، يتبادل معه بعضهم التحايا، وعادة يتم إخبار الوحدة بالتوقيف والأسباب، لكنّها سياقات أخذت بالانحراف والتغير تدريجيًا، بدعوى التطوير، إجراءات تنبأها ضباط حزيون، ومع هذا، لم ينسجم مع تطبيقاتها ضباط آخرون ومديرون معنيون.

في العام (1972) شكّل مجلس تحقيقي برئاسة م. أول عوني وعضويتي وم. أول عبد الحسين، الذي كان جنديًا قبل الانقلاب، للتحقيق مع م. أول صلاح بتهمة الانتماء إلى الحزب الشيوعي، وفي أثناء التحقيق طلب عبد الحسين من جندي يقف قريبًا، إحضار زجاجة (بطل)، سألته عن الغاية، قال لأجل صلاح عليه كي يعترف، عندها تحجّجت بوجود موعد يقتضي فضّ الجلسة مؤقتًا، وعند فضّها راجعت مدير الشعبة يومها الرائد الركن محمد عبد اللطيف، أخبرته بتفاصيل السلوك غير المقبول، لم يكتفّ الرجل بعدم الموافقة عليه سلوكًا شائنًا، ولا بوصفه بالقذر، بل أرسل على عبد الحسين في الحال، وبّخه بشدة، ثم غيّر عضويته في المجلس التحقيقي بضابط آخر.

إنّها تغييرات بلغت تأثيراتها والالتزام بها مستوى الذروة عام (1979)، عندما تبوأ صدام موقعًا متقدّمًا في الدولة والحزب، فكان العراب الأول لهذا الأسلوب، إذ سمح استخدام الشدّة المفرطة، وأيّة أساليب تعذيب مع الموقوفين، وصار ممنوعًا على أيّ ضابط من ضباط المديرية التقرب من أيّ موقوف، وممنوعًا حدّ الحساب الشديد إخبار أحد من معارفه أنّه موقوف، حتى وإن كان من بين القريبين، وإفشاء سرّ الموقوفين، وإن كان سيقًا آمنًا هو الصحيح، لكنّ الضباط والمراتب

العاملين في الاستخبارات، ومنذ تأسيس الجيش، كانوا يتأثرون بعلاقات القرابة والصداقة، بمستوى يدفعهم إلى عدم الالتزام بمثل تلك التعليمات، كما صار من المألوف والممنوع في بعض الحالات إعلام وحدة الضابط الموقوف أنه موقوف، سياقاً تعمم على الأركان الثلاثة لأمن الدولة (الاستخبارات العسكرية – الأمن العامة – جهاز المخابرات)، وهناك شواهد عديدة حول هذا الموضوع، بينها ما خبرته شخصياً عام (1991)، يوم جرى توقيفي في الأمن العسكري، إذ لم تعلم العائلة والوحدة المكان الذي تم فيه الاحتجاز ولا التهمة، ومن شدة الفلق توجهت بشرى إلى صديق هو الأقرب إلى العائلة طوال الخدمة الاستخبارية، كان في وقتها مديراً لمنظومة الاستخبارات الجنوبية، سألته عن الموضوع، وكلفته السؤال عن المصير، لم يجب على الرغم من أنه عارف تفاصيل القصة، ووعد بالسؤال ولم يسأل، اعتذر بعد لقاء معه فيما بعد، قال خفت من التبعات، وعلى الشاكلة نفسها قُصِدَتْ، أي بشرى، طبيباً كان صديقاً وعضواً في اللجنة النفسية، وشاهدًا في القضية، سألته عن الوجود على قيد الحياة، لم يجرأ إعطاها أية إشارة، وبالعودة إلى السياقات التي حكمت تلك المرحلة الزمنية، يمكن القول إنهما محققان، إذ إن تبعات الإجابة الصحيحة عقوبة شديدة قد تلقيهما في السجن، أو تفقدتهما وظيفتيهما، كان التشدد في الإجابات الرسمية منها وغير الرسمية عن الضباط الموقوفين وإهانتهم وتعريضهم إلى الاضطهاد، تجاهاً أمنياً بدأ وقعه بالتحديد مع تنسيب ناظم كزار مديراً للأمن العام ومنحه رتبة لواء، إذ بات يأخذ ضباطاً من بيوتهم أو من الشارع، يحقق معهم، وينهي مصير من تثبت التهمة عليه في بعض الأحيان، وفي حالتهم تلجأ وحداتهم إلى الاستفسار من الاستخبارات العسكرية عن احتمالات توقيف الضابط لديها من عدمه، بغية تثبيت حالته هارباً من الخدمة أو غائباً عنها، وعندما

تدقق الاستخبارات في سجّلاتها، ولم تجده موقوفًا لحسابها، تكتب إلى الأمن العامة والمخابرات مستفسرة فيما إذا كان موقوفًا لديهما، وكانت الإجابة التقليدية (غير موجود)، حتى وإن كان موجودًا.

اتّصل رئيس الجمهورية السيد أحمد حسن البكر، مساءً، كنت فيها ضابط الخفر، استفسر عن النقيب عادل، فيما إذا كان موقوفًا في المديرية، وبعد التأكد من عدم وجوده في سجّلات الشعبة الثالثة وسرية الأمن، تمّ إخباره بعدم وجوده، فعلق بانفعال (هل يُعقل أنّ ضابطاً في الجيش برتبة نقيب يختفي، ثمّ أكمل بغضب، أنتم تنكرون توقيفه، وناظم كزار شخصياً ينكر توقيفه، فهل انشقت الأرض وبلعته)، وقبل إنهاء حديثه شديد اللهجة، طلب متابعة موضوعه، وتزويده شخصياً بالنتائج، وتبيّن لاحقاً أنّ عادل كان موقوفاً في مديرية الأمن العامة، وأنّ ناظم قد أنكر وجوده في مكاملة سابقة له مع البكر، الذي حاول بعد تكرار حوادث كهذه التعميم إلى الجهات الاستخبارية والأمنية الثلاثة حتمية اتّباع السياقات القانونية الصحيحة، وإعلام الوحدات في حال توقيف منتسبيها، لكنّه لم ينجح، وعدم النجاح يعود إلى توجهات التشديد التي قادها صدام حسين المشرف على الجهد الأمني والاستخباري للدولة، ويرجع إليه تغليب السلطة الحزبية على باقي السلطات الإدارية، والاستخبارية والعسكرية بشكل تدريجي في خضمّ صراع بدأ يسيراً بعد عام (1970)، فزادت شدّته بعد (1979) عندما أعطى صدام الكلمة الفصل للحزب، وسلّم مفاتيح القيادة إلى المسؤول الحزبي، وأدخل أساليب جديدة للتعامل مع الأمن غيرت كثيراً من القيم العسكرية.

النحر الاستخباري على المتقاعدين

استمرّ تنفيذ خطّة الاتصال والتواصل، وتكوين الصداقات مع الضباط المتقاعدين حسب التوجيهات التي سطرها صدام بخطّ يده، وأراد منها تكوين صيغ تعاون ترقى لمستوى الاستفادة حال الاطلاع على ما يمسّ أمن الدولة، أو الثورة كما كانت تُسمّى في ذلك الوقت، مشكلة الاتصال بهذه الشريحة التي خدمت الجيش والدولة، أو إنّ المشكلة التي تمّت مواجهتها في سياق التنفيذ، تتعلّق بردود الفعل القلقة، أو بما يمكن تسميته صدمة الاتصال، إذ، وحال تبليغ الضابط المتقاعد هاتفياً، نية الالتقاء به رسمياً، يستجيب بغضب مكتوم، لفقدان الثقة بالاستخبارات، وأياً كانت الحجج التي تُقدّم لتسوية الاتصال، بعد أن تسرّبت إلى مسامعهم بعض الدلائل عن نيّات الدولة الأمنية.. قلقٌ عادة ما تزداد شدّته عندما يشار إلى إتمام اللقاء في المديرية، أو في الثكنة التابعة لها في منطقة الكسرة، وبسببه، وعلى الرغم من انتقال اللقاءات في مرحلة لاحقة إلى النادي العسكري، أو إلى أماكن عامة يتفق عليها مع الضابط المتقاعد، قريبة من سكنه، لم ينته القلق والخوف في النفوس، إلّا بعد إتمام فعل اللقاء، والتأكّد من أنّه مجرد لقاء عابر لإدامة التواصل، ومع هذا عدّه غالب الضباط تسويةً يرفضونه نفسياً، يتحسّسون وطأة وقته الذي لم يبلغ الساعة، كأنّه سنة.

كان العميد كامل صديقاً للمدير عبد الله الحديثي، الذي استفسر شخصياً عن أسباب الاتصال به، طلب الحضور إلى مكتبه، سأل عن الدوافع الاستخبارية، وعند إخباره بالفاصيل استغرب، كأنّه لم يطّلع على توجيهات النائب أصلاً، لكنّه وجّه بالاستمرار مع مراعاة الحالة النفسية للضابط خلال عملية الاتصال، كان القلق، وعلى الرغم من وجوده، علامة واضحة

على سلوك غالبية الضباط الذين تمّ الاتصال بهم، إلا أنّ بعضاً منهم كانوا واثقين من أنفسهم يتكلّمون بروية، لا يعيرون اهتماماً لأيّة أسئلة عابرة، بينهم العقيد ناجي سلمان، ضابط طيّار في الأصل، والعميد يحيى من التموين والنقل، وبعضهم الآخر ذوو ذكاء عالي المستوى، يكثرّون من الأسئلة، يحاولون الدخول في نقاشات يسعون من ورائها سحب المقابل إلى نقاط تساعد على إدراك طبيعة القصد من هذه اللقاءات.

كان التنفيذ الخاصّ بالتواصل مع المتقاعدين مصحوباً بالاستمرار في مراجعة ما تبقى من الأضابير، وقراءة محتوياتها، تبين أنّ قسماً من أصحابها متوفّون من سنين، وبقيت أضابيرهم في أماكنها، وتسلسل وجودها على الرفوف، وقسماً منها قد حُشِرت في طيّاتها معلومات غير استخبارية، أو حتى ملقّة.

زوجة الملحق العسكري في لندن منتصف الخمسينات، مُسبكت في باب المحلّ اللندني المشهور (Marks&Spencer)، وبحوزتها فستان لم تدفع ثمنه، معلومة لم يتمّ التحقق منها، أو غربلتها بعد وضعها خاماً في الإضبارة، وإبقاؤها دالة من دون التحسّب لقيمتها الاستخبارية والأمنية، حالة، ومثلها أخرى وأخرى تشير إلى أنّ مشكلة الاستخبارات في ذاك الزمان وهذا، عدم رفع المعلومة التي تُوضَع في الإضبارة، كأنّها حقيقة، وإن دحضت فيما بعد وثبت عدم صحتها، إذ تتمّ العودة إليها وتسجيل وقعها في طلب المعلومات، أو في المطالعات التي ترفع إلى المدير (لأيّ سبب كان). - وإذا كان ضابط القسم المعنيّ بها منصفاً قد يشير في متن مطالعته (أنّها معلومات غير صحيحة)، ويرفعها هكذا من أجل البتّ في طلب الضابط المتقاعد للسفر خارج البلاد، أو لبيع بيت له في جمعية بناء المساكن، أو النظر في مقترح إعادته إلى

الخدمة في الجيش، أو العمل في وظيفة مدنية، أو الحصول على مقولة حكومية، كأن ضابط الاستخبارات المسؤول لا يريد تحمّل المسؤولية، أو يسعى لتحميل المدير صاحب القرار تلك المسؤولية، علمًا أنّ بعض المديرين هم أيضًا لا يتحمّلون المسؤولية، فيلجؤون إلى اتّخاذ قرار في غير صالح الضابط المتقاعد، وغير المتقاعد، متأثرين نفسيًا بتلك المعلومات، ومشكلة الاستخبارات في ذلك الوقت أيضًا في آليات المراقبة الخاصة بالضباط المتقاعدين، إذ تؤكد توجيهات صدام على إخضاع الضباط المتقاعدين المهمّين إلى نوع من المراقبة الدورية، وإخضاع السياسيين منهم إلى المراقبة المستمرة (لمدّة زمنية طويلة)، على أن يُعاد التقييم دوريًا، لكن المراقبة في بعض الحالات ليست دقيقة، وفي حالات أخرى يخون المراقب الأمانة المهنية.

كان الرائد الركن مضر، شابًا ذا توجه قومي، يسكن هو وعائلته المنطقة الواقعة بين البلاط الملكي وجسر الصرّافية، كلّفت سرية الأمن مراقبته، وأوكلت هذه المهمة إلى النائب الضابط وديع، حدّدت له شهرًا للمراقبة، على أن يُعاد تقييم جدواها، بدأ وديع كتابة تقارير مراقبة دسمة، كأنه يسكن جاريًا للهدف، أو يعيش معه في الدار المعنية، حتى بات يحصي أنفاسه، ولحظات مغادرته البيت، والمكان الذي يذهب إليه ويعود منه، واستمرّ هكذا ثلاثة أسابيع متواصلة، وقريبًا من نهاية الرابع، ولزوم التقييم، طُفح الشكّ في دقّة المعلومات والقدرة الشخصية لتأمينها، ومن دون علمه، تمّ التواجد في المنطقة للمراقبة طوال نهار كامل، لم يخرج الرجل من داره، وضّع في ساعات الصباح كرسيًا في حديقة الدار لقراءة الجريدة، وعصرًا قضى جلّ وقته رشّ الحديقة وترتيبها، وفي اليوم الثاني وصل تقرير المراقبة، موضوعًا فيه إشارة إلى أن الرجل كان يمشي

حذرًا في شارع الرشيد، ولقاء في مقهى حسن عجمي مع شخص غير معروف، وبالعودة إلى مجمل تقارير المراقبة، صارت قناعة بالتفيق، والمبالغة التي تدفع إلى التخمين، كأنّ مضر هو المسؤول المباشر للضباط القوميين في الجيش، وفي المحاجة التي جرت معه في اليوم الذي تلاه، اعترف أنّه لا يحضر إلى المنطقة، إلّا نادرًا، وأنّه يصيغ الأحداث اجتهدًا من خياله، عندها عاقبه مدير الشعبة الرائد الركن حازم محمود⁵⁴، واستحصل موافقة المدير لنقله خارج المديرية.

الإعلان عن مؤامرة

انتهت مدّة المراجعة الخاصّة بالأضابير، وانتفت الحاجة للنوم في المكتب، وتمّ الانتقال إلى الثكنة العسكرية التي خصّصتها الدفاع إلى الاستخبارات في الكسرة، مع مجموعة العزّاب، حالة دفعت إلى التفكير بالسكن الخاصّ خارجها، كان المأخذ الوحيد على هذا السكن الرسمي، إحساس الضابط كأنّه باقٍ في أجواء العمل الوظيفي الاستخباري الضاغط لأربع وعشرين ساعة، ولأيّام الأسبوع السبعة، عندها جرى الاتفاق مع م. أول جابر عصواد على تأجير سكن خارجي، فكان الخيار مشتملاً في منطقة السعدون، جوار مديرية الأمن العامّة، صار مرتعاً لباقي الضباط العزّاب من المديرية، وهدفًا لمراقبة ضابط الأمن جبار الحديثي، نوّه المدير عنه بشكل غير مباشر، ناصحًا

⁵⁴. حازم ضابط ركن جيّد، خريج الكلية العسكرية الدورة (36)، ترجع أصوله إلى الموصل، ذكي، ودود، غير عدواني، عمل بعد سنتين من إدارته الشعبة الثالثة بنجاح ملحقاتًا عسكرياً في طوكيو، وبعد ثلاث سنوات، المدّة المقررة، عاد ليعمل في هيئات الركن بعيداً عن الاستخبارات، وأحيل على التقاعد مبكراً، ليستقرّ في العيش بعد عام (2003) في الولايات المتحدة الأمريكية.

ضرورة عدم الإفراط، وحتمية التقيد بضوابط الرفاه العرّابي، لكنّها مدّة لم تستمر سوى ثلاث سنوات مرت سريعاً، تُوجت بالزواج، تحدّدت إجازته شهراً في البصرة، قُطعت بعد أسبوع إثر مؤامرة أُعلن عنها في التلفاز لناظم گزار، مدير الأمن العام، تلك التي ذاع صيتها لاستهداف رئيس الجمهورية أحمد حسن البكر.

كان التلفزيون بمحطّته الرسمية الوحيدة قد قطع البثّ، للإعلان عن مؤامرة استهدفت الحزب والثورة وشخص الرئيس، فتمّ التوجّه لحظتها إلى مكتب المجمع السياحي، لتحقيق اتّصال بمدير الشعبة الرائد الركن محمد عبد اللطيف، ذلك الضابط المظليّ الذي ينتمي إلى عائلة معروفة في الأعظمية، (تخرّج من الكلية العسكرية بدورتها (37)، وكلية الأركان العراقية، ومن بعدها الأركان البريطانية (كامبرلي) يتفوّق، ضابط شجاع، خدم في الجيش أمر فصيل وسرية، وتسلم قيادة فوج مظليّ وهو برتبة نقيب ركن، معروف بإخلاصه وشدة التزامه وانضباطه الجيد، وفي المجتمع الاستخباري عُرف بمهنيته وذكائه العالي، وإنصافه في التعامل مع الخصوم، حقّاني، لا يقبل الظلم، تدرّج في المجال العسكري إلى رتبة عقيد ركن أمراً للكلية العسكرية سنة (1979) التي أعلنت فيها مؤامرة محمد عايش، وأُلقي عليه القبض بتهمة المشاركة فيها بعد أيّام من الإعلان عن حصولها خلال إدارته ندوة حزبية لأعضاء شعبته العسكرية، يشرح فيها أبعاد حصولها، وأخطارها على الحزب والثورة، حُكم عليه بالسجن سبع سنين، وأودع مع رفاقه ردهة السجن الخاصّ في "أبو غريب"، تعرّض إلى التعذيب الشديد معهم، قضى منه مدّة ثلاث سنين ونصف، وأخرج معهم بالعفو الخاصّ، أُحيل إلى العمل بوظيفة مدنية في وزارة الكهرباء، وخضع إلى المراقبة لمدّة طويلة، عمل بعد عام (2003) في جهاز المخابرات مع صديقة

محمد عبد الله رئيس الجهاز آنذاك، وأخيرًا ترك العمل ليجلس في بيته متقاعدًا برتبة فريق).

قال محمد مدير الشعبة خلال النقاش عن قطع الإجازة بعد انكشاف مؤامرة كزار من عدمه، لم يصدر أمر رسمي بقطع الإجازات، لكنّه ينصح بقطعها والالتحاق، فالمؤامرة من وجهة نظره جاءت من بين صفوف الحزب الذي وضع جهازه في حالة استنفار، وتوجّه لمتابعة مواقف أعضائه، فكان اليوم الثاني عودة إلى بغداد، والتحاقًا بالمديرية، وكانت المؤامرة، وتبعًا لأقوايل انتشرت بين الجهاز الحزبي والاستخبارات، سيناريو أعدّه كزار، تنهياً فيه مجموعة أولى خاصّة، هي خليط من العملاء، والمنتسبين، تتواجد في المطار، تغتال الرئيس أحمد حسن البكر بعد النزول من الطائرة والشروع بمراسم الاستقبال، تقتل معه بعض أفراد القيادة، وتتحرّك على وفقه مجموعة ثانية أخذت من مكتبه مكانًا لمراقبة التنفيذ، وباقي التطوّرات من على شاشة تلفزيون، بغية إصدار الأوامر لتنفيذ الخطوات اللاحقة.

نزّلت طائرة البكر في بلغاريا قادمة من بولونيا بتدخل عمدي من قبل الاستخبارات الروسية (KGB) كما قيل في حينه، فأحدث صدمة، لعدم توقع ذلك، فأربكت المشهد، ودفعت المجموعة الأولى إلى الانسحاب، ولملمة شتات المجاميع الأخرى التي غلب الشكّ على نهج تفكيرها، ودفع بها إلى الارتباك، ثمّ الهرب تجاه الحدود العراقية الإيرانية، وإذاعة بيان يُعبّر عن الفشل ويكيل الاتّهامات، لكن الجانب المقابل، أي صدام، كان متوازنًا، جريئًا، متهينًا لكلّ الاحتمالات، شكّل مجموعة مطاردة من القوات الخاصّة والحزب وطيران الجيش، أعطاهما كلّ الصلاحيات، شرعت في عملها قبل بلوغ كزار الحدود من جهة زرباطية، لم يتمّ التأكد من رغبته الجادّة لاجتياز الحدود، بعد أن أخذ من أحد مراكز الشرطة هناك ملاذًا، باغتته القوّة في ذاك

الملاذ، وألقت عليه القبض، وحرّرت رهائن تمّ اصطحابهم أثناء عملية الهرب، بينهم وزير الداخلية سعدون غيدان الذي أصيب بجروح، ووزير الدفاع حماد شهاب الذي قُتل في الحال، واختتم السيناريو بقتل ناظم گزار أثناء التحقيق، الذي لم يتسرّب عن مقتله، ومخرجات التحقيق، ودوافع التأمّر، سوى أقاويل شاعت أنّها كانت احتجاجًا على تكرّرة الحزب والدولة، وأقاويل مقابلة ترجّح حصولها فعلاً من أفعال صدام الشخصية، بقصد الاستيلاء على الحكم، وجميعها، وأخرى غيرها بقيت مجرد أقاويل، وتكهّات حتى عام (2023)، يدعم أصحابها الظنّ بتوجّهات صدام مدّ النفوذ في جسم الدولة، والحزب، ومعاناته من الشعور بالعظمة، وافتعاله سيناريو مؤامرة محمد عايش عام (1979)، وإعدامه (22) من رفاقه القياديين، والحكم على ثلاثة وثلاثين بالسجن مددًا مختلفة، مات منهم داخله أربعة عشر شخصًا، وأطلق سراح الباقين على قيد الحياة بعفو رئاسي خاص، وبسيناريو متّمّ لسيناريو المؤامرة الأولى.

.....

كانت مؤامرة ناظم گزار صدمة للدولة، وصدمة أشدّ وقعًا للمجتمع الاستخباري، إذ، وللمرّة الأولى طفا على سطحه غير السوي، اضطراب الشكّ في نيّات القادة الأمنيين والاستخباريين، تسرّب بالتدريج إلى المنتسبين، غدّاه صدام المصاب به داء، بسببه توجّهت الدولة لإعادة النظر بجميع أجهزتها القائمة، وشكّلت جهاز المخابرات، أو طوّرت التشكيل القائم لمكتب العلاقات العامّة إلى جهاز مخابرات، ارتبط بالنائب صدام، اختير له ضباط حزبيون موالون، وأوكلت له مهامّ حماية الحزب والدولة، وعلى إثره أيضًا وجّهت اتّهامات إلى ضباط أمن كانوا قرييين من ناظم، أو محسوبين عليه، أعدم بعضهم، وأخرج بعضهم الآخر من الأمن، شكوك وإجراءات امتدت إلى باقي

الأجهزة التي بدأ في صفوفها التدقيق بالأسماء التي لم تلتحق تلقائياً إلى دوائرها حال الإعلان عن المؤامرة، سوَّغ النقيب خالد عدم الالتحاق، لتمتُّعه بإجازة مرضية، وقال لقد وقَّعت وزملائي غير الملتحقين في حيرة بين التقيّد بالسياقات العسكرية التي تُرجع قطع الإجازات إلى أوامر تصدر من جهة الانتساب، تطلب الالتحاق بشكل صريح، وبين الالتزامات الحزبية التي يكون في مجالها القطع والحضور، والتواجد طوعياً عند الشعور بوجود أزمة.

إنَّها التزامات أوجدها الحزب في إدارته الدولة وقوّاتها المسلحة، أفقدت الجيش والأجهزة الأمنية والاستخبارية ضوابطها والتزاماتها القيمية، وقربت الواحدة منها في أن تكون منظمة حزبية كبيرة، ودفعت بالحزب إلى العسكرية، لأن يكون وحدة عسكرية كبيرة، أو قريباً منها لما يتعلّق بقضايا الضبط والالتزام.

استمرّ التدقيق في السجّلات، وصدقَ حدس محمد عبد اللطيف في نهاية المطاف، إذ توجّه الحزب بعمل جرد لعموم الأعضاء والأنصار الذين لم يلتحقوا، ووجّه عقوبات فصل ونقل خارج الاستخبارات، حاول على أعقابها النقيب خالد، الدفاع عن موقفه من الاستمرار في إجازته المرضية، التزاماً بالضوابط العسكرية، وإلقاء مسؤولية عدم استدعائه على شعبته الأولى، فكان الردّ فصلاً من الحزب، ونقلًا إلى وحدات الفرقة الثانية في الشمال، وملاحظة من المسؤول الحزبي شفيوة: (أنّ تقديرات المصلحة العامة يفترض تحديدها من قبل الرفيق الحزبي نفسه، وليست عبر السياقات العسكرية)، وهكذا استمرّ تدهور الثقة بولاء الرفاق الحزبيين، إذ، وفي أوج مسلسل الخسارة، وفي منتصف الثمانينات، وإثر انتكاسات متكرّرة في الحرب، دفعت قيادة الحزب جهازها بشقيّيه المدني، والعسكري، لزوم التطوُّع

إلى جبهة القتال، مفهوم حزبي محيّر عسكريًا، إذ إنّ العسكري في الأصل متطوّع، ولأجل تنفيذ هذه التوجيهات الحزبية، استدعي الجهاز الحزبي من درجة عضو فما فوق لعموم وحدات المقرّ العام في بغداد، بينها الاستخبارات، إلى ندوة حزبية في قاعة الخلد، أدارها سعدون شاكر عضو القيادة القطرية وآخرون، عرضوا فكرة التطوّع إلى جبهة القتال، وتركوا الأمر مرئًا إلى الضابط الحزبي.

سأل النقيب محمد سالم المُجاز مرضيًا عن مآل إجازته الناتجة عن إصابة في الحرب، وسأل الرائد باسم كريم عن التعامل مع إيفاده إلى دورة خارج العراق ينتظر تنفيذه، لم يجب سعدون عنها بشكل واضح، تركها إلى تقدير الضابط، قال م. أول سامي عضو قيادة فرقة كان جالسًا بالجوار، ألم نكن، نحن الضباط، متطوعين، ونشغل مناصب، ماذا يعني التطوّع؟ وقال النقيب كامل الصديق الجالس في الجوار الآخر وبصوت خافت: أشمّ في الموضوع رائحة اختبار للولاء.

نهضنا في وقته، من أماكننا، وقفنا استجابة إلى التطوع، في حين رفع عشرون ضابطًا أيديهم، سجّلوا أسبابًا مرضية وإدارية تحول دون التطوّع، أمر سعدون جميع الواقفين بالخروج والعودة إلى وحداتهم، طلب تسجيل أسماء العشرين المتبقّين، وبعد تسجيلهم غادر القاعة، وفي اليوم الثاني تمّ استدعاؤهم إلى شعبة الدفاع، وتسليمهم قرار فصلهم من الحزب، ونقلهم إلى الوحدات الأمامية في الجبهة، التحقوا إليها على الفور، وجدوا توجيهات إرسالهم إلى الحاقّات الأمامية، واقعًا تسبب في مقتل غالبيتهم.

محيط مدينة السلیمانیة

في النصف الأول من سني السبعينات عمّ نوع من الهدوء، أو الاستقرار في العمل العسكري والاستخباري، ونشاط للتطوير في جميع المجالات الاستخبارية، بينها الدورات الخارجية في الاتحاد السوفيتي والدول السائرة في فلكه، ودورات لخبراء روس وفدوا إلى مدرسة الاستخبارات، لم يتركوا مجالاً لم يخوضوا فيه، حتى فتح الأفقال والأخبار السريّة، والتشفير، والمراسلات البريدية، وفي أثناءها حصلت حرب تشرين (أكتوبر)، وجدت المديرية حالها في مواجهة العديد من المتطلّبات الاستخبارية للحرب، من خرائط ودلالات، وتنسيق لم تكن مستعدة إليها كما يجب، لأنّها، وطوال السنين، السابقة باتت تركّز على الأمن أكثر من اهتماماتها بالاستخبارات، وتطلّب الأمن إجراءات حماية للأرتال العسكرية التي توجّهت صوب الجبهة الشرقية، يسير بعضها على السرفة، تحت تهديد الطيران الإسرائيلي الذي خرق الأجواء العراقية أكثر من مرّة، خلالها كلفت الاستخبارات شعبتها الثالثة بمتابعه تلك الأرتال أمنياً، ورفع التقارير عن سيرها، وكلفتنا الشعبة ضباطاً للأقسام مفارز للعمل على طول الطريق من بغداد إلى دمشق لمتابعة هذه المهمّة، انتهت الحرب مع إسرائيل سريعاً كسابقاتها، فوجد الضباط المكلفون أنفسهم في سوق الحميدية الشعبي، والسوق الحرّة السورية، حمل بعضهم السيارات بما لذّ وطاب، وهناك في بغداد فرض الحزب سيطرته ومصالحه على الإدارة العامّة للجيش، وأصدر أمراً منتصف عام (1974) لنقلي حزبياً إلى السلیمانیة، نقلاً اقتضى النقل من الشعبة الثالثة في الاستخبارات العسكرية إلى مساعد ضابط استخبارات قيادة منطقة السلیمانیة.

كان العمل الاستخباري في هذه القيادة، ومثيلاتها الفرق الأخرى في عموم المنطقة الشمالية، خليطاً من إجراءات الأمن والاستخبارات، ومكافحة التهريب، ومتطلبات التعامل مع واقع القتال الكردي بالصد من الحكومة، وكانت هناك أعمال قتال توفّر لها الاستخبارات التعبوية المعلومات اللازمة، لكنّها لم تكن كافية، وكانت المديرية، وقسم الشمال، ومراكز استخبارات ديالى وخانقين وكركوك والموصل والسليمانية كفيلة بتأمين حاجة القيادات العسكرية على مستوى الفيلق والفرق للاستخبارات اللازمة لديمومة القتال، وكانت أوّل تجربة قتال ميداني تمّ الاطّلاع عليها، والمشاركة الاستخبارية فيها معركة أدارتها القيادة لاسترجاع قضاء سيد صادق (60 كيلومتر عن السليمانية) من المقاتلين الأكراد، وللتنفيذ كلفت، أي القيادة، جحفل لواء بالتقدّم والهجوم على مركز القضاء الذي يتواجد فيه، ومن حوله المقاتلون الأكراد، شرع القائد العميد الركن (عبد الرحمن التكريتي) بإصدار أمر الحركة وانفتاح القطعات الهاجمة بالساعة 0700، اصطحب معه المقدّم الركن سليمان ضابط الاستخبارات وباقي هيئة ركنه، جرت محاولة لإقناعه المشاركة في الجهد شخصياً، أصرّ على ضرورة البقاء في المقرّ، وهو محقّ في إصراره، لكنّ الرغبة القوية للاطلاع والتجريب دفعت إلى الاتصال بالنقيب حكمت لؤلؤة أمين سرّ الفرقة الحزبية، والطلب منه إقناع القائد من أجل القبول بمشاركتي في المعركة ممثلاً عن الحزب، قبل الرجل الفكرة، وبعد دقائق تمّ التوجّه إلى المقرّ الجوّال، على الطريق المؤدّي إلى القضاء، اكتفى القائد عند الوصول بردّ التحية دونما تعليق، تعبيراً عن عدم الرضا.

كان القائد وهيأة ركنه في مقرّ جوّال، يسرون على الأقدام، جوقة على طريق عام، وكان المقاتلون الأكراد يتحرّكون على قمة جبل على يساره، يُشاهدون بالعين المجردة، وكانت سريّتي

دبابات تتقدمان على جانبي الطريق تجاه مركز القضاء، ومن جانبه دأب القائد على حثّ قطعات اللواء والدبابات على التقدّم من جهاز لاسلكي يحمله المخابر، يسير إلى جواره ضابط المدفعية الذي ينظّم شؤون القصف، كان هادئاً، يلتفت إلى ضابط ركنه عند الحاجة، وهم من حوله يسرون، توقّف بعد ساعة من التقدّم البطيء، لوجود مقاومة، سأل عن طبيعة المقاومة، وعن عدد المقاومين، وأماكن تواجد مدفع هاون بدأ القصف قصفاً منفرداً على المقرّ، طلب ضربة جوية، أخبره المجسّ الجوي إقلاع طائرتي ميغ (21) من قاعدة كركوك الجوية، عندها جلس القائد وهيأة ركنه، والمرافقون على تلّ قليل الارتفاع يمين الطريق العام، أدركت أنّ المكان خطأ، فتقدّمت من القائد، همست في إذنه أنّ الجلوس هكذا سيدي القائد خطر، فالمكان مكشوف، والأكراد على سلسلة الجبال يترصدون، يرون كذلك بالعين المجردة، لديهم مدفع هاون يتنقّل، يقترب في قصفه من المقرّ الجوّال، تنبّه القائد إلى هذه الحقيقة، قبلها برحابة صدر، نهض من مكانه، سار على الطريق تجاه مكان منخفض على جانبيه حواف أعلى، تؤمّن سائرًا عن النظر، وحال جلوسه هناك أوقع الأكراد قنبرة من هاونهم على التلّ الذي كان الجميع جالسين عليه مكشوفين.

تشكّلت في العام (1975) فرقة المشاة السابعة من مقرّ قيادة منطقة السليمانية، وثلاثة ألوية مرتبطة بها، تغيّرت المناصب والتسميات تبعاً للتنظيم الجديد، فجاء تثبيتي من الإدارة ضابط الركن الثالث استخبارات الفرقة، وقد نُسب اللواء الركن وليد محمود سيرت لقيادتها، وهو خريج الكلية العسكرية الملكية البريطانية سانت هيرست، ضابط درع، من الأوائل في كلية الأركان، متميّزاً شجاعاً، أصيب في يده اليمنى أثناء القتال شمال

البلاد، عمل لمدة قليلة بعد (1978) مديرًا للاستخبارات العسكرية، لكنه لم ينجح في هذا التخصص، لشدة انضباطه، إذ كان يحاسب الحضور والانصراف في الدوام الرسمي بشكل مفرط، حتى إنه كلف ضابطًا من مقره بالوقوف في المدخل مع بداية الدوام، الأمر الذي دفع بعضهم من المتأخرين الدخول إلى مكاتبهم من الشباك، كما أمر أن يكون الدوام بالملابس العسكرية، إلا في حال التكليف بمهام تقتضي ارتداء الملابس المدنية، لذلك لم يعمر في الاستخبارات طويلاً على الرغم من شدة ذكائه، لكنه نجح كأمر سرية وكتيبة ولواء، وقائد فرقة، وفيلق، كان بعثيًا منتمياً إلى اليسار في بداية حياته العسكرية، وعاد إلى الحزب الحاكم في البلاد بعد (1968)، حتى أصبح عضواً في المكتب العسكري، وهناك أقاويل لضباط بعثيين من جيله أنه احتفظ سرًا بانتمائه إلى الجناح اليساري، آخر منصب له قائد الفيلق الأول في كركوك، قبل إلقاء القبض عليه عام (1979) وإعدامه بتهمة المشاركة في مؤامرة محمد عايش، كان معروفاً بنشاطه العسكري المهني، وانضباطه الشديد، غيّر من وقع العمل، وبدأ التدخل في الجهد الاستخباري، موجّهاً إيّاه بالاتجاه التعبوي الصحيح، وكان مولعاً بالاستطلاع، إذ يصطحب في غالب الأحيان أحد ضباط ركن الاستخبارات في جولة استطلاع من الجو بالطائرة السميتية، يضع طولها الخريطة أمامه، ويبدأ بالتأشير وسيل من الاستفسارات، سألني مرّة عن شجرة معمرة يمين الطريق المؤدّي إلى بحيرة دوكان، لماذا لم يُشر لها على الخريطة؟ وطلب من الطيار في مرة أخرى الدوران عدّة مرّات حول مجموعة بيوت بُنيت حديثاً يسار الطريق، وعند عودته طلب مدير المساحة العسكرية لتثبيتها على الخريطة، كان قائداً كفوءاً، دقيقاً في كل شيء.

بعد أشهر من العمل في هذه الفرقة، تمّ التقديم إلى امتحان القبول في كُلية الأركان، وجرى اجتيازه بدرجة تفوق الوسط، ومن بعده أُجريت مقابلة كسياق جديد من قبل لجنة رأسها عدنان خير الله، حضر فيها عضوًا نفسيًا المقدم الطبيب حقي إسماعيل حقي، سأل عن الوضع في سوريا آنذاك، وعن بعض العادات اليومية، انتظر الناجحون النتيجة، وصل من بعدها بثلاثة أسابيع كتاب النقل إلى أمر سرية المشاة الأولى للفوج الثاني اللواء الثامن والثلاثين، وعند الاستفسار عن الدوافع، جاء الجواب تمهيدًا للقبول في كُلية الأركان كإشارة ضمنية إلى أنّ عدم القبول، كان بسبب عدم الاشتغال أمر سرية، إلّا أنّه، وفي تلك الوجبة المقبولة، قُبِلَ عددًا من الضباط وهم لم يعملوا في الأصل أمري سرايا بينهم ثابت سلطان.

لم يمض شهر للعمل كأمر سرية، جاء تعميم للترشيح إلى دورة أمري سرايا استطلاع في الجيش المصري، طُلب من المرشّحين الحضور في مدرسة الاستخبارات العسكرية، لإجراء امتحان تنافسي، وبعد أيام من إجراءاته وصلت برقية من مديرية التدريب العسكري تطلب الالتحاق إليها بغية التهيؤ مع النقيب خلف الدليمي من الاستخبارات العسكرية، لإتمام معاملة الإيفاد.

مشاهد من وسط القاهرة

أقلعت الطائرة المتّجهة إلى القاهرة بعد الظهر، على متنها مرشّحان مع عائلتيهما، وصلت قبل المغيب، تقدّم معاون الملحق العسكري بملابسه الرسمية للاستقبال، اصطحب الجمع إلى فندق وسط القاهرة، فاجأنا الصباح بأصوات بائعي الصحف، وأصحاب العربات وحشود الذاهبين إلى دوامهم الرسمي، كأننا في مشهد فلم مصري تجري أحداثه في حي شعبي، كأنّ كل ما

تابعناه في تلك الأفلام موجود أماننا على مسرح هذه الساحة، البوسطجي، وبائع الصحف، وعدلي البواب، وجدنا أنفسنا، بعد إتمامها مشاهد مثيرة، في الطابق الثاني من بناية السفارة العراقية الذي تشغله الملحقة العسكرية وسط حي الزمالك، أسرع الملحق العسكري إتمام مجاملات الزيارة، نصح السكن في شقق مفروشة، حصرياً في مصر الجديدة، فمدرسة الاستطلاع تأخذ مكاناً مميّزاً في أحد أحيائها، أبدى المساعدة في إتمام عملية التأجير، قال عنها سهلة، يمكن إيجار الشقة في القاهرة أثناء التجوال في سيارة الأجرة، سائقوها يمتلكون علاقات مع مكاتب التأجير، والمكاتب موجودة في كل شارع، تفتح أبوابها حتى المساء، ولديها معروض من الشقق يفوق الطلب بكثير، لم يتأخر أمر التأجير، فقد تمّ عصر اليوم الثاني تأجير شقة اختيرت في (9 شارع عبد العزيز فهمي، مصر الجديدة)، صاحبها مصري يعمل أستاذاً في العراق، سكنة العمارة مصريون ميسورون، ودودون، كان المصريون، وما زالوا، اجتماعيين مجاملين، يرحّبون بالغريب، لا يتحسّسون من وجوده بينهم جاراً، إذ لم تمض أيام حتى أضحي غالب سكان العمارة من الأصدقاء، أقرب الأصدقاء عائلة العقيد سمير الجيار، معلّم في صنف المشاة، انثدب للتدريب في الجيش الجزائري عدّة سنين، من أصول ريفية (كوم حمادة)، دّل مشكلة تمّت مواجهتها في الدورة تتعلّق بالتعبئة الشرقية (الروسية) المعتمدة في الجيش المصري، على عكس العراق الذي استمرّت فيه غربية بريطانية وإن اعتمد التسليح روسيّاً، كان سمير معلّماً جيّداً، سهّل التعرّف على المصطلحات واستيعابها، ومهّد بتركيزه على المراجعة المستمرة للموادّ، الحصول على المرتبة الأولى في الامتحان بعد خمسة أشهر دراسة، غالبها نظري مع مشاهدات عملية.

كان ضبّاط الدورة المصريون، من شتى الصنوف، يركّزون على الصاعقة، ويعطونها أسبقية أولى، وكان هناك ضابطان سودانيان، الرائد أحمد من الشمال، والنجيب جورج من الجنوب، وكان أحمد قلقاً من مشكلة جنوب بلاده، يسأل باستمرار عن الحلول المناسبة، يحسن الظنّ بأهل العراق، فقد حلّوا مثلها في شمالهم، وإنّ الهدنة التي حصلت بعد الانهيار في الصفوف الكردية قبل أشهر هي من بين الحلول التي يمكن الاستفادة من خطواتها في السودان، وكان أحمد على خطأ، وكان في منهاج الدورة زيارات إلى شبه جزيرة سيناء، ومشاهدات لخط بارليف الذي بناه الإسرائيليون حصيئاً بعد حرب حزيران (1967)، واجتازه المصريون بكفاءة في حرب أكتوبر (تشرين) عام (1973)، ومواقع أخرى قيادية ودفاعية إسرائيلية، ونقاط حصينة، وأسلحة مُدمّرة تشير إلى جسامه المعركة وخسائرها الفادحة، وبعض مخابئ استخدمها أفراد الاستطلاع العميق (خلف خطوط العدو) قبل وأثناء الحرب.

كانت الدورة فرصة لعمل جولات في مدن مصرية قريبة، مثل الإسكندرية والاسماعيلية وبور سعيد في سياره تم شراؤها من أحد موظفي السفارة العراقية بحالة دون الوسط، وكانت فرصة مضافة للاستفسار عن سبل الدراسات العليا، نبه إليها حمدي الجندي المصري في مكتب شؤون الوافدين في المدرسة، شابّ مثقّف، يهوى الحديث مع العراقيين في أوقات الفراغ، خرّيج الأدب الإنجليزي، ومن بعده الدبلوم العالي في التربية وعلم النفس، أشار إلى هذا الدبلوم والماجستير في جامعة عين شمس، واقترح زيارتها والاستفسار عن إمكانية القبول، وكانت إشارته نقطة تحوّل في تغيير مسار المهنيه العسكرية من ضابط مشاة في الجهد الاستخباري إلى علم النفس في المجال الاستخباري والعسكري، وكانت دافعاً قوياً لإكمال السنة الأخيرة

لبكالوريوس الأدب الإنجليزي في الجامعة المستنصرية التي كانت مؤجلة، وتغيير المسار إلى علم النفس، (إذ، وبعد الشروع في دراسة الأدب الإنجليزي في الجامعة المستنصرية، اكتشفت عدم رغبتني في اللغات، وكنت قليل الحضور إلى المحاضرات بسبب طبيعة العمل الاستخباري وكثرة الواجبات، وقلة الرغبة، وفي تلك الأيام كان قد أهداني الملازم المتقاعد موسى الحسيني، بعد خروجه من سجن الاستخبارات بريئاً من تهمة الانتماء إلى تنظيم قومي، كتاباً بعنوان مبادئ علم النفس، كان يدرسه في الدراسات المسائية، قرأت في الكتاب واستهواني في مجاله، وبدأت من ذاك الوقت أفكر في إكمال الدراسة العليا في هذا المجال).

لم يألُ مشرف الدورة الرائد صلاح جهداً في الموافقة على منح الساعتين الأخيرتين من الدوام رخصة، لمراجعة الكلية المعنية بالتربية في جامعة عين شمس، بقصد الاستفسار عن القبول في الدراسات العليا، بانت الكلية بناية قديمة في منطقة روكسي من مصر الجديدة، دلّني الطلاب على قسم التسجيل، وعلى المسؤولة فيه مدام رضا، سيّدة في متوسط العمر، بدينة، اجتماعية، يبدو المرح على سلوكها الظاهري، رحبت أولاً، وسألت عن المطلوب؟ فكان الجواب: معلومات عن الدراسات العليا في كلية التربية، عاودت السؤال ثانية عن الاختصاص، وأمور أخرى، أجابت بالإيجاب: يمكن الحصول على القبول في برنامج الدبلوم العام، سنة، يُشترط النجاح منها بدرجة جيّد للانتقال إلى الدبلوم الخاص، ومنه إلى الماجستير مشروطة أيضاً بالنجاح بدرجة جيّد، وقبل مغادرة مكتبها توهت إلى امتحان قبول، شرط لا غنى عن اجتيازه، ليكون القبول الأولي الممنوح قبولاً أساسياً يؤهل الطالب إلى الالتحاق بالدراسة.

.....

انتهى برنامج دورة الاستطلاع بامتياز، وأُلغيت معه فكرة التقديم ثانية إلى كلية الأركان، وإحلال التفتيش عن فرص لإكمال الدراسات العليا في علم النفس خيارًا هو الأول، وتحديدًا في مصر، إنَّها فكرة سيطرت على العقل، حتى بعد العودة إلى السرية الأولى، الفوج الثاني لواء الثامن والثلاثين، يوم كان الفوج منفتحًا لأغراض التدريب خارج السليمانية، والوقت متاح لكتابة وإعادة ترتيب وتعريق المحاضرات الخاصة بدورة الاستطلاع، وتهيتها مادةً للتدريس حسب العناوين، حملتها في أول إجازة دورية، سلَّمتها مكتوبة بخط اليد إلى مدرسة الاستخبارات، أمر أمرها العقيد الركن قاسم طبعها، أيَّد فكرة تدريسها ضمن مناهج الاستخبارات التعبوية، أعلن أمام هيئة التدريس حاجة الجيش الملحة إلى تخصُّص الاستطلاع، نوّه عن اقتراح سيقدِّمه لنقلي معلِّمًا لهذه المادة، مقترحًا أيَّدته المديرية في كتابها إلى إدارة الضباط بعد تلقِّيها النتيجة أولًا على الدورة، في تلك السنة انتهت الدراسة في الجامعة المستنصرية ناجحًا، وتمَّت المباشرة في المدرسة معلِّمًا للاستطلاع، وضابط ركن الأفراد، في الشعبة الإدارية أثناء الدوام المسائي، نوعًا من المساهمة اقترحها مدير الشعبة النقيب نكتل محمد يوسف⁵⁵ بعد استلامه إدارتها، وطوالها لم يغيب عن البال مشروع الماجستير في مصر، ولتأكيدته تمَّ تقديم الطلب صيف عام (1977) لقضاء الإجازة السنوية في مصر، مصحوبًا بوثيقة التخرُّج من الجامعة المستنصرية.

⁵⁵ نكتل مواليد الموصل، ضابط، خرَّج الكلية العسكرية بدورتها الحادية والأربعين، أُحيل إلى وظيفة مدنية بعد التخرج بسبب انتمائه إلى حزب البعث، وأعيد إلى الخدمة بعد حركة 17 تموز (1968)، شخصية مثزنة، اجتماعي، منفتح، عقلية الاستخباراتية جيِّدة، منطقي، يتمتع بعلاقات واسعة، أُصيب في الحرب العراقية الإيرانية إصابة شديدة تسبَّبت في بتر ساق له ويد، ومع هذا تحمَّل الإصابة بشجاعة، وأُحيل على التقاعد برتبة لواء.

قالت مدام رضا في مكتب التسجيل للدراسات العليا في كلية التربية، نأسف لانتهاء أمد القبول لهذه السنة الدراسية هذا اليوم، لكنّها وعدت إجراء محاولة جادّة، حاولت بقوة بعد استلام هدية جلبت من العراق، وفي اليوم الذي تلا، سلمت القبول مبدئيّاً، قالت لا تنس الامتحان، حدّدت موعداً لتأديته بعد أسبوع، كان الامتحان معلومات عامّة، ومقابلة تم اجتيازها بسهولة، صدر على إثره، القبول النهائي لدراسة الدبلوم العام في جامعة عين شمس.

كانت العودة إلى بغداد مليئة بالرغبة لإتمام موضوع الدراسة العليا التي لم يكن قبول فكرتها سهلاً في الجيش آنذاك، سلسلة موافقات تبدأ من مدير الاستخبارات، ومن ثمّ الحزب، وتنتهي عند رئيس الأركان صاحب الصلاحية لما يتعلق بالإجازات الدراسية والسفر آنذاك.. صلاحيات نقلت مع بدايات الحرب مع إيران إلى الوزير، ومن بعده إلى الرئيس، القائد العام للقوآت المسلحة، لكن العميد خليل العزاوي مدير الاستخبارات سهّلها كثيرًا، إذ قابلته في مكتبه، عرضت عليه الفكرة، قال بعد إتمام شرب القدح التقليدي من الشاي، تعال معي، مسك اليد اليسرى، وسار تجاه غرفة ضابط الركن العميد الركن فاروق العبلي، كانت الغرفة ملاصقة لمكتبه، تفصلهما باب خشبية، قال للعميد فاروق: إنّ الجيش الذي نريد بناءه يحتاج اختصاص علم النفس، أرجو ترويج كتاب إلى رئاسة أركان الجيش هذا اليوم ومتابعته شخصيًّا بغية الحصول على إجازة دراسية.

عاد العزاوي إلى مكتبه راضيًّا بما قدّمه، واصل فاروق جهده لإعداد الكتاب المطلوب وتوقيعه، ثم إرساله قبل انتهاء الدوام إلى رئاسة أركان الجيش، وتابع موضوع عرضه على الفريق الركن عبد الجبار شنشل، رئيس الأركان، لم يتأخّر في بريده، وافق حال الاطّلاع على صيغته والحاجة إلى

الاختصاص، لقد تمّ كلّ شيء بشكل سريع، وسهل، لم يأخذ من الوقت سوى أسبوع، وصل في نهايته كتاب الإيفاد من مديرية التدريب العسكري معنوّاً إلى المراجع والملحقية العسكرية في القاهرة، ونسخة منه عنونت إلى مديرية الجوازات، وفي منتصف الأسبوع الثاني من بداية المشروع تمّ بلوغ الهدف، دراسة عليا في كلية التربية جامعة عين شمس.

نقطة النحول الثالثة

حطّت الطائرة العراقية في مطار القاهرة الدولي، ومنه مباشرة إلى بيت سمير الجيار، أوّل سؤال كان عن إمكانية تيسير شقّة في عمارتهم، لم تكن تلك الشقّة التي سكنت قبل ثلاث سنين ميسورة، إذ عاد صاحبها الأستاذ الجامعي من بغداد، لكنّهم أشاروا إلى أخرى في ميدان تربومف، تعود إلى شقيقة زوجة العقيد شوقي توكل، صديقّ هو أيضاً من أيّام الدورة الأولى في الاستطلاع، سلّمت مفاتيحها في الليلة ذاتها، لم تكن بعيدة عن الجامعة، التي بدأ عامها الدراسي بعد ثلاثة أيّام، في ذاك العام (1978/1977)، زاد المسجّلون في الدبلوم العام عن مئة وخمسين طالباً، يجمعهم مدرج كامل تُلقَى فيه محاضرات لموادّ كانت جديدة، وأساليب تدريسها كذلك جديدة، طلابها خليط من المصريين وعرب، بينهم كويتيان وسعودية، وموريتاني وفلسطينيون وستة عراقيين، استقرّ بهم الحال، ومن بعد استقراره جرى التركيز على شراء سيارة، وتغطية التفرغ الدراسي أمنياً، كان العراقيون في العادة يسألون عن الأصل والدراسة على الحساب الخاصّ، أو على أساس البعثات الحكومية، فاستقرّ أمر التغطية دراسة على الحساب الخاصّ، نجحت فكرتها إلى ما بعد انتهاء الدراسة والعودة إلى بغداد.

سارت السنة الأولى جادة، وقراءة المقرر لساعات تفوق الخمسة كل يوم، فيها المنافسة شديدة، والتخصّص جديد، والثقة بالقدرات الخاصة لم تكن تكفي، عادت قويّة بعد إجراء اختبار الذكاء ضمن التطبيقات الخاصة بالدراسة وخروج النتيجة بمستوى عالٍ (130)، وحتّم شرط النجاح بدرجة جيّد للانتقال إلى الدبلوم اللاحق (الخاص)، بذل جهداً أكثر، خشية ضياع الفرصة التي جاءت صعبة في ظروف الخدمة العسكرية، وعموماً تمّت السيطرة على منهج الدراسة النظري في غضون الأشهر الأولى، وبقي الحرج الأكثر كامنًا في التربية العملي، حيث لزوم التدريس، تحت إشراف أستاذ مادّة المناهج، الذي ورّع الطلاب على مدارس منطقة مصر الجديدة، وكان النصيب مدرّساً لمادّة اللغة الإنجليزية في مدرسة ثانوية للبنات، بناتها مرافقات، يصعب ضبطهنّ من غير المصريين، وغير الممارسين عملياً لمهنة التدريس، بعض الطالبات مشاكسات بطبعهن، ومع هذا ساعتان في الأسبوع مرت بسلام، وأعطى المشرف النتيجة درجة جيّد.

كانت الحياة في مدينة القاهرة بشكلها العام مريحة اقتصادياً واجتماعياً، يختلف وقعها عن الحياة الجارية في بغداد، وإن كانت الأولوية في جوانبها إلى الدراسة، تخلّلتها سفرات في العطل، وبعض سهرات قليلة نهاية الأسبوع في نوادي شارع الهرم الليلية، لإشباع الرغبة في المتع، ومجاملة ضيوف يصلون القاهرة بين الحين والحين، كان أكثر الضيوف القادمين من بغداد عدنان الطيار مدير عام مصرف الرافدين، لحضور اجتماعات دورية لمجلس إدارة البنك العربي الأفريقي ممثلاً عن العراق المساهم برأسماله، لعدنان علاقة عائلية سابقة، وله ولع بالسهر في الأماكن الراقية والنوادي الليلية.

قاربت السنة على الانتهاء، وكان المطلوب تقديم بحث في مادة المناهج، بدأ بعض الطلاب تحرّكهم في عدّة اتجاهات، بينها (كشك) الشاي للعم عبدو، المقاول الرئيس لتزويد الطلاب الكسالي بنسخ من بحوث نُوقشت من قبل، يحتفظ بها نسخاً أصلية، وضع لها أسعاراً متفاوتة، أقلها عشرة جنيهاً، كأنه بتسعيرته يفرّق بين العناوين والأهمية والدرجة الممنوحة للبحث في أثناء المناقشة السابقة، يطلب من الشاري قبل تقديمها، التلاعب بالعناوين وإعادة بعض الصياغات والمصادر، كان الطلاب العراقيون جادّين لا يميلون إلى الشراء، وهكذا انتهت السنة نهاية الشهر السادس، وأُعلنت النتائج باهرة ضمن الخمسة الأوائل، بعد إعلانها رزمت الأمتعة لقضاء الإجازة الصيفية على أرض بغداد، شهران انتهاء سريعاً، لتبدأ السنة الثانية دراسة الدبلوم الخاص الذي كان أكثر تخصصاً وتوجّهاً، صارت خلال دراسته علاقات أوثق مع الطلبة العراقيين، وصدقات أقرب مع الكويتيين، كانوا في أوقات الامتحانات يسهرون، يزوروننا بعد الساعة الواحدة ليلاً، يسألون عن أكل عراقي، فيجدونه جاهزاً أو سهلاً تجهيزه، فالسوق المصري يبقى مفتوحاً إلى ساعات متأخرة من الليل، وفتحية العاملة في المنزل موجودة تعرف جيّداً لملمة الحاجات المطلوبة، وتهينتها وإن تأخّر الوقت، وقبل امتحانات الدبلوم شَرَفَ المولود الثاني للعائلة في مستشفى هليوبوليس بمصر الجديدة، كان الوقت صباحاً من يوم السابع والعشرين من شهر مايس عام (1979) أخذ اسماً مصرياً شائعاً (أشرف).

.....

لم تختلف نتيجة الدبلوم الخاص عن الدبلوم العام الذي سبق، كأنّ الواحد قد تعوّد مذاق التفوّق، بعد استلامها رسمياً منتصف الشهر السابع "تموز"، قُطِعَت التذاكر للتمتّع بالإجازة إلى بغداد

عبر روما، كان أسبوعًا ممتعًا، امتدّ بين روما العاصمة الأنيقة، وبين فينيسيا المدينة العائمة، وشوارعها المائية المبهرة، وقوارب أجرة مشهورة للتنقل، اختتم الأسبوع بزيارة كاتدرائية القديس بطرس في الفاتيكان، خطوة أخيرة مهّدت إلى بغداد.

انحراف المسيرة

كانت بغداد التي نزلت فيها الطائرة القادمة من روما منتصف الشهر الثامن آب، تغطّيها غيمة توتّر سوداء، يفتّش الجميع عن دوافع تنازل الرئيس البكر قبل أسابيع عن الحكم إلى صدام، نائبه الشابّ القوي، يدقّقون في سيناريو التنازل غير المعقول، ويعودون إلى الطبيعة الاجتماعية العراقية، يجدونه أمرًا غير مألوف، المألوف في عراق الماضي والحاضر جلوس الحاكم على الكرسي، لا يغادره إلّا بانقلاب أو الموت المقسوم، جميع الملوك والرؤساء منذ العام (1921) تأسّيس الدولة هكذا غادروا كرسي الحكم، ومع هذا لم ينتهِ السيناريو بالتنازل، واعتزال البكر الحياة في بيت قريب من مقرّ الحكومة، إذ أعقب ذلك الإعلان، بيان مثير عن مؤامرة يقودها الوزير، وعضو القيادة القطرية محمد عايش، بمشاركة مباشرة لعضو القيادة القومية الناسك عبد الخالق السامرائي، المتحقّظ عليه في سجن انفرادي معزول عن العالم، وخمس وخمسين رفيقًا حزبيًا قياديًا، مشاركة غريبة زادت من العتمة والتوتّر، لم يصدقها العقل، وإن أُجبر على تصديقها نتيجة زخم الحدث، وهالة الخوف التي كوّنها صدام على مسرح قاعة الخلد حين أُجبر عضو القيادة القطرية محيي عبد الحسين سكرتير البكر بتلاوة اعتراف مكتوب، وتحديد أسماء المتأمّرين.

كان الخوف قد سرى عدوى في نفوس البعثيين القياديين الحاضرين في القاعة إلى عموم الجهاز الحزبي المصدوم وباقي العراقيين، وعناصر النظام، وزاد من اتجاهات النقاش في الجلسات الخاصة عن الحاصل والمآل بحذر شديد، وفي أول نقاش جرى في هذه الإجازة مع ياسين عباس في بيته بمنطقة زيونة، تجاوز الحديث تلك الدوافع والأسباب التي بقيت مجرد تكهنات، إلى مستوى المقارنة، أو المفاضلة بين البكر رجلاً معروفاً باتجاهاته المحافظة والعشائرية، وبين صدام حسين الشاب المنفتح، ردّ ياسين بوثوق أنّ صدام أكثر عشائرية وتطرفاً من البكر، وأنّ تاريخ طفولته ومراهقته في تكريت التي درس فيها المتوسطة والثانوية غير محمود، وأبدى خشية جادة من المستقبل غير المضمون.

لم يكن للإجازة الصيفية طعم هذه المرّة، بسبب استمرار غيمة التوتر فوق الأجواء البغدادية التي دفعت للاستعجال بالعودة إلى مصر، والاستعداد إلى السنة الثالثة (الماجستير)، وبرنامجها الدراسي المختلف عن السنتين السابقتين، ذلك الذي اقتصر على جلسات السمنار الأسبوعي لتحديد عناوين الأطاريح والأساتذة المشرفين، فكان أستاذ علم النفس الكلينيكي الدكتور صلاح مخيمر هو من أختير مشرفاً، وهو من بدأ التنسيق معه لاختيار عنوان البحث في مجال التحليل النفسي، لكنّ الأمور في هذه السنة لم تسر كما يجب، فالرئيس السادات زار إسرائيل عارضاً عليها السلام، متسبباً في اضطراب العالم العربي، واقع استثماره صدام، بدأ حملة قوية لقيادة الجهد العربي، ومحاولة أخذ موقع مصر القيادي، عزلها عن الجامعة العربية، ومن جانبها بدأت مصر بالمقابل التضيق على الطلّاب العراقيين أمنياً، وتأخير منح الإقامات الدراسية، وتسفير بعضهم من الطلّاب، فتكوّنت فكرة بتغيير بلد الدراسة، أي إكمالها في بلد أوروبي، فكرة أخذت

تكبر في العقل، طُرحت في قيادة الفرقة الحزبية التي يقودها السفير جبار الدوري، مشفوعة بتأخير منح الاقامات، أيد السفير المسؤول الحزبي الرأي، كتب كتابًا إلى القيادة القومية لتغيير قطر الدراسة لأربعة مبعوثين إلى الماجستير والدكتوراه هم (سعد خضير، صبحي الدليمي، صالح الداهري، والجميل)، وافقت القيادة بمدة قياسية، دفعت الأربعة إلى رزم أمتعتهم والعودة إلى بغداد قريبًا من شهر نيسان (1980)، أعقبها التحاقي بالاستخبارات، استعدادًا إلى مشوار قبول في دولة أخرى، لكنّ القبول لم يكن سهلًا كما كان في مصر، فضلًا عن تغير الأجواء، فهناك عصر للبكر قد انتهى، وبدأ عصر جديد لصدام، فيه المعايير قد اختلفت، وكذلك الصلاحيات، وخليل العزاوي المدير المدرك تمامًا للحاجة إلى علم النفس في الجيش نقل منها، واستلم العهدة من بعده اللواء الركن جسام الجبوري، ثمّ اللواء الركن جواد ذنون (عضو المكتب العسكري)، في ظروف سياسة عسكرية تتصاعد فيها حدة الصراع على الحدود مع إيران، بسببها استمرّت دَوامة الموافقات على نقل قطر الدراسة صعودًا ونزولًا، والأصعب منها القبول في الجامعات البريطانية التي وضعت لها خيارًا هو الأوّل، وللإسراع في إنجازه، حصلت موافقة وزير الدفاع على منح إجازة اعتيادية أسبوعين إلى لندن بغية المتابعة والحصول على القبول المطلوب في إحدى جامعاتها تنفيذًا لأمر القيادة القومية، حُزْتُ على إثرها تذكرة بالطائرة العراقية إلى لندن يوم 1 آب، كانت فيه المواقف الاستخبارية ترجّح حصول الحرب مع إيران، وعلى ضوءها تأجّلت الإجازة حياةً، بالاتفاق مع المدير الذي حبّذ الفكرة وأشاد بها، بل وألغيت فكرتها فيما بعد، لأنّ الحرب قد بدأت في اليوم الثاني، وتلبّدت الأجواء، وصار من غير الممكن التمتع بها أو حتى التفكير بالتمتع، وصار من غير المنطقي ترك الجيش

والدائرة في ظروف حرب بدت كأنّها ستنتهي في غضون أيام، امتدت طاحنة لثمانين سنين مستمرة، فكان الخيار الوحيد وبالتأسيس على التخصص (علم النفس) الانخراط في العمل النفسي الاستخباري، ومن جانبها نسّبتني المديرية إلى منصب ضابط قسم الحرب النفسية.

من دفاتر الحرب النفسية

كان قسم الحرب النفسية قد تشكّل حديثاً، ترجع فكرة تأسيسه إلى المعاونة الفنية، إذ قدّم مدير شعبتها الفنية مقترحاً مدعوماً ببعض الدراسات والاستشارات تبين الأهمية والحاجة، أيّده ودعمه معاون الفني العميد محمد سمير، وحصلت عليه الموافقة قسمًا يرتبط بالمعاون، ثمّ بات مستقلاً يرتبط بمقرّ المديرية، نسّبت لإدارته النقيب قحطان، ذلك الضابط الكرخي الجريء صديق الوزير عدنان، الذي أعدم في السنة الأولى للحرب، بدعوى انتقاد الرئيس، كان وحيداً في هذا القسم المنشأ حديثاً مع نائب ضابط كاتب، عند استلامه لم تكن هناك أسس للعمل النفسي الاستخباري قد وضعت في أمر التشكيل، ولا وضوح في المهام، التي تحدّدت عامّة، قوامها التنسيق مع الجهات المعنية، وشنّ الحرب النفسية، على الرغم من أنّ تشكيله يعدّ خطوة متقدّمة، ومهمّة في ذلك الوقت الذي اقترب فيه موعد الحرب مع إيران، من هذه المهام يتبين أن أصحاب الرأي في التشكيل لا يدركون أنّ الحرب النفسية في الأصل عملية مستمرة قبل شنّ الحرب العسكرية وأثناءها ومن بعدها، وأنّها لا تقتصر على العدو، إذ يحتاج الصديق جهداً نفسياً لتوثيق عرى صداقته إلى تحالف، ويحتاج المحايد إلى جهد لكسبه صديقاً، حتى العدو يحتاج التعامل

معه إلى جهد نفسي مكثف لتقليل عداوته، وإلى جهد آخر، ومن نوع آخر، للتأثير على معنويات منتسبيه.

لقد بدأ الجهد مضاعفًا لبناء القسم من نقطة الصفر، تجاه تعزيز موجوده أوّلاً بضباط ومراتب خريجين، وكان بعد بداية الحرب بقليل قد اكتمل ملاكه على وجه التقريب في ظروف كان الجيش قد شهد خلالها، والسنوات الثلاثة السابقة، تغييرًا، خاصّة في سنته الأخيرة التي سبقت الحرب، زاد تسليحه كمًّا ونوعًا، دخلت طائرات حديثة إلى الخدمة في القوّة الجويّة، وشكّلت فرق عسكرية ستة على الفرق الستة التي كانت موجودة، بينها ثلاثة مدرّعة، وشهدت الاستخبارات كذلك تغييرًا، فشُعّبها الخمسة الرئيسية زادت لتصل ثلاث عشرة، آخرها شعبة إيران التي تطوّرت من قسم يديره الرائد الركن وفيق السامرائي إلى شعبة يديرها هو بالذات، وتغير مستوى التشكيل من مديرية، إلى مديرية عامّة، يبدو كأنّ هذا التطوير والتغير يصبّ في توجّهات الاستعداد إلى الحرب.

يوميات من الحرب مع إيران

وقعت الواقعة، واندلعت الحرب بين إرادتين متنافستين، إيران الخميني وتطلّعاته لنشر الثورة خارج حدود بلاده، وعراق صدام الساعي لبناء مجده الشخصي قائدًا للأمة، بدأت في الثاني من آب (1980)، كانت من قبلها الاستخبارات في حالة إنذار، تعدّ طوالها الشعبة (13) تقارير استخبارات تدفع تجاه الحرب، كأنّ صياغتها تلبّي رغبة الرئيس في التصعيد والدعوة إلى الحرب، والرئيس، مع إعلام يديره الوزير لطيف نصيف جاسم، يسعيان لاستغلال كلّ حدث من أجل التصعيد تجاه الحرب.

شاب يرمي قنبلة يدوية على جمع في المستنصرية فيه وزير الخارجية عضو القيادة القطرية طارق عزيز، قشة أرادها الرئيس قصف ظهر البعير الذي وضعه رمزاً للحرب، دفعه التركيز في إعلامه تصعيداً بالصد من إيران، إشارات كانت تأتي إلى المديرية وقسم الحرب النفسية تدفع تجاه المزيد من التأزيم، ومناضد رمل نُصبت في سرداب وزارة الدفاع، والقيادة العامة تبين افتتاح القطعات العسكرية على الحدود في حالة هجوم، لقد تمّ كل شيء، وجُهّزت الاستعدادات بمنتهى الكتمان حتى اليوم الثاني من آب، وجّهت القوة الجوية ضربة على المطارات والأهداف الإيرانية، وبعدها اجتازت القطعات المدرعة، والمشاة الحدود من عدّة محاور، وصار التركيز على توجّهات الحرب النفسية دعاية لترويج أهداف الحرب كما يريد لها صدام، شكّلت على إثرها وزارة الدفاع لجنة نفسية لخدمة الوزارة، والوزير في الجوانب النفسية، رأسها العميد الطبيب حقي إسماعيل حقي⁵⁶ الذي يعمل في الأصل أمين سر ومستشار في أمانة سر الوزارة، وأعضاؤها أطباء من مستشفى الرشيد (عاهد حسني، طه النعمة، ريكان إبراهيم، حسين علي راضي، ومن الاستخبارات النفسية

⁵⁶ حقي إسماعيل حقي رئيس اللجنة النفسية، طبيب أخصائي نفسية، حصل على دبلوم الاختصاص من فينا، قارئ جيد، فرويدي التفكير، له قدرات عالية في التحليل النفسي السياسي، تربطه علاقة قوية مع وزير الدفاع عدنان خير الله، وعمل معه في ديون الوزارة طوال مدة استيزاره وإلى وفاته، بعثي سابق، قيل إنّه من أوائل من تمرّد على الحزب، وقاد انشقاقات عن قيادته في منطقة الأعظمية عام (1963)، في سلوكه العام بعض من العدوانية واعتداد بالنفس حدود الشعور بالعظمة، كان في حياته الوظيفية والعامة حذراً جداً ومتوجّساً وشكوكياً، ومع هذا وقع في شرك انتقاد النظام، أمام سائق له عسكري، كتب عنه تقريراً إلى الجهات الأمنية، حُكم بسببه بالسجن المؤبد.

المقدّم سعد خضير)، وعلى مستوى الدولة شكّلت لجنة عليا للحرب النفسية يرأسها وزير الإعلام، ترتبط مباشرة بالرئيس، أعضاؤها (مدير التلفزيون ماجد السامرائي، ورئيسا تحرير جريدة الجمهورية سامي مهدي، والثورة حميد سعيد، ومدير عام من المخابرات رافع دحام، وممثل عن وزارة الدفاع ضابط قسم الحرب النفسية، المقدّم سعد، تجتمع مرّة في الأسبوع، وقد يزيد عن هذا تبعاً للحاجة والتطوّرات، تستلم توجيهاتها في العادة من الرئيس عن طريق الوزير، كانت التوجيهات حال بدء الحرب تنصبّ على تسوية حصولها، ولوم إيران سبباً في الحصول، وكان العمل في الإجمال دعائياً، نجحت في مجاله اللجنة بشكل كبير، عزّزت قناعات لدى المجتمع العراقي قبول وقع الحرب، وساعدت في دفع الحشود للمشاركة في أتونها، لكنّها، ومن الجوانب الأخرى، كانت منساقة وراء التمجيد الذاتي لصدّام، قدّمته أجهزة الوزارة قائداً هو الضرورة، وزعيماً هو الأوحد، لم تحسب حساب الحقيقة النفسية التي تُشير إلى أنّ المغالاة يمكن أن تكون إحياء مضاداً لموضوع التمجيد، وبالفعل كانت لهذه الآلية أثر واضح بمرور الحرب، إذ بات العديد من العراقيين يبغضون صدام، يصطنعون له حبّاً في الظاهر بسبب الخوف منه في الداخل، وبات العديد من العالم ينتقده في العلن.

المنشور الأوّل في الحرب

لمست الاستخبارات حاجة إلى مزيد من الجهد في موضوع الحرب النفسية، لدعم الحرب التي بانّت دلائلها طويلة الأمد على العكس من التخطيط والتوقّعات، فغيّرت مستوى تنظيم قسم الحرب النفسية إلى شعبة بثلاثة أقسام، وغيّرت التسمية إلى الاستخبارات النفسية، لتكون منسجمة مع السياق العام للعمل

الاستخباري، أعطتها رقمًا هو الشعبة الرابعة عشرة، خصّصت لها مقرًا في شارع فلسطين، أحد بيوت المسفرّين العراقيين من التبعية الإيرانية، وبعد تطوّر عملها، وإضافة مهامٍّ أخرى انتقلت إلى بيت آخر أكثر سعة، كذلك لعائلة مسفّرة، قريبًا من ساحة عقبة بن نافع في منطقة الكرادة، راحت الشعبة بالتدريج في تحمّل مسؤولية الحرب النفسية التعبوية، ناقشت موضوع رمي المنشورات على العدو، أيدت لجنة الوزير الفكرة، وتحمّس لها المدير، لم تكن هناك أفكار مسبقة عن صيغ كتابة المنشورات، ولتجاوز هذا القصور المهني تمّ الاتصال برئيسي جامعة بغداد والمستنصرية، حضرا معًا إلى مقرّ الشعبة، كان حضورهم سريعًا، فالجيش في أوقات الحرب، وفي زمن صدام ذي السلطة، وجهد الدولة مُسحّر برمّته لأغراض الحرب، تعهد كلاهما بوضع أقسام علم النفس، والأساتذة في خدمة الجهد النفسي والشعبة التي تديره آنذاك، ومن هاتف مدير الشعبة اتّصلا برؤساء الأقسام، طلبا حضور أستاذين في علم النفس من كلّ قسم، على الفور، ناقشا طويلاً، وبشكل مفصّل موضوع المنشورات، وصيغ الكتابة، واحتمالات التأثير، ثبّتوا على الورق، ضرورة أن يكون موضوعها واحدًا، ومادّة المنشور قصيرة جهد الإمكان، ولغته مفهومة، يمكن التعزيز بالصور، لكن كتابة المنشور ليست من اختصاصهم، هم يعطون الفكرة لمن يكتب، ويدقّقون في الفقرات، فكانت الاستعانة بكتاب من خارج الاستخبارات خطوة أولى، أعقبتها أخرى، تثبيت بعضهم على ملاكها، كتبوا المنشور الأوّل بعد انقضاء الشهر الأوّل للحرب، نوقشت القوة الجوية عن إمكانية إسقاطه فوق القطعات الإيرانية المدافعة تجاه عبادان، أشار مدير حركاتها إلى حاويات روسية لرمي المنشورات موجودة في المخازن، تعلّق على حمالات أسفل جناح الطائرة، يقوم الطيار بقذفها من على ارتفاع

محدّد، تبعاً لموقف الأسلحة المضادّة واتجاهات الريح، تفتح في الجوّ آلياً، لتنتشر محتوياتها من المنشورات على مساحة أرض محسوبة، قال: أوصلوا المنشورات إلى قاعدة الشعبية، وسيقوم هو بإدراج الواجب ضمن مهامّ القاعدة على الفور، فكانت الطلعة الأولى، لم يتمّ التأكد من عائدها النفسي لصعوبات في جوانب القتال، وعدم اهتمام الاستخبارات التعبوية بجمع المعلومات عن موضوعها ودراسة الأثر، لكنّ الإسقاط استمرّ في قواطع أخرى، واستمرّ استنزاف الخزّين من الحاويات حتى نفذ تماماً نهاية السنة الأولى للحرب، قال مدير التسليح والتجهيز في القوّة الجوية، هناك أولويات للاستيراد فرضتها الحرب، ليس من بينها معدّات الحرب النفسية، وعلى المعنّيين بها التفكير بالموضوع جدّياً، فكان التوجّه إلى التصنيع المحلّي سبباً للتعويض، فكرة طُرحت في الهندسة الآلية الكهربائية، تلقّفها الرائد المهندس مؤيد⁵⁷، صمّم حاوية يمكن استخدامها بشكل مستمرّ، نجحت الفكرة، أشرف على تصنيعها هو وضباط من الشعبية، ونسّق استخدامها مع طيران الجيش من على طائرات (PC7).

الصوت في الحرب والعمليات النفسية

استمرّت الحرب، وزادت الخسائر، بل وتضاعفت، وصارت الحاجة ملحّة إلى كتابة التقارير النفسية عن الوضع المعنوي لقطعات الخصم، وقطعاتنا في بعض الأحيان، على الرغم من أنّ مهامّ المعنويات للجيش من مسؤولية التوجيه

⁵⁷ مؤيد مهندس خزّيج جامعة بغداد، ينتسب إلى مديرية الهندسة الآلية الكهربائية، ملّم باختصاصه، نشط، في داخله تحدّ علمي كبير، أخذ على عاتقه تصميم حاويات متعدّدة الاستخدام، وأشرف على تنفيذها في ورش شارع الشيخ عمر، نُقِلَ على إثرها إلى الشعبية (14) مهندساً على الملاك.

المعنوي الذي تحوّل في خضمّ التغيير إلى دائرة للتوجيه السياسي، وإلى مهامّ الدعاية والنفخ في قِرب الرئيس، وزادت الحاجة في المقابل إلى الجهد التخصّصي لعلم النفس العسكري، وافق المدير العام على تأمينها باستخدام ستة أساتذة من جامعتي بغداد والمستنصرية (خلف نصار الهيتي، أديب الخالدي، جميل البلداوي، عامر عباس، فجر جودة)، التحقوا للعمل المؤقت في أقسام الشعبة تبعًا للحاجة الآنية ووقت الفراغ، وخصّص للواحد منهم راتب شهري مقطوع (150 دينار)، فضلًا عن راتبه الشهري الجامعي، وفي ساحة الحرب تطوّر شكل القتال بين الطرفين المتناحرين، ليكون فيه الجنود المقاتلون المنفذون قريبين في المواجهة من بعضهم، عندها اقتضت الحاجة إلى التخاطب بالصوت كأحد متطلّبات الحرب النفسية، لم تكن هذه المعدّات موجودة في الجيش العراقي، فبدأ التحرك استخباريًا لجمع المعلومات عنها، معدات ضرورية، فكانت الإشارة صوب شركة أمريكية (أبلايد الكترو ميكانيكس) هي الوحيدة في العالم تمتلك القدرة على تصنيعها، معدّات ذات قدرات فائقة في إيصال الصوت المباشر عدّة كيلومترات، تبعًا لاتجاهات الريح ودرجات الرطوبة، ساعد الملحق العسكري الأردني على تزويد الشعبة باسم وكيلها في الشرق الأوسط، العقيد الأردني المتقاعد حكم الخضراء، جرت استضافته في بغداد، وخلالها أمّن اتصالاً مع الشركة التي أرسلت مديرها (المستر بانكس)، الرائد المهندس المتقاعد، الذي عمل بداية حياته في الجيش الأمريكي مهندسًا، وتقاعد ليفتح مشروعه الخاصّ، استمرّ في إدارته حتى عبوره عمر الثمانين، كان نشطًا واثقًا من نفسه، بدأ تجاربه الأولى على انتقال الصوت في ورشة داخل مرأب بيت العائلة، طوّرها لتكون شركة، افتتحها في ولاية الميريلاند، ودفع بها لتحكّر إنتاج مضخّات للصوت، يمكن ربط وحداتها مع بعض لتكوين

منظومة من (32) وحدة، جلبها معه إلى بغداد عند استضافته وابنته الوحيدة، جرّبها من الطائرات السمتية (Mi 8)، ومن على العجلات، أمّنت وصول الصوت أثناء التجارب في منطقة "أبو غريب" أكثر من أربعة كيلومترات، كان بانكس قويًا، يضطرّ لإنجاز بعض أعمال الربط بنفسه، ويستعين أحيانًا بالآخر، يصعد في الطائرة السمتية، ليتابع من الأعلى، ويركب في العجلات العسكرية بدرجات حرارة تصل إلى الخمسين درجة، وأجواء مغبرة، وقد نجحت تجاربه بكفاءة عالية، لكنّ المسألة لا تتعلق بنجاح التجارب من فشلها، بل بالتخصيصات المالية لشرائها، بعد استنزاف الحرب جلّ الميزانية، وكذلك بألية التخصيص، والصرف التي احتكرتها القيادة العليا، وتنفيذ العقود من غير العتاد وأدوات القتل التي تأخذ وقتًا طويلًا، وفي نقاش جمع مدير الشعبة الثامنة (الفنية) ومدير الشعبة الرابعة عشرة (النفسية) والأمريكي بانكس حول السعر المعروض، مليوني دولار، قال المدير العام اكتبوا إلى رئاسة الأركان، نوّه مدير الثامنة قائلاً، وإن وافقت رئاسة الأركان، فسيأخذ التنفيذ وقتًا لا يقلّ عن السنة، ثم انتظر خروج الجميع من غرفة الاجتماعات في دار الضيافة، ليقول بصوت لا يكاد يسمع، لدى المديرية في أحد البنوك الأمريكية مبلغ يزيد عن مليوني دولار، أبقى وديعة لصالح عقد شراء معدّات فنية لم يتمّ شراؤها بسبب اعتراضات وضعها الكونجرس الأمريكي بعد الحرب، يمكن الاستفادة منه لحساب شراء هذه الأجهزة، معدّات نفسية، لا يتطلّب صرفها سوى موافقة المدير العام، وأكّد: يمكن التطرّق إلى الموضوع في التقرير الذي يكتب بعد انتهاء التجارب، وبعد انتهائها بنجاح جرى كتابة التقرير، فيه تأكيد على الحاجة إلى استخدامها كأساس داعم لمشروع الحرب النفسية مشفوعًا بصور وشريط فيديو يوثق كلّ الخطوات، عرضه المدير العام تقريرًا حسبه مهمًّا

على لجنة شكلها من مديري الشعبة الفنية، وشعبة إيران والشعبة النفسية، التي قدّمت في الاجتماع شرعاً مفصلاً للموضوع، أيده المجتمعون، وأيدوا اقتراح الشراء، بل وأكّدوا على ضرورته، سبيلاً للتعامل النفسي مع القوات الإيرانية التي بدأت تستعيد وعيها من صدمة المفاجئة التي تكوّنت بداية الحرب، وانتقلت حال استعادته من وضع الدفاع المكسور إلى الهجوم الشرس، وعند استفسار المدير اللواء الركن ذنون عن الكلفة وسبل تأمينها، تمّ إخباره بوجود المبلغ المودع في البنوك الأمريكية، وافق على الاستفادة منه للشراء، وعلى تشكيل وفد من مديري الشعبتين الثامنة والرابعة عشرة، ومهندس تمّ استعارته من مديرية الهندسة الآلية الكهربائية فريد كريم⁵⁸ لزيارة الشركة في مقرّها بولاية المرييلاند، والتفاوض معها على إتمام الصفقة.

في مدينة واشنطن

توجّه الوفد إلى واشنطن، وبدأت مفاوضات تحديد السعر النهائي، وطريقة الشحن جوّاً، ومدة التجهيز، مصحوباً بثلاث سيارات شوفرليت (فان)، وصيانة لمدة سنة، اقترب سعرها من المليونين، وفي مساء اليوم الذي خُتم فيه التفاوض، حضر مدير حسابات الشركة إلى الفندق، سأل عن رقم حساب يمكن إيداع مبلغ الكومشن الذي استحق (300 ألف دولار)، تمّ الردّ سوف

⁵⁸ فريد مهندس ذكي، متابع، ملّم في قضايا الهندسة، بينها الكهربائية، له أخ (وليد) كان جندياً مكلفاً ينتسب إلى الشعبة (14)، وعن طريقه تمّ التعرّف على قدرات فريد العلمية غير الاعتيادية، وإشراكه في التجارب التي أجريت على المعدات على الرغم من كونه من غير منتسبي المديرية، وغير بعثي، وكانت لأرائه الهندسية أثر كبير في التفاوض مع الشركة، وأثناء زيارتها، أي الشركة في مقرّها بالمرييلاند، ومن خلال النقاشات قدّمت له عرضاً للعمل مهندساً فيها، لكنّه رفض العرض، واستمرّ خبيراً متبرّعاً لتقديم الخبرة من دون ثمن.

يتمّ إخباره في لقاء اليوم التالي على عشاء في بيته الخاصّ، وقبل الذهاب اجتمع الوفد، وتمّ إخبار أعضائه بمقترح الشركة لدفع الكومشن، صار الرأي أن يُنزل المبلغ من الكلفة الإجمالية للعقد، وكان هذا الذي جرى، ودُكر في التقرير الذي رفع من رئيس الوفد مدير الشعبة (14) إلى المدير العام.

بدأت المعدّات في الوصول، عام (1984) شكّلت الشعبة، إثر وصولها، ثلاث مفازرز للعجلات، رأسها ثلاثة ضباط ملازمين (طارق، وصافي وعلي)، وفي السياق ذاته حصلت الشعبة على موافقات لنقل وتطويع ضباط من خريجي علم النفس والاجتماع، وكذلك جنود من المكلفين والاحتياط، فكان لها ما أرادت، إذ بدأت باختيار عدد من الملازمين، فضلاً عن الثلاثة المذكورين (لطي، وليد ومصديق)، إذ كان السياق هو الاختيار المباشر من قبل مدير الشعبة للضابط، أو الطالب المرشّح، أو الجندي المكلف، ثمّ عرضه على أمن المديرية لتدقيق المعلومات، ومن بعدها تفتح المراجع لإتمام النقل أو التطويع، وقد كان غالبية ضباط الشعبة وجنودها من المنتسبين جيديّن عملوا بجد وإخلاص، لم يتسبّبوا في أيّة مشكلة للشعبة أو للمديرية والجيش، باستثناء وليد التكريتي الذي كان في الأصل جنديّاً خريج علم النفس ينتسب إلى مديرية التدريب، وقدم إلى برنامج التطويع بصفة ضابط على وفق التعميم الذي أعدّته المديرية لعموم وحدات الجيش، وحضر الى المقابلة مع وساطة من قائد فيلق قريب له من تكريت، وكان هو الوحيد الذي نكل بأعمال الشعبة وانتقدها عندما نُقل منها إبان تشكيل الأمن الخاصّ الذي اقتصر الترشيح للنقل إليه على الضباط التكراتة كأسبقية أولى، وعند التقصّي عن موضوع التكنيل تبين أنّه شخصي، يتعلّق بضجره من تكليف له بالإشراف على إعداد ضيافة داخل الشعبة للجنة

التعامل مع الأسرى الإيرانيين، يحسب نفسه هو أكبر من أيّ تكليف.

بعد إتمام فعل الاختيار، بدأ السعي للتدقيق في نوع الطائرات المناسبة لحمل المعدادات، بالتنسيق مع طيران الجيش، وفي أثناء النقاش بحضور مديره اللواء الطيار الركن الحكم حسن علي، اقترح العقيد الملاح وائل خضوري، ملائمة الطائرة السميتية (MI 2) الموجودة فقط في الطيران الزراعي، فكان اليوم الثاني مناسبة لعقد اجتماع في مقرّه بأبي غريب، ومعاينة الطائرة وتجريبها عملياً، والقرار على ملائمتها، أعقبتها خطوة طلب الاستعارة لطائرتين دعماً للمجهود الحربي، وافقت وزارة الزراعة على صيغته، وخصّصت طائرتين، تماشيًا مع توجيهات الدولة للدعم آنذاك، وبالنسبة إلى الطيارين، اقترح طيران الجيش الاستفادة من الطيارين الزراعيين الذين التحقوا إلى الخدمة العسكرية بصفة جنود مكلفين، وعلى هذا تمّ اختيار ثلاثة منهم (بديع، إسماعيل، مروان)، وكان الثلاثة طيارين زراعيين شبابًا، التحقوا بالجيش جنودًا مكلفين، ثمّ احتياط، نُسبوا إلى طيران الجيش، وكانوا ثلاثتهم من خيرة معلّمي الطيران، ترك مروان العراق في التسعينات، وأعقبه بديع الذي ترك الطيران ليعمل في الإمارات، واستمرّ إسماعيل في الطيران قريبًا من عام 2020، جرى نقلهم إلى الشعبة، نواة تشكيل رفّ الحرب النفسية من طائرتين سميتيّتين (MI 2) واثنين جنح ثابت (PC 7)، والقرار على اختيار الرائد الطيار محمد عبد الرزاق⁵⁹ أمرًا للرف.

كانت البداية صعبة، والتنفيذ معقّد لقلّة معرفة ضباط الاستخبارات بمحددات الطيران، إذ لا يقوى الطيار على مناقشة

59. محمد عبد الرزاق، طيار هيلوكوبتر قدير، خرّيج إيطاليا، طار على أنواع من الطائرات السميتية، جريء، مخلص في عمله، اجتماعي، أُحيل على التقاعد برتبة عقيد.

ضابط الاستخبارات لما يتعلّق في حتمية البقاء على وضع التحليق الثابت (Hover) على ارتفاع محدّد لتنفيذ البتّ تجاه الخصم، عندما لا يساعد اتجاه الريح ودرجة الحرارة على التنفيذ، أمرٌ أو واقع محدّدات قد يفسّره رجل الاستخبارات مشغّل المعدات عدم الرغبة، أو الامتناع عن التنفيذ، ويفسّر الطيار إلحاح المشغّل بوجوب التنفيذ من دون حساب المحدّدات، تدخّل في الشؤون الفنية التي قد تعرّض الطائرة والطاقم إلى الخطر، عندها تمّ استحصال موافقة المدير العام لإدخال مدير الشعبة، وضابطين من آمري المفارز دورة لدراسة وتعلّم الطيران في القسم الزراعي، تبدأ ساعاتها قبل بدء الدوام الرسمي، أو بعدها أحياناً، وقد أكملت المرحلة الأولى للطيران الأحادي (الصولو) لمدير الشعبة في تسعة عشر يوماً، تعتبر مدّة قياسية جدّاً، ساعدت المعلومات المسبقة عن الطائرة وأصول الطيران، وبعض الممارسات العملية للطيران التي يسمح بها الطيار إبان مراحل العمل قبل دخول الدورة رسمياً على تحقيق هذا الإنجاز، وفي المحصلة أكملت كمدير للشعبة المنهج، وعدد ساعات الطيران الأساسية، وأديت الامتحان العملي، والتحريري للحصول على شهادة الطيران التجاري، ولم يكمل الضابطان الملازمان ذلك البرنامج، عندها دُلت كلّ المصاعب، فالطيار ومساعداه صارا خبيرين في التعبئة لاستخدام المعدات النفسية.

الطيران النفسي

اكتمل رفّ الحرب النفسية، وصار مقرّاً له في المطار الزراعي الذي انتقل من "أبو غريب" إلى مكانه الجديد في بعقوبة شرق بغداد، وسهّل وجود أربع طائرات للانتقال، والتنقّل ومشاركة الجهد النفسي في عموم المعارك التي تحصل، وتطوّر

في الوقت ذاته، وتفهم الضباط القادة ماهية هذا الجهد الاختصاصي، وبدأوا يطلبونه في بعض الحالات، وبدأت الأكاديميات العسكرية تضعه في مناهجها، وخطت الشعبة خطوات حثيثة لتغطية الحاجة إلى التدريب والعمل الميداني.

كانت التطورات الحاصلة في المعارك الدائرة متأرجحة، أو ممتدة من النجاح إلى الإخفاق، ومن الهجوم إلى الدفاع حتى الانسحاب القسري، إحدى صفحات الحرب كانت واردة، ألزمت الجهد النفسي، التحوّل السريع في إنتاج صيغ النداءات الموجهة إلى الخصم، والمنشورات، كانت أول عملية إلقاء منشورات مباشرة من قبل الشعبة (خارج إطار القوّة الجوية) على المواضع الإيرانية الأمامية، أخذت لها صدى واسعاً في القيادة العامّة، والقيادات الميدانية، تلك التي تمّت بعد تشكيل الرفّ وسلسلة الخسائر المعنوية التي بات فيه الجيش العراقي يفقد تفوّقه المادي والمعنوي على الجيش الإيراني، والتي بدأ على إثرها صوت الطلب الخاصّ بالجهد النفسي يتعالى في عموم الجيش الذي تعودّ قاداته عدم الالتفات إليه جهداً داعماً في أوقات التفوّق وتحقيق الانتصارات، وهنا تجدر الإشارة إلى أنّه، وبعد انتهاء معركة المحمّرة، وحصول الجيش الإيراني على زخم معنوي بعد استعادة المدينة، توجّه إلى الاستفادة منه في تنفيذ سلسلة هجمات على الدفاعات العراقية، بيّنت تقارير الاستخبارات التعبوية وضع منطقة الأهوار من جهة مدينة العمارة هدفاً يراود من تحقيقه الوصول إلى الطريق العام عمارة بصرة، وعزل القطعات المدافعة جنوباً، وبيّنت صور جويّة وجود حشود، لا تبعد كثيراً عن خطّ الحدود الذي لم تخزقه قوّاتهم حتى ذلك التاريخ، فتّم ترتيب أول عملية إلقاء منشورات بشكل مكثّف ومباشر على تلك الحشود، إذ طُبِع منها باللغة الفارسية أكثر من مليونيّ نسخة، حملت إلى جناح طيران الجيش في البصرة، ومنه

إلى طائرة سمنية (MI 8) بقيادة الرائد الطيار إسماعيل، استمع الطيار إلى إيجاز نفسي قُدّم من مدير الشعبة (14) في غرفة الحركات، وقُدّم من جانبه خطة للطيران وآلية إلقاء يدوية من على ارتفاع (3000 متر)، يعتقد أنه أكثر أماناً بالتأسيس على تقارير استخبارات تؤكّد عدم وجود صواريخ (أرض/جو) في المنطقة، تقدّم هو ومساعدته إلى الطائرة التي حملت المنشورات، أوجز اثنان من الفنيين بعملية الإلقاء اليدوي، نصّح أولاً بعدم مشاركة مدير الشعبة في المهمة، لخطورة الطلعة الجوية التي تعدّ الأولى فوق القطعات الإيرانية، لكنّه قَبِلَ، أو تغاضى عن الإلاحاح في المشاركة، مجاملة لسلطة الاستخبارات الأقوى في الجيش.

أقلعت الطائرة بالساعة الواحدة صباحاً، اتّجهت شمال شرق، أطفأ الطيار جميع مصابيح الإشارة، واستمرّ في الطيران تسلّقاً لعشرين دقيقة، بلغ في نهايتها الارتفاع الآمن، اجتاز عنده حافة الدفاعات العراقية الحدودية، استمرّ من بعدها عشر دقائق أخرى حلّق فيها فوق تلك الحشود الإيرانية، دار في آخرها تجاه اليمين، ليكون في خطّ مستقيم، فتح مساعد الطيار إشارة بدء الإلقاء يدوياً، بصيص ضوء مصباح خافت وسط الطائرة، استمرّ العمل السريع ثلاث دقائق حسب الخطّة، كانت طويلة نفسياً، وكانت العملية جريئة، مُنح على إثرها الرائد قائد الطائرة ومساعدته نوط الشجاعة.

في اليوم الثاني بدأت المعركة بتعرّض القوات العراقية على تلك الحشود، أسّرت عدداً من الجنود الإيرانيين، كان بعضهم يحتفظ بنسخ من المنشورات الملقاة على مواضعهم، الأمر الذي شجّع القادة الميدانيين إلى طلب المزيد من المنشورات، والجهد النفسي كنوع من الدعم، لكن استخدام سلاح المنشورات في المعارك ليس بالأمر الهين، أو التقليدي، إذ يحتاج أولاً إلى

المعلومات الاستخبارية (حقائق) لتكوين فكرة المنشور، ثم كتابته باللغة العربية معبّرًا عن الغاية خطوة ثالثة، تليها رابعة ترجمته إلى اللغة الفارسية، ومن ثم طبعه خطوة خامسة، وأخيرًا نقله إلى القاعدة الجوية الأقرب إلى ساحة المعركة، ولأنّ الموقف بعد عام (1982) صار يتغيّر بالساعات، والمعنويات لكلا الجانبين صارت تتبدّل سلبيًا وإيجابيًا كذلك بالساعات، فأصبح المنشور الذي يتعامل مع جنود العدو وهم في حالة دفاع، لا ينفع بعد إتمام وصوله إلى الطائرة، وتحوّل الموقف إلى الهجوم، لذلك خطت الشعبة خطوة أكثر عملية، بتشكيلها مجموعة عمل ميداني متحرّكة، قوامها حافلة (ريم) اشترتها المديرية من منشأة صناعة السيارات في الإسكندرية، حوّرتها إلى غرفة مقرّ، وطابعة ميدانية، وستوديو تسجيل النداءات، ومخزن للورق والمعدّات، يمكنها التحرك مع المفارز الأرضية والجويّة إلى القاطع الفاعل لتعسكر في المكان الآمن الأقرب إلى ساحة المعركة، أو في جناح الطيران القريب منها، وبالتنسيق مع استخبارات الفيلق والشعبة (13) للتعرف على تطوّرات الموقف، وسير المعارك التي على أساسها تعدّ المنشورات، وتُترجم، وتُطبّع موقعيًا وتُلقى من الطائرة (PC7) التي تبدأ طلعتها حسب الخطّة، أمّا النداءات فتهيئتها عمليًا هو الأسهل، إذ تعدّ وتُترجم وتُسجّل في أشرطة من قبل الطاقم المتواجد في سيارة القيادة، تُسلّم نسخ منها إلى المفرزة الجويّة (السمتية) عند اقتصار البثّ جوًّا، أو إلى المفارز الأرضية الثلاثة في حال اقتصار العمل بريًا، أو لكليهما عند الحاجة.

في السنين الثلاث الأخيرة للحرب صارت غالبية العمليات النفسية سلسلة، لا يستغرق إنجازها سوى ساعات، بالمقارنة مع بدايات العمل النفسي في السنين الأولى التي كان الإنجاز يتطلّب أيامًا، ومع هذا بقي جهّدًا، وعلى الرغم من الحاجة إليه والسير

في طريقه تجاه التطوير، يعاني العديد من المشاكل وردود الأفعال غير المتوازنة من بعض القادة الميدانيين، المنفعلين على وجه الخصوص.

في معركة الفاو الأولى (1986)، ويوم كانت رحاها تدور بشدة وقسوة، أرسل الفريق ماهر عبد الرشيد قائد الفيلق الثالث، وهو في وضع الدفاع شرق البصرة، في طلب مدير الشعبة الذي فتح له مقرًا جوالاً ضمن حدود ذلك الفيلق، طالبًا تنفيذ واجب توجيه النداءات من المفارز الجوية والأرضية إلى أهالي البصرة، تشديد بدوره وبالفيلق في القتال لحمايتها من العدو الفارسي المجوسي (حسب تعبيره)، فكانت الإجابة أنّ التعامل مع المدنيين العراقيين ليس من مهامّ الجهد النفسي الاستخباري الذي يركّز على العدو، عندها غضب الفريق، أكّد أنّ عدم التنفيذ عصيان للأوامر، جرت محاولة التخفيف من غضبه بالتأسيس على معرفة سابقة، وشرح سياقات التنفيذ وأساليب العمل، ردّ بشكل عصبي، مانعًا العمل من قاطعه، على إثرها تمّ تحويل المقرّ الجوال للشعبة جوار مقرّ الفيلق السابع، والمباشرة من هناك، وبعد يومين من الحادثة، اتّصل المدير العام هاتفياً، طلب مواجهته في مقرّ القيادة العامة المتقدّم، سأل عن مسألة عصيان أوامر قائد الفيلق الثالث، تفهّم الرجل الجواب، وأكّد على صحّته، وعند الاستفسار منه أجاب أنّ الفريق ماهر كتب برقية سرّية وفورية إلى القيادة العامة ووزير الدفاع، يطلب إحالة مدير الشعبة (14) إلى محكمة عسكرية بسبب عدم تنفيذ الأوامر أثناء الحرب، لكنّ الوزير الذي كان موجودًا في مقرّ القيادة العامة لم يعر اهتمامًا للطلب، وبهذا الصدد يمكن القول إنّ طلب الفريق ماهر كان شخصيًا، بقصد التمجيد لذاته والدعاية لنفسه وقيادته الفيلق، وسعيًا منه للحصول على أهمية أعلى من الاستحقاق في المعركة، جاء منه شخصًا انفعاليًا، لم يتعظ، إذ عاود دعاوى

القدرة والأهمية في الحسم بمعركة الفاو الثانية (1988) التي قاد فيها فيلقه السابع المحور المحاذي إلى شط العرب وقاد الحرس الجمهوري، الفريق أياذ فتّيح الراوي في المحور الساحلي، الذي حسم أمر الهجوم وتحقيق انتصار سريع، وكان ماهر في طلبه لم يحسب حساب شخصية صدام التي لا تقبل المنافسة في جوانب الدعاية الاستعراضية حتى مع أقرب المقربين إليه، وبالتأسيس على هذا التوجّه، وأمور أخرى داخل قيادة الفيلق، تنبّه صدام إلى أمر ماهر، حتى إنّه، وبعد انتهاء المعركة التي اعتاد صدام في نهايتها تكريم القادة، كرّم أياذ فتّيح (27) نوط شجاعة، بينما كرّم ماهر نوطاً واحداً بان في وقته يتيمًا، وبان وجه ماهر في التلّافز ممتعضًا، وعلى إثره تداول الضباط المكرّمون حديثاً (غير موثوق) من أنّ ماهر بعد التكريم غضب، وربّما قد استند في غضبه، أو عدم رضاه على أساس القرابة مع صدام الذي زوج ولده قصي من كريمة ماهر، علماً أنّ شخصية ماهر هذه تختلف عن شخصية أقرانه، وأهل تكريت، بينهم عدنان خير الله الذي وإن كان الأقرب إلى صدام، لم ينسّق إلى ما كان يتداوله الشارع العراقي وبعض الحزبيين على المستوى الخاص، من تمنّيات إبان تكرار خسائر الجيش العراقي في الحرب بعد عام (1982) أن يستلم عدنان الحكم، وقد استمع جيّدًا إلى مشورة نفسية قدّمتها اللجنة النفسية للوزارة بضرورة تقليل ظهوره الإعلامي الذي كان فيه يحقّق المزيد من التقدير والتمنّي، إذ كان متقنًا لصناعة الإعلام بشكل جيّد، رسالة تلقّفها بذكاء، واستجاب لها تمامًا.

مآل الجهد النفسي

لقد حقّق الجهد النفسي الاستخباري مهامّه في الحرب بالقدر المقبول، ومع هذا لم يؤمّن الطموح الذي كان موجودًا في عقول

المختصين، لأنّ المسافة العلمية بين أولئك المختصين، وبين القادة العسكريين كانت بعيدة جدًّا، بسببها لم يلقَ هذا الجهد الدعم الكافي للجهل بأصوله، وعدم الاقتناع بتأثيراته، القادة لم يدرسوه في الكليات العسكرية والأركان من قبل، إذ إنّ تدريسه الأوّلي حصل بعد الحرب، وهم بوجه عام لا يقرأون عنه كما هي قراءتهم في العلوم العسكرية الصرفة، لذا تحمّل المختصّون وضباط الشعبة (14) مسؤولية التخطيط للعمليات النفسية طوال الحرب وتسويقها، وتنفيذ المهام بمبادرة ذاتية وإدارة لا مركزية، إذ من النادر أن يطلب مقرّ المديرية تنفيذ مهمة محدّدة، ومن النادر أيضًا أن يضع العمليات النفسية في خطته الاستخبارية، كذلك لا تضع الشعبة (13) التي تدير الاستخبارات مع إيران حسابًا للاستخبارات والعمليات النفسية، كان في كثير من الأحيان يتفاجأ المدير العام بتواجد مدير الشعبة (14) في ساحة المعركة التي يتواجد هو فيها، أو مقرّها الجوّال قريبًا من مقرّه، وكان أغلب القادة الميدانيين يتجنّبون الخوض في تفاصيل الجهد النفسي، لذا تقتضي الضرورة العلمية في هذا الشأن الإشارة إلى ثلاث حقائق:

الأولى: إنّ هذا الجهد لو لم يتأسّس في الاستخبارات العسكرية التي تمتلك سلطة قوية على القادة الميدانيين، لم يحقق ذاك النجاح الذي حقّقه، وإن كان يسيرًا بالمقارنة مع باقي الاختصاصات والصنوف.

الثانية: لا يمكن تحقيق أكثر مما تحقّق لعدم وجود بنية تحتية للجهد النفسي في الجيش، ولا استعدادات نفسية لتقبّله عند القادة بشكل عام.

الثالثة: إنّ الجهد النفسي المبذول كان كبيرًا بالمقارنة مع الإمكانيات والتسهيلات المتاحة، ففي الذكرى السادسة للحرب على سبيل المثال أعدّت الشعبة خطةً للبتّ الميداني، نداءات على

طول الجبهة بدأت مفرزتها الجوية بالإقلاع من أربيل الساعة السابعة صباحاً، لتبدأ بتوجيه النداءات من منطقة بنجوين، نزولاً إلى الجنوب قاطع خانقين، ثم الكوت فالعمارة، انتهاءً بقاطع البصرة، لتسجل عشر ساعات طيران شبه متواصلة تفوق القدرة التقليدية لتحمل الطيران السمتي، وتحركت المفارز الأرضية الثلاثة على محوري الوسط والجنوب، ومع ضخامة الإنجاز هذا، كان العمل يتلقى انتقادات غير منطقية من بعض القادة الميدانيين عندما يواجهون مواقف صعبة، وتضعف معنوياتهم على وجه الخصوص، حقائق تفرض حقيقة رابعة، قوامها أن الرفض لهذا الجهد والتأييد مرتبط في الغالب بأمزجة القادة والأمريين، ونتائج المعركة الدائرة، فعندما تحصل خسارة في معركة ما، وتهبط المعنويات ويزداد القلق والخوف من القائد العام على سبيل المثال يحاول بعضهم رمي التبعات على الجهد النفسي، ويوم يحققون نتائج إيجابية، وترتفع المعنويات، يسجلونها حاصلًا لجهودهم وقطعاتهم، وعلى العموم كان القليل منهم يوجه انتقاداً علنياً في المناقشات الجارية، وكان أقل القادة الميدانيين انتقاداً للعمل النفسي التعرّضي، هم قادة الحرس الجمهوري، الذين بات أغلبهم في السنة الأخيرة للحرب يطلبون تخصيص جهد نفسي داعم في معاركهم التي يخطّطون لها مع الإيرانيين، وهم الوحيدون الذين درجوا المعنيين به وطيّاري المفارز الجوية في قوائم التكريم (نوط الشجاعة).

وما دام الأمر يتعلق في مجال التقويم والمال، لا بد من الإشارة إلى أن الجهد النفسي، وطوال مدة الحرب، عمل في الغالب بشكل يكاد يكون فيه منفصلاً عن الجهد القتالي البري والجوي، أو تعبئته التقليدية، ففي الجو عادة ما تعمل الطائرات المقاتلة النفائة منها والسمتية مثلاً، في تشكيل قتالي من طائرتين أو أكثر بغية تأمين الحماية، والتنسيق الصحيح مع الدفاع الجوي،

الذي يوجّه تلك الطائرات إلى أهدافها، وينبّهها في حال وجود أخطار معادية، أمّا الطيران النفسي فكان يعمل في الغالب منفردًا وغير مسلح، وقد واجه بسببه مواقف صعبة، وخسائر ليست هينة، ففي معركة حلبجة عام (1988) توجّهت طائرة من رفّ الحرب النفسية (7 PC) نفّذت واجب رمي منشورات على القطعات الإيرانية الهاجمة منفردة، وبعد انتهاء الواجب وفي طريق العودة، تعرّضت إلى رمي من طائرات إيرانية، من دون علم من الطيار بوجودها، فسقطت الطائرة في بحيرة دربندخان، واستشهد قائدها الملازم الأوّل الطيار، وبعد انتهاء المعركة واستقرار الوضع في المنطقة، أرسلت الشعبة غوّاصين بالتنسيق مع استخبارات الفيلق الثاني، وقيادة القوّة البحرية، تمكّنوا من إخراج جثمانه من قمرة القيادة، ونقله إلى الأهل لدفنه شهيدًا، وفي معارك الفاو الثانية، اقتربت الطائرة السمتية بمعدّاتها من حافّات الخصم لمسافة تصل إلى مئة متر على وجه التقريب، كان فيها الإيرانيون قد حقّقوا خرقًا في الدفاعات الأرضية لم تبلغ عنها الطائرة بعد إقلاعها من مهبّطها في أمّ قصر، وعند التقرّب لأخذ الوضع التعبوي للبتّ (التحليق الثابت) ظهر جندي إيراني يوجّه قاذفته صوب الطائرة، لكنّ الطيار كان ذكيًا وذا حساسية عالية، فاستجاب لها بالدوران السريع مع الانخفاض حدًّا كادت تلامس إطاراتها الأرض، فمرّت القذيفة فوق مراوحها بقليل، وفي معارك شرق العمارة تمكّن جنود إيرانيون من اختراق القطعات وعبور طريق بصرة عمارة، والتسلّل مسافة داخل الهور، ولم يجرّ إخبار المفرزة عند طلبها التحليق في المنطقة، وعند المرور فوقها بطيران واطئ أطلق جندي إيراني متسلّل النار على الطائرة، سأل الطيار، ماذا نعمل واحتمال وجود متسلّلين آخرين أو قناصين؟ فكان الردّ لم نمتلك على متن الطائرة أيّ سلاح للردّ، وعند الاتّصال بقاطع طيران الجيش في العمارة

لم يستجب بإرسال طائرة مسلّحة لأغراض تأمين الحماية، لانشغال جميع طائراته بالمعركة، عندها استمرت الطائرة في طيرانها، وقبول عدّة إصابات في بدنّها لم تعقّها من إتمام المهمّة.

مشكلة الاختيار والتنسب الاستخباري

إنّ الاستخبارات مثلها مثل باقي وحدات الجيش وقياداته، كانت تعاني من أزمة اختيار المديرين المناسبين لإدارة الجهد الاستخباري مهنيًا ونفسيًا بعد اعتماد الحزب معيار الولاء أسبقية أولى في الاختيار، إذ تبين النظرة الفاحصة لمهنية وكفاءة المديرين التي تمّ العمل معهم، أو معاصرتهم، أنّهم يختلفون كثيرًا من حيث الأهلية لإشغال المنصب، فكان عبد الله الحديثي على سبيل المثال مهنيًا جيّدًا، وعقلية استخبارية وقيادية مرموقة، وكان خليل العزاوي الذي استلم من بعده كفوًا في جوانب الإدارة والاستخبارات، داعمًا لجهد المديرية العلمي والفنيّ وكذلك على مستوى الجيش، عُرف بتخطّي الروتين وتحمل المسؤولية، عرضت عليه الشعبة الفنية شراء بدّالة إلكترونية حديثة من شركة (هرتز) الأمريكية، بسعر كان في وقتها عاليًا بمقاييس سبعينات القرن الماضي، وكان هناك تردد في شرائها، لأنّها أمريكية، وسياسية الدولة والحزب لا تتوافق مع الأمريكيان، وتخشاها استخباريًا، ولأنّ نصبها يحتاج فنيًا تجاوز مشكلة الرقم الدوار (Rotary number)، أي مجموعة خطوط هاتفية عامّة تربط عليها البدالة كي تحوّل المكالمات آليًا حسب التسلسل، وتفادي الإشارة "مشغول"، حال وصول إضبارة المشروع على مكتب خليل أرسل على مدير الشعبة الفنيّة، استمع إلى شرحه الفنيّ، والاستخباري بتأنٍ، هاتف من بعدها رئيس هيئة الاتصالات، حصل منه على موافقة تزويد المديرية بأربعين خطّ

هاتف أَرْضِي، ثمّ التفت صوب مدير الشعبة، قال الآن حُلّت المشكلة الفُتَيّة، وسأحلّ المشكلة السياسية، وعليكم كمهندسين عدم الركون إلى التخمين والسعي للتأكّد من احتمالات الخروج الاستخبارية، أرى ضرورة السفر إلى الشركة خلال أسبوع وإتمام عملية الشراء، فكانت هذه البدالة متعدّدة الأغراض هي الأولى التي تدخل العراق، وكان نصبها وتشغيلها قفزة في موضوع الاتصالات.

خليل ضابط احتياط في الأصل، بعثي بدرجة حزبية عالية (عضو مكتب عسكري)، عمل في المديرية ضابط أمن برتبة نقيب، ثمّ رُقّي ليكون مديرًا لها، مرّئًا- وثاقًا من نفسه والعاملين معه، متواضع، طوّر عملها كثيرًا، حتى عدّ زمنه فيها هو الذهبي، أُحيل على التقاعد في التسعينات، ليجلس في بيته، أسوة بعدد من حزبيي الجيل الأوّل، كان شخصية مرحة، قال يوم اشتدّ عليه المرض وضمنك الحياة خلال إقامته في الأردن بعد عام (2023)، وقبيل وفاته بقليل: إذا كان صدام في الجنّة فأنا شخصيًا لا أريد دخولها، يعتقد جازمًا أنّ نقله من المديرية وإحالاته على التقاعد كان بتدبير من صدام، الذي بدأ مساعي مغلفة لنقل وحصر القادة الحزبيين المحسوبين على البكر، الرئيس الذي لم يدرك أبعاد تلك المساعي، وقال عن نقله إلى المؤسسة العامة إلى السياحة، كان كمينًا قد نصب، كون المؤسسة آنذاك معروفة بكثرة التجاوزات الأخلاقية في محيطها، أمّا عن نقله إلى محافظ الكوت، قال في لقاء معه مستهزئًا أنه (للزحلقة بگشّ موز).

لقد تغيّر وضع المديرية بعد نقل خليل العزاوي، إذ تعاقب عليها ضباط ركن وقادة عسكريون، كان بعضهم ضعيفًا لا يتحمّل المسؤولية مثل اللواء الركن جسام الجبوري والفريق خالد الجبوري، قويت في زمنهم المحاور والتكتلات، تبعًا لارتباطات

المعاونين والضباط الكبار بالجهات العليا ومديات القرابة مع صدام، وأفرد بعض الحزبيين في اعتدادهم بالذات، وكوّنوا وجهات، وكان بعضهم تنقصه الخبرات الاستخبارية، مثل محمود شكر وعبد الجواد ذنون، حاولوا عسكرة المديرية، فضيعوا جهدها الاستخباري.

في زمن العسكرة، تَمَّت متابعة قس يُشكّ بكونه عميلًا مزدوجًا، وأنّ له علاقات مشبوهة، فافترحت المعاونة الأمنية زرع شقّته بأجهزة تنصّت وتصوير، واستحصلت الموافقات اللازمة لذلك، وأحالت الأمر إلى الشعبة الثامنة التي أنجزت المهمة، صوّرت وسجلّت لمُدّة زمنية، بان طوالها القس صاحب علاقات نسوية متشعبة، وعند عرضها على المدير غضب وأرسل على مدير الشعبة، أنبّه قائلاً (ما تخافون من الله تمسون أعراض الناس)، كأنّه لا يعلم طبيعة العمل الاستخباري لا يتماشى ومسائل الأخلاق، وتعاقب على إدارتها ضباط لا يُحسبون مناسبين من النواحي النفسية الاستخبارية، لم يمكنوا في إدارتها طويلاً، بينهم ماهر عبد الرشيد واللواء وفيق السامرائي وإن عمل فيها وهو برتبة ملازم.

وفيق ضابط استخبارات كفوء في بعض جوانب الاستخبارات خاصّة التحليل، خرّيج الكلية العسكرية بدورتها الخامسة والأربعين، جُلّ خدمته العسكرية قضاها في الاستخبارات، عمل أمر مركز استخبارات الكوت، ثمّ ضابط قسم إيران في الشعبة الأولى، ثمّ مدير شعبة إيران (13)، بعدها معاون المدير العام للاستخبارات، نُقل منها إلى الفيلق السابع، ليعود إليها بمنصب معاون، وبعد نقل المدير العام اللواء الركن صابر الدوري إلى مدير عام جهاز المخابرات، عُيّن وفيق مديراً عامّاً لها بترشيح من صابر، الذي ورد على لسانه، أنّ وفيق، وبعد أسابيع من استلامه المنصب كتب تقريراً إلى صدام ينتقد

فيه جلّ فترته، ويتهمة ببعض جوانب التقصير، فما كان من صدام إلا استدعاء صابر عاتباً عليه ترشيح وفيق كمدير عام، وأطلعه على محتويات التقرير، وأمر بمغادرة وفيق المديرية إلى البيت حيث لم يمضَ في المنصب أكثر من شهر، بقيَ من بعدها قلقاً حتى غادر هو وعائلته بغداد منتصف التسعينات، هارباً إلى السليمانية، ومنها إلى لندن، ليعمل في المعارضة العراقية، لكنّه لم يُحسَب على أحد الفصائل، بقيَ مستقلاً قريباً من المؤتمر الوطني، والأكراد، كتب بعد هربه عدّة رسائل إلى ضباط من أقاربه في سامراء، تمّ كشفها، فأعدم بعضهم، ممّا أثار الضدّ منه، وصعّب عليه العودة إلى سامراء حتى بعد الإطاحة بصادم، على الرغم من عمله مستشاراً للرئيس الجمهورية جلال الطالباني، وإعادته إلى الخدمة برتبة فريق أوّل.

وُصِف وفيق بالذاتية المفرطة، وتفضيل المصالح الشخصية، ومسايرة الأعلى والأقوى حتى بات مثار خلاف، وانتقاد الكثيرين حتى وفاته عام (2022)، ووُصِف بصاحب الذاكرة القويّة، والقدرة على الكتابة التحليلية، ووُصِف كذلك بالطائفية، إذ أصدر بعد أيّام من استلامه إدارة المديرية عام (1991)، أمراً بنقل مجموعة (قائمة طويلة) من الضباط والمراتب خارج الاستخبارات، كان غالبهم من الشيعة، اتّهمه بعض القريبين منه بالاستعداد النفسي للتنكيل بأيّ ضابط يُعتَقَد احتمال وقوفه في الطريق إلى صعوده، حتى تردّد في المديرية أنّه، ويوم كان معاوناً للمدير العام، كتب مطالعة إلى صدام (عبرها عن طريق عبد حمود الذي كانت له علاقات معه خارج إطار سلسلة المراجع)، طلب فيها إعادة صديقه المقدم الركن حسين السامرائي، الملحق العسكري في لندن إلى المديرية، ولم يمضَ عليه في المنصب سوى عدة شهور، كتب في مطالعته أنّ حسين يحمل معلومات عن الوكلاء وشبكات التجسس في إيران التي

تديرها المديرية، ممّا قد يجعله هدفًا للاستخبارات الإيرانية، قد يؤدّي اختطافه في الساحة البريطانية إلى اكتشاف أمر تلك الشبكات وخسارة المديرية لمصادر معلومات مهمّة، لكنّ حسين لا يرى ذلك، يعتقد أنّه حقّ أريد به باطل، بقصد إيذائه، ويعتقد أن لا أساس استخباري لنوعية المعلومات التي كان يحملها، ويدعم وجهة نظره هذه بالقول: لقد استدعاني وسيق إلى المديرية كمعاون ترتبط به الملحقيات، أخبرني بقرار الرئيس إعادتي من دون التطرّق إلى مطالعته، رجوته العودة إلى الملحقية لعدّة أيّام بغية تصفية التزاماتي والذمّة المالية والإدارية، ونقل عائلتي، رفض ذلك بحجّة الخشية على حياتي، وأقنع المدير صابر بالرفض خشية عدم عودتي، ويضيف حسين في هذا الشأن، أنّ وسيق لم يتركه، إذ تدخّل في نقله من الاستخبارات إلى مديرية التخطيط، ومتابعته أمنياً، وزرع لاقطات في مكتبه، وقد صادف إحدى المرّات تواجد ضباط من أصدقائه القريين جالسين في المكتب، يتبادلون أحاديث عامّة، بينها حديث عن عدي فيه نقد لاذع، تلقّف وسيق التسجيل مفصّلاً، أرسله إلى الرئاسة التي أحالته والمجموعة⁶⁰ إلى محكمة الثورة التي حكمتهم بالإعدام في 1988/10/24، بقوا في السجن الانفرادي بانتظار التنفيذ، وإلى حين شمولهم بالعفو نتيجة توسّط الفريق إسماعيل تايه النعيمي.

وعلى السياق ذاته، يؤيد العميد الركن بسام عبد الكريم الملحق العسكري في بون وجهة نظر حسين في توجّهات وسيق غير السوية للتنكيل، ويقول إنّ وسيق قد تعامل معه بقصد الإيذاء على الرغم من عملهما معاً، وارتباطاتهما بعلاقات صداقة جيدة، ويضيف: لقد استدعاه وسيق من بون عندما كان ملحقاً عسكرياً

⁶⁰ ع. ر حسين علي السامرائي، ع. ر هاشم رشيد شاهين، ع. ر محمد سامي عبد القادر الراوي، العقيد البحري الركن دريد أحمد الشيخلي.

هناك، لمس في النقاش مقاصد ذاتية عدوانية، إذ ترك جميع القضايا المتعلقة واحتياجات الملحقية، وتمسك في موضوع وكيل إيراني (العميد الركن قوات خاصة المتقاعد محمدي)، الذي يُحسب وكيلاً نشطاً، بعد تأسيسه شبكة وكلاء في طهران ترتبط به وهو مقيم في ألمانيا، وأسّس إلى علاقات واسعة بزملاء له مستمرين بالخدمة في الجيش الإيراني، جمع عن طريقهم معلومات مهمة، ألحّ وفيق في ذلك الاستدعاء أن يتحوّل ارتباط محمدي إلى شخص إيراني يعمل وكيلاً له في أوروبا، وسأله عرضاً هل يستلم هذا الوكيل رواتبه بانتظام، وعند الإجابة عن الاستلام بنعم، والاعتراض على تغيير صيغة الارتباط لاحتمالات الكشف، كون الوكيل الجديد غير معروف من قبل الملحقية في ساحة عملها، أصرّ وفيق على رأيه، وأقنع المدير العام صابر لإصدار أمر بذلك، ويستمرّ بسام في توضيح موقفه بالقول: لقد نُقِّذ الأمر، وسُلم وكيله إلى وكيل المعاون الذي بات يراجع الملحقية مباشرة، ويجلس في الانتظار أوقات طويلة ومتكررة، على الرغم من تبليغه أن يكون اللقاء في أماكن متّفق عليها خارج الملحقية، هكذا استمرّ الوضع لشهرين، طلب من بعدها وفيق استضافة محمدي في بغداد لتقييم قدراته، وقد ذهب بالفعل، إلّا أنّه، وبعد عشرة أيام، عاد إلى ألمانيا، واتّصل هاتفياً من المطار طلب اللقاء على الفور، وتمّ له ذلك، وجده متعباً، كأنّ شكله قد تغير، ولمّا سأله عن الذي جرى في بغداد قال: لقد أخذه من المطار بطريقة تثير الشكّ، أسكنوه في مكان أقلّ من عادي، لا يتناسب ومنزلته وخدمته، بعدها جاءه شخص مهم يُدعى وفيق، ومعه عقيد ركن، سألوهُ سؤالاً فاجأهُ: هل استلم راتبه للشهر العاشر؟ ولمّا أجاب بالإيجاب، بقيا يناوران ويعيدان السؤال، ويؤكّدان كيف ومتى؟ وأخيراً طلبا منه صراحة الإجابة بالنفي لقاء منحه مبلغاً من المال، لاحظ حينها أنّ العقيد ماسكاً آلة تسجيل كان قد أخفاها في

ببريته (غطاء الرأس) عندها تيقن وجود قصد يتعلّق باستغلاله للإيقاع بالملحق، إذ إنّه، وبعد الإصرار على استلام الراتب، أعاده إلى بون، ولم يكتف بهذا القدر، فقد استدعى النائب ضابط قاسم المعني بتسليم الرواتب، سأله عن الموضوع، ولمّا أجابه بالاستلام، مارس عليه ضغوطاً وتهديداً بالنقل إلى الوحدات المقاتلة إذا لم يقرّ بعدم الاستلام. عاد قاسم من الاستدعاء ممتعضاً، حذر من نيات المعاون، وبات في حال قلقة ينتظر أمر النقل.

إنّ هذه القصة لم تنتهِ، إذ أكّد بسام حضور محمدي المفاجئ إلى الملحقية بعد أشهر من الاستدعاء، طلب قطع العلاقة مع الاستخبارات العراقية لانكشاف أمر شبكته في طهران، وإلقاء القبض على بعض أفرادها، وهرب بعضهم الآخر، لسبب يعزوه إلى ذلك الإيراني (وكيل المعاون) الذي يشكّ بعمله وكيلاً مزدوجاً لصالح إيران.

.....

إنّ معاناة المديرية لا تتوقّف عند الاختيار الحزبي لبعض المديرين كما ورد، بل وعانت أيضاً من وجود ضباط في هيكلها التنظيمي، اختيروا حزبياً، وهم بعقليات ساذجة مثل (عطية، عبد الاله، عبد الحسين، رزاق...)، وآخرين يعانون مشاكل نفسية حدّ الاضطراب (فكرت، وجاسم...)، وعانت، ولو على مستوى محدود، من استغلال الصفة وعدم ضبط الغريزة، بسببها تعرّض أحد الملحقين العسكريين في أوربا إلى محاولة اغتيال عن نجاته منها، قال: كان قد جُنّد طالبة إيرانية تدرس في الجامعة، وكانت تزور أهلها باستمرار، مهمّتها أثناء الزيارة الذهاب إلى صندوق بريد في طهران، لجلب الرسائل المكتوبة بالحبر السري من أشخاص يعملون وكلاء محليين هناك، وكانت الفتاة جميلة، حضر مدير الشعبة الأولى بقصد تقييمها، وبعد لقائها أكثر من

مرّة، صار يتردّد على الملحقة لمعاودة اللقاء، حتى تطوّرت العلاقة بينهما إلى المواعدة في بيت صديق، وبعد مدّة من تلك العلاقة المخفّة، اتصلت بالملحق عارضة اللقاء بأمر لواء ذي الفقار من الحرس الثوري، على أساس نيّته الانشقاق عن النظام، واستعداده للتعاون مع العراق، جاءت بالوقت المحدد في الشقّة المهيّأة استخباريّاً، ومعها شخص طويل القامة ضخّم، يرتدي معطفاً، حاول هو أخذ معطفه عند دخول الشقّة كنوع من المجاملة، وتماشياً مع التقاليد الأوربية، رفض بإصرار، وأثناء مشيه من باب الشقّة إلى مكان الجلوس في غرفة الاستقبال، انفتح المعطف قليلاً من دون دراية منه، فبانت غدّارة معقّلة تحته، وقبل الجلوس، استأذنه الغياب دقائق بغية جلب بعض مستلزمات الضيافة، وبعد مغادرة الشقّة اتّصل بالمعاون الذي كان يدير أجهزة التصوير والتّصنّت بالغرفة المجاورة، طلب منه إبلاغهما تأجيل الموعد إلى الغد بالساعة ذاتها لوجود طارئ، تابع الموضوع من بعد هذه الحادثة فتبيّن انكشاف أمرها، وتجنيدّها من المخابرات الإيرانية، وتكليفها بتسهيل عمل ضابط إيراني مكلف بتنفيذ عملية الاغتيال.

هذا، ويستمرّ مسلسل الإخفاقات، والأخطاء الاستخبارية، بعضها ظهر على السطح طافياً، وبعضها الآخر بقيّ طيّ الكتمان، والأهمّ ممّا ظهر قصّة المترجم العربي الأحوازي الذي استخدمته الشعبة (13) في البداية وكيلاً للتجسس على الأسرى الإيرانيين، وقرّبته فيما بعد ليكون مترجماً لها بدفع من مديرها وفيق، وراح أبعد من ذلك، أرسله مع مجموعة أطفال إيرانيين أسرى كانت المديرية قد عملت لهم استعراضاً وزيارات إلى مدن ألعاب بقصد الدعاية، وتعبير رسالة من أن إيران تجنّد أطفالاً لأغراض الحرب، وختمت فعاليتها هذه بتنظيم لقاء لهم مع صدام الذي طلب ذلك، وقد قام هو بالترجمة المباشرة، من بعدها تقرب

أكثر إلى وفيق الذي وثق به حدًا، سمح له التواجد والتجوال داخل أروقة الشعبة في بناية المديرية، وفي إحدى المرات كان واقفًا في الممرّ ينتظر الدخول إلى مكتب وفيق، مرّ جواره نائب ضابط كريم، كان قبل عشر سنين صبيًا يعيش مع والده الذي يعمل في الملحقة العسكرية بطهران، شكّ في وجه الواقف في الانتظار، وشكّ في معرفة الوجه وعدم غرابته، عاد للمشي قريبًا منه للتأكد من شكوكه، ومقارنة الوجه بالصور المحفوظة في مكبوتات خلايا عقله الشابّ، ظهرت على الفور صورة ذلك الصبّاغ المتمرّس للأحذية الذي اعتاد الجلوس كلّ يوم قرب باب السفارة العراقية في طهران مع معدّاته "البسيطة" لدهان أحذية الموظفين، وإثر ظهورها السريع توجّه على الفور إلى ضابط الأمن، قصّ عليه شكوكه وتفاصيل ذاكرته، فألقي عليه القبض، وتبيّن أثناء التحقيق أنّه نقيب في الاستخبارات الإيرانية، شكّل على إثرها مجلس تحقيقي برئاسة حسين كامل، فأدان وفيق، وأودعه السجن، لكنّ الفريق شوكت عطا ترجّى صدام للعفو عنه، وفعلًا عفا عنه، وأمر نقله ضابط ركن واجبات أركان في الفيلق الثالث، وعندما أخفقت المديرية في تحديد اتجاه الهجوم الإيراني على الفاو عام (1986) أُعيد وفيق إلى الاستخبارات، عُيّن معاونًا لصابر الدوري الذي تربطهما علاقة زمالة قويت أثناء الدراسة في كلية الأركان.

إنّ قصص الإخفاق والتقصير موجودة في عموم الأجهزة الاستخبارية، وكان الأشدّ أثرًا في الجهاز الاستخباري العسكري العراقي هو النكوص العلمي أحيانًا، أو التذبذب في النظرة إلى العلم وتسخيرها للأغراض الاستخبارية، إذ، وفي الوقت الذي شهد فيه النصف الثاني من السبعينات (زمن خليل العزاوي) فتح الفرص على مصاريحها لعشرة ضباط استخبارات من المديرية للدراسة المسائية بمختلف التخصصات العلمية واللغات في

الجامعات العراقية، وقف بعض مدراء الشعب والمديرين حجر عثرة أمام التطوير.

في اجتماع لمديري شعب الاستخبارات منتصف الثمانينات، طرح العقيد طلال مدير شعبة الحاسبة، فكرة حوسبة العمل الاستخباري، سأله مدير الشعبة (13) بقدر من الاستهزاء: إذا سألت الحاسبة، هل ستهاجم إيران على البصرة، يمكن أن تجبني أم لا؟ ردّ طلال باستغراب: أنّ الحاسبة تعطيك المعلومات التي تغدّي بها فقط، فردّ باستهزاء أكبر: إذن هي لا تستطيع، وما دامت لا تستطيع فأنا وشعبتي لا نريدها.

وفي حادثة أخرى تتعلّق بالإيفاد لأغراض إتمام الدراسة تنفيذاً لأمر الجهات العليا (الوارد ذكرها)، ماطلت المديرية (بتأثير بعض ضباطها في الرتب العليا) لما يتعلّق بالتنفيذ في بعض مراحلها كأنّها لا تريد، ولأنّ الاختصاص النفسي لا تفهمه قيادتها آنذاك، فتعتقد أنّه لا يفيدّها، وهي غير معنية به، إذ، وبعد إلحاح المراجع على التنفيذ، ورغبة للتخلص من التزاماته، شكّل المدير العام لجنة للنظر في الحاجة إلى تخصّص علم النفس، على الرغم من وجود خطّة للدراسات العليا سبق أن وافق عليها والوزير، كانت اللجنة برئاسة معاون المعاونة الأولى العقيد الركن صالح محيسن، ومدير الشعبة الرابعة الإدارية، والخامسة الأمنية، قرّروا، وبضغط من صالح، عدم الحاجة، فكتب المدير العام كتاباً إلى الوزارة بعدم الحاجة، جاء الردّ أنّ الجيش على المستويين القريب والبعيد بحاجة إلى هذا الاختصاص، إجابة عرضت مع الأوليات على معاون رئيس اللجنة، أبقاها تحت اليد مدّة ليست قصيرة، ثمّ صاغ إجابة أخرى قوامها أنّ المديرية في الوقت الراهن بحاجة ماسّة إلى تواجد مدير الشعبة الرابعة عشر في منصبه لخدمة الحرب، ولا يمكن الاستغناء عن

خدماته، كأنَّ الحاصل عنده، وربما عند المدير، هو أن لا تتم دراسة التخصص.

وفي قصص التعامل العلمي مع الواقع الاستخباري، كانت قصة ماهر عبد الرشيد إبان توليه مهامَّ المدير العام للاستخبارات هي الأكثر جهلاً، إذ طلبت رئاسة الجمهورية من الاستخبارات العمل على غسيل أدمغة الأسرى الإيرانيين، ردًّا على توجَّهات الإيرانيين في تنفيذ عمليات غسيل الدماغ للأسرى العراقيين، أحال ماهر الموضوع إلى الشعبة (14)، وبعد دراسته بالتشاور مع أطباء نفسيين في مستشفى الرشيد وأساتذة علم النفس جامعيين، وتنفيذ عدَّة زيارات ميدانية إلى أقفاص الأسرى الإيرانيين، كُتبت مطالعة إلى المدير العام، بينت صعوبة تنفيذ المهمة لعدم امتلاك الشعبة والجيش والقدرات العلمية للتنفيذ، وأوضحت أنَّ المصطلح إعلامي أكثر منه علميًّا، وأعطت مثالاً عن الجهود التي بُذلت مع الأسرى الأمريكيين في فيتنام، وثبت عدم جدواها، واقترحت أن يكون الحلَّ البديل، التركيز على التجنيد الاستخباري الفردي، مع إيجاد برامج ترفيه وإعلام لتغيير الاتجاهات جهد الإمكان.

طلب ماهر المداولة بشأن التقرير، سمع الشرح المفصَّل وإيضاح ما مكتوب، انفعَل قبل إتمام الشرح، وبات يشتم الفرس، ثمَّ عاد وأصرَّ بصيغة أمر تنفيذ المهمة، ولتنفيذها على طريقة إسقاط الفروض، صار القرار في الشعبة أن يكون المدخل دينيًّا، وبصيغة تفضي إلى حوارات، ولأنَّ منتسبي الشعبة وعموم الجيش لا يفقهون بالجوانب الدينية، وبالفقه الشيعي على وجه الخصوص، طلبت، أي الشعبة، من محافظي النجف وكرلاء العون بإرسال رجال دين لتقديم تلك المحاضرات وبإشراف الشعبة، وعند اللقاء بالوجبة الأولى منهم في مقرِّها، وإيجازهم بالسعي للبقاء في محاضراتهم ضمن الإطار الديني، ومن وجهة

النظر المذهبية الشيعية، من دون التقرب من السياسة، أظهرنا تفهّمًا واستعدادًا، ولتأكيد هذا التوجّه، أرسلت معهم النقيب عبد الأمير (مترجم اللغة الفارسية)، وهو ضابط من أهل الجنوب، قال عند عودتهم أنّ كليهما بدأ محاضراته حسب التوجيه، ولم تمض خمس دقائق، إلّا وانقلبا تجاه تعظيم الرئيس صدام وقيادته الأمّة العربية، فكانت هي التجربة الأخيرة التي أعيد في نهايتها المحاضران إلى ديارهم في النجف وكربلاء، وتبيّن لاحقًا أنّهما أعضاء قيادة فرقة في حزب البعث، وأنّهما غير قادرين على التوافق مع التوجيهات.

كما لاقت الشعبة (14) العديد من المصاعب في طريقها، فقد تمّ وضع ضوابط ترشيح للاستخبارات، بينها الفحص النفسي، في مختبر نفسي تمّ استيراده من النمسا لهذا الغرض، وهي، وإن نجت في بعض محاولات، لم تتمكّن من الحصول على أوامر وتعليمات يمكن الالتزام بها، ولم تنجح كذلك في فرض الفحص النفسي أساسًا للقبول في الكليات العسكرية والقوّة الجوية، والأركان وإن نُفذت أكثر من محاولة بنجاح، لسبب يعود إلى جهل القادة وتجاوز الحزب على الضوابط، وعدم استعداده للتنازل عن أغراضه الحزبية في مسائل النقل والتنسيب.

حرب التجنيد الاستخباري

ومع هذا، وأيًا كانت الإخفاقات والهناات الموجودة في معظم الأجهزة الاستخبارية، فقد حقّق الجهد الاستخباري نجاحات في مجال عمله لدعم الجهد الحربي، وكانت أكثر الأعمال نجاحًا ما قدّمته الشعبة الخاصّة بكسر الجفر في المعاونة الفنيّة، وجهود التنصّت على الإيرانيين واستراق مكالماتهم، وكذلك تجنيد طيّارين إيرانيين وإقناعهم بالهرب بطائراتهم إلى العراق، وكانت

العملية الأولى للطيار المدني في الطاقم الرئاسي الإيراني (على أكبر محمدي)، إذ تمّ الاتصال به من قبل الملحق العسكري العراقي في ألمانيا، ومن ثمّ اللقاء معه في فيينا العاصمة النمساوية عام (1986) أثناء تواجده هناك لنقل وزير النفط الإيراني المشارك في اجتماع منظمة الدول المصدرة للنفط (أوبك)، إذ قيل في ذلك اللقاء العرض المقدم له مليون دولار لجلب الطائرة الرئاسية (فالكون)، مع وعد إمكانية جلبها مع السيد رفسنجاني رئيس الجمهورية إذا سنحت الفرصة، وبعد أسبوع من دعوته من فيينا، تمّ تأمين الاتصال الهاتفي معه في طهران، بيّن فيه أن له سفرة خلال يومين من طهران إلى تبريز لنقل رئيس الجمهورية، وسينفذ المهمة أثناء العودة، لكنّ عودة رفسنجاني المفاجئة من تبريز بالسيارة أربكت الطيّار وزادت من قلقه، ودفعت به إلى الاتصال بالملحق، وطلب التنفيذ من دون انتظار فرصة أخرى يكون فيها الرئيس على طائرته، أعطى تفاصيل رحلة قام بها، وتوقيتاتها، وحدّد مطار الموصل جهة الوصول، طلب خلالها تقييد أسلحة مقاومة الطائرات، وقد وصل بالفعل.

والعملية الثانية لطائرة عسكرية فانتوم (F4) تمّ تجنيد قائدها الطيار (رحمان) عن طريق شقيق له يقيم في أوربا، نجح في الطيران بها على ارتفاع واطئ، والتّمّص من رادارات بلاده والهبوط بها في 30 آب 1984 مع مساعده في قاعدة علي الجوية في الناصرية، تفاجأ الطيّار المساعد، إذ لم تكن لديه دراية بالموضوع فهذّب بالانتحار، وافق صدام على إرساله إلى أوربا، وحصل الكابتن الطيار على المبلغ المتفق عليه مليون دولار، استقرّ هو وعائلته لمدة محدودة في بغداد، ومن بعدها نُقل إلى أوربا، وقد وردت بصدده روايتان، الأولى عن متابعته من قبل المخابرات الإيرانية وقتله في ألمانيا بعد مدّة قليلة من نقله إلى هناك، والثانية نجاحه في التحقّي، والإقامة في السويد.

أمّا العملية الثالثة فكانت لطائرة سميت شينوك، استطاع قائدها واثنان من طاقمها في 21 تموز 1985 من الهبوط بها في مدينة السليمانية.

والرابعة لطائرة (F 14) هبط طيارها ومساعدته في قاعدة علي بالناصرية، علماً أنّ المعاونة الأولى للاستخبارات تشير إلى أنّ مجموع الطائرات السميتية التي جُلبت بطيّاريها إلى العراق إبّان الحرب تسع طائرات.

وفي المقابل، وفي أجواء تلك الحرب السريّة، تمكّن الملازم الطيّار طلال من الهرب بطائرته (ميغ 21) التي أُلقي بها من قاعدة الشعيبية، وهبط في أحد المطارات العسكرية القريبة من عبادان، في أثناء الحرب شهدت جُلّ جبهات قتالها هرب ضباط ومراتب من الجيش العراقي إلى جانب إيران، كانوا مناوئين فكرياً، وعقائدياً لنظام صدام، أو من الذين سئموا الحرب، وكانت قرارات هربهم شخصية، إذ لم يرد في وقائع الاستخبارات العراقية ما يشير إلى تدخّل الاستخبارات الإيرانية في مسألة تجنيدهم، أو حتّهم على الهرب، علماً أنّ طلال قد

عمل بالسياسة المعارضة لنظام صدام داخل إيران، وصار مديراً لمكتب المؤتمر الوطني في طهران إلى موعد الاحتلال، حيث عاد، وعُيّن سفيراً في وزارة الخارجية.



الفصل السادس

جدران المعنويات الهشة



نقطة التحول الرابعة

لم تكن العلاقة مع عبد الجبار محسن قبل استلامه المنصب مديرًا لدائرة التوجيه السياسي منتصف الثمانينات على ما يرام، عبد الجبار تلك الشخصية المدنية التي اقتحمت جدران المؤسسة العسكرية بسلاح الكاتب المقتدر، كان موظفًا محسوبًا على الجناح اليساري (السوري) لحزب البعث قبل استلامه الحكم عام (1968)، غيّر من آرائه هذه، وعاد إلى الجناح الآخر (ميشيل عفلق)، واستفاد من قدراته الكتابية والأدبية الذي كان الحزب بحاجة إليها في أول طريقه بعد النجاح الحاسم للانقلاب، يبدو أنه حاز إعجاب صدام، الذي دعمه وأوصله بمدة قصيرة من موظف عادي إلى وكيل وزارة الإعلام، وعضو المكتب الثقافي القومي للحزب، وعضو في اللجنة العليا للحرب النفسية، لقد سهّلت شخصيته المرنة، المسالمة من سرعة الوصول، إذ كان هو المدني الوحيد الذي عُيّن بمنصب عسكري آنذاك، مُنح صلاحية لواء لأغراض الضبط والقيادة.

عبد الجبار خريج علم اجتماع، كاتب وإعلامي، يميل بشكل عام إلى التودّد للأعلى، والأقوى على وجه الخصوص، منطقي، يقدر العمل، يدعم المبادرة، يشيد بالأداء الجيد، أسلوبه في الكتابة أكثر من جيد، وإنتاجه للأفكار يفوق الجيد بكثير، يُلمّع في صورة السلطة عندما يكتب عنها، وقد أجاد في كتابة بيانات القيادة العامة للقوات المسلحة، إذ غالبًا ما كان يكتبها مسودة على الورق لا يعيد تصحيحها، آراءه بشكل عام وأفكاره لا تتعارض مع الكبار، يعرف ما يكتب ومتى يكتب، ولأنه عارف بذلك جيّدًا، كتب في قمة الانتكاسة المعنوية الأولى للجيش والدولة في معركة المحمرة عام (1982) مقالات عديدة أثارت الحماس، استهوت الكبار، راح من بعدها في درب التشدد أثناء الحديث وفي

الاجتماعات، غالى في توجيه الانتقادات، في أحد اجتماعات اللجنة العليا للحرب النفسية وجّه انتقادًا غير منصف للجهود النفسي في الجيش، أراد فيه تجنيب القيادات العليا إثم الخسارة النفسية لتلك المعركة، بسببها دار جدال في أثناء الاجتماع، أبدت فيه عتبًا شديدًا على طرح مثل تلك الأفكار التي تتناقض واختصاصه الأصلي في علم الاجتماع، تدخل الوزير لطيف نصيف جاسم في حينها لفضّ الاشتباك الفكري، ومع هذا لم يحقد عبد الجبار إثر خسارته معركة الجدال، بل وعلى العكس من هذا، ازداد حماسه في المجاملة، إذ، وبعد شهر من استلامه المنصب، دعاني واللواء الركن محمود شكر شاهين مدير الاستخبارات العسكرية لزيارة مقرّه، والتعرّف على سياقات العمل التوجيهي، رحّب بالقدوم، أشاد بالجهود النفسي للاستخبارات، نوّه عن نيات تطوير مثيل له في المجال المعنوي، أيّده محمود، وأبدى استعدادًا لمّ يدّ العون، وتقديم الدعم، التقت في وقتها إليّ، وأنا جالس على اليمين، قال قدّموا لدائرة التوجيه كلّ الدعم العلمي، والفني المطلوب، كان محمود جادًا، معروفًا بوطنيته، وعقليته الاجتماعية الريفية التي تميل بطبعها إلى تقديم العون، وقبل المغادرة حتّ جبار مدير مكتبه لإحضار هدايا شخصية، ساعات متنوّعة الأشكال والأثمان والأنواع، خمسون ساعة إلى اللواء محمود، وسبعة وعشرون لي مديرًا للشعبة (14) المعنية بتقديم العون، خرج من بعدها معنا إلى الممرّ الخارجي بقصد التوديع، مدّ يده مصافحًا بوّد الصديق، رجا زيارته ثانية على انفراد للتكلّم حول سبل الدعم التي وعد بها مدير الاستخبارات، وفي الأسبوع الثاني كانت هناك زيارة له، أحضر خلالها مدير مديرية البحوث والخدمات النفسية العقيد

عبد الإله الخزرجي⁶¹ ومديري شعبه، سيّر النقاش تجاه استخدامات علم النفس في القضايا المعنوية، وأوجه القصور في القياس والتعزيز، وبعد مغادرة المنتسبين عرض النقل من مدير شعبة (14) إلى مدير مديرية البحوث والخدمات النفسية، قال لقد وضعتم للجهد النفسي والحرب النفسية في الاستخبارات، أساساً يمكن السير على نهجه لمن يأتي لاحقاً، لكن التوجيه السياسي لم يرس قواعد عمل علمية في هذا المجال الحيوي، وهو الآن بأمس الحاجة إلى قواعد وأسس مثل هذه.

لم أعطِ ردّاً واضحاً في ذاك الحين، بل تركت الموضوع سائباً، أعاد الكرة بعد شهر وأمام الوزير لطيف هذه المرة، فأيدّه من دون نقاش، لكنّها مرت كسابقها انتهت من دون إعطاء الردّ الحاسم، وفي الطريق من وزارة الإعلام مكان اجتماع اللجنة إلى الشعبة (14) راح التفكير بعيداً، إلى موضوع الدراسة التي عرقلتها الاستخبارات، وإلى قناعة تكوّنت عن المستقبل المحدود للاختصاصيين، والفنيين في تشكيلاتها التي يحتمّ فيها العمل الفتيّ بقاء الضابط المختصّ منهم في الهندسة والطبّ وعلم النفس والاجتماع على سبيل المثال في المنصب التخصصي أوقاتاً طويلة، قد لا يزيد فيها عن مدير قسم، وفي أحسن الأحوال مدير شعبة، وهذا يتنافى مع التراتب والقدم العسكري من جهة، ويحول دون تحقيق النموّ الطبيعي للذات الوظيفية من جهة أخرى، على هذا، وقبل الوصول إلى المكتب، كان قد تبلور قرار للموافقة،

61. عبد الإله خرّيج الكلية العسكرية بدورتها الثانية والأربعين، فُصل منها وأعيد إلى الجيش بعد (17 تموز 1968)، اكمل خلال سني الفصل البكالوريوس في اللغة الإنجليزية، بعدها الماجستير في التربية، ميّال بطبعه إلى العمل الأكاديمي أكثر من العمل العسكري، سار في المسار الحزبي ليصل إلى مستوى عضو فرع عسكري، وفي الوظيفة محافظ ديمالي، أوقف بعد عام (2003)، قيل قد عثروا عنده على تسجيلات، ووثائق تهمّ الحزب، قولاً مثل غيره قد يكون غير موثوق.

مشروطاً بحتمية إتمام الدراسة، أبدى عبد الجبار استعداداً لتبليته مشروغاً قال عنه معقولاً، وشرع على الفور بمفاتحة المراجع، كتب أولاً إلى وزير الدفاع عدنان كتاباً لاستحصال الموافقة على النقل إلى منصب المدير، وأعطى نسخة إلى المكتب العسكري، بقصد التأييد، أوصل الكتاب إلى ديوان الوزارة باليد، تابع عرضه على الوزير كذلك باليد، علّق الوزير بالقلم الأحمر، (يؤخذ رأي سعد)، فأحيل الكتاب وتعليق الوزير إلى مديرية الاستخبارات العسكرية، ثم إلى الشعبة (14)، وعاد منها الجواب بالموافقة، أساساً لإصدار أمر النقل من قبل إدارة الضباط، والالتحاق بداية عام (1986)، التحاقاً عوّل عليه عبد الجبار كثيراً ورحّب بامتنياز.

طبي صفحة وبداية أخرى

لقد أسدل الستار تماماً على الخدمة السابقة في الاستخبارات العسكرية، ستة عشر عاماً كانت شبه مستمرة (تخللتها بعض قطوع لأغراض الخدمة العسكرية)، خدمة من نوع خاصّ جاءت على العموم متوافقة مع الرغبة وطبيعة الشخصية، لم تتخلّلها مشاكل، أو أوجه قصور تحسب، بل على العكس من هذا، فقد تسجل أنّ النقل منها (الاستخبارات)، أو تغيير وجهة سيرها، بناءً على الرغبة، وهذا أمر يندر حدوثه في الخدمة الاستخباراتية العراقية، التي يتشبّث بها أغلب العاملين في مجالها حتى آخر المشوار (مع بعض الاستثناءات القليلة)، وتسجّل أيضاً أنّ العمل طوالها، والجهد المبذول لتنفيذ مهامّها كان مضاعفاً يزيد في معظم الأحيان عن ذلك الجهد المبذول من قبل الأقران، والجهد المضاعف في العمل مسألة نفسية، يمكن وعلى وفق النظريات ذات الصلة بها، وبعد خمسين عاماً (2023) من انتهاء زمنها،

تفسير حصولها، أو ردها إلى مشاعر الانتماء إلى أصول جنوبية، كَوْن قناعات خفية، بوجود تمايز وتفریق في التقييم، ومنح الفرص بين سكّنة الجنوب ومعهم الأكراد من جهة، وبين باقي سكان البلاد، تمايزاً مغلفاً، أو غير معلن يحاول العقل الحكومي استبعاده من الوعي، لكن إدراكه، أو التحسس بوجوده وارد منطقياً، فغالبيتها ضباط الاستخبارات العسكرية على سبيل المثال، خاصّة المديرين، ومديري الشعب هم من المثلث التي تمثّل بغداد قاعدته، وتتربّع الموصل على أعلى قمته، يتواجد فيها، وفي الدوائر الأمنية والمراكز القيادية أبناء الجنوب بقلة، واقع حاول الحزب بعد انقلابه عام (1968) تعديله، فكانت أوّل قائمة نقل للضباط الحزبيين الخمسين الصادرة منتصف عام (1970)، المنوّه عنها في الفصل السابق على سبيل المثال، تحوي ضمناً عدداً غير قليل من أبناء الجنوب، لكن الأمر لم يستقم، إذ بعدها عاودت سياقات الانتقاء للاستخبارات إلى سابق عهدها، واستمرّ التعيين والتنسيب إلى المناصب الاستخبارية من مستوى ضابط قسم، ومدير شعبة، ومعاون، ومدير عام يحتكره في الغالب أبناء ذلك المثلث، (مع بعض الاستثناءات).

بعد إسدال تلك الستارة عن الخدمة الاستخبارية، بدأ التوجّه إلى نوع آخر من العمل النفسي المعنوي المغلف بغلاف السياسة، لم يتوافق هذا النوع من العمل مع طبيعة الشخصية، ونهج التفكير الذي تكوّن خلال ستة عشر عاماً، بشكل مختلف يتأسّس على إنتاج الاستخبارات للحقيقة، بينما يتربّع التوجيه المعنوي على توجهات لَيّ الحقيقة، وسبل توظيفها في تغيير المشاعر والأفكار، الدفع بها وباقي أدوات المعرفة لتحقيق غاية الإيمان بفكر الحزب، مسألة أدرك، أيّ حزب البعث، الحاجة إليها في بسط نفوذه النفسي ثمّ العقائدي على الجيش، ولتحقيقها غاية مهمّة، اتّجه إلى الدفع تجاه تطوير التنظيم الخاصّ بالتوجيه

المعنوي من شعبة تتبع مديرية التدريب العسكري عام (1968)، إلى مديرية في رئاسة أركان الجيش، منتصف السبعينات، ثم إلى مستوى مديرية عامّة بعد عام (1979) ومن بعدها ومع بدايات الحرب مع ايران إلى دائرة تتبع الوزير، وكذلك الدفع صوب تغيير فلسفة العمل المعنوي في الجيش من صيغته التقليدية (استخدام المعرفة والترفيه لتعزيز المشاعر المعنوية) إلى صيغة عقائدية (ترسيخ فكر الحزب السياسي في العقل العسكري أساساً لإرساء قواعد المعنويات)، وبالتالي تغيير التسمية إلى التوجيه السياسي. إنّه تغيير لم يأت من فراغ، بل كان تقليداً، أو تيمناً بالفلسفة التي تبناها الاتحاد السوفيتي من قبل، وغالب الأحزاب الشيوعية في إدارتها العوامل المعنوية بالتوجّه إلى التعميم المبرمج لفكر الحزب الشيوعي في مؤسّسات الدولة، بينها الجيش، والقوّات المسلحة، على افتراض أنّ الإيمان بفكر الحزب كفيل بتكوين قناعات تزيد من الرضا، والقدرة على التحمّل، أعمدة أساسية لتكوين المعنويات، وتعزيز مستوياتها في نفوس المنتسبين.. فلسفة لم يتعرّز وجودها في العقل العسكري، والحزبي، إذ، وبعد انتهاء الحرب، عادت التسمية إلى التوجيه المعنوي، ومن بعدها سنوات أعيدت إلى التوجيه السياسي، تسمية استمرّت إلى عام (2003)، أو بالأحرى لم تكن هناك فلسفة للتوجيه المعنوي في الأصل، بل مقادير من التأثير الحزبي الشخصي على هذا الجهد النفسي، لقد سارت الوزارة في عملية التغيير إلى التوجيه السياسي قدماً، نقّدت توجيهات المكتب العسكري، أقرّت التنظيم الجديد (دائرة) تضمّ أربع مديريات:

- الأولى للثقافة: تعمل على إعداد مناهج التثقيف العامّة

لعموم الجيش على وفق الأطر الفكرية والعقائدية للحزب، وتشرف على تنفيذها من خلال هيئات وضباط التوجيه السياسي من مستوى الفيلق ودوائر المقرّ العام، إلى مستوى الوحدة (الفوج

/الكتيبة)، يديرها العميد الركن الملاح مثنى التكريتي، ضابط يتمتع بعلاقات واسعة، لا علاقة لتخصّصه بالثقافة والتوجيه المعنوي.

- **الثانية للإعلام:** تتركّز مهامّها على الدعاية، وترويج المنتج الحزبي داخل المؤسسة العسكرية، يديرها العميد الركن منذر عبد الرحمن، ضابط مدفعية مقاومة الطائرات في الأصل، خرّيج الكلية العسكرية بدورتها الأربعين، بغدادي، اجتماعي، قارئ جيد، عمل في كتائب مدفعية مقاومة الطائرات والصواريخ أرض/ جو، قدرته الأدبية في الكتابة جيّدة، عقليته متفتحة، له علاقات اجتماعية واسعة، في المؤسسة العسكرية وخارجها.

- **الثالثة للبحوث والخدمات النفسية:** يديرها العقيد عبد الإله الخزرجي، ومن بعده العقيد سعد خضير، تنقسم مهامّها بين التحصين النفسي لأبناء القوات المسلحة، وبين تعزيز المعنويات، وأضيفت إليها فيما بعد ما يتعلق بالجهد النفسي الموجّه إلى قوات العدو في إطار الحرب النفسية.

- **الرابعة للصحافة:** تختص بإصدار جريدة القادسية، وتوزيعها داخل المؤسسة العسكرية وخارجها، يديرها الرائد أمير الحلو ضابط احتياط، مواليد النجف عام (1941)، حائز على البكالوريوس في الاقتصاد من جامعة بغداد، صحفي وكاتب، اشتغل بداية الستينات في الإذاعة العراقية، شخصية مرنة، متحدّث جيد، هادئ الطبع، أفكاره معتدلة، محسوب على حركة القوميين العرب، شغل، فضلاً عن رئاسة تحرير صحيفة القادسية التي تصدرها دائرة التوجيه السياسي، رئاسة تحرير مجلة ألف باء، وشغل فيما بعد منصب مدير عام في وزارة الثقافة والإعلام حتى إحالته على التقاعد.

من دفاثر المدير

لقد جرى استلام المنصب مدير البحوث والخدمات النفسية من العقيد عبد الإله، منصباً شغله منذ تشكيل المديرية، في موقعها جناح من عدة غرف في بناية الدائرة الكائنة جوار بناية المكتب العسكري مقابل الجندي المجهول، وكان العمل الأول، أو الخطوة الأولى استئجار بناية مستقلة في الشارع المؤدي إلى الجسر المعلق، تبعثها خطوات للنظر في موضوع قياس وتقييم المعنويات، ومن ثم تحسين مستوياتها، أو تعزيزها في صفوف المنتسبين، في اجتماع اللجنة النفسية لديوان الوزارة طرحت فكرة حشد الجهد النفسي المتاح، وذلك بتوحيد التعرضي منه والدفاعي، أي الموجّه منه إلى العدو (الحرب النفسية)، وذاك المخصّص لدعم قطعتنا (التحصين النفسي والدعم المعنوي) كان طرحاً في حينه لم يكن علمياً، إذ إنّ قواعد العمل النفسي تقتضي الفصل بين الجهد النفسي الموجّه للعدو، وبين الجهد الداعم لمعنويات منتسبينا وتحسينهم نفسياً بالصدّ من الحرب النفسية المعادية، لكنّه طرح جاء تحت بند الضرورة، إذ، وبعد عملية النقل إلى التوجيه السياسي، هبطت مستويات العمل النفسي بالصدّ من العدو، وقلّت دافعية العمل النفسي الميداني، بعد أن أوكلت مهام إدارة الشعبة إلى ضابط طبيب، وهو، وعلى الرغم من قدراته العلمية والمهنية الجيدة، لا يميل إلى العمل الميداني، يصعب عليه التواصل والتنسيق مع هيئات الاستخبارات في الفياق والفرق، وبسببها، وعوامل عديدة، أصبحت المعدات والمفارز شبه معطّلة، الأمر الذي دفع إلى شرح التفاصيل إلى عبد الجبار محسن، ويبدو أنّه قد ناقشها مع مدير الاستخبارات، وأعطى الضوء الأخضر ل طرحها في اجتماع اللجنة النفسية، هذا فضلاً عن مضاعفة الحاجة إلى الجهد النفسي على مستوى

الجيش، وبقاء الكادر العامل على حاله، اقتنع الوزير بالفكرة وتبنّى عبد الجبار مفاتحة المراجع لنقل معدّات الحرب النفسية من الاستخبارات العسكرية (رفت الحرب النفسية، والمفازز الأرضية، وبعضّ المعدات الخاصّة بالتسجيل ومضخّات الصوت)، وافقت الاستخبارات على المقترح، واستجابت بسرعة، بعد نقاشات شخصية جانبية جرت مع المعنيين من مديري الشعب، وبينهم مدير الشعبة (14) الذي حلّ من بعدي، المقدّم الطبيب وائل عريم، وعند استلام تلك المعدات أخذت مديرية البحوث والخدمات النفسية على عاتقها تنفيذ المهام النفسية الموجهة ضدّ العدو، وكذلك الداعمة إلى قطعائنا معنويًا، خاصّة أنّ المعنويات بشقيّها الخاص بقطعائنا والعدو كانت أثناء الحرب، مشكلة لهذه لدائرة، وعموم الجيش، تتمثل أولاً في مصاعب قياسها كمشاعر قابلة للتغير باللحظات، وثانيًا في شخصنتها من قبل القادة والأمّرين، كان أولئك القادة، ومن بعدهم الأمّرون، يعدّون المعنويات لقطعائهم عالية على طول الخطّ، وهابطة لجنود العدو، كذلك على طول الخطّ، حتى إنّهم إذا ما وُجّه لهم سؤال في أيّ نقاش يدور مع الأعلى مرتبة، أو طلب منهم وضع الخطط لأغراض الهجوم والدفاع يحسبون المعنويات في جانبهم جيدة، من دون الخوض في التفاصيل إلّا ما ندر، كما أنّ أغلبهم يحسبون المعنويات بضوء معنوياتهم هم، فإن كانت جيّدة يجيبون على أنّها جيدة، وإن كانت بالعكس يجيبون كذلك أنّها هابطة، على هذا حاولت المديرية ومنذ العام (1986) إيجاد مقياس علمي للمعنويات، واستضافت لهذا الشأن أساتذة مختصّين بالقياس، منهم الدكتور نزار العاني، والدكتور خلف نصار، واستمرّ العمل معهما لما يزيد عن ستة أشهر، توصلوا هم واختصاصيو المديرية إلى عدم نفع القياس الثابت للمعنويات، لأنّها مشاعر متغيرة، ولأنّ الجندي، ولا اعتبارات نفسية

وعسكرية، لا يبيح عن مشاعره بسهولة من أجل القياس، ثم إنّ نتائج القياس، إنّ تم افتراضها واقعية، تمثّل الوقت الذي أجري فيه، عندها يصعب التأسيس عليه معياراً في حساب خطط الهجوم، أو الدفاع لما بعد أسابيع أو أشهر، كما أنّه، وفي تلك الحقبة الزمنية، مدت ديكتاتورية القائد أذرعها النفسية على عموم العراقيين، وبينهم العسكريون، فقيدت مشاعرهم، طوّقتها بأطواق خوف من التصريح بحقيقتها خشية التفسير خطأ بعدم التوافق مع مشاعره، قائداً، يريد لها إيجابية على الدوام، وعمّت قناعة لدى المنتسبين أنّ من تُفسّر مشاعره انحرافاً عن الإيجابية قد يتعرّض إلى العقاب، خاصّة أنّ صدام القائد العام الذي يدير الحرب، كان شكّاكاً حدّ الارتياب، وكان فخوراً بصفته هذه التي يعنقد أنّها تؤهله لمعرفة النّيّات في عقول الآخرين، وبصدها كان يكرّر قولاً دارجاً بلهجته المحلية (أعرفو من عويناتو)، ويبدو من سعة هذا الاضطراب النفسي في داخله، ومن كثرة استخدام مفردات الشكّ في تعامله مع القيادات القريبة منه، انتقل هذا الاضطراب عن طريق التقليد والعدوى النفسية إلى القيادات الحزبية العليا، ومن بعدها إلى الأقلّ، وإلى القيادات العسكرية، نزولاً إلى القادة الميدانيين والأمّرين، الذي أخطأ منهم غير القليل في الشكّ بسلوك الآخر من الضبّاط والمنتسبين، ووجّهوا العقاب على النيات، وهكذا عمّ الشك اضطراباً في السلوك، وكوّن خوفاً عامّاً عند غالبية المجتمع العراقي، وليس عند العسكريين فقط، حاصله السعي الجمعي إلى السيطرة على المشاعر، وعدم البوح بها إلا في الجلسات الخاصّة المحدودة، ولأقرب المقرّبين، على هذا تغيّر الاتجاه من القياس السايكومتري إلى صيغة لا تهمل القياس، عبارة عن إشارات للحالة المعنوية يمكن حسابها إحصائياً على وفق معادلات تعتمد نسب الغياب، والهرب، وتسجيل العيادات الطّبية، والمشاكل القائمة، والوضع العسكري للوحدة تفضي

بالمحصلة النهائية إلى رقم على تدرّج من مئة يمكن الاعتماد عليه معيارًا للتقييم، تمّ تعميمه على جميع الوحدات في حساب المعنويات.

لكن ضباط التوجيه، وقادتهم، وتحت تأثير الإصابة باضطرابات الشكّ، بات عديد منهم يتلاعبون بالأرقام، يرفعون درجتها لتتواءم مع الصيغة العشوائية التي كانت شائعة (المعنويات جيدة)، خشية تفادي الملامة التي قد تأتي من الأعلى، (الغريب في أمر التقدير الكيفي لمستوى المعنويات وحسابها جيّدة على الدوام، لم يقتصر على أمري وضباط الجيش السابق، ولم يتعلّق فقط بنتائج الإصابة باضطراب الشكّ الوهمي، إذ يلاحظ وفي العهد الجديد، بعد عام (2003) توجّه بعضهم غير القليل من الأمرين وضباط الإعلام والتوجيه المعنوي في الجيش عند الاستفسار منهم عن المعنويات إلى التقدير الكيفي بصيغة (المعنويات عالية)، الأمر الذي يضيف إلى العوامل عاملاً آخر يتعلّق بطبيعة الشخصية العراقية التي لا تميل إلى الاعتراف بالمثالب وأوجه القصور، ولا تريد تحمّل مسؤولية وجودها).

أنّ موضوع المعنويات، أو الجهد النفسي الموجّه لأغراض المعنويات، موضوع هو الأكثر تعقيدًا في العمل النفسي الميداني، إذ ترجع تعقيداته، فضلًا عن صعوبات القياس الوارد ذكرها آنفًا، إلى حساسية الاستجابة للمتغيّرات المؤثّرة فيه، فالإيرانيون الذين حقّقوا اختراقًا للجدار النفسي المعنوي الخاصّ بقطعاتنا بعد معركة المحمّرة، مسكوا إثرها بعض خيوط المبادرة النفسية الهجومية، وإلى حين استعادة الفاو عام (1988) التي انتقلت بعدها تلك المبادرة إلى جانبنا تمامًا، وإلى حين انتهاء الحرب التي لعبت في انتهائها العوامل النفسية كثيرًا، في تلك المبادرة، أو في بداياتها، بات الإيرانيون يختارون الدفاعات العراقية الهشّة، يهاجمونها بقوة في معارك يوظّفون نتائجها نفسيًا، أو

بالمعنى العلمي الأدقّ، صاروا يصيغون معارك هجومية لأغراض نفسية، يحققون فيها اختراقات، كانت من أكثر عوامل التأثير سلبيًا على المعنويات، وأسرعها نفاذًا وتأثيرًا على الأداء، إذ عادة ما يبدأ بعد حدوثها التسرّب الجماعي من الحفّات الأمامية لساحة المعركة إلى الخلف⁶²، تسرّب يترك فيه الجندي، وقليل جدًّا من الضباط، مواضعهم، يتخلّلون مواضع الوحدات الخلفية، مستفيدين من فوضى المعارك، ومن تضاريس الأرض وطبيعتها للابتعاد عن أجواء المعركة، بعضهم في حالة تيه يتخبّطون في الساحة، وبعضهم يترك سلاحه مذعورًا على الرغم من شدّة العقاب المفروض على ترك السلاح.

بدايات النكسة المعنوية

قفز بعض المذعورين في معركة المحمّرة، تلك المعركة الفاصلة في المعنويات، إلى مياه شطّ العرب الجارية، وهم لا يجيدون السباحة، عندها بادرت القيادة العامّة التشدّد في إجراءاتها الميدانية للتعامل مع هذه الحالة التي باتت تنتقل بعدوى نفسية غير مسبوقة، فشكّلت لجان إعدام ميداني، أعضاؤها من دائرة التوجيه السياسي، والاستخبارات العسكرية، والحزب، والانضباط العسكري، خولّتها صلاحيات تنفيذ حكم الإعدام ببعض المتسرّبين، فبدأت أولاً بإعدام من يمسك متسرّبًا وقد فقد سلاحه، أو تركه في أرض المعركة، وعندما أدركت أنّ هذا لم يحدّ من التداعي المعنوي، ولم يوقف نزيف التسرّب المتزايد،

⁶² التسرّب، مصطلح يعدّ حديثًا في أدبيات الجيش العراقي، وقد ظهر استخدامه أوّل مرّة، بعد معركة المحمّرة، لوصف حالة الهلع والانكسار التي أصابت الجنود، وتسبّبت في ترك كثير منهم ساحة المعركة بشكل جماعي. (الحوار المتمدّن، العدد: 5383-26/12/2016-10-17).

أوسعت في أوامرها حدود الإعدام ليشمل المتسرّبين وإن كانوا يحملون السلاح، لقد كان هذا الإجراء في وقته قاسياً جداً من الناحية الإنسانية، لكنّه ومن الناحية العسكرية حدّاً كثيراً من نسب التسرّب الجماعي، وحافظ نسبياً على القدرة القتالية، أمّا من الناحية النفسية فقد أسهم في تكوين حالة خوف في عقول المنتسبين من مصدرين:

- **أولاهما العدو:** الذي أعاد الثقة إلى جنوده، ورفع مستويات معنوياتهم بعد تلك المعركة، وأدرك الحاجة النفسية إلى تعزيز الخوف في نفوس منتسبيننا، ولتعزيزه لجأ إلى فكرة الحشود البشرية في الهجوم على المواقع العراقية، موحياً إصراره على إدامة زخم هجماته المتتالية، فان فشل في المحاولة الأولى يتبعها محاولة ثانية وثالثة، إلى أن يحقق خرقاً، وهي في حقيقة الأمر أفكار، أو توجّهات، لم تكن في بدايتها جادة، لكنّه روجّ لها إعلامياً بشكل جيّد، وبلع طعمها قادتنا الميدانيون، الذين، وبسبب شدة خوفهم من القائد العام، توجّهوا إلى تسويق بعض اخفقاتهم في صدّ الهجمات الإيرانية، وإرجاعها إلى كثافة الموجات البشرية الهاجمة، وقد اقتنعت القيادة العامة بهذه الأفكار، ووجّهت إلى تعبئة النيران والردّ عليها بما يفوق الحاجة الفعلية للردّ في المعركة، فان كانت المعركة بحاجة مثلاً إلى قصف مدفعي تمهيدي لمستوى كتيبة مدفعية، فإنّها تعبئ خمسة كتائب، وهذا أسلوب، وإن نجح لإحداث فعل الخسارة بالعدو، لكنّه أسلوب غير اقتصادي كلّف الكثير من الناحية الماديّة، واستنزف الخزينة، وهو كذلك غير مواتٍ من الناحية النفسية، إذ عزّز فكرة الحشود في العقل العسكري العراقي، وكوّن قدراً من الاتّكالية الآلية في السلوك القيادي الميداني أبقت القلق والخوف في النفوس عند المستويات الموجودة، وللأمانة العلمية، جرت متابعة شخصية دقيقة لهذا الموضوع، من خلالها يمكن القول إنّ

فكرة الاعتماد على الكم (الحشود) في ترتيب الهجمات على مواضعنا الدفاعية جاءت عرضاً في سعي لإدامة زخم الهجوم، وهي ليست حشوداً كبيرة، لكنّ الإيرانيين، وبعد أن وجدوا لها صدىً مناسباً لإخافة منتسبينا، استثمروها جيّداً في دعايتهم، وسوّقوها أقرب إلى الحقيقة، تعامل معها القادة والأمرون بطريقة عزّزت من وجودها حقيقة، إذ سارع ضباط وفنيون إلى ابتكار وسائل رمي بكثافة نارية عالية، فأرسلوا في معارك شرق البصرة مثلاً (شفل) رفعوا الكيلة الخاصة به، وضعوا بدلها لوحة حديدية، ثبتت عليها أعداد من الرشاشات الخفيفة نوع (دكتريوف) تفوق العشرين رشاشة، يمكن أن ترمي جميعها مرة واحدة تجاه الهدف من لوحة كهربائية في قمرة السائق، وتصادف عند مروره كنت جالساً مع العقيد وفيق السامرائي مدير شعبة (13) وآخرين في موقع قريب من ساحة المعركة، أثارهم مروره، وبدأوا الاستهزاء بكلمات وعبارات متفرقة، إذ علق وفيق وشبّهه بـ (الرزة المزدوجة) بالتأسيس على المسلسل الكارتوني الياباني جريندايز عن مغامرات الفضاء الذي شاع عرضه في التلفزيون العراقي بداية الثمانينات.

- **وثانيهما قواتنا:** حيث القادة والأمرون، الذين حُوّلوا أيضاً بإعدام المنتسبين ضباطاً، أو مراتب في حالات الانسحاب من أرض المعركة من دون أمر، أو التسرّب منها، أو الاتهام بالتقصير عن أداء المهام القتالية فيها، ومن بعدهم لجان التسرّب التي باتت تأخذ لها مواقع خلف القطعات المدافعة، أو الهاجمة.

في مسائل التخويل بالإعدام الميداني

لم يكن القادة والأمرون على حدّ سواء في استخدام التخويل بالإعدام الميداني لأغراض الردع والعقاب، إذ، وبينما كان القادة

الفرقاء إسماعيل تايه النعيمي ونعمة فارس وسلطان هاشم، وشوكت عطا، وجبار الأسدي ومحمد فتحي، من قادة الفيالق يتفادون الوقوع في زلل التخويل، كان آخرون قد استخدموه في غير محله، أو غالوا في استخدامه، بينهم الفريق طه الشكرجي قائد الفيلق الثاني، الذي عُذَّ من أوائل القادة تنفيذاً لعقوبة الإعدام ميدانياً لمجرّد الشكّ بالتقصير، وهو أوّل من أوجد صيغة التنفيذ الفوري لهذه العقوبة ميدانياً، من دون محاكمة بعد إعادته إلى المؤسسة العسكرية من حالة التقاعد، وتكليفه قيادة الفيلق الثاني إثر الانتكاسات التي حصلت في سلسلة المعارك ما بعد المحمرة مباشرة، وجاء من بعده الفريق الركن ماهر عبد الرشيد قائد الفيلق الثالث ثم السابع كثيرًا ما يهدّد بالإعدام وتوجيه النقد الجارح للضباط، والشتم المباشر لقادة فرقته، وضباط ركنه، خلال المعركة وما قبلها أو بعدها في اللقاءات العامة وأثناء تناول الطعام مجتمعاً، وفي المناقشات التي تجري لتدارس الموقف وتوزيع المهام العسكرية، وبذا عدّه الضباط أوّل من أوجد هذا السلوك السلبي المخلّ بالمعنويات، الذي زاد من شدّة التوجس حدّ السعي إلى تجنب المواقف التي يكون فيها ماهر طرفاً، وهناك قادة آخرون عرف عنهم الميل إلى تنفيذ الإعدام ميدانياً، ونفّذوه بالفعل مثل الفرقاء طالع الدوري، وهشام صباح الفخري وأحمد حماش.

ومع هذا، وبالعودة إلى الخبرات المعنوية لتلك المرحلة الزمنية، يُستنتج أنّ الإعدام الميداني والتوجّه السلبي لتقليل قيم الضابط مهنيًا، والشكّ به عوامل أثّرت سلبًا على المعنويات، لم تتمكّن دائرة التوجيه، أو لن تجرأ على تقديم اقتراحات للتخفيف منه، والتقليل من غلوائه، لأنّ القائد العام كان ميّالاً لتنفيذه، ولأنّ العديد من القادة تقمّصوا شخصيته الميّالة إلى التعنيف، وإنزال العقاب القاسي لمجرّد الشكّ بالخطأ، وأثّرت كذلك على إشاعة

عدم تحمّل المسؤولية في سلوك الضبّاط القادة على وجه الخصوص، والسعي إلى تحميلها للأدنى.

لقد تجاوزت آثار التوجّهات العقابية الميدانية القاسية، إحداث فعل الهرب والتسرّب من أرض المعركة، بل امتدّ ليشمل بعض حالات التقصير غير العمدى، والخطأ العفوي الحاصل بعد أن خوّل القائد العام في السنين الأخيرة للحرب، القادة الميدانيين تنفيذ عقوبة الإعدام في الحالات التي يحسبونها هم تقصيرًا، وبات التنفيذ بالمجنى عليهم في ساحة القتال، وأمام الزملاء والآخرين، وكان ذلك ليس بقصد الردع في عمليات تشكيل السلوك المهني العسكري الذي لم تفهمه القيادة، أي بمعاقبة الفعل بقصد إطفائه أو تغييره، وإنّما لإخافة المنتسبين كي لا يقصّروا، أو لا يخالفوا مخالفة تهدّد إدامة زخم الحرب، أو نتيجة الشكّ بالولاء دافعاً قد أفضى إلى التقصير، وقد تكرّر الفعل وعقابه الميداني حتى صار مشكلة نفسية، أساسها اقتران التفسير بالنيات، والانحياز المذهبي والقومي والمناطقى المسبق في تحديد طبيعة تلك النيات، ومن ثمّ توجيه العقاب.

حصل عندما يخفق أمر لواء من أهالي الجنوب في الدفاع عن مواضع لوائه تجاه هجوم معادي، يُفسّره بعض القادة، وقسم من أعضاء القيادة العامّة التي لم يكن من بينهم واحد من أهل الجنوب (باستثناء عبد الجبار محسن)، إنّ الإخفاق تقصير قد يشكّ فيه متعمّداً بسبب الأصول الطائفية لأمر اللواء، وهذا شكّ في النيات يُمهّد إلى إصدار عقوبة بحقّه يمكن أن تكون شديدة، قد تصل إلى الإعدام في بعض الحالات، في الوقت الذي يفسّر إخفاق أمر لواء آخر من أهالي تكريت أحياناً، وفي ظروف مشابهة أنّها مسألة قد تعود إلى تفوّق العدو، وبما يمهّد الى عدّ الإخفاق مجرد تقصير، يجنبه الإعدام مثل زميله، من هذا، وأمور أخرى، يشير إلى أنّ التنفيذ الميداني الانتقائي لعقوبة

الإعدام، وبالطريقة السريعة التي سادت في تلك الحرب، جعلت شريحة واسعة من الضباط يعيشون حالة قلق، وتوتر أضعفت معنوياتهم، واستنزفت جزءاً كبيراً من طاقتهم النفسية، ودفعت بعضهم (القليل) إلى التنحي عن الطموحات الشرعية لتولي المناصب القيادية، وإن أسهمت في الجانب المقابل بالحد من حالة التداعي التي كانت منتشرة على مستوى واسع، ومع هذا لا يمكن الجزم أو التعميم على أنّ كلّ حالات الاتهام بالتقصير كانت على أساس الشكوك بالولاء، إذ إنّ بعض الضباط من أصول جنوبية، نجوا من تُهم إخفاق، وبعض آخر من غير أهل الجنوب أعدموا بتُهم تقصير أو إخفاق، لكنّه حصل، ونسب الحصول متفاوتة، لو عكسنا واقعها على الحاصل بعد عام (2003) لوجدنا بشكل واضح أنّ تُهم الإخفاق سهّل توجيهها إلى ضباط من الوسط وشماله السني، وسهّل أن ينجو منها ضباط من أصول جنوبية، حقيقةً تُبين أنّ العسكريين العراقيين، وخاصة الضباط منهم، وبكلّ طوائفهم ودياناتهم كانوا قبل (2003) يعيشون هاجس التخوين في النيات بكلّ لحظة وبكل تصرف، كانت كفيلة بإضافة الكثير من الضغوط النفسية على كواهلهم فوق ضغوط المعارك، ووضعت حدوداً أو عوائق كبيرة أمام الإبداع والاجتهاد، لا سيّما إذا ما حسبت النتائج خارج إطار القول المأثور (اجتهد واخطأ)، وتبيّن أنّ التخوين اضطراب نفسي انتقل من ذاك الزمان إلى هذا الزمان، وبشكل معكوس.

نصدع في جدران المعنويات

لقد استمرّت المعنويات في الجيش مشكلة، وهي، وإن عرف القادة العسكريون في محيطها الأكاديمي أنّها أحد مبادئ الحرب، إلّا أنّ إدارتهم لها على المستوى العمليّ والتعبوي كانت

قاصرة، أو غير صحيحة، لسبب من بين أسباب عدّة، يعود إلى أنّ حروب العراق الأخيرة (الحرب العراقية الإيرانية، حرب الكويت، احتلال الكويت، حرب تحرير الكويت، الاحتلال)، قد أدبرت فنّيًا من قيادة عليا مدنية يمثلها صدام حسين الذي، وإن كان قد أخذ دروسًا عسكرية على يد ضبّاط ركن معلمين أكفاء، لم يمتلك الخبرة العملية في التعامل مع الضبّاط والجنود، ولم يتقن التقاليد العسكرية التي تُكتسب في المعتاد عن طريق التواصل المهني والخبرة العملية، كما أنّ طبيعة شخصيته التي تميل كثيرًا إلى تمجيد الذات والتقليل من الآخر، ومساغيه الحثيثة لتبعيeth الجيش عوامل انعكست جميعها على إدارة الحالة النفسية المعنوية العامّة، ودفعت إلى أن تصبح المشاعر المعنوية، والقيم العسكرية بعد اعتلائه العرش قريبًا من بدايات الحرب مع إيران، كأنّها قيم حزبية (نقّذ ثمّ ناقش)، وأصبحت المشاعر ولائية إلى الحزب، وليس إلى الجيش عماد الوطن، وبسببها وأساليب الإدارة القسرية أصبح الضابط، أو عموم الضبّاط، خائفين حدّ الرعب من صدام أكثر من خوفهم من العدو، متوجسين، قلقين، ميالين إلى التردد بما يتعلّق باتّخاذ القرارات الصعبة في مواقف تتطلّب السرعة في اتّخاذ القرار، وصارت النسبة غير القليلة منهم لا يتحمّلون المسؤولية، لذا تجدهم يحيلون عبأها، أي القرارات، أو يرخلونها إلى المستوى القيادي الأعلى، فأمر الفصيل يستحصل مثلاً موافقة أمر السرية على موضوع يتعلّق بصلاحياته في توزيع حضائره ضمن موضع فصيله، وهكذا بالنسبة لأمر السرية مع أمر الفوج، صعودًا إلى قائد الفرقة والفيلق، وبهذا الصدد، وعلى الاغلب، كانت هذه حقيقة نفسية تتوافق مع طبيعة صدام الذي يريد اللجوء إليه في كلّ صغيرة وكبيرة، ومع هذا، وعلى الرغم من كلّ التعقيد، أدركت القيادة العامّة مشكلة المعنويات وتذبذبها مبكرًا، فتوجّهت، وبدلًا عن

تغيير، أو إصلاح أساليبها الخطأ في إدارة الحرب، إلى التكريم أسلوباً لتعزيزها، وكان التوجيه السياسي مروجاً لها، وأداة لتعزيز الولاء الحزبي على حساب الولاء المهني العسكري.

لكنّ التكريم أمر وارد في الحروب، ولجميع الجيوش عبر التاريخ، لأهداف، أهمّها زيادة الدافعية في القتال، ورفع المعنويات، ودعم التميّز الذي تحتاجه ديمومة الحرب، لكنّها عند القيادة العامّة، ومن بعدها القيادات الميدانية تسلسلاً إلى مستوى الفوج، لم تكن كذلك، إذ لم تتقيد بأصول التكريم وضوابطه التي كانت متبعة في الجيش العراقي من قبل، ولم يستأنسوا بخبرات الجيوش العالمية في هذا المجال، بدأوا بمنح الكثير من الضبّاط قَدَمًا لعدد من السنين، وإن كان الفعل ضمن حدود الواجب، زادوها بالتدرّج لمّا طالت الحرب، ليكون المنح رتبة واحدة أو عدّة رتب، وبالمحصلة، وصل بعض الضبّاط إلى رتبة فريق، وأقرانهم المتخرجون معهم من الكلية العسكرية مقدّمون، أو عقداً، فمثلاً كان عموم الفرقاء إبان الحرب (ثابت سلطان، ماهر عبد الرشيد، هشام صباح الفخري، أحمد حمّاش.... الخ) قد دخلوا الحرب بمتوسط رتبة (مقدم/عقيد)، وبعد أربع سنين من وقعها وصلوا إلى رتبة فريق، وهناك في وحدات فيالقهم ضبّاط من دوراتهم أمري أفواج، برتب لا تزيد عن عقيد، الأمر يشير إلى أنّ عموم التكريم إبان تلك المرحلة لم يكن مستوفياً لشروط التكريم المعنوي، وكان في بعض الأحيان مزاجياً، إذ يحضر القائد العام بعض المعارك، أو يديرها من مقرّه في بغداد، وعند سماعه خبراً عن تحقيق إنجاز قتالي، وهو في مزاج سارّ، يتّجه، وقبل التأكد من معايير الصحّة، إلى منح الرتب بالجملة، فتكدّست الرتب العليا على أكتاف أشخاص لم يكتمل نضجهم العسكري القيادي والنفسي، وبدأت تظهر على السطح، وبشكل ملموس، معالم سلوك تفلّ من قيمة الضابط والقائد، وتنعكس سلّياً على

المعنويات والحالة النفسية، كما أنّ التكريم الذي بُنيَ على أساس الشجاعة في الحرب، لم يحم أصحابه المُكرّمين من الإعدام تخاذلاً، تلك الصفة التي تقع على النقيض من الشجاعة.

كُرم اللواء بارق الحاج حنطة مراراً لفرط شجاعته، وأُعدم بتهمة التردد، أو التقصير في حرب الكويت، ومثله أُعدم اللواء كامل ساجت، واللواء عصمت صابر، وسبقهم في مسلسل الإعدام اللواء الركن صلاح القاضي واللواء جواد أسعد شيتنة، والعميد الركن برهان خليل، وغيرهم آخرون، ولبرهان أمر اللواء (38) قصّة مختلفة عن قصص الأقران، إذ كُرم رتبة كاملة، قدّمها له وزير الدفاع في ساحة المعركة لفرط شجاعته، وهي حالة تكاد تُحسب الأولى في الجيش، وأُعدم في ساحة المعركة أيضاً، بتهمة التخاذل في المعركة التي تلت، تناقض بقيت أقاويله تتردّد على ألسنة الضباط لعدّة سنوات، لذا أصبح التكريم الذي يراد له أن يكون فرصاً لإدامة الحالة المعنوية مجالاً أفضى إلى العكس بعد أن أخلّ بعض القادة الميدانيين باستخدامه لإدامتها.

اعتادت القيادات الميدانية، وبعد انتهاء المعارك الناجحة، أو الصعبة، رفع الأسماء المطلوب تكريمها من الضباط والمراتب إلى مراجعها صعوداً إلى القيادة العامّة، وعلى شكل قوائم، واعتادت بعض المفاصل، أو القيادات إضافة أسماء على قوائم الأسماء، لم يكونوا من بين المشاركين في تلك المعارك المطلوب تكريمها على أساس نتائجها الميدانية، وكان بعض أولئك المضافين من المتواجدين في المقرّات الخلفية، وبعضهم يتمتّعون بإجازاتهم الدورية، وبعضهم الآخر تقتضي خدمتهم التواجد بعيداً عن خطوط القتال.

.....

لقد استمرّت القيادة، وبتأثير مباشر من القائد العامّ في الاستمرار بعيداً في نهج التكريم الخاطئ، وكان المستوى الأكثر ضرراً على الأداء والمعنويات هو منح رتبة الضابط للمراتب على أساس الشجاعة، ففي معركة الفاو الأولى (1986)، وبعد سقوط المدينة بيد الإيرانيين، أصرت القيادة العامة على استرجاعها بأيّ ثمن، وباتت تزجّ الفرق، والتشكيلات إلى ساحة المعركة المحصورة بين شطّ العرب والساحل البحري (غير الصالحة للتقدم الآلي)، وعلى اتجاهات الهجوم نفسها السابقة ومحاوره، حتى أصبحت المعارك صعبة، والخسائر فادحة، على إثرها قرّرت القيادة، وبالأحرى صدام حسين منح أيّ جندي، أو ضابط صفّ يصل العقد⁶³ رتبة ضابط، وقد مُنح العديد منهم (حسب ترشيحات القادة والأميرين) هذه الرتبة التي يتمّ الحصول عليها في القوانين العسكرية النافذة لخريجي الثانوية بعد دراسة تقارب ثلاث سنوات في الكلية العسكرية، أو ستة أشهر في كلّية الاحتياط لخريجي الجامعات (البكالوريوس)، وقد واجهت الوحدات مشكلة تسليم مثل هؤلاء المكرّمين قيادة فصائل، وهم مصنّفون من حيث الأداء والتفكير جنوداً، وواجهوا هم أيضاً مشاكل في اجتياز الدورات التأهيلية، وامتحانات الترقية، وبعضهم أمّيون لا يجيدون القراءة والكتابة، وعن معارك العقد والتكريم ورد عن ماهر عبد الرشيد قائد الفيلق في لقاء له مع صحفيين كويتيين اعتادوا زيارة البصرة إبّان المعارك وما بعدها، تمّ في مقرّ الفيلق السابع بعد حوالي شهر من انتهاء المعركة، أسهب فيه كلاماً عن إنجازاته بالمعركة الصعبة، وعن المعارك الفرعية في العقد، ومكارم القيادة في منح الشجعان رتبة

⁶³ نقاط على الأرض الرخوة، تربط عدّة طرق، يفضي مسكها عسكرياً، التحكّم بتلك الطرق والمنطقة، قاتل فيها العراقيون ببسالة، ودافع عنها الإيرانيون بقوة للحيلولة دون وصول الجيش عن طريقها إلى مدينة الفاو.

ضابط، وقبل إتمام حديثه، نادى على ملازم من حمايته، تقدّم شابّ، أدّى التحية العسكرية، أشار له بعصاه أنّه قد حصل على التكريم رتبة ملازم، يوم كان مراسله الشخصي، من هذا المشهد (فقدان الدقّة وغياب المساواة في الفرص)، ومشاهد أخرى عديدة في قيادات أخرى، يمكن الجزم أنّ التكريم صار مضرّاً للمعنويات في بعض الأحيان، حقيقة تؤكّدها الأدبيات النفسية التي تشير إلى أنّ تكريم عسكري واحد (عن طريق الخطأ)، قد يضرّ بمعنويات عشرة من أقرانه، والضرر يأتي بطبيعة الحال من الخطأ في التقدير، ومن حصول غير المستحقين على تكريم لا يستحقونه.

ظلت المعنويات، وما له صلة بإرادة القتال طوال سنوات الحرب الأخيرة مع إيران معضلة، تتأرجح مدّاً وجزراً تبعاً لنتائج المعارك، وكثرة الخسائر، وظلت إجراءاتها مجالاً لاستنزاف الطاقة النفسية لعموم المقاتلين، وبصددتها توجّهت القيادة العامّة، ومن دون الرجوع إلى المعنيين بالمعنويات (دائرة التوجيه السياسي)، ولا إلى أهل الاختصاص في مديرية البحوث والخدمات النفسية، إلى التعامل معها، معضلة مثيرة للقلق بطرقها الخاصّة كما فعلت في مسألة التكريم، إذ، فضلاً عن التشجيع، واستثارة المشاعر الوطنية، توجّهت إلى الترويض عن طريق إبقاء الخوف عاملاً فاعلاً في الجهاز الانفعالي للمقاتل، لكنّ الخوف من الأعلى، ومن القيادة الذي شاع بين المنتسبين، وإنّ أمن سيطرة وانضباطاً قسرياً في مواقف القتال الصعبة، كان من نوع خاص، يخفي تحت مظلّته قدرّاً من عدم الرضى، والخواء النفسي (ضعف معنويات).

في النصف الثاني من الحرب زادت نسب الخواء حدًا، عبّر عنه بعض المراتب عمليًا بالهرب⁶⁴ الذي زادت نسب حصوله حدًا بات يؤثر على القدرة القتالية، فاستجابت لحصوله القيادة العامّة بحزم وتشديد العقوبات المفروضة، لمستويات وصلت قريبًا من نهاية الحرب حدود الإعدام في حال تكرار الفعل، ثمّ وصفته فيما بعد توصيفًا قانونيًا ونفسيًا جريمة مخلة بالشرف، وتأكيدًا على إشعار الهاربين بالدونية، وتحقير الذات (العار) زوّدت المحكومين لجرائم الهرب بهويات ذات لون أحمر لتمييزهم عن الآخر بنوع من الإذلال.

حاولت مديرية البحوث والخدمات النفسية، التعامل مع موضوع الهرب على وفق عوامل نفسية وعسكرية، قدّمت دراسات بالتأسيس على أخرى مشابهة في المجال، اقترحت التعامل مع الخواء وزيادة نسب الغياب بالتركيز على جوانب الوقاية من حصوله، واقتصار الترويح في دور الاستراحة على التخفيف عن ضغوط المعارك، حيث المرور المنظّم للمنتسبين المجازين إلى مواقعها المشار إليها، وهم في طريقهم إلى البيت، والعائدين منه، لتناول وجبات طعام، ومشاهدة بعض الفعاليات الفنية، وسماع أغاني، ومتابعة مسرحيات (في بعض الأحيان)، ولهذا الغرض تمّ استنفار عموم أهل الفنّ والشعراء والملحنين، أدوا جميعهم أدوارًا أسهمت في الغالب بعملية الترويح.

لكنّ داء الذاتية المفرط الذي استشرى بين القيادات بجميع مستوياتها، أخرج هذه الفعاليات من سياقاتها للتأثير الإيجابي، إذ سرعان ما دخل بعض من ضباط التوجيه تابعين إلى مديرية

⁶⁴. التعريف القانوني للهرب)، هو غياب العسكري بما يزيد عن عشرة أيام، والتعامل مع حالته بتشكيل مجلس تحقيقي، وإحالة إلى محكمة عسكرية تحكّم عادة بالسجن لمدد محدودة تبعًا لمدة الهرب.

الثقافة طرفاً، اقترحوا إلقاء محاضرات توجيهية على المقاتلين في دور الاستراحة، بدأت بمفردات الإشادة بالرئيس وتعظيمه، وتطوّرت لبتّ خطبه وأخبار تحرّكاته، وبتكرارها أصبحت ممّلة حدّاً كوّن إزاءها العقل بالتدريج أفكاراً غير معلنة بالصدّ من الرئيس (الإحياء المضاد)، وبسببها وأنشطة أخرى غير صحيحة، أصبح المعنيين بدور الاستراحة وضباط التوجيه العامّين فيها نهاية المطاف، دعاة ومنشدين للرئيس، وليس موجّهين للتخفيف من ضغوط القتال وداعمين للمعنويات، وبذا أسهموا من غير قصد في إبقاء حالة الخواء، وربما زيادة مستوياتها.

.....

استراحة دراسية

لقد قارب العمر حوافّ الأربعين، سنين حدّدت تعليمات القبول فرصة هي الأخيرة لدراسة الماجستير، تُدخّل من يلامسها في دوّامة اليأس من الحصول على الموافقات اللازمة، أو السير في طريق الاستثناءات المفروشة بذلّ التوسّل، وتبعات المشي بين الأشواك، فصار القرار قبل بلوغها بقليل توجّهًا مستعجلاً لإكمالها في جامعة بغداد، وإنهاء فكرة الدراسة بالخارج، وافقت الجامعة بالاستناد على الدبلومين (العام والخاصّ في التربية من جامعة عين شمس المصرية)، عدّتهما مستوفين للسنة التحضيرية، حدّدت سنة واحدة، لكتابة الرسالة الموسومة (دراسة تجريبية لبعض المتغيّرات المؤثّرة في اتّخاذ القرار)، لم يمانع عبد الجبار في مشروعها، رجا الاستمرار بإدارة المديرية حسب الوقت المتاح، واستحصل الموافقات اللازمة لذلك.

لم يتغيّر وقع الإدارة العامّة للمديرية، ولم يتأثّر الجهد المبذول للتعامل مع المعنويات والحرب النفسية طوال السنة، ولم تتأثّر الأنشطة الميدانية، بل قد نُقّذت خلالها جميع الواجبات، وغطّيت جميع المعارك جهداً نفسياً تجاه الخصم، وآخر لدعم مقاتلينا إبان تلك المرحلة الأخيرة من الحرب التي كانوا فيها مرهقين، ومع هذا، فالإدارة هنا ضمن التوجيه السياسي، كانت أكثر صعوبة وأقل استقلالية بالمقارنة مع الاستخبارات، كانت الاستخبارات تعطي مدير الشعبة الاختصاصي حرية التحرك في المجال كما يراه مناسباً، على أن يعلم المدير العام محصلة تحركه، بينما يقيّد التوجيه السياسي حركة مديره والضباط في سياق موافقات روتينية تعيق العمل أحياناً، وكذلك يميل مديره إلى عدم تحمّل المسؤولية، والسعي لتحميل أعبائها على الآخر أكثر بكثير من الاستخبارات التي يكون التقصير في سياقات عملها واضحاً، واللوم عادة ما يوجّه إلى المقصّرين تحديداً.

كانت معركة نهر جاسم ضمن قاطع البصرة بداية عام (1987) على أشدها، وقد فتحت الدائرة مقرّاً لها متقدّماً ضمن حدود المقرّ الخلفي للفيلق الثالث، وكذلك فعلت مديرية الخدمات النفسية التي تشمل نشاطها التعبوي تقييم الموقف النفسي المعنوي لكلا الجانبين، ورفع التقارير المفصّلة عنها إلى مقرّ الدائرة، ومنها إلى القيادة العامّة، ويشمل تدقيق ومراجعة المتحقّق من المهامّ المنجزة طوال النهار، ثم إعداد النداءات والمنشورات حسب تطوّر الموقف القتالي، وأخيراً التهيو إلى اليوم الذي يلي، هكذا استمرّ النشاط لعدّة أيّام بات الأثر النفسي السلبي للمعركة واضحاً تأثيره على الطرفين، وعلى قدرتهما في التمسك بالمواقع القتالية، وبات القتال وجهّاً لوجه، اقترب فيه مقاتلو الطرفين من بعضهم أمتاراً تصل إلى الخمسين في بعض الأحيان، وتبادلاً المواقع أكثر من مرّة، ساءت خلالها المعنويات، وتوجّه الطرفان

إلى بثّ الرسائل والنداءات والمنشورات لمزيد من التأثير على المقابل، من جانبه استخدم الجيش الإيراني لهذا الغرض مكبرات صوت تقليدية لا يزيد مداها الأقصى عن (200) متر، تبثّ نداءات تُسمَع في الحاقّات الأمامية بشكل واضح، تركّز على إثارة الضدّ من صدام، تتناوله شخصياً (على وفق المبدأ النفسي تفريد الخصم)، وعلى مفردات وعبارات دينية شيعية الطابع، ولم يرصد له أيّ نشاط في رمي المنشورات، ومن جانبنا العراقي تمّ استخدام ثلاث مفارز أرضية بقدرات صوت مباشر تصل إلى حدود (2000) متر، ومفرزة جوية تؤمّن مدى أبعد من هذا، تبثّ نداءات تُدَكِّرُ المسلمين بالسلام وترك الأحقاد، تحمّل القيادة الإيرانية العليا، الإمام الخميني على وجه الخصوص (وعلى وفق المبدأ ذاته لتفريد الخصم) مسؤولية استمرار القتال بين الدولتين المسلمتين، وهذا الكمّ من الخسائر بأرواح المسلمين، مع إلقاء مليون منشور بطلعات متكرّرة من طائرتي (PC7).

بقي الموقف على حاله، فزاد الإلحاح من قبل القيادة العامّة على الحسم، ضغطاً معنوياً، ترافقه توجّهات للمحاسبة وتحميل الذنوب، وفي خضمّ هذه الأجواء الحسّاسة والخطيرة، وبحدود الساعة العاشرة مساء الليلة الخامسة للمعركة، وبعد أن عادت المفارز النفسية من عملها متعبة، وتوجّه أمروها والمختصّون لكتابة التقارير وتحليلها والتقييم، أرسل عبد الجبار في طلب الحضور الفوري إلى مقرّه الجوّال قائلاً بعصبية غير معهودة: أخذ العدو يبثّ نداءات مباشرة تجاه قطعائنا، ماذا فعلت مديرينكم في جهدها النفسي؟ وكان الردّ:

- إنّنا لا نملك سلطة على العدو كي نأمره بالتوقّف عن البثّ، فهو له جهده النفسي يتحكّم به، ولنا جهدها الذي نتحكّم به.
- وماذا فعل جهدكم؟

- إنَّنا، وعند اتِّصال أمر اللواء التسعين، الذي يقاتل في الأمام مبيِّناً سماع النداءات الإيرانية بوضوح، تحرَّكت مفرزتان أرضيتان إلى موقعه، بثَّت نداءات إلى القوَّات الإيرانية باللغة الفارسية، وحولت من اتجاهاتها إلى قطعائنا، وجَّهت لهم نداءات لرفع المعنويات كنوع من العمل النفسي الوقائي.

- وماذا عن مستويات التأثير.

- ما زلنا في مجال التحليل، وكتابة التقرير اليومي، إلَّا أنَّا وعلى سبيل القياس والمقارنة لا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ بثَّهم الصوتي غطى بعض الحاقَّات الأمامية لعدَّة أمتار، تفاوتت المسافات فيها لما لا يزيد عن خمسين مترًا في العمق، بينما تجاوز بثَّ مفرزنا قطعات الصولة خاصَّتهم، وصل في الغالب إلى الاحتياط القريب، وشمل مساحة أوسع.

ردَّ، ومازال في حال عصبية غير مسوَّغة: هذا لا يكفي.
فكانت الإجابة:

- إنَّ الإجراء التعبوي الصحيح في حالات مثل هذه يتمثَّل بقيام هيئات التوجيه السياسي الميداني تتابعًا من الفوج إلى الفيلق في تحمُّل مسؤولية التعامل مع البثِّ الصوتي المقابل، ونفاذي أثر الدعاية الموجهة، ويقع على عاتق الأمرين القريبين من مصدر الصوت معالجته بالهاونات.

أخذ نَفْسًا عميقًا من سيجارة لا تفارق أصابع يده، حتى تركت عليها آثار لون كالحنَّاء، ثمَّ عاود السؤال: وهل أسكتت هاونائنا مصدر الصوت؟ فكان الردَّ:

- لقد أبلغنا أمر اللواء بالرأي النفسي، وهو الذي يفترض أن يتابع، وكذلك ضابط التوجيه السياسي للواء.

اكتفى عبد الجبار بتوجيه اللوم على الجهد النفسي التعرَّضي في هذه الحادثة، للتخفيف من على عاتقه لومًا قد يكون تعويضًا عن لوم آتاه من لدن الرئيس، وانتهى الحال بالاستئذان بغية

التهيه لأعمال الغد، وفي حدود الساعة السادسة من صباح اليوم التالي، أقلعت المفزة الجوية من مقرّ الفيلق في البصرة إلى مقرّ الرف في ديالى، وتركت مطالعة عند مكتبه تُبَيِّنُ أنّ من يدير هذا الجهد مجاز دراسياً لمدة سنة، لكنه لم يتمتع بها طوعاً لظروف الحرب، وسوف يتمتع بها من اليوم، لكنّه، وبعد مضي 24 ساعة على الحادث اتّصل هاتفياً، مبدئياً اعتذاره في توجيه اللوم، عازياً ذلك إلى انفعالات المعركة، وفي الإجمال لم يكن عبد الجبار في هذه الواقعة عدوانياً، كان عملياً يودّ النجاح، وحماية نفسه من غضب الرئيس، وكان منطقياً، ليس لديه استعداد للتفريط بالكفاءات.

.....

نوقشت رسالة الماجستير عام 1987 بامتياز، ومن بعد إتمامها، والاحتفال بألمسية أقرب إلى الخاصّة في فندق الرشيد، عاودت فكرة الدراسة خارج العراق بالظهور، أو بالأحرى عادت إلى سابق عهدها جادّة، آخر قبول للدراسة جاء من جامعة كولورادو الأمريكية، رفضت رئاسة الجمهورية الموافقة، ووجّهت أن تكون حصرياً في داخل العراق، وأن تهَيَّ الجامعة الأساتذة المختصين في موادّ علم النفس السريري، الذي تحدّدت الدراسة في مجاله، إذ لم يكن في العراق مختصون في هذا المجال، ولم تهَيَّ الجامعة لاحقاً أيّاً من المختصين من خارجه، هكذا كانت الجامعة، ومثيلاتها دوائر الدولة، تتعهد قبل الشروع، لكنّها تتغاضى من بعده، أي عند التنفيذ، أو تتنصل، حجج مسؤوليها قريبة من أطراف ألسنتهم تتعلّق بمقتضيات الحرب، وبعد انتهائها كانت الحجج مقتضيات أيضاً لإعادة البناء.

انتهت الحرب مع إيران، وأعلن كلّ طرف نصره المؤرّر على الطرف الآخر، واستشهدا معاً بآيات من القرآن، من جانبه فسّر صدام نصره: بقاء له وحزبه في الموقع شامخاً، وعجز

الإيرانيون عن إسقاطه، وفُسّر الإيرانيون النصر على الشاكلة ذاتها: فشل صدام بإسقاط ثورتهم.

وبعد أشهر من الشروع باستحصال موافقة رئاسة الجمهورية على الدراسة، حصلت الموافقة على أن تكون في كلية الآداب جامعة بغداد، حاول عبد الجبار الحصول على استثناء للاستمرار في إدارة المديرية قبل الانفكاك مع السير في طريق الدراسة، كما حصل من قبل في مرحلة الماجستير، لكن الوضع قد تغيّر، والحرب وضعت أوزارها، وديوان الوزارة لم يوافق على المقترح، فجرى الالتحاق بعد أسابيع إلى مديرية التأهيل العلمي، ومنها إلى كلية الآداب، واستلم الإدارة مدير للخدمات النفسية العقيد محمد، ضابط توجيه من صنف المشاة، لا دراية له بمعطيات علم النفس.

فتحت جامعة بغداد صفًا لدراسة الدكتوراه كنت فيه الوحيد، نسّبت الأستاذ الدكتور موفق الحمداني مشرفًا من جهة علم النفس⁶⁵، ومن الطب النفسي الدكتور عدنان عباس فضلي⁶⁶، وكانت الدراسة على وجه العموم سلسلة، ومحاضرات تتم في الغالب داخل مكاتب الأساتذة المحاضرين، وفي نهاية السنة الدراسية الثانية صيف عام (1990)، وبعد تحديد عنوان الرسالة (دراسة المخاوف المرضية، الرهاب والعلاج المعرفي لها)، تمّ السفر إيفادًا دراسيًا إلى بريطانيا شهرًا واحدًا ضمن البرنامج

⁶⁵ موفق، من أوائل التربويين، خريج الجامعات الأمريكية، درّس مادة علم النفس لعدة أجيال في كلية الآداب جامعة بغداد، أستاذ قدير، له مؤلفات، امتاز بتعونه غير المحدود مع الطلبة، خصوصًا طلبة الدراسات العليا، ترك العراق بعد عام (2003) وعاش في استراليا.

⁶⁶ عدنان أخصائي في الطب النفسي، من جيل الأطباء النفسيين الأوائل في العراق، خريج بريطانيا، عمل أستاذًا للطب النفسي في كلية طب الموصل، ثمّ جامعة بغداد، ترك العراق بعد (2003) واستقرّ طبيبًا في الإمارات، وعاد منها إلى أربيل، شخصية مهنية وعلمية جيّدة.

الدراسي للاطلاع وجمع المصادر، فكانت الوجهة جامعة ألستر في أيرلندا الشمالية بمشورة من الدكتور عامر عباس الذي درس فيها من قبل.

في ربيع لندن

حطّت الطائرة القادمة من مطار هيثرو اللندني في المطار الايرلندي بلفاست بعد الظهر، كانت في الانتظار سيدة ايرلندية، زميلة الدكتور عامر يوم كان طالباً، موظفة في مكتبة الجامعة، اقترحت نزلاً بسيطاً (Guest house) بضواحي ألستر مستقرّاً لقربه من الجامعة نسبياً، تديره سيدة اسكتلندية تجاوزت الخمسين بقليل، تحتفظ ببضع كلمات عربية أثراً باقياً من صديق لها أيام الشباب، مصري درس الطيران، كان نزلها مريحاً يفي بالغرض، وكان الوقت كافياً لعمل سهرات شبه يومية في بار قديم على البحر، يحمل صوراً وذكريات بحارة ايرلنديين، ومهاجرين من أهل الجزيرة إلى أمريكا قبل مئتي عام، تكوّنت فيه علاقات صداقة مع مجموعة من روّاده التقليديين الودودين، أسبوعان من الوقت مرّاً سريعاً، أعقبهما ليلتان في أذنبرة، العاصمة الاسكتلندية، الجميلة، في طريق العودة إلى لندن، كان في الاستقبال الرائد الطبيب طارق الكبيسي، زميل الشعبة (14)، يدرس الدكتوراه في جامعة لندن ضمن برنامج الشعبة لتطوير الكادر النفسي آنذاك، ليلة قضى نصفها تجوالاً في المدينة التي أراها للمرة الثانية، مدينة حافظت على نظامها وطرازها، وخرائط شوارعها، وصَلّتها في اليوم الثاني بشرى، قادمة من بغداد، لقضاء الأسبوعين المتبقين معاً، فرصة اطلع وترويح. قلتُ في اليوم الذي تلا، أو بالمعنى الأدقّ، طرحت فكرة استدعاء الأولاد إلى هذه المدينة، سعياً للبقاء فيها دون العودة إلى

البلاد، ولمّا استفسرت لماذا؟ أجبت بقدر من التفصيل: لقد تلبّدت الغيوم فوق أجواء بغداد، باتت معالم حرب أخرى من نوع آخر وشبكة الوقوع، سيضحي المستقبل من بعدها مجهولاً، وأضفتُ هناك علامات تطوّر للصراع مع الكويت لمستوى الحرب، حرباً، إن وقعت، ستجلب الدمار على البلاد وأهلها والعباد، ردت بسرعة، ومن دون التعمّق بالتفكير: أرفض هذا الرأي بشدّة، لأنّ تنفيذه يعني هرباً سيدفع الأهل ثمنه غالباً، ثم إنّ عيشنا في بغداد مقبول، وقد أسسنا في ربوعها بيتاً وعائلة، وقدراً من الرضا عن الحياة، كيف لنا أن نقحم أنفسنا بحياة جديدة تماماً، وبداية من الصفر، وعيش غير مضمون.

لقد انتهى النقاش سريعاً، وراحت الفكرة طيّ الكتمان، إلى وعاء المكبوت، لكنّها عادت من جديد على شكل عتب فيه قدر من اللوم، بعد أيام من العودة إلى بغداد، وبالتحديد يوم الثاني من آب (1990)، اليوم الذي هجم فيه صدام على دولة الكويت، وأسقطها بعدّة ساعات.

كان ذاك اليوم، يوم جمعة، لنا في صباحه موعد مع الصديق غانم أبو رغيف، لشراء سمكاً إلى عشاء عائلي (شوي في التنور) مشترك في بيتنا المبني حديثاً قرب جسر الصرافية، وصلنا العلوة (محلّ بيع الأسماك بالجملة) في صوب الكرخ بعد الساعة الثامنة صباحاً، بانّت وجوه الباعة والمشتريين مكفهرة، يخيم القلق فوق أسطح جلودها الناشفة، ردّ أحدهم باستهزاء ألم تعلموا أنّنا أخذنا الكويت، وردّد آخر، أغنية تتكرر في الأعراس (جينا وجينا، وجبنة العروس وجينا)، وتبين أنّ الجيش العراقي قد دخل مدينة الكويت وأتمّ احتلالها.

من حرب الى حرب

وصلت الأسماك طازجة، لم تتأثر وإيانا بإجراءات الاحتلال وإسقاط الدولة الجارة، ولم تلقت الدولة إلى مجتمعا الذي انقسم بين منتش بنصر آخر، يضيفه الرئيس إلى انتصاراته الوهمية، وبين خائف متوجس من قرار عزل قد يتحذه الرئيس بحق ذوي الاختصاص من قادة الجيش وباقي مؤسسات الدولة المعنيين بتنفيذ أوامر الحرب، بينهم وزير الدفاع الفريق الركن سعدي طعمة ورئيس الأركان الفريق الركن نزار الخزرجي، كان قد تصادف وجود وزير الدفاع في الاستوديو الخاص بالتصوير الفوتوغرافي العائد إلى دائرة التوجيه صباح يوم الحرب 2 آب 1990، ليأخذ صورة، قال اللواء منذر مدير الدائرة الذي كان في استقباله من أن الوزير كان مذهولاً، عبّر عن ذهوله بالقول (إنه علم بالعملية من راديو السيارة، وهو في طريقه إلى الاستوديو)، ولما تبادل هو ومنذر أطراف الحديث بغية التعرف أكثر وتأمين الاستعدادات اللازمة معنوياً، أجابه أنه لا يعرف شيئاً عنها، وليس لديه أية توجيهات بصدها، وكذلك قال رئيس أركان الجيش فيما بعد (إنه هو الآخر عرف أمر الحرب من خلال الراديو).

لقد عمل صدام في معزل عنهم، مقتصرًا في الشأن على المخابرات والحرس الجمهوري، وكبار العائلة، كان في الواقع يجيد تأمين فنّ المباغتة، ويحسن تحقيق أبعاد السرية، لا يحسب الفشل المحتمل في تقادير الموقف، لكن غانم الذي وصل هو وعائلته أولاً، حسب التبعات، والنتائج حولها تسفيهاً لأجل الترويح عن فرط الأثر، راح يهزّ يده اليمنى، ومع دورانها قال: بلّغوا الرفاق أننا أخذنا الكويت.

وصلت من بعده عائلة نصير مسكوني، فتحول الهمّ نقاشاً بصوت خافت طوال المساء تجاه التوقّع واحتمالات الخطر، والتداعيات اللاحقة، بدأت أولى التداعيات رفضاً دولياً شديداً، قادته أمريكا وبريطانيا، ومطالبات بالتوقّف والانسحاب، بطريقة تبدو كأنّها متعمّدة لإثارة العناد في نفس صدام، وتحقّق هذا، إذ أصرّ على البقاء، وأصرّت الدولتان اللتان قادتا تحالفاً على تهديده، وتحديّيه بالطريقة ذاتها التي تبقّيه في الكويت فحاً منصوباً إلى بداية العام اللاحق (1991)، لقد تعاملت أمريكا مع صدام بنيات مغلفة، تأسّست على فكرة الإثارة والتحدّي، وعلى وفقها باتت تعطيه من بؤابة العظمة جرّعاً نفسية إعلامية تشعّره فيها بالقوّة، ومن باب الإحباط تطرح أفكاراً، وتقدّم مقترحات ومشاريع قوانين تدفعه تجاه التحدّي، تنتظر منه الاستجابة محصورة في مآهة تخرجه حتماً من باب واحد مسيطر عليه، باب الحرب هي المفتوحة، هكذا كان التعامل النفسي مع المواقف، والقرارات التي اتّخذها منذ دخوله الكويت، وحتى وقف إطلاق النار، إذ لمس الضبّاط العاملون في الكويت على سبيل المثال رغبته بالانسحاب منها بعد ثلاثة أيّام من دخولها، وتهيبته الوحدات لتنفيذ الأمر، لكنّه عاد ليطلب منها البقاء، متحدّياً العالم والقوانين، وبقيت أمريكا تستجمع قواها وتزيد من حلفائها، منتظرة ساعة شروع حدّتها في تمام الساعة (0230 يوم 1991/1/17)، حسب التوقيت المحلي للعراق الطرف المقابل، في تلك اللحظة من الساعة المشؤومة، شتّت الطائرات الحربية المتحالفة غارات على بغداد، وانطلقت صواريخ توما هوك من سفن بعيدة عن بغداد، استهدفت في الضربة الأولى مقرّات القيادة العامّة للقوات المسلّحة، وبنائية وزارة الدفاع ورئاسة أركان الجيش، وقصوراً رئاسية يستخدمها الرئيس مقرّات لإدارة الحرب، ومبنى الإذاعة والتلفزيون، ومحطّات

الكهرباء الرئيسية، ومقرّ قيادة القوّة الجوية وقاعدة الرشيد الجوية، كذلك مطاري صدام الدولي والمثنى، ومطار البصرة، وقيادة الدفاع الجوي، وقواعد الصواريخ المضادّة للطائرات، ووسائل الاتّصال الهاتفي (البدالات)، وألحقوا من بعدها أهدافاً أخرى مهمّة في عموم العراق، كان القصف شديداً كأنّه قريب، كأننا في ساحة معركة، تسبّبت الاهتزازات الناتجة في إيقاظ أهل بغداد من نومهم، نهضت بشرى مرعوبة، طلبت قبل كلّ شيء إحضار الأولاد إلى ملجأ البيت القائم تحت الأرض، توجّهت مسرعاً إلى غرفة لويذاء التي استجابت على الفور، وكذلك مصطفى، أنزلتهما معاً إلى غرفة النوم، تمدّدوا على السرير أملاً في إكمال نومتهم، كأنهم لم يأبهوا لأمر الحرب، بقيّ أشرف عصياً على النهوض، يؤسّس من إمكانية إيقاظه فحملته بطريقة العسكر لحمل الجريح، ونزلت السلالم من الطابق الأعلى، ولما استقرّ جوار أخوته، عدلت بشرى عن رأيها في النزول إلى الملجأ، أصرت على الذهاب إلى بيت أهلها في حيّ المغرب، فتحوّلت الوجهة إلى السيارة، وفي دقائق وضعت الحاجيات المهمّة في حقيبتها، وأجلست الأولاد في حوضها الخلفي، واستمرّ أشرف غاطّاً في نومه، دار محرّكها، مع انطلاقة صفّارات الإنذار، وانطفأ مصابيح الشوارع، والبيوت، في لحظة بدت المدينة كأنّها ساحة حرب، وبدأت السياقة عبر الشارع المارّ في حيّ الكسرة، مشكلة لا تخلو من خطورة، ومن صعوبة التعامل مع جنود نزلوا الساحة متوتّرين، ومنتسبين للجيش الشعبي، وحزبيين ملؤوا الأرصفة كذلك متوتّرين، همهم الوحيد إطفاء المصابيح، في ظلمة تدفع السائق لا إرادياً فتحها، لحظات يتحسّس خلالها مخاطر الطريق، وحال فعلها يهجم عليه أولئك المتوتّرون جماعات، كأنّه العدو، أو الجاسوس الذي يدلّ طائرات العدو على الأهداف المهمّة، يضربون بدن السيارة عقاباً، يمدّون

مواشير بنادقهم إلى داخلها تهديدًا بعقاب أشدّ.. مجنون من يقول إنّي ضابط أو مسؤول ويدخل معهم في نقاش، فالضبط والسيطرة تحوّلت ملكيتهما إلى حملة البندقيات، هم المسيطرون، وهم من جعل السير بطيئًا، استغرقت طواله السيارة إلى بيت الجدّ عشرين دقيقة، مسافة كانت تقطعها في الظروف العادية بأقل من أربع دقائق، تبين عند الوصول أنّ بيت الجدّ آل رشيد هم أيضًا مستيقظون، يحاولون الاطمئنان على أولادهم والأحفاد عن طريق الهاتف، لكنّهم فشلوا، فالهواتف الأرضية قُطعت هي الأخرى كما الكهرباء، وعوّضوا فشل الاتصال توجّهًا لإعداد فطور مبكر على بصيص ضوء الشمعة، وعلى ذاك البصيص، نوقشت الخطوة التي تلي.

هروب من وسط بغداد

كانت الخطوة التي تلي، خروجًا سريعًا لعوائلنا من بغداد التي تعرّضت إلى قصف أصاب أهدافًا مهمّة يسهل الاستدلال عليها من أغطية الدخان، وانفجارات الصواريخ، بدأ تنفيذ هذه الخطوة بعد الشروق، تواصلًا مع الأقرباء، مشيًا أو بالسيارات، كانوا جميعًا متّفقين على الخروج من دون نقاش، تجمّعوا عند بيت الحاج رشيد، وعند اكتمال تجمّعهم بحدود الساعة الواحدة ظهرًا، انطلق رتل السيارات تجاه مدينة الحلة، المنفذ الوحيد للتخلّص من وهج القصف على بغداد، ومنها إلى ناحية النيل، كان في الاستقبال الصديق وابن الخالة خضير (أبو لقاء): مرحبًا. كان خضير مدير مدرسة النيل الابتدائية، ووجهًا من وجهاء المنطقة، وزّع القادمين، ستين شخصًا من الكبار والشباب والأطفال على بيته والشعبة الزراعية، صار في الغرفة الواحدة أكثر من عائلة، وشباب احتلوا الممرّات، بعضهم أخذ من الحمام

سكنًا، تبع في اليوم الثاني غازي العياش مع زوجته الألمانية كارينا وولده، لم يعد في النيل مكانًا شاغراً، سوى المدرسة الابتدائية، لم تكن صفوفها وغرف المعلمين ملائمة في تلك الأجواء الباردة، ولم تكن الحمامات مواتية لاستخدام سيدة ألمانية تحسّسها في أمور النظافة عالٍ جدًّا، أبدت كارينا حيرة من أمرها أدخلتها نوبة اكتئاب، ودفعت غازي طلب النجدة، مبدئًا استعداده صرف آلاف الدنانير للحصول على سكن ملائم حتى لو اشتراه، فكان الصديق الحلّي حميد الجودة المقصد هذه المرّة، رحّب باستضافتهم في بيته جنوب المدينة، قريباً من معمل الحرير، عمل من غرفتي الضيوف، والطعام جناحاً معزولاً، وجده غازي أكثر من ملائم.

لم تكن الحياة طوال الأيام التي استمرت للعيش في منطقة النيل سهلة، فالعدد الذي قارب الستين، بحاجة إلى طعام، وإلى استحمام، وغسل صحون، وعادات الريف يصعب استيعابها من أهل بغداد، لكنهم تقبلوها بروح رياضية، فكانت النساء تذهب إلى جدول النيل لغسل الأواني والصحون بمتعة الاطّلاع على حياة الريف، وتستخدم الحطب للطهي، وكان التوجّه إلى سوق الحلة، ومن ثمّ خزين الثلاجات في بغداد من مسؤوليتي، مهمّة زاد نقص البنزين والسوق السوداء التي تكوّنت على الفور من صعوبتها، وفي المقابل عاود صدام يوم 23 كانون الثاني ضرب إسرائيل، أعلن في بيانه الرقم (16) أنّه ضربها باقتدار، ومن بعده أسبوعان خفّت وطأة القصف قليلاً، أو هدأ، وبدأت آثاره واضحة في إعلان الحكومة وقف بيع الوقود إلى المواطنين، وتقنين توزيعه إلى دوائر الدولة، لتضيق معالم حصر، وضيق أخرى على المواطنين، وهم يعانون انقطاع التيار الكهربائي والاتّصال الهاتفي، والماء، وعودة إلى ماضي الزمان يوم كانوا يستخدمون شرائع النهر لغسل الملابس والصحون، وملء

الجرار للارتواء، أيام سبعة مرت من بعدها بغداد في حالة هدوء نسبي، تحوّل إثرها القصف صوب أهداف في مدن أخرى بينها الحلة، فتساوت مستويات الخطر، وشحّت الموارد، وعاد الستون نفرًا إلى قواعدهم البغدادية سالمين، وعادت العلاقة العسكرية بدائرة التوجيه المعنوي، بعد توقّف الدراسة، وصدور أمر رئاسي بالتحاق المجازين دراسيًا إلى دوائرهم الأصلية.

كان اللواء الركن منذر عبد الرحمن قد استلم مسؤولية إدارة الدائرة من عبد الجبار إثر نقل الأخير إلى رئاسة الجمهورية بصفة مستشار، لم يكن أمر العودة والالتحاق بالدائرة مثيرًا، إذ كانت الزيارات قائمة لمقرّها في أوقات الفراغ بحكم العلاقة مع منذر، وكذلك كانت العلاقة مع اللجنة النفسية لديوان الوزارة شبه مستمرة، تحوّلت بعد الالتحاق إلى علاقة رسمية، حثّمت حضور اجتماع لها نوقش فيه الوضع النفسي العام بعد أسبوعين من بدء القصف، نجم عن الاجتماع اقتراح لتأسيس مركز نفسي متقدّم، يُفتح في البصرة، لإدارة العمليات النفسية والمعنوية، ثمّثل فيه الشعبة (14) والتوجيه المعنوي واللجنة النفسية، والشعبة النفسية لمستشفى الرشيد العسكري.

قال منذر بعد أيّام من الالتحاق إلى دائرته، يمكنك التواجد في مقرّها بالوقت الذي تشاء، وأكّد توجيهه لتهيئة مستلزمات تأسيس المركز النفسي، أجبته أنّ فرصة التعرف على الواقع واكتساب خبرات معركة لا تعوّض، رحب الرجل، نوّه إلى أنّه كان راغبًا في الرفقة والاستفادة من التخصص، لكنّه كان متوجّسًا من احتمالات الرفض.

ما بين البصرة والكوفة

حلّ المغيب كئيبيّاً على البصرة، مصحوباً بحزم قلق متوالية، امتدت خيوطه إلى مقرّ القيادة العامة المتقدّم، بيتاً في أحد أحيائها الراقية، أجاب الفريق الركن سلطان هاشم معاون رئيس أركان الجيش للعمليات عن تساؤلاتنا حول الموقف العسكري في عموم الجبهة، قدّم إيجازاً فيه إجابات مفصّلة تبين أنّ العدو قد انتقل بعد الخامس من شباط في موضوع القصف من أهداف داخل المدن، إلى التركيز على المقرّات العسكرية في الجبهة، وعلى طرق التنقّل والإمداد، وخطوط الاتّصال، وبالمناسبة أعلنت قيادة الحلفاء في بيان لها حمل الرقم (22) أنّ الطلعات الجوية على العراق بلغت أربعاً وخمسين ألف طلعة، ألقي فيها ستون ألف طن من القنابر، لم تُشير في بيانها إلى طبيعة الأهداف المقصوفة، ولا إلى أماكنها داخل المدن أو خارجها، وعموماً كان القصف على الأهداف العامّة شديداً، أشعر المواطنين باليأس، وزاد من نسب الكآبة وهبوط المعنويات، بعد أن قطعت غالبية الطرق المؤدّية للتواصل بين المدن الرئيسية مثل البصرة، والعمارة، وباقي أنحاء العراق.

حال إكمال معاون إيجازه، كلّف أحد ضبّاط ركنه التنسيق مع الجهد العسكري لتحديد مكان إلى المركز، أخرج ذاك الضابط من حقييته أوراقاً وخرائط، أشار إلى مدرسة ابتدائية في أبي الخصيب، قال هي المكان الأنسب، تمّ استطلاعها ليلاً، وتوجيه الجهد الإداري الخاصّ بالدائرة لتهيئتها، وإشعار الجهات المشاركة بموقعها، فتوافد الضبّاط المشاركون أعضاء في المركز: أربعة ضبّاط أطباء نفسيين، والعميد سعد في مجال علم النفس وضبّاط من الشعبة (14)، بدأوا العمل في المركز على الفور بإمرة اللواء منذر، وكان عملاً معنوياً مقيّداً يختلف عن

ذلك الذي كان جاريًا إبّان الحرب العراقية الإيرانية، إذ لم تتمكّن المفارز الجوية من الطيران، ولم تستطع آليات المفارز الأرضية الوصول إلى جميع المواضع، لتنفيذ خططها في رفع المعنويات، أمّا العمليات النفسية الموجهة إلى العدو فقد أغلق باب نشاطها بشكل كامل، وتغيّرت صيغ العمل، لتقتصر على تقييم الحالة المعنوية لقطعاتنا، وكتابة تقارير عنها، تُرسل كلّ يوم إلى القيادة العامّة، وعلى متابعة الوضع النفسي للقادة والأمّرين، سعيًا لتقديم الدعم المناسب بالقدر الممكن، لكن هذا عمل صعب، إذ كان من غير الممكن تجاوز عقبات الوصول إلى المقرات الأمامية في كثير من الأحيان، بسبب قصف مدفعي وجوي طوال الليل والنهار، وانتشار واسع لمواقع الملاجئ والمواضع التي لا يرحّب أصحابها بالوصول إليهم، خشية كشفهم لعدوّ يترصّدهم باستمرار.

كان القادة والأمّرون القلّة الذين تمّ اللقاء بهم مباشرة في ظروف صعبة، يخفون تحت أغطية سلوكهم الظاهري معالم عدم رضا عن المواجهة غير المتكافئة مع الحلفاء، ويأس من إمكانية الدفاع عن مواضعهم في حرب يجهلون غايتها، القلّة من بين القلّة صريحون يعبّرون عن مشاعر معنوية هابطة بشكل مغلف، يحاولون وصف معنويات الجنود (شفويًا) بالهابطة من خلال الإسقاط النفسي لمعنوياتهم، مع الأخذ في الاعتبار أنّ القصف الشديد، وتقييد الحركة في المواقع والملاجئ، يتسبّب، وكتحصيل حاصل، في هبوط المعنويات... حقيقة بدت واضحة على استجابات وسلوك المراتب، وانتقلت بالتدرّج إلى الضباط الأعوان ثمّ القادة.

قال العميد الركن حسام (صديق موثوق) في جلسة معه على انفراد داخل مقرّ قيادته تحت الأرض على تخوم الحدود السعودية الكويتية، قبل الهجوم البرّي المعادي بيوم واحد: (لقد

أخطأت القيادة في تقدير الموقف وقبلت المنازلة، ستدّمر بقرارها قدرات الجيش، كم أتمنى لو يهجم العدو، ويأخذنا أسرى على أن يحاكم هذه القيادة)، لقد تنبّه حسام، وعلى الرغم من الثقة المتبادلة إلى خطورة قوله بعد أن رَوّح عن نفسه بإخراج هذه التمنيات المكبوتة، وعاد إلى وعيه قائلاً: (إنها مجرد تخريفات، سوف نقاتل إلى آخر نفْس لنا)، لكنّها في الواقع كانت استجابات إحباط، ورغبات إخراج المكبوت، مثلها كان يخرج الكثير من أفواه الضباط والمراتب، يجمعُ من قبل الضباط الاختصاصيين، وأمري المفارز الأرضية أثناء زيارتهم إلى المواضع التي يستطيعون الوصول إليها، يُصاغ تحليلها والمشاهدات المباشرة على شكل تقرير في اجتماع مسائي لاختصاصي المركز، يحضره اللواء منذر (في تلك التقارير والمسودات التي يرفعها ضباط التوجيه وأمري المفارز، يتمّ تجاوز ذكر الأسماء، وتجنّب تفاصيل القول السلبي الصريح، لقد تعودّ جميع ضباط التوجيه (وهم محقّقون) لِي الحقيقة بطريقة تجنّبهم وأصحابها الملامة والعقاب، لذا كانت مجموعة الاختصاصيين تلجأ إلى مناقشة صاحب التقرير أحياناً لغرض الوصول إلى الحقائق غير المكتوبة، منها ومن مشاهداتهم المباشرة تعد صياغة مقبولة لتقارير الحالة المعنوية، والتي لا تخلو أحياناً من سبل الالتفاف على الحقيقة، لكنّها على شكل العموم تُحسب في تلك الأيام جريئة، وضعت بعض النقاط على الحروف في حالات تتعلّق بهرب الضباط، وتدّني مستوى الأداء والمعنويات)، كانت الاجتماعات مقتصرة على الاختصاصيين النفسيين ومنذر تحسباً لتفسيرات غير الاختصاصيين وتأويلاتهم، خاصّة ضباط التوجيه، يحضرها بدافع الفضول بين الحين والآخر وبموافقة منذر، مدير الشعبة الإدارية، العميد منعم الشخيلي، صار بتكرار الحضور مشاركاً في الحديث، يتفاعل مع الأعضاء في جلساتهم

الخاصّة، يؤدّي مهامّ زيارة وتفقّد هيئات التوجيه في مقرّات الفيلق والفرق مع المفارز مندوباً عن اللواء منذر، وفي إحدى زيارته مقرّ الفيلق الثالث التقى العميد جابر عسّود أمر تموين ونقل الفيلق، من ملجئه اتّصل هاتفياً، لتأكيد الصداقة المشتركة، أخذ جابر التلفون من يده، قال سأرسل مع منعم عشرين لتراً بنزين دعماً، سألت منعم عنها في المساء أنكر استلامها، بينما أكّد جابر حقيقة الإرسال، عاتبته، وتطوّر العتب إلى اتّهامه بالسرقة، وبّخه منذر شفهيّاً، فتوعّد أمام ضباط، بينهم عبد الاله الخرجي، كتابة تقرير حزبي عن بعض ما كان يجري من أحاديث في المركز، نكرها أمام منذر، وطمأنه بعدم جدية الموضوع، لكنّه فعلها حال انتهاء أعمال القتال: (كان لمنعم أوليات بالسرقة، ويشار إليه في الأحاديث الخاصّة بين ضباط الدائرة أنّه صاحب سوابق، ويشار أيضاً إلى مجلس تحقيقي قد شكّل عليه في الاستخبارات العسكرية منتصف الثمانينات، بتهمة سرقة بنادق، وتمّ غلقه حزبياً).

.....

كان العمل العسكري، والاستحضارات التي تجري على الجبهة منتصف شباط تشير جميعها قرب الشروع بالهجوم البرّي الذي أرادت القيادة العراقية جرّ الحلفاء إلى الشروع بتحقيقه مبكراً، أي بوقت يقترب من بدايات القصف الجوي يوم كانت الإمكانيات العسكرية، والمعنوية في جانبها ميسورة بدرجة تعتقدها مقبولة، يمكن أن تعينها على المقاومة لمدة أطول في ظروف قتال غير متكافئة، لكنّ الحلفاء، وهم يمسون زمام المبادرة، هم من حدّد بداية الهجوم برّاً بضوء عدّة اعتبارات، أهمّها المعنويات التي يريدون إيصال مستوياتها عند المقاتل العراقي حتى حلول الموعد إلى أقلّ ما يمكن لضمان النجاح بقليل من الخسائر، ويريدون تعجيز أعضاء القيادة العامّة بإيصالهم إلى

مستوى من اليأس، يقبلون بسببه وقف الحرب لاحقًا بشروط هم يحدّدونها، نجح الحلفاء في ذلك، ونجحوا في تعجيز القيادة العامّة، وتقييد قدراتها على التحرك، حتى لم تعد عند حصول الهجوم قادرة على فعل شيء سوى السماع.

قال الفريق الركن حسين رشيد خلال مناقشة أحد تقارير المعنويات قبل أيام من الهجوم: أوجزونا بالحالة النفسية العامّة للجيش، ولمّا أخذ هو وباقي الأعضاء وضع المستمعين، قلت هناك ارتفاع كبير في نسب الخسائر بالأرواح والمعدّات بين قطعتنا، تعني هبوطًا بالمعنويات، وضعفًا بدافعية القتال، زادت نسب الغياب، والهرب بين المنتسبين، بينهم ضباط من المجندين والاحتياط، مشيرًا إلى فقدان، أو قرب فقدان السيطرة، وتصدّع الضبط، تضاعفت مستويات التسرّب من المواضع الأمامية إلى الخلف، لتكون أشبه بالمنظمة، عندها التفت الفريق حسين إلى أحد ضباط ركنه، أصدر أمرًا له بإعادة صياغة التقرير المعنوي، وإرساله فورًا إلى القائد العام، كان هو وباقي أعضاء القيادة أقرب إلى اليائسين، كأنّهم أدركوا قرب حصول الكارثة التي باتت معالمها واضحة، أمّا دفعهم بالتقرير إلى القائد العام، وبهذه الصيغة الصريحة، فهي في واقع الحال سعي لتفادي تحمّل مسؤوليتها، وتشجيع الفريق النفسي على الاستمرار بتقديم التقارير بهذا المستوى من الصراحة، وإلى اليوم الذي أعلن فيه العراق الموافقة على التعامل مع قرار مجلس الأمن (660) الخاصّ بالانسحاب من الكويت، تنفّس بعضهم الصعداء، وأطلق بعضهم النار في الهواء، لم يفرّقوا بين الموافقة على القرار، والموافقة على التعامل معه، لكنّ تنفّسهم سرعان ما تحوّل إلى إحباط زاد من شدّة الهبوط الحرج للمعنويات بعد أن جاء الردّ من الأمريكان، والبريطانيين، والفرنسيين على أنّها لا تعدو مناورة من صدام، وأغلقوا هذا الباب أمامه، وأبقوا تقويم العدّ

التنازلي لبدء الهجوم البرّي فاعلاً، تتخلّله مناوشات بالمدفعية، وتنفيذ تتابعي لخطط استطلاع بالقوّة، وعمليات جسّ نبض على الحدود الفاصلة بين الوحدات المدافعة.

لكنّ صدام الذي لم يتعود قبول الخسارة، راح يفتش عن صيغة تشعره بعدم الخسارة، إلّا أنّ العدو لم يمنحه الفرصة لذلك، وسيناريو الحرب الذي وضعوه يقتضي دفعه نفسياً لتنفيذ خطواتها إلى النهاية، حتى إنّه، لما أدرك متأخراً هول الخسارة، ألقى يوم 21 شباط خطاباً من مقرّ سرّي أعلن فيه الموافقة على الانسحاب مشروطةً (خطوة تقابل بخطوة)، رفض الإسرائيليون المشروع، وكذلك البريطانيون، واستمرّ الأمريكان مع حلفائهم بتهيئة الأجواء النفسية الدولية لهجوم برّي، واستمرّ جلوس اختصاصيي المركز بعد إنهاء صياغة التقرير المعنوي حول جهاز الراديو على أمل سماع خبر من مونت كارلو، أو صوت أمريكا، والبي بي سي ينصف العراق، يجنّب الحرب المدمّرة، مع قناعتهم التامة استحالة تجنّبها، وكانت كلّ دقيقة تمرّ في وقعها الثقيل كأنّها سنة، حسم انتصاف الليل موقف الترقّب، وأفقدت التناقضات المبطّنة في مواقف الدول والأمريكان أيّ أمل، فتمّ التوجّه مع أحمال من اليأس والإحباط إلى النوم بانتظار ما يحمله اليوم الآخر، وكان حمل اليوم الذي تلا، مهلة أمريكية للعراق في أن يسحب قوّاته من الكويت، حدّدت لها وقتاً لا يتجاوز الأربع والعشرين ساعة، لعبة قط وفأر لعبها الأمريكان، عارفين عناد صدام، الذي دفع حاملي البنادق من أربعة فيالق (الأوّل والثالث والرابع والسابع زائدًا قيادة قوّات الخليج) للبقاء في مواضعهم يائسين، ينتظرون الأسوأ، والأسوأ هي ساعة الشروع بالهجوم البرّي، ليلة (24/23 شباط)، كان ذاك الهجوم متوقّعا ليس بالتأسيس على تحذيرات الاستخبارات العسكرية، كما كان جارياً في الحرب مع إيران، وإنّما عن طريق الحدس،

والتحليل اللذين لم يتبقَّ غيرهما عوامل للتقدير في جانبنا العراقي المُرْهق، وكانت بالفعل، إذ، وبالساعة 0400 من يوم 24 شباط، أُعْلِنَ عن هجوم برِّي لقوَّات التحالف (الأمريكية، والبريطانية، والفرنسية، والتنزانية من الجانب، والمصرية، والسورية، والسعودية، والقطرية، فضلاً عن الكويتية من العرب).

انتظار الهجوم

أعلنت وسائل الإعلام الغربية من طرفها بدء الهجوم شاملاً من كلِّ المحاور، نُوِّهت إلى أنَّ المهاجمين، وبعد ساعات، حقَّقوا خرقاً في الدفاعات العراقية، لمسافة تقارب الأربعين كيلو متر في العمق، لكنَّها لم تحدِّد مكانه، وأضافت أنَّ طلائع قوَّاتهم قريبة من الجهراء، كما أنَّ قوَّات لهم احتلت جزيرة فيلكه، وأنَّ هناك إنزالاً بحرياً قريباً من السواحل العراقية، عندها أرسلت القيادة العامَّة في طلبنا، توجَّهت أنا ومنذر غلى مقرها، كانت بصدد إعلان البيان الرقم (60)، الذي كان مكتوباً، بصيغة لم ينفع إبداء الرأي فيما ورد فيها (إذ يصعب إبداء الرأي النفسي فيما يتعلَّق بكتابة البيانات، أو صياغة التقارير من دون التزوّد بالمعلومات الصحيحة عن الموقف، وكان المركز لا يحصل على المعلومات المناسبة، فضلاً عن تدمير وسائل الاتصال التي حالت دون تبادل المعلومات، لذا كان التركيز في الحصول على المعلومات الصحيحة عن طريق آمري المفاوز النفسية التي تزوّر، وتتَّصل بهيئات ومقرَّات الفيلق التي تتمكَّن من الوصول إليها، وفي ذلك اليوم الأوَّل للهجوم عادت إحداها من مدينة الكويت عصرًا، قال أمرها لا يوجد هجوم على المدينة، وإنَّ قوَّاتنا أحرقت آبار النفط، وغطى الدخان الأسود سماء المنطقة حتى صعب على السيارات

التحرّك في النهار من دون فتح مصابيحها)، كان البيان يشير إلى أنّ فيالقنا المدافعة قد استوعبت الهجوم، لا صحّة لاحتلال جزيرة فيلكه التي يقاتل فيها لواء مغاوير، ولا أساس لإنزال بحري على الشواطئ العراقية، وإنّ مواطئ القدم التي حقّقها الحلفاء تمّ التعامل معها بنجاح، كان المركز ساعتها يجهل الموقف القتالي تمامًا، وبذا لا فائدة من إبداء الرأي، شعرنا في نهاية المطاف كأنّ القيادة تريد أن تجعلنا مجرّد شهود، وفي بيانها المرقم (62) ليوم 25 شباط أكّدت سيطرتها على الموقف، وإنّ الفيلق الثالث نفّذ هجومًا مقابلًا على ما تبقى من موطئ قدم كونه الحلفاء بداية هجومهم، وأعدت التذكير على أنّ الموقف مسيطرًا عليه، إلّا أنّه، وفي الجلسة المسائية للمركز، وبالتأسيس على تقارير ومشاهدات المفارز، تمّ التوصل إلى استنتاج من أنّ الثغرة التي تكلم عنها العدو، ونفاها بيان القيادة العامّة واردة بسبب الموضع الدفاعي للفيلق الأوّل المواجه الى السعودية الذي شغله قبل عشرين يومًا لم تكن كافية لتحصينه، كما أنّ جبهة الموضع واسعة، بل هي الأوسع في عموم الدفاعات العراقية، ممّا يسهّل الخرق الذي يؤمّن تحقيقه الوصول إلى الناصرية، وضفة نهر الفرات، وتطويق جميع الفياق المدافعة في المنطقة، وتبيّن من وسائل الإعلام فيما بعد أنّ فرقتين فرنسية، وأمريكية محمولتين قامتا بالإنزال في قاطع الفيلق الأوّل، وتقدّمتا سريعًا بين فاصل فرقتين عراقيتين تحت غطاء جوّي كثيف، وإسناد مباشر من الطيران السمتي، وأنّهما قد أسرتا عشرين ألف عراقي، وتتقدّمان بسرعة حسب الخطّة الموضوعّة.

الموت في طريق الانسحاب

لقد بالغت قيادة العدو في تسطيرها الأهداف التي حققتها ساعة الهجوم ضمن توجّهات الحرب النفسية، وأخطأت قيادتنا العامّة في تسطيرها بعض النتائج في ضوء الساعات الأولى للحرب، ومحاولة التأسيس عليها لأغراض الشحن الانفعالي المعنوي، وأخطأت في اعتقادها أنّ التأثير السلبي للحرب سيتوقّف عند الحاقّات الأمامية لجبهة القتال، وأخطأت كذلك، وعموم القادة الميدانيين في إدارتهم معاركها وفقاً لقياسات الحرب مع إيران، وكان الخطأ الأكبر من حصّة القائد العامّ (صدام) الذي يدير الحرب ويتدخّل في تفاصيلها، متمثلاً بالتعميم الذي أصدره لجميع القوّات بعدم الانسحاب حتى وإن جاء بصوته شخصياً، قبل بدء الهجوم البرّي بشهر تقريباً، يوم ظهر على شاشة التلفزيون والإذاعة، معلناً إصدار ذاك الأمر بعدم الانسحاب من الكويت بأيّة حال من الأحوال، وإن جاء على لسانه شخصياً، وسوّغه أمراً غريباً باحتمال قيام الأمريكيان فبركة صوته عن طريق وسائلهم الفنيّة، واستغلاله في إصدار أمر الانسحاب.

لقد عدّل القائد العام هذا بإصدار أمر الانسحاب في الخامس والعشرين من شباط، بعد يوم واحد من شروع العدو بهجومه البرّي، أمراً جاء بصيغة التنفيذ الفوري خلال أربع وعشرين ساعة، ما أثار الفوضى بين الصفوف غير المترابطة لعموم القوات، مثّلت كارثة انكسار، غيرت واقع وسمعة وقدرة هذه القوّات، وأثّرت سلباً على استمرار الخدمة العسكرية، شظايا تطايرت من إرهاباتها النفسية لتطال العديد من الضباط، تعرّض بعضهم بسببها إلى السجن، وبعضهم الآخر للإعدام، ولأهمّيّتها وتأثيرها متعدّد الأوجه سيتمّ التركيز على موضوعها،

وما جرى في الانسحاب بتفاصيل تساعد في تبيان الصورة الأقرب إلى الواقع، ومن وجهة نظر شاهد حضر الكثير من وقائعها.

كان أمر الانسحاب مفاجئاً، شكّل صدمة محيرة، أو صراعاً لدى المنفذين بين الانسحاب رغبةً شخصيةً لضمان النجاة من الموت، وبين عدم الانسحاب امتثالاً لتبليغ رئاسي سابق، وتفادي المخالفة التي قد تفضي إلى الموت، وشكّل كذلك مثيراً قوياً لخروج كمّ من الانتقاد لقرار صدام رفض المشروع الأمريكي للانسحاب في حدود أربع وعشرين ساعة الذي قدموه قبيل بدء الهجوم بيوم واحد، والذي كان تقديمه على الأغلب كنوع من إسقاط الفروض، وهم العارفون جيّداً أنّ تقديمه بهذه الطريقة سيخرج صدام وسيدفعه كشخصية عنيدة إلى الاستمرار في مشروع الحرب حدّ التصادم.

لقد أربك قرار الانسحاب الموقف في عموم الجبهة، وأثار حمّى الاضطراب في موضع دفاعي، لم تتيسر فيه مستلزمات الدفاع بالشكل الصحيح، ولم تكن فيه الحالة النفسية مواتية، وقد وصل هذا الأمر إلى مقرّ القيادة العامّة للقوات المسلحة المتقدّم قبل الساعة (1800) يوم 25 شباط بقليل، وكانت غالب القوّة على تماسّ مع العدو، وقد وصل الأمر على شكل نقاط موجزة، واضحة لا تقبل التأويل (أن تبدأ القطعات بالانسحاب إلى داخل الحدود العراقية بالساعة 1800 هذا اليوم (25 شباط) حتّى، على أن تكمل كافة الفيالق انسحابها مع الضياء الأخير ليوم 26 شباط - تقوم الوحدات بسحب أسلحتها، وتدمّر الأخرى التي لا تقوى على سحبها)، كان أمراً قد ترك التفاصيل على مسؤولية القادة الميدانيين الذين يعانون من ضعف القيادة والسيطرة، وفقدان القدرة على الاتّصال، لذا جاء، أي الأمر الذي انتظرته القطعات قبل هذا الوقت للتخلص من الأزمة، في غير محلّه،

متسببًا في حصول كارثة قد لا يكون هناك بدّ من حصولها، إذا ما تمّ الأخذ في الاعتبار أنّ البقاء ومواجهة قوّة العدوّ المتفوق بمراحل، سيكون دمارًا أكيدًا (كارثة)، والانسحاب بهذه الطريقة الفوضوية سيكون كذلك دمارًا أكيدًا (كارثة)، إنّه صراع إحجام/إحجام، وُضِعَتْ في محيطه القيادة، فضّته بإصدار أمر الانسحاب وإيصاله إلى قيادات الفيالق عن طريق السعاة، ومنها إلى الفرق والألوية، كذلك عن طريق السعاة، وسيلة أسهمت في اتّساع الفوضى، وزادت من الارتباك، إذ لم يصل بعضهم، وتأخر بعضهم عن الوصول، وتاه بعضهم الآخر وسط الصحراء، فعاد منسحبًا مع المنسحبين، فتسبّبوا في حيرة بين القادة والأمّرين لتنفيذ أمر مطلوب عدم تنفيذه من قبل مهما كان.

قال الرائد محمد أمر فوج مشاة بعد تبيان الموقف أرسلت بطلب أمري السرايا، وأصدرت لهم أمرًا بالانسحاب الفوري، وحدّدت لهم جهته، والطريق، وبقيت في موضع أشرف على التنفيذ، وكنت في حيرة بين أمرين صدرًا من الجهات العليا، وعلى الرغم من أنّ الأمر الثاني هو الأحدث، والذي ينبغي تنفيذه، لكنّ الأمر الأوّل كان من القائد العام يحدّد عدم الامتثال، وكى لا أحرّج أمام جنودي، تحمّلت المسؤولية، وأصدرت أمر الانسحاب، وبقيت في موضعي أدير التنفيذ، حتى فوجئت بناقلة أشخاص أمريكية تتوقّف على مقربة من موضعي بخطوات فلم يكن أمامي بدّ سوى الاستسلام.

وتسبّبوا كذلك في توجّه بعضهم (القادة والأمّرين) نحو تعبيره أمرًا إلى آخرين من الأصدقاء خارج منظومتهم القيادية، في وضع نفسي مضطرب ضاعف من كمّ الحيرة والارتباك، وأسهم في زيادة التدنّي الحاصل في مستوى المعنويات، وساعد في انتقال الشائعات، وأحيانًا عزّز من سلوك الاستهزاء، فانتشرت بين الضباط والمراتب عبارة شاعت باللهجة العراقية

بين عموم القطعات (كلمن يخلص روحه)، وتمّ تداول عبارات أخرى مثل (خلصوا أنفسكم - اخلصوا بالعزيمة - اتركوا كل شيء واخلصوا.... إلخ).

قال ضابط التوجيه المعنوي للفرقة السابعة فيما بعد إنّ الأمر وصل الفرقة الثانية المجاورة قبل وصوله إليهم، فشرعت وحدات تلك الفرقة بالانسحاب، متخلّلة وحدات فرقته التي خرج منتسبوها من مواضعهم للاستفسار عن ما يجري، وهم في حال دهشة واستغراب من ردّ الجنود المنسحبين بالقول باستهزاء، (انسحبوا)، فهرع بعضهم مذعورًا إلى أمريهم يطالبون بالانسحاب، وتوجّه آخرون إلى مواضعهم يرزمون حوائجهم كسبًا للوقت من دون انتظار أوامر أمريهم، بينما أخذ بعضهم الآخر ما خفّ حمله، واختلط مع جنود الفرقة الجارة لتيقّنه من أنّ أمر الانسحاب بهذه الطريقة ينذر بكارثة لا يودّ أن يكون طرفًا فيها، كما أنّ هذا الأمر في الانسحاب، وبسبب عدم انتظام الاتصال، وتعدّد السعاة وتغيرهم، تغيّرت صيغته بين القيادات والوحدات، ودفع ببعض الأمرين إلى محاولة الاتصال بالأعلى للتأكّد من صحّته، حتى أخذ وقتًا لم يتحمّل ضغطه بعض الجنود، وهم يشاهدون أرتال المنسحبين قريبة منهم، فسارع كثير منهم إلى تنفيذ الأمر قبل استلامه من الأمر المباشر، وعندما حصل الأمر على الإجابة المقنعة من قائده بعد دقائق، خرج من موضعه ليجد أنّه بقي وحيدًا في الميدان، وإنّ سائقه قد وضع كلّ مستلزماته في سيارة القيادة ينتظر خروجه بقلق ليبلغه أنّ عسكره قد سبقه في الانسحاب.

إنّها حالة ارتباك حوّرت مشاعر العدوان المشحونة في نفوس المدافعين بالصدّ من الأمريكيّان عدوًّا معلومًا، أو بالمعنى الأدقّ، غيّرت من اتّجاهاتها لتكون صوب القيادة وصدّام، بدأت مثيراتها تعابير استهزاء بالوضع القائم، (وينهم، خلي يطلعون

روسهم.... إلخ)، سرعان ما انتشرت تحت ضغط التوتر والقلق، والرغبة في التنفيس عن المكبوتات المؤلمة، ساهمت في إشاعة الفوضى، والاضطراب وعمقت من حصول الكارثة.

قال أمر فوج تمّ اللقاء به جريحاً في موقع الإخلاء: إنني لم أبلغ بالانسحاب، وقد واجهت حرجاً هو الأشدّ في حياتي، إذ إنني خرجت من ملجئي لأتابع جنودي، وجدتهم في حالة توتّر يرزمون الحقائق، كأنهم يرومون ترك مواضعهم، ولمّا سألت أجاب أحدهم ألم تر الوحدات المجاورة لنا تركت مواضعها، وأنتم لا تعلمون شيئاً، والقيادة لا تعلم بحالنا، وعند محاولتي تهدئتهم شعرت استعذابهم للتمرّد، فتركتهم واضطرت للسير من بعدهم تجاه الشرق، إثر قصف عجلتي بعد مئتي متر من الشروع.

.....

لقد استلم الحلفاء أمر الانسحاب قبل استلامه من غالب الوحدات العراقية، واستعدّوا لاستثمار الموقف المضطرب، تتخلّلاً في عملية تنفيذه، وتدميرًا أكبر قدر ممكن من الأسلحة والمعدّات، وعن هذا الموضوع قال ضابط التوجيه المعنوي الذي أرسل للمتابعة يوم 26 شباط في تقرير مطوّل، جاء فيه: أنّ التدمير الأكثر شدة ذلك الذي أصاب الوحدات المنسحبة على طريق الكويت - المطلاع - صفوان - البصرة، والثاني، الكويت - أم قصر - الفاو - البصرة، الذي نشطت باتجاهه مدفعية الحلفاء بشكل ملحوظ بعد الساعة (1800) موعد الشروع بالانسحاب، للرمي على المقرّات، ومثابات التجمّع بغية إرباك تنفيذه، ومن بعد، انتقلت بنيرانها معقبة القطعات المنسحبة على الطريقين المذكورين بإسناد من الطائرات السمّية التي بدأت تطير على ارتفاعات واطئة، حدّ قيام طيّاريها بالتقرّب من بعض أطقم الدبابات، والجنود الموجودين في العجلات، للتلوّيح بالترجل، كي

ترمي دبابتهم بصاروخ، وأحياناً ترميهم من دون تلويح، حتى باتت هذه الطرق مقبرة لآلاف الآليات بمختلف الأنواع، وساحة موت لآلاف الأشخاص، تناثرت جثثهم على حافاتها، وعذاب لمئات الجرحى النازقين، وهم يائسون من أن يُخلّصهم أحد من المنسحبين، فأداروا أجسادهم صوب القبلة يطلبون من الله الرحمة وهم في الرمق الأخير، يائسين من إمكانية الإخلاء، والجهد الطبي العسكري هو الآخر قد تعرّض إلى فوضى الانسحاب، وعجزت وحداته حال الشروع بالانسحاب عن القيام بمهام الإخلاء وتقديم العلاج، لمستوى ترك العديد من المرضى الراقدين في مستشفيات الميدان، والمراكز الصحية في الكويت على أسرّتهم لعدم وجود سيّارات إسعاف، أو عجلات عسكرية لنقلهم، وإنّ الأطباء قد عادوا هم أيضاً، كلّ بطريقته الخاصة، بينهم جراح برتبة مقدّم ذكر لأصدقائه أنّه هو ومضمدّ صحّي، تأخراً لإسعاف الجرحى الذين بدأت أعدادهم في تزايد، ومعهم طبيب كويتي، أدرك أمر وطبيعة الانسحاب، فألحّ على إيصالهم بسيارته الخاصة إلى الحدود العراقية الكويتية في العبدلي، وأثناء التوديع عند الحدود للعودة في السيارة التي تفجّرت اثنتان من عجلاتها، تمّنّى لزميله العراقي بقليل من الكلمات، اللقاء بعيداً عن مصيبة الحرب، وأهوال هذا الطريق، لكن الطائرات السمتية للحلفاء لم تكن مسؤولة وحدها عن ترّجل الجنود والضباط، والتنقّل على طريق الموت مشياً على الأقدام، بل، وبسبب قلّة العجلات المخصصة للإركاب، وكثرة الأعطال التي أصابت الموجود منها نتيجة القصف المدفعي، وانفجار بعض الألغام الموقوتة على الطريق، وتناثر الشظايا، بسببها أصبح مألوفاً مشاهد الجنود، وبين صفوفهم ضباط يرتب كبيرة يسرون معاً تجاه البصرة، ومن ثمّ إلى بغداد، ومألوفاً أيضاً خلع الكثير منهم أحذيتهم العسكرية، والاستمرار في السير حافياً بسبب تورّم كفوف

الأرجل من كثرة المشي، وعدم التوقّف على الطريق، كان المنظر بائسًا يعبر عن حصول الكارثة، وكانت مشاهد طريق الانسحاب الأوّل مثيرة، كأنّ أسيجته من الجانبين صارت تلك العجلات العسكرية المحترقة والدبابات المدمّرة، والسيارات المدنية العاطلة التي استخدمها بعضهم من العسكر وسيلة لتنفيذ أمر الانسحاب، وكان السير عليه مجازفة تُقربُ المعنيّ من الموت، والابتعاد عنه لا يلغي احتمالات الموت، لأنّ الانفجارات في كلّ مكان، والصيد سهل في الأرجاء.

كان غالب المنسحبين يفضلون عدم الابتعاد عن الطريق برغم مخاطره على أمل مسايرة عسكري آخر لتوزيع البؤس معه مناصفة، أو لتحمله وصية إخبار الأهل في حالة الشعور باقتراب الموت، أو التعلّق بسيارة قد تخلّصت من سمّية معادية، أو إمكانية الحصول على جرعة ماء ممّا تبقى في زمزية شهيد، وفي النهاية- أو قريبًا منها، سار المنسحبون مع بعضهم جماعات على جانبيّ طريق كأنّه مسحور يجلب ضحاياه إلى الموت على حافّاته من دون وعي منهم، لقد وصف عديد من الضبّاط الذين تمّ الالتقاء بهم عن طريق الصدفة، أو بشكل مقنّن ما جرى على الطريقين، وسلوك المنسحبين بانكسار لم تنته آثاره عند نقطة صفوان الحدودية، ولا عند أمّ قصر المجاورة، بل امتدت لتدخل البصرة التي انتشر في شوارعها وأزقتها العسكر المنسحبون على غير هدى، وتوقّفت أمام محالّها عجلات عسكرية يفتّش سائقوها ومن معهم عن مطعم يعينهم على سدّ الرمق، وسقف يأويهم من مطر قد انهمر غزيرًا تلك الليلة، وتركت أمام عديد من بيوتها ناقلات أشخاص مدرّعة، أو ساحبات مدافع نجت من تدمير الحلفاء، ليتخلّص منها طواقمها المكسورة بعد أن أصبحت عبئًا عليهم بسبب ملاحقة الطيران الحليف حتى البصرة، وامتأّت الثلاجات محدودة الاستيعاب في مراكز تجميع وإخلاء

الشهداء بجثث الشهداء، كان ذلك واضحًا عندما قصدنا أنا ومنذر عصر يوم 26 شباط أحد مراكز تجميع وإخلاء الشهداء في الجهة المقابلة إلى ساحة سعد في البصرة، لاحظنا أن أعداد الجثث المستلمة، والموجودة في المركز حتى الساعة الرابعة بلغت خمسة عشر ألف جثة، ولاحظنا امتناع هذا المركز عن قبول جثث جديدة، الأمر الذي دفع المأمورين الذين يحضرون المزيد منها إلى تركها في الممرّات الداخلية، وبعد أن امتلأت تلك الممرّات اتّجه المعنيون إلى وضعها أمام باب المركز الخارجية، حتى طفحت منها رائحة الموت من الأجساد بسبب انقطاع التيار الكهربائي، وعجز القيادة العامّة عن اتّخاذ أيّ إجراء في هذا الجانب الحيوي من الناحية الشرعية والمعنوية، حتى أضحت وحجم الخسائر، وعدم القدرة على الإخلاء، مشكلة لا تتعلّق بطريق الموت فقط، وإنّما امتدّت إلى الطرق المؤدّية إلى البصرة والخارجة منها، حيث قامت الطائرات الحليفة بضرب الآليات، والأرتال التي تتنقل عليها، وهي مشكلة لم يقتصر عسر حلّها على القوات المسلحة فقط، وإنّما على الأهالي الذين وجدوا أنفسهم غير قادرين على التعامل مع بعض حالاتها في أحيان كثيرة، بينها حالة عبّر عنها شيخ مسنّ أوقف سيارتنا العسكرية، ونحن في طريقنا إلى مقرّ القيادة العامّة البديل على طريق التنمية السويب، أشار إلى سيارة عسكرية ما زالت تحترق إثر قصفها من الطائرات الحليفة عصر يوم الأمس 25 شباط على هذا الطريق، وقد تناثرت جثث من فيها على حافّته، والكلاب السائبة تنهشها بوحشية، ختم قوله بجملة مؤلمة: لا نعرف ماذا نعمل، هل ندفن الموتى؟ وإن دفناهم ماذا يقول أهلهم الذين ينتظرون أخبارهم؟ كيف نُخلّص المسلمين الموتى من هجمات الكلاب الجائعة؟ إنّها مشكلة لنا نحن القريبين من الطريق، كان ذلك الشيخ ومثله الكثيرون لا يعون أن العسكر

جميعهم في وحل الكارثة عاجزين من أن يعطوه حلاً، ومع ذلك وعده اللواء منذر بالتوجّه لأصحاب الحلّ، وفعلًا طرح الحالة على أحد ضبّاط ركن القيادة العامّة، تبين أنّهم في القيادة على علم بالتفاصيل، وتبيّن أنّهم غير قادرين على تقديم الحلّ، وفي العودة عرجنا على الشيخ أخبرناه أن يتصرّف بما يراه مناسبًا، وتركناه والجثث في أماكنها، وفي داخلنا سؤال عن كم شيئًا تحتاج هذه الطرق لحراسة آلاف الجثث التي تناثرت على حافّاتها، لكننا لم نجد جوابًا آنذاك، قلنا معًا إنّها كارثة، وأمرنا السائق بالتوجّه إلى مقرّ المركز.

.....

إنّ ما حصل يومي الانسحاب بكلّ معاني الأسى كارثة انكسار، لم تتوقّف تداعياتها عند الحدود الإنسانية ذات الصلة بعدد المحاربين الشهداء، وجثث تنهشها الكلاب، ولا عند أولئك الذي لفظوا أنفاسهم حرقًا في العجلات، المضروبة على طول الطريق فحسب، بل امتدت إلى كثير من مفاصل العمل والتعامل العسكري، لتضيف إليها تداعيات عسكرية حقيقية، إذ انتهى الضبط وسط الكثير من الوحدات والمقرّات، وفقدت السيطرة تمامًا على المنتسبين، وبات أغلب القادة، يتنقلون فرادى من دون أيّ قدر من المعنويات، لا يعلمون ما حلّ بهيئات ركنهم، ولا بوحداتهم التي تُعدّ من نظام معرّكتهم.

اللواء الركن كامل ساچت قائد قوات الخليج تربطه علاقة صداقة باللواء منذر، قال ساعة اللقاء به بعد أيام من إتمامه الانسحاب: أنّ القيادة العامة تشير لهم مثابة لتجميع فرقة معيّنة، وعند وصولها المكان تجد فرقة أخرى قد سبقتها في الوصول إلى المكان ذاته، وإنّ الوحدات التي سيطر أمروها على تنقلها ملأت بساتين أبي الخصيب، في انتظار دور العبور ليلاً (من دون مصابيح) على جسر هو الوحيد على شطّ العرب، أملًا في

الوصول إلى طريق بقي هو الصالح للتنقل تجاه العمارة - الكوت بغداد، وللاطمئنان وتبادل الثقة في مجريات الحديث الخطير تم إخباره من أننا قد مشينا شوارع البصرة في ساعات النهار، خلعنا رتبنا واختلطنا مع المنسحبين المشين لمتابعة أحوالهم النفسية، وقفنا على ناصية الجسر عدة مرّات، وجدنا من لم يصلهم الدور لعبوره يعودون منكسرين إلى أماكنهم السابقة، ليجدوا أنها قد احتلت من وحدات ثانية، فتفرّقوا يفتشون عن أمكنة أخرى لا يجدونها شاغرة، وشاهدنا العسكريين الذين فقدت السيطرة عليهم، ملؤوا شوارع البصرة، مئات الآليات وآلاف من المشاة، توجّهوا إلى الجسر فوجدوه مغلقاً في النهار، ومزدحمًا في الليل، وبدلاً عن الانتظار اكتشف بعضهم أنّ الوسيلة الأسلم هي التخلص من العجلة، أو الناقلة التي كانت بذمته ليسهل له العبور راجلاً، فقام بحرقها في أحد أزقة البصرة تحت حجة القصف المعادي، وتوجّه صوب الشطّ، وفي نيته العبور بأية وسيلة متاحة، وعندما لم يجد في جيبه مبلغ ربع دينار أجرة العبور في زورق شبه متهاك، عاد يعرض بندقيته في سوق السلاح وسط ساحة سعد، يبيعهما ولو بدينار، مبلغاً يقسمه ربعاً لعبور الشطّ، والباقي لأغراض الطريق، ومن كان مستعجلاً، وقد نفذ صبره عرض سلاحه على صاحب الزورق، الذي لم يتردد قبله أجرة عبور.

توقّفت عن الكلام قليلاً، ثم تواصلت قائلاً: إنّ الأجواء الممطرة تسببت في تكدّس آلاف العسكريين الذين تمكّنوا من العبور في شوارع التتومة الموحلة، نام بعضهم على الأرصفة بعد أن امتلأت المساجد بمن دخل إليها في المراحل الأولى، وكذلك بعض البيوت التي فتحها أهلها لمجرّد الإيواء، وانتظر بعضهم الآخر سيّارة حمل مدنية، أو ناقلة عسكرية قد تأتي بالصدفة ليقفز إلى داخلها المئات في لحظات معدودة، ويتعلّق

بجوانبها العشرات، ويجلس على مقدّمتها آخرون حتى إنّ الواحد لا يستطيع أن يميّز شكل العجلة، أو لونها أثناء السير، كأنّها كتلة بشرية تتدحرج، أما إذا امتنع سائقها من التحرك فسيهدده الجميع بالقتل دون تأخير، كأنّهم ألفوا منظر الموت، وأيقنوا بعدم قيمة الحياة، وفوق هذا توجه بعض الجنود الماشين على الطريق ما بعد التنمية، لإقامة سيطرات عسكرية لغرض إجبار السيارات المارّة بالقوّة على نقلهم إلى المحافظات الأخرى، وكذلك فعل بعض الضباط، قال النقيب حسام من الاستخبارات العسكرية في إفادته عن فقدان سيارته اللاند كروزر العائدة إلى المديرية إنّ ضابطَيْن برتبة عقيد، أوقفاه يوم (26) شباط، أجبراه النزول منها تحت ضغط التهديد، وتوجّهوا بها إلى بغداد، تركوه وحيداً منتصف طريق البصرة عمارة. ردّ اللواء كامل:

وماذا تنتظرون؟! لمّ لا تعرضون ما ترون وتسمعون على القيادة العامّة، وأنتم المعنيون بالحالة النفسية وقضايا المعنويات؟! أجاب منذر بعبوس: تلك وغيرها من تفاصيل الانكسار عرضناها بتقارير الحالة المعنوية، كان آخر تقرير قُدّم إلى القيادة ليل الأوّل من آذار، وكان من بين الحاضرين الفريق سعدي طعمة وزير الدفاع، والفريق حسين رشيد رئيس أركان الجيش، ومعاونه الفريق سلطان، طلبا معاً ترك المکتوب على الورق، والخوض بالتفاصيل، وطلب منّي كاختصاصي شرح وتحليل المشاهدات الخاصّة بالوضع المعنوي ومعالم فقدان القيادة والسيطرة، وانهايار الضبط والمعنويات، المشار إليها في التقرير، بدأت بالتنبؤ به عن توجّه بعض العسكريين الغاضبين لانتقاد القيادة في العلن من دون توجّس، وهي حالة انفعال غير طبيعية، تنذر بخطر يضرّ الدولة والقوّات المسلحة، توقّف عندها رئيس الأركان كأنه غير راضٍ، قال: كلّ ما تقولونه وتكتبونه نظري، غير قابل للتطبيق، أجب:

- إنّه تحليل لما شاهدناه ولمسناه، ليومَي الأمس واليوم سيدي...

ردّ بانفعال:

- لا يكفي عرض التحليل والاستنتاج، مطلوب منكم اقتراح ما هو عملي أستطيع تنفيذه.

قلت للتخفيف من التوتر السائد:

- الحلّ في نقل العسكر الذين ملأت أعدادهم شوارع البصرة إلى محافظاتهم لتخليصهم من انفعال القلق، والتوتر، والغضب، والسماح لهم قضاء وقتاً مع زوجاتهم، يصرفون من خلاله عدوانيتهم البينة على الدولة غريزياً.
هرّ يده، وأكمل قوله بصيغة سؤال: من أين لي العجلات، وكيف لنا تسيير القطارات؟

كان رئيس الأركان محقاً، إذ فُقدت السيطرة تملأاً على السرايا النقلية الخاصة بالجيش، وكذلك على جهد الدولة الداعم في هذا المجال، وقبل انتهاء المناقشة، دخل اللواء الركن ماجد إلى الغرفة، يبدو أنّه ذو علاقة خاصة برئيس الأركان، لأنّه بدأ الحديث من دون استئذان، وبصيغة عتاب لم يخاطبه بكلمة سيدي المعتادة عسكرياً، سائلاً بصياغة قاسية قبلها الجميع: لماذا كلّ هذا؟ لو أبقيتُمونا في مواضعنا نقاتل لكان أحسن لنا، ولجنّبتُم الجيش كلّ هذه الخسائر، لأنّ العدو، وطيلة مدّة القصف التمهيدي، وكذلك طوال اليوم الأوّل للهجوم، لم يكبدنا خسائر تخلّ بدفاعاتنا، بينما تمزّقت وحدتنا، وتناثرت جثث منتسبينا بعد الشروع بالانسحاب الذي تحوّل إلى فوضى لا مثيل لها.

أخذ نفساً عميقاً من سيجارة لم تفارق أصابعه، ثم عاود الكلام: هل تعلمون بوحدات تركت دباباتها، ومدافعها صالحة في مواضعها، وأكادساً من العتاد بسبب الطلب منها سرعة

الإخلاء، وإنَّ أرتال المنسحبين عند النظر إليها لا تستطيع التمييز بين الضابط، والجندي، كثير منهم حفاة لا يعون ما يفعلون من شدة التعب، وكثير منهم يتوجّهون بالدعاء إلى الله ليستشهدوا في أوّل إصابة لهم على الطريق بدلاً من أن يُجرّحوا جرحاً "بسيطاً" يبقون خلاله يعانون عذاب النزف حتى الموت، ثمّ ختم مقدّمته الانفعالية واصفاً الحالة: إنّهُ الانكسار ما كان ليتم، لو استمرينا في القتال.

كان ماجد محقّقاً في عتابه، لكنّه لا يعلم أنّ جميع أعضاء القيادة لا يملكون صلاحية ذكر أوليات ودوافع إصدار أمر الانسحاب، كذلك لا يملكون قدرات للسيطرة وإدارته صفحة هي الأصعب من صفحات القتال، وهم مثل الآخرين ينتظرون ما سيسفر عنه الغد المجهول، وما سيأتي عن قائد وضعوا كلّ الثقة به إلى أبعد الحدود، وعلى العموم، فإنّ رئيس الأركان المعروف بكياسته، أكّد في تلك المناقشة حصول حالة انكسار، وإن لم يقلّها صراحة، وقد أيّده وزير الدفاع، عندما أصدر أمره الشفوي كخلاصة لموضوع المناقشة قائلاً: عليكم الشروع على الفور بحملة توعية وتهدئة بلقاءات ومحاضرات مكثّفة، والإيضاح بشكل جلي أنّ الأمريكان هم الذين طلبوا وقف إطلاق النار، وليس العراق الذي مازال قويّاً، قادراً على قتال الأعداء، باشرُوا بالتنفيذ رُماً، ابدأوا بقيادة الفيالق من الآن، وإلاّ فسنضطر إلى إلغاء التوجيه المعنوي.

إنّ طلب رئيس الأركان بالتعامل مع حالة الانكسار عن طريق المحاضرات ينمّ عن عدم معرفته، وباقي الأعضاء خطورة الوضع المزري لقوّاتهم وكيفية التعامل معها، أو أنّهم يعرفونها، لكنّهم يريدون تسجيل نقاط تحسب لهم تحرّكاً للسيطرة عليه، انكساراً هو الأشدّ في تاريخ الجيش العراقي، يرونها تفيدهم في الدفاع عن أنفسهم عند القائد العام، إذا ما جرى

الحساب، والاحتمال الأخير هو الأكثر ترجيحاً، وعموماً هو أمر غير قابل للتنفيذ لأنّ الكلام وحده سبيل لتجاوز حالة الانكسار مع جندي انسحب مشياً على الأقدام، إهانة لجنديته، والتحاور مع ضابط سار طوال طريق الانسحاب حافي القدمين عن من طلب إيقاف إطلاق النار تجاوزاً على ذكائه وقيمه العسكرية، ثم كيف يُطلب من عسكري يعاني الإعياء والغضب الجلوس لسماع محاضرة عن جيش مزقته القيادة؟ ومن يجرو أن يتكلم بصراحة عن حاضر الجيش الذي تشوّه، والمستقبل المجهول؟ كان الرجل كأنه اختزل نكبة الجيش بمحاضرة، وسعى إلى التخلص من مشاعر العدوان والإحباط بكلمات للتوعية، لكنّه وباقي الأعضاء قد فاتهم أنّ العسكريين في حالتهم هذه يعون أنّ الذي أوصلهم إلى هذه الكارثة هي توجيهات القيادة التي لم يعد مجال لسماعها وسط زحمة الأفكار، وأنّ مشاعر آلاف الضباط، ومئات آلاف من الجنود التي تكوّنت بالصد من أساليبهم في القيادة لا يمكن وقفها بمحاضرة، أو بطلب رسمي.

بوابة الانتفاضة

كان ذاك النقاش مع أعضاء القيادة العامّة في المساء هو الأخير، يستنتج منه: أنّ الأجواء لا تساعد على الاستمرار بالنقاش، وأنّ الموقف لا يسمح سوى الاستجابة بكلمة نعم سيدي، لقد خرجنا بعد تأدية التحية للاستئذان في حالة ذهول، ليس بسبب طبيعة الأمر غير المنطقي، الذي تمّ التعمّد عليه في سياق الخدمة العسكرية طويلة الأمد، وعلى استلام الكثير من الأوامر على هذه الشاكلة، لكن هول الدهشة من حالة الانكسار في نفوس أعضاء القيادة العامّة أيضاً، بسببها، وفي الطريق إلى مقرّ المركز قلت بإيجاز: جاءت في وقتها، انتبه منذر إلى الكلام، سأل عن القصد،

فتمّ التوضيح بالآتي: من المتوقع أن حالة الانكسار التي امتدت إلى المجتمع وكمّ العدوان في النفوس باتت تكبر وتتضخم، ولأنّ سلطات الضبط الخاصة بالدولة قد أنهكت وضعفت قدراتها على السيطرة، الأمر الذي قد يفضي إلى حدوث شيء، لا يمكن تحديد طبيعته، لكنّ وقوعه سيكون أشدّ من هذا الحاصل وأخطر، والواجب الذي كلّفنا به القيادة العامة، وعلى الرغم من سذاجته، وعدم جدواه، لكنّه فتح باباً تفادي الوقوع وسط الكارثة، ردّ بتعجب: وهل يُعقل أن نرى الأسوأ؟ وعلى الفور قلت، نعم، يُعقل، فمازال التمسارب العدوان المكبوت مفتوحة في عقول العسكريين، وعدوانيتهم التي شحنت ضدّ الأمريكان، لم تُصرَف تجاههم، فحوّلها الإحباط وعدم القدرة على التصريف تجاه القيادة العليا للبلاد، وهنا مربط الفرس، عليه أقترح أن تُرسلَ السيارة العسكرية حال الوصول إلى المركز، لتعبر الجسر ليلاً وتنتظر في التتومة، على أن يتمّ الشروع بمغادرة المركز صباحاً بوقت مبكر، تنفيذاً لأمر القيادة العامة من دون تأخير.

وافق منذر على غير عادته في التأيي بالموافقة، أرسل سائقه للانتظار على ضفّة شطّ العرب الأخرى، أصدر أمراً لتوزيع ضباط مفارز على الفيالق، ووحدات المقرّ العام، كلّف العميد منعم تصفية أمور المركز، وانتظار أوامره في تحديد الخطوة التي تلي، وعند الساعة السابعة صباح يوم 1991/3/2، تمّ اصطحاب الدكتور طه النعمة من الأطباء النفسيين الباقين في المركز، والتوجّه صوب العشار، أخذنا المركب المخصّص إلى القيادة العامّة، للعبور إلى جهة التتومة، ومنها السيارة التي اتّجهت بنا إلى مدينة العمارة تنفيذاً لأوامر القيادة لما يتعلّق بالتوعية، انتظر الآخرون تصفية المركز، لكنّه لم يُصفّ كما يجب، إذ استهدفه الأهالي المنتفضون هجوماً عليه في تمام الساعة الثامنة صباحاً، أي بعد مغادرتنا له بساعة، ألزم الباقين

فيه من الضبّاط والمراتب تركه والتملّص منه بطريقة، خلع بعضهم رتبته العسكرية واختلط بالجنود، وارتدى بعضهم الآخر الجلابيات وساروا وسط المدنيين.

كان الطريق إلى العمارة مزدحمًا، بانّت عليه فوضى التّنقّل، قال العميد خالد من وحدات الفيلق السابع تمّ اللقاء به على قارعة الطريق: لقد وصلنا من القيادة العامّة أمر التّنقّل على الطريق السريع بصره - ناصرية - ديوانية - إلى كربلاء، وبعد اقترابنا من الناصرية تبين أنّ قوات التحالف تحتلّ جزءًا من الطريق، وقد أقامت على هذا الجزء سيطرات عسكرية، وقال اللواء الركن إبراهيم عبد الستار قائد الفيلق الثاني عند الالتقاء به على هامش واجب التهذئة المذكور: إنّهُ وضبّاط ركنه فتّشوا عن قائد الفرقة المدرّعة العاشرة الذي خصّه القائد العام بتبليغ محدّد، وتبيّن أنّه قد وصل الحبّانية، وهياة ركنه تتواجد في الديوانية، وغالب وحداته موجودة في البصرة، أمّا اللواء الركن عبد الواحد شنان قائد الفيلق السادس عند الالتقاء به، قال: وصلت وأفراد حمايتي المقرّ، وقليل من ضبّاط الركن في حالة تيه معلوماتي، وإحساس بجسامة الخسارة، وأضاف أنّ وحدات الفيلق التي تصل إلى مواقعها حسب توجيهات القيادة العامّة قد وصلت مجرّد هياكل وحدات، بعضٌ منها فقط آمرون، أو عدد من الضبّاط، وقليل من المراتب لا تزيد أعدادهم عن عدد أصابع اليد، وبين أنّ أحسن مستوى تشكّيل (لواء)، وصل فيلقه، لم يتعدّ المئة شخص، وغالبية فرق الفيلق لا يعرف قادتها أين تقيم هيئات ركنهم، وأين هي وحداتهم، فعلمنا من قائد الفيلق (عبد الواحد شنان) حصول انتفاضة في البصرة صباح اليوم، وأنّ الأهالي هاجموا مراكز الشرطة وبعض المقرّات، ونوّه إلى تحرّك محتمل لعشائر الأهوار ضدّ المواقع العسكرية، ومشكلته هو والفيالق الأخرى تتلخّص في عدم وجود قطعات لردعها.

كانت المحطة التي تلت في برنامج التهدة تجاه الفيلق الرابع في مدينة العمارة، لم نجد في هذا المقر سوى ضابطي ركن، أحدهم العميد الركن سميح للاستخبارات، وكلاهما لا يعرف شيئاً عن قائدهم وباقي هبة الركن، غير أنهم يتوقعون وجودهم في كربلاء، ويتوقعون أيضاً عودتهم إثر صدور أوامر جديدة بهذا الصدد.

هكذا كانت الصورة الحقيقية كارثة، انكسار نفسي معنوي، وتصدّع بنيوي، يصعب تجاوز آثاره لعشرات من السنين، وتفكك لوحدة الجيش النفسية، أما بالنسبة إلى الخسائر التقليدية فقد تكتمت عليها القيادة العامة، وإن أكد الحلفاء من جانبهم أنهم قد أسروا (400،62)، من دون الإشارة إلى أسراهم الخمس والأربعين الذين ذكرتهم بيانات القيادة العامة، والتي بدأت خطوات تبادلهم يوم 4 آذار، أما القتلى، والإصابات التي لم تذكرها، أي القيادة، فقدّرتها مصادر أخرى بما يزيد عن مئة ألف ضحية.. هكذا انتهت الأزمة، أو الكارثة، وانتهت معها ما تبقى من أيام الخدمة في هذه الدائرة، تجوال في المقرات، لتنفيذ أمر القيادة العامة لما يتعلّق بالتهدة، من دون اقتناع، حتى صدور توجيهات انتظام الدراسة منتصف الشهر الثالث، والعودة إلى الجامعة لإكمال الأشهر المتبقية من برنامج الدكتوراه.

الفصل السابع

في نقد الذات الحزبية



أوهام الحياة الأفضل

بان القوم لما يتعلق بالسياسة بعد مقتل الملك وإقامة الجمهورية قسرًا عام (1958)، كأنّهم منقسمون في الرأي والاتجاه، ليس في قرية الجمجمة فقط، تلك التي شهدت جلّ الطفولة، وبعض من سني الشباب، بل اتّسعت على المستوي العامّ، ليرقى وصفها بالسمة الغالبة لذاك الزمان، سمة كوّنت فجوة بين اليسار القومي يمثّله (البعثيون)، وبين اليسار الأممي التابع إلى (الشيوعيين)، وطرف ثالث سار أصحابه على خطى الأجداد في الوقوف على تلّ الفرجة، سلوكًا هو الأكثر شيوعًا، منذ زمن علي ومعاوية، حسبه هو الأسلم، وهو الذي ضعّف في محيطه تأثير الوسط البرجوازي القادر على التفاعل مع النمو الحضاري وتطوير البلاد.

كان الوسط البرجوازي الفاعل في تحريك السياسة بعد تأسيس الدولة العراقية، وإلى خمسينات القرن العشرين بهذه القرية، وغالبية القرى القريبة منها في عموم المنطقة، والجنوب العراقي غائب في الأصل، أو نادر الوجود، ومن حُسِبَ على الوسط من أولئك المعلمين الّاتين للتدريس في مدرسة القرية الابتدائية عمران، على قلّتهم أخذوا على عاتقهم نشر الأفكار الشيوعية، ومن جاء لاحقًا من أهلها بعد التخرّج من دار المعلمين الابتدائية تبنّى نشر الفكر البعثي، كان أوّل خريجي هذه الدار من الأبناء غازي محسن، بدأ تحرّكه على الشباب، كوّن قاعدة بعثية تضاهي القاعدة الشيوعية تعادلها في ميزان الانقسام، أمّا القلّة المتعاطفة مع الحزب الوطني الديمقراطي تماهيًا مع الجادرجي مالك أرضها والبستان بقي على حاله، محدود، لا يشكّل ثقلًا في ذاك الميزان، وكذلك باقي الأحزاب التي أجازتها الحكومة الملكية على وفق قانون أصدرته عام (1922)، على

أساسه نشأت وتطوّرت أحزاب بشكل رسمي علني، كانت الأكثر حضوراً في الساحة السياسية هي الحزب الوطني، يرأسه محمد جعفر أبو التمن، وحزب النهضة يرأسه أمين الجرججي، وحزب الحرية يرأسه محمود النقيب، وحزب الأمة يرأسه ياسين الهاشمي، ومن بعدها أسّس عبد المحسن السعدون حزب التقدّم، وأسّس نوري السعيد حزب العهد، وكوّنت جماعة الأهالي فيما بعد الحزب الوطني الديمقراطي الذي يرأسه كامل الجادرجي، وحزب الاستقلال يرأسه محمد مهدي كبة، وهناك أحزاب كردية مثل حزب هيو (الأمل) من قادته مصطفى العزيزي ويونس رؤوف، كما عملت أحزاب أخرى في الساحة بشكل سرّي، كان أكثرها نشاطاً الحزب الشيوعي الذي قاده فهد (يوسف سليمان يوسف) حتى إعدامه عام (1949)، ومن بعده دخل حزب البعث العربي الاشتراكي الحياة السياسية السريّة بداية الخمسينات، بقيادة أمينه العام فؤاد الركابي⁶⁷.

كان العمل السياسي العلني يومذاك محدوداً بسبب احتكاره، من أبناء الطبقتين الوسطى والغنية، أي النخبة، التي لم تبق للفقراء والكادحين مجاًلاً للجلوس على أرائكها المحدودة، (لكن النظر إلى هذا الجلوس واحتكار السياسة من أبناء النخبة يبدو صحيحاً عند النظر إلى نتائج السياسة في زمننا الحالي، الربع الأوّل من القرن الواحد والعشرين، التي أثبتت فيه الوقائع على الأرض أنّ السياسة فن لا تجيده الا النخبة القادرة على المناورة والاقناع، واستشراف المستقبل)، ومع هذا التعميم كانت هناك استثناءات لبعض أبناء الفقراء والكادحين دخلوا دروب السياسة،

⁶⁷. الأحزاب السياسية العراقية في العهد الملكي، قاسم محمد داوود، مجلة الكاردينيا، الثلاثاء 25 أيلول 2018.

نزلوا من تلّ الفرجة في غفلة من الأهل والأتباع؛ أو تفوّقوا على أبناء النخبة في التحصيل، وسجّلوا أسماءهم في قوائم السياسيين، بينهم شباب من أبناء القرية كانوا يجلسون على أرائك المقاهي ينتظرون أحاديث المعلمين والطلاب في أوقات العطل، وأيام الخميس لسماع أفكار عن العدالة الاجتماعية وتوزيع الثروة، وانبعاث الأمة العربية ووحدتها من المحيط إلى الخليج، وعن الأمل في مستقبل ينقل البلاد وأهلها إلى الأفضل، وكانت التمنيّات لأبناء ذاك الجيل، وهو جالس على أرائك السماع، هي العيش في عالم أفضل، أمنيّات تحوّلت من كثر السماع إلى مشاعر وأفكار صارت تنتقل بيننا، نحن المراهقين، بسرعة تقارب انتشار النار في الهشيم، تتواءم ومرحلتنا العمرية في تصديق ما نتخيله لأنفسنا من أحلام كافية لإنتاج دوافع المساهمة طرفاً مع الآخر في تحقيق الغد الأفضل، هكذا علّقت في العقول، وعلّقت معها مشاعر الانقسام في التأييد بين الشيوعيين وبين البعثيين، حصّة البعث في القرية نهاية الخمسينات بدأت بالتحسن، وبدأت شعارات الوحدة والحرية والاشتراكية تنتشر، فاتحة الشهية لسماع المزيد، وكان المزيد يقدّمه أولئك القادمون الشباب كمّاً من التركيز على بعث الرسالة الخالدة للأمة العربية من المحيط إلى الخليج، أفكاراً وشعارات مغرية غير قابلة للقياس، تقترب من الغيب القادر على منح الاثارة والأهمية إلى الموضوع، وتقوية الرغبة في السير على الطريق الشائك لتحقيقها في الغد القريب، منها أو على وقعها النفسي بدأ مشوار السياسة، تعاطفاً مع منشئها حزب البعث العربي الاشتراكي، تعاطفاً انفعالياً لا يخلو من بغضٍ، أو مقادير عدا لمن يقف بالصدّ منها، شيوعيين كانوا، أو محافظين محسوبين على النهج القديم.

إنّ مشاعر العداء للآخر في مشاهد السياسة العراقية منذ النشأة كانت كأنّها الدعامة العامّة لحال السياسة، لم يكن فيها البعثيون وحدهم يكرهون غيرهم، بل كان الشيوعيون هم أيضاً يكرهون، والاسلاميون كذلك يكرهون، كرهاً كان مُسيطرًا عليه نسيبًا، أو مكبوئًا، وإلى حين انتهاء النظام الملكي، وإحلال آخر جمهوري أطلق خلاله العنان إلى مشاعر الكره العدائي لأن تخرج سلوكًا عنيفًا من دون كوابح، بدأ قتلاً للعائلة المالكة، وسحلاً متعمّدًا لجثامين بعض المقتولين من أهل السياسة، وبدأ معه الشيوعيون التوجّه حثيثًا لتأييد الزعيم عبد الكريم نصيرًا للعمّال والفلاحين وإن لم يكن شيوعيًا، بينما توجّه البعثيون صوب عبد السلام المنادي بالوحدة العربية، وإن لم يكن بعثيًا، معالم انقسام مصحوبة بمشاعر مقت، تغذّيها شحنات انفعالية شعبوية، وملايين الصور التي طبعت على الفور للزعيم، وأقلّ منها لعبد السلام، تُبيّن كثرتها وسعة انتشارها، كأنّ إنسان هذا الوادي مغرم بوضع الصور، صيغة من صيغ العبادة القديمة للأصنام إبّان الجاهلية، أبقاها مترسّبة في قعر خلاياه العقلية، وتغذّيها كذلك التظاهرات الانفعالية التي كثرت في شوارع الحلة وباقي مدن العراق الجمهوري الجديد، بدأها الشيوعيون أيضًا، مستفيدين من خبرتهم العالمية في هذا المجال، ومن قوّة الدفع النفسية التي كوّننها صور الزعيم في عقول الجماهير، وقدرتها على تحريكهم كتلاً بشرية، تحمل حبالاً بطريقة توحى تهديد البعثيين المتأمرين، ومن يقف في طريق الزعيم معارضًا خطواته في نصرة العمّال والفلاحين، سحلاً في الشوارع المكتظة بالجماهير.

كانت تلك المظاهرات تخرج في الأشهر الأولى للجمهورية في المناسبات وغير المناسبات، يشارك فيها الموظفون رغبة في ترك وظائفهم، والعمّال هربًا من مصانعهم، يلتحق بها الفلاحون

تاركين حقولهم، موكلين أمر الزراعة إلى النسوة والأولاد، يهتفون جميعاً لصالح هيمنة العمّال والفلاحين، كأنهم يستهدفون النخبة، يعبّئون الشارع، يهيؤون الجمهور بالصدّ من بعضه ويزيدون الأحقاد، من دون أن يدركوا أنّهم سيمهدون بمظاهراتهم وأساليبهم في السياسة إلى خروج الأحقاد ومشاعر العداء من مكامنها، والتسبّب في عيش الأبناء تيهًا تغلفه مشاعر القلق، وتمنّيات العود إلى الماضي البعيد.

كان الشيوعيون أكثر براعة من البعثيين في التعبئة الجماهيرية آنذاك، وأكثر قدرة لاستغلال المناسبات في إخراج المظاهرات، والتهاتف ثوريًا إلى الزعيم، لكنّ البعثيين كانوا يراقبون ويتعلمون، وبعد سنين من اكتساب الخبرات فاقوا الشيوعيين في التعبئة والسيطرة على مشاعر الشارع القابع في وقع التيه، بل وتسييرهم بطريقة يقرب وصفها من السير على وفق القطيع، أمّا الطلاب المراهقون فكانوا يتلمّسون قيام بعض المدرسين دفعهم للخروج والتظاهر، عارفين أنّ الغالب في أعمارهم يكونون مستعدّين لتترك مقاعد الدراسة أسوة بالعمّال والفلاحين، ويتلمسون مبادرة بعض المديرين وهم يغلقون أبواب مدارسهم بغية إيقاف الدراسة، وزيادة عدد المتظاهرين، لكنّنا طلاب أبناء الريف لا يُحسَب غالبنا من بين المتحمّسين للاستعراضية الثورية والمشاركة في المظاهرات، التي أكسبتنا كثرتها خبرة التسلل من بين الحشود، والعودة بعجلتنا الهوائية إلى البيوت منتصرين، وإن كان انتصارًا غير مضمون تحقيقه في كلّ التظاهرات.

في زيارة عبد السلام عارف إلى مدينة الحلة عام (1959)، قاد قسم من المدرسين المظاهرات، وحثوا على المشاركة، كانت تلك المظاهرة الوحيدة التي تمّت فيها المشاركة بدفع قوي من المدير مكي عزيز، وتمّ على أساسها التجمّع في ملعب الإدارة

المحلية بمحلة القاضية، للاحتفاء ظاهريًا بعبد السلام الرجل الثاني في الحركة والدولة إبان زيارته المدينة، وفي الباطن استعراض الوجود السياسي الجماهيري والقوة.

حال هبوط الطائرة وسط الملعب اقتربت منها الحشود تحمل أعلامًا يغلب عليها اللون الأحمر، وأخرى مثّلت أعلام العشائر بجميع الألوان، ومثّلت استعدادًا لرجال العشائر حمل أعلامهم والهتاف للأقوى المائل أمامهم، وفي خضمها دخلنا نحن الطلاب، وحال اجتيازنا الباب افترقنا عن بعضنا تبعًا لعوامل السياسة وهتاف الجماعات السياسية، كان قسم منها يهتف بشعار للشيوخيين (اتحاد فدرالي)، مقابل جمهور قومي يهتف إلى الوحدة العربية الاندماجية، سكت الجمهور قليلًا مع بداية اعتلاء عبد السلام المنصة، استعدادًا لإلقاء خطابه، لقد دأب الرجل إلقاء خطابات حماسية، خلال زيارته المتعاقبة إلى المدن لتثبيت أركان الثورة والدعاية لها وله جماهيريًا، لكنّها خطب كان بعضها ساذجًا، يتضمّن عبارات مثيرة للضحك، أو الاستهجان، كانت العبارة اللافتة في خطبته (طاسة ببطن طاسة وبالبحر ركاسه)، كأنّه في قولها يعبر عن مقادير جهله غير القليلة في مواضيع السياسة، لم نلتفت

نحن الطلبة من أهل الريف إلى فحوى الخطاب، وقد ضاق بنا الحال، وتسلّل إلى وسطنا الضجر من مشاهد الانقسام إلى أفواج للمتظاهرين، وسماع أنواع السباب، موقفٌ لو جازت قوانين الطبيعة النظر إليه من جديد بعد سنتين عامًا من حدوثه، لأصيب الناظر إليه بكمّ كبير من الإحباط، وسيجد قناعة، لا جدال فيها، من أنّ الأمانى في مجتمعنا لا يمكن تحقيقها بمجرد الهتاف، وأنّ الأشياء التي يتمنّونها بشدّة هي الأشياء التي لم يتمكّنوا بلوغها أبدًا، وأنّ أصحاب الهتاف بالوحدة أسهموا في

تفتيت أمتهم عندما أعتلوا السلطة حكمًا مباشرًا للعراق، وأن أولئك الراغبين بالاتحاد قادوا انشقاقات، وكُونوا أكثر من جناح.

محاولة الاغتيال

مرّ السابع من تشرين الأول عام (1959) مأزومًا، أعلنت فيه إذاعة بغداد محاولة اغتيال الزعيم وسط شارع الرشيد، وأعلنت من بعد إعلانها هذا المثير للتوتر والاضطراب التعرف على شخصية عبد الوهاب الغريري البعثي مشاركًا من بين المشاركين، نزل عندها الجمهور إلى الشارع بتحشيد من الشيوعيين، وأدخل البعث أعضاءه في إنذار تحسبًا لمسلسل اعتقالات، مع جُرْع فخر بفعل الاغتيال، متهمًا الزعيم بالديكتاتورية والتفرد بالسلطة، وإثره بدأت الاعتقالات، وأيدت القرائن والاعترافات مسؤولية البعث عن عملية الاغتيال، ومن جانبها شكّلت الحكومة محاكم أدانت البعثيين، كان المشاركون جريئين ألهبوا الحماس في نفوس البعثيين، وأعداء الزعيم بقدر يساوي إخافة الآخرين، حسبها الشباب، مراهقو السياسة، خطوة للسير على طريق تحقيق الأهداف في التخلص من الديكتاتورية، وإرساء قواعد الديمقراطية في عراق عربي يجمع الشتات في وحدة من المحيط إلى الخليج، كأنهم يستعجلون الخطى، كأن الواحد منهم قد ظنّ في أنّ أهداف الأمة ستتحقق في الغد القريب، لا يريد أن يفوته اللحاق، في حين توهم بعضهم بما جرى ومضة أثارت التحدي البدوي في نفوسهم المشحونة بالتحدي، وبعضهم الآخر أفاقوا من غفوة سياسية كانوا قد غطّوا في غيابها لسنين، واندفع بعضهم من بين الواقفين على التلّ تجاه النزول من القمة إلى القاعدة، تكاثرت أعداد النازلين إلى القاعدة في قرية الجمجمة قريبًا من ذلك العام، حتى زادت نسب التواجد البعثي والنشاط

عن ما يمتلكه الشيوعيون، ومع هذا، وعلى مستوى العقانة السياسية، عدّ ساسة بينهم ذو توجّه قومي عملية الاغتيال صيبانية، نفّذها شباب لم يبتعدوا كثيرًا عن أعمار المراهقة، أوقعت القيادة القومية لحزب البعث في مأزق المواجهة الأخلاقية للاغتيال بين القبول واللا قبول، وأعطت الزعيم قوّة تحشيد وتعاطف جماهيري إضافي.

لملمّ الحزب بعد فشل عملية الاغتيال موافقه، وشخصه ورتّق بعض الشقوق في ثياب انشقاقاته، كوّن في العام (1961) خلية لمؤيديه من صبية القرية، وزادها أخرى لنشر الثقافة البعثية، والتعريف بالمبادئ القومية سبيلًا لتقوية عرى الانتماء إلى التنظيم الناشئ ورصّ الصفوف، كان غالبية الصبية طلابًا في الدراسة المتوسطة، وقليل ممّن علق في الدراسة الابتدائية، وكان المسؤول الأوّل عنها حلقة تنظيمية على وفق المفهوم البعثي إبراهيم محسن الطالب في دار المعلمين، لا يريد إظهار المشروع إلى العلن، قال: لا يحقّ لمن في المجموعة إعلان الانضمام، وجّه بالتهامس وسيلة للتفاهم، والاتّصال توجي بالسرّية شرطًا للاستمرار، كان إبراهيم، وتوجيه من الحزب، صائبًا، إذ إنّ التوصيات الموسومة بالسرّية عند الصبية لعبة عقلية تكبر فيهم الأنا المتحدّية، وتثير الرغبة في الاستمرار بلعبها والميل إلى التعلّق بالمثير، وهو الانتماء والتواجد ضمن المجموعة السرّية، وكان غالب الخلية من المعارف والأقرباء (علي حسين، محمد سيد أمين، عباس عبود الكتاب، وناجح نصر وسعد خضير)، لقد سهّلت القرابة عملية الانتماء الأوّلي، وتبادل التمنّيات بغد أفضل.

طبائع أهل السياسة في القرية والمدينة

استمرّ البعث في نشاطه ضمن حدود القرية وريفها، وفي الشارع الحليّ المسكون باليسار الشيوعي، كانت الحلّة مدينة نُكّي في تلك الحقبة الزمنية (موسكو الصغرى) لكثرة المنتمين إلى الحزب الشيوعي، وفرط سيطرته على الشارع، وكانت تتميز بأعداد السيارات الروسية (موسكوفيج) السائرة في شوارعها تيمناً بذاك الانتماء، وكان هو، أي البعث، في الشارع مدّاً قومياً ينمو، يؤسّس على بعض جوانب الاغتيال جهداً لزيادة خطوات الكسب، والأخذ من حصّة الواقفين على خطوط الوسط، ومن المتفرّجين، أحسن دغدغة المشاعر الاجتماعية، تقرب من العشائر، وزاد حقدّها، ركّز في توجّهات الكسب على العسكريين والطلّاب والمثّقين، واستمرّ الشيوعيون من جانبهم فاعلين في صفوف العمّال والفلاحين، لكنّهم، وعلى الرغم من الكثرة، لم يُحسنوا البقاء في المقدّمة، ولا الحفاظ على قوّة الزخم التي كانت موجودة في الأشهر الأولى لحركة الزعيم، كان الأمر بنتائجه العملية كأنّه معكوس، والحاصل الإجمالي مخيّب للأمال، فعمّال الصناعة لم يسهموا بتقدّم الصناعة وتطويرها، والفلاحون أهملوا الزراعة حدّ الرجوع إلى الوراء عدّة خطوات، الأمر الذي أفقدهم والعمال القدرة على قيادة المجتمع كما عوّل الشيوعيون الذين واجهوا، فضلاً عن ذاك الإخفاق، معاداة المرجعية الدينية حدّ الفتوى من أنّها، أي الشيوعية، كفر وإلحاد، كان السيد باقر الحكيم نجل المرجع الأعلى السيد محسن الحكيم قد أشار في حوار معه بتاريخ 1961/2/20 تحت عنوان مقارعة وإسقاط القاسمية والشيوعية، إلى فتوى والده محسن الحكيم القائلة "لا يجوز الانتماء إلى الحزب الشيوعي، فإن ذلك كفر وإلحاد"، وعوّل أيضاً على معاداة العشائر، وبعض وسائل الإعلام، زاد

الطين بلّة بتركيزه على أحداث أعطى منفذوها انطباعاً أنّها شيوعية مثل تلك التي وقعت في كركوك، عام (1959)، حيث القول إنّ جنوداً من الفرقة الثانية بإمرة ضابط محسوب على الحزب الشيوعي، وأعضاء من المقاومة الشعبية التابعة إلى الحزب الشيوعي، هم من ارتكب أعمال قتل جماعي ضدّ التركمان⁶⁸، وبصدها يورد حنا بطاطو كاتباً: "لا شيء آذى الشيوعيين بقدر ما فعلت أحداث كركوك الدامية"، وأضاف: "أنّ هذه الأحداث لم تكن مدبرة من قبل زعمائهم، ولا هم سمحوا بها، ويمكن أن تُعزى جزئياً إلى طبيعة تلك الأزمنة، من أفعال القسوة القصوى التي كانت شائعة في لحظات عدم الاستقرار الاجتماعي والغليان غير الطبيعي"⁶⁹، وكذلك أحداث الموصل بعد فشل انقلاب الشوّاف في العام المذكور، والتي استُغلت جميعها من قبل البعثيين عند توجيههم الانتقاد، صاروا خبراء في توجيه الانتقاد، والحدّ من شعبية الزعيم، والتقرب إلى الشارع، وفهم عادات المجتمع والتقاليد، في الوقت الذي بقي فيه الشيوعيون محصورين في قوالب لم يوفّقوا طوال البقاء فيها من طرح منظورهم عن الاشتراكية، حتى كانت بعض أهدافهم يفوق وقعها قدرة المجتمع العراقي يومذاك على الاستيعاب، وصار من السهل اتّهام الزعيم بالتفرد والديكتاتورية والانحياز إلى الشيوعية، لم تساعد شخصيته المركّبة انفعاليّاً، حيث الطيبة المفرطة (عفا الله عما سلف)، والوطنية العالية، والأنا العليا المتضخمة من التقليل؛ أو التخفيف من تلك الاتّهامات، التي ساعد

⁶⁸ . جاسم الحلواني، أحداث كركوك في تموز 1959، الحوار المتمدن، العدد: 2892 - 2010/1/18.

⁶⁹ . حنا بطاطو، العراق - الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية، الجزء الثالث، ص223.

البعثيون في تعزيز انتشارها في الرأي العام، وبصدها ما زال العقل يتذكر سؤالاً سألَهُ صديق لصديق يعمل في الإذاعة والتلفزيون: لِمَ تُغالون في مدح الزعيم؟ أجاب بسرعة: كي تُسقطه، نتيجة اقتبسها البعثيون من أدبيات علم النفس في أنَّ تكرار الموضوع أكثر من حدود المقبول يكوّن إحياءً مضاداً، أي موقفاً بالصدّ من الموضوع، لكنهم وقعوا في الخطأ ذاته يوم استلموا الحكم عام (1968)، وجعلوا من صدام بعد عام (1979) مادةً مدح وتكرار، فاقت الزعيم أضعافاً.

كانت تلك المرحلة الزمنية، خصبة في أحداث السياسة، أو منتجة لدوافع الخوض في غمار السياسة، بدأها البعثيون في القرية بحذر، عقد علي حسون ومعه إبراهيم عدّة لقاءات للمجموعة، (الخلية)، نوّها فيها عن محاسن الوحدة العربية، وانبعثت الأمة، وقضايا العدالة الاجتماعية والمساواة، والسعي إلى العيش بشكل أفضل، شعارات مغرية، خاصّة ما يتعلق منها بالحياة الأفضل، تمّ التآلف معها وباقي الطروحات، وإن لم يمتلك أحد من الحضور أوليات عن العمل الحزبي، حصل من بعد ذاك اللقاء لقاء آخر قريباً من أوقات الامتحان الوزاري للصف الثالث المتوسط في العام الدراسي (1962)، لتتوقّف من بعدها اللقاءات، ويجرى التركيز على الدراسة.

مَقْدَلُ الزَّعِيم، بَدَايَاتُ مَسَلْسَلِ الْقَدَل

في تلك المرحلة الغنية بالأحداث والتناقضات والإحياءات (بداية الستينات)، كان البعثيون قد حقّقوا تقدّماً في الكسب الجماهيري وسط العسكر على وجه الخصوص، هو من جعلهم يفكّرون في إسقاط الزعيم، وما حقّقوه من مقادير في الكسب ربما أفنّع العامل الدولي النافذ في دعمهم من أجل إسقاطه، في الوقت

الذي حافظ فيه الشيوعيون المستهدفون من قبل الغرب والأمريكان على تأييده زعيمًا أوحده ودعم توجّهاته بدفع من الاتحاد السوفيتي، وإن اختلفوا معه أواخر سني حكمه، في خضمّ صراع صار واضحًا، كسب كفته البعثيون الذين سجّلوا تزايدًا في نسب التعاطف معهم كدعاة تغيير، إذ كلّما زاد الشيوعيون عبارات التأييد وغالوا في إطلاق عبارات العداء اللاذعة، ولوّحوا بحبال الشنق الغليظة، وهتفوا عاليًا (ماكو مؤامرة تصير والحبال موجودة)، يقترب الجيش من الغليان، حتى فتح البعثيون مغاليق أفرانه صبيحة الثامن من شباط عام (1963)، أذاعوا البيان الأوّل لحركة نفّذوها في الساعة التاسعة صباحًا، بتوقيع المجلس الوطني لقيادة الثورة، أضافوا من بعده عدّة بيانات، تناول الثالث عشر منها سعي القادمين إنهاء الانقسام بتصفية الشيوعيين، الذين قاوموا الحركة لأيّام، انقطعت طوالها أنفاسهم، ومُئِلَّت بهم السجون، كأنّ طلبًا من العامل الدولي قد وضع في أدراج القادة البعثيين قبل الشروع في تنفيذ حركتهم الانقلابية لتصفية الشيوعيين، أو إنهم جاؤوا في الأصل لتنفيذ مهمّة رئيسة قوامها إنهاء وجود الشيوعيين، رأي يدعمه الأصحاب بحكايا وردت على لسان قادة بعثيين، بينهم علي صالح السعدي من أنّهم جاؤوا الحكم في تلك السنة بقطار أمريكي⁷⁰، ويدعمونه أيضًا بحقيقة وجود إذاعة سرّية كانت تبثّ من الكويت، تذكر أسماء وعناوين الشيوعيين لتسهيل عمليات إلقاء القبض عليهم، ويدعمونه باستنتاج من أنّ الغرب لا يسمح للشيوعيين الوصول إلى سدّة الحكم في العراق.

⁷⁰. عقيل الناصري، جننا إلى السلطة بقطار أمريكي، الحوار المتمدن، العدد: 2021/12/28 – 7120.

بعد توقّف ذلك القطار في محطّته بالعراق، ونجاح راكبيه في الانقلاب، عاود إبراهيم نشاطه، عقد اجتماعاً في بيت أهله هذه المرّة، وبشكل علني، قدّم إيجازاً عن ما أسماها الثورة، وعدّد مساوئ الزعيم، وتفردّه بالحكم "ديكتاتور أوحّد"، ونوّه إلى المستقبل المضمون لعراق عربي، سيؤمّن الحياة الأفضل.

انتهى الشهر الأوّل للحركة الانقلابية، أبلغ إبراهيم المنتمين إلى صفّه مؤيدين، لزوم التهيؤ إلى المشاركة في مظاهرة ستقام في بغداد تأييداً ودعمًا لها، ثورة شعبية، وقفت سيارات حكومية وباصات نقل الركّاب وسط مدينة الحلة، صعدت الجموع من الموظّفين والكسبة، والطلّاب والفلاحين المؤيدين، سارت بهم رتلاً، توقّفت في الباب المعظم مع سيارات، وحشود أخرى قادمة من جميع مدن العراق، توجّهوا إلى شارع الرشيد، تجاه الباب الشرقي، وهم في الطريق قريباً من جسر الأحرار، زاد وسطهم الحماس، وعلا الهتاف، قيل إنّ ثورة يقودها حزب البعث حصلت في سوريا، تأمل المتحمسون أنّ وحدة بين البلدين ستحصل في القريب العاجل، وستحلّ مشاكل الأمة، وستنتهي إسرائيل كمغتصب لأرض العرب في غضون أسابيع.

.....

تقدّمت الحلقة الحزبية في القرية عدّة خطوات إلى الأمام حال نجاح الانقلاب، وتقدّمت كذلك حلقات أخرى أعلى مستوى، صارت اللقاءات علنية، وصار الشباب التابعون ينوّهون عنها ويتفاخرون في الانتماء إليها كذلك علناً، وبدأ رواد المقاهي، ينتقدون الزعيم والثورة، وأفعال المقاومة الشعبية كذلك في العلن، وتوجّه الحزبيون للسيطرة على الدوائر والتوظيف، ومسك المفاصل المهمّة في الدولة والجيش، وتعطّلت الاجتماعات الحزبية، ليتمتّع الجميع بطعم السلطة.. سلطة دامت بحدود عشرة

أشهر من العام (1963)، اتّسمت بالانقسامات الخلافية متعدّدة الأوجه بين القيادات الشابة.

قال الدكتور خالد علي الصالح إنّّه كان عضواً للقيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي إبّان محاولة اغتيال الزعيم، وهو طالب في الثانوية، كانت الخلافات بين الشباب حادّة، تطوّرت وكبرت لتكون ظاهرة على السطح بين العسكريين وبين المدنيين، بين مؤيدين للحرس القومي، وبين رافضين لوجوده، داعمين سلطة الجيش، بين مجموعة علي صالح السعدي وبين كتلة حازم جواد.. خلافات عقّدت على إثرها الحزب مؤتمراً له يوم 11 تشرين بقصد إيجاد حلول لها وإجراء انتخابات، دخل على المؤتمرين العقيد محمد المهدي يحمل رشاشاً آلياً سريع الطلقات، يرافقه خمسة عشر ضابطاً مسلحاً شاباً، اعتقل أمين سرّ الحزب علي صالح السعدي وجناحه الثوري في الحزب، فرض بقوة رشاشه، ومجموعة الضباط المراققين لوجوده واقعاً جديداً وانتخابات لقيادة جديدة، شارك هو فيها ومجموعة الضباط الذين لم يكن قسم منهم بعثيين، دفع تجاه تفسير علي ومجموعته إلى مدريد، فتأزّم الموقف حدّ فقدان السيطرة.

لم ينجح الحرس والجناح المتشدّد في الحزب من تنفيذ خطته في الانقلاب على انقلابهم، أو لم يتمكّنوا من حمايته، لأنّ الجيش الذي كانت بعض وحداته وقياداته تنسّق مع عبد السلام متأهبة بالضدّ، كذلك لم ينجح ميشيل علق أمين سرّ القيادة القومية للحزب، وأعضاء قيادة قومية وصلوا بغداد بينهم أمين الحافظ، الرئيس السوري من تقديم حلّ يسهم في رأب الصدع ومنع الانشقاق، وفي المقابل نجح عبد السلام ومؤيدون له في الجيش من رصد التحركات، ومراقبة الوضع عن كثب، ونجحوا في الوصول فجر الثامن عشر من تشرين الأوّل إلى مرسلات

الإذاعة في "أبو غريب"، وإذاعة البيان الأوّل لحركتهم، ومن ثمّ تحريك سرايا الدبابات تجاه قواطع الحرس، وتوجيه الطائرات الحربية لقصف مقرّ قيادته في الأعظمية.

نُذْب في النشاط الحزبي

سيطر عبد السلام على الساحة السياسية، نحّى جانباً البعثيين، أعلنت الكلية العسكرية نتائج القبول في الدورة (43)، وجرى الالتحاق إليها في اليوم الأوّل من عام (1964)، يومًا كان فيصلاً في عالم السياسة، زوّدني فيه إبراهيم بكلمة سرّ (رمضان كريم)، قال سيّئصل بك حزبي من الكلية، يُنظّم هو الانتقال من التنظيم المدني إلى العسكري، لكن لا أحد قد اتّصل حتى نهاية السنة الأولى، كان الحزب في تلك السنة منقسمًا على ذاته الواهنة، بعض قياداته في السجن، وبعضها الآخر أيّدت عبد السلام، شاركته التخطيط والتنفيذ لإتمام فعل الانقلاب، وبالتالي لم تستطع هذه القيادات المرهقة إعادة تنشيط التنظيم بالسرعة التي تتمنّاها، ولم تتمكّن من تقليل أثر الخلافات المستمرّة بين الرفاق داخل الجهاز الحزبي، ولا فهم طبيعة الصراع الخفي على النفوذ في البلاد بين البريطانيين أصحاب النفوذ الأصلي في عموم المنطقة، وبين الأمريكيّين الساعين إلى توسيع النفوذ على طولها والعرض، وبدلاً من حلّ تلك العقد وتجاوز آثارها، وقعوا في حمى الاختلاف وتصفية الحسابات بقوة السلاح.

انتقل الطالب عزيز الياسري⁷¹ من كُليّة القوّة الجوية، إلى الكلية العسكرية بداية السنة الدراسية الثانية (المتوسط) لفشله في

⁷¹ عزيز، ضابط من الدورة (43) الكلية العسكرية، خدم بعد التخرج مباشرة في مغاوير الفرقة الأولى، نُقل إلى بغداد بعد عام (1968) في دوائر المقرّ العام ليتفرّع للعمل الحزبي في غالب الأحيان، لأنّه من كوادر الحزب المتقدّمة، قُبِل

الدروس العملية للطيران، تسجّل مع الدورة (43)، كان عزيز مكثفًا بإحياء التنظيم الحزبي في صفوف طلابها، وقد أحياء في اجتماعات تكاد تكون فردية، يكتنف الحضور في أوانها خوف من احتمالات الفصل في حال الكشف، لكن كثافة التدريب وشدة الضبط والسياقات العسكرية، قلّل من أثر الخوف، وخفّف من الميل إلى السياسة حدًا استمرّ إلى نهاية مشوارها، كما أنّ الاتصال الفردي، وندرة الاجتماعات الحزبية داخل الكلية عزّز السير في طريق العسكرية أكثر من السياسة، التي لم تقوّ، أو لم تضفّ لها عوامل جديدة بعد التخرّج، إذ تبعثر الخريجون، توزّعوا على وحدات الجيش، كانت فرقة المشاة الأولى وجهتنا مع عزيز الذي أدام العمل الحزبي فيها فاترًا بسبب الظروف الصعبة غير الموازية، علاقة محسوبة على الحزب ينقصها الحماس، والتواصل التنظيمي المباشر، لا كسب فيها، ولا قراءة نشرات، لقاءات عابرة يمكن وصفها اتّصال في غير اتّصال، كان الخوف من الكشف حاكمًا على السلوك الحزبي آنذاك، لكنّ عزيز كان طوالها جريئًا، عاد نشيطًا بعد نجاح انقلاب (1968) يللم هو وآخرون معه أوراق الضباط البعثيين المتناثرة، بدأ اتّصالاته بالضباط المحسوبين على الحزب، وبدأ بعضهم من الضباط الانتهازيين التحرك تجاه الحزب، لكنّ انتهازية التحرك ليست جديدة في سلوك العسكريين، بل قد ظهرت بشكل ملموس

في كُلية الأركان وفصل منها، وأحيل على التقاعد قبل عام (1979)، ترك العراق مع عائلته إلى النمسا، عمل مع المعارضة العراقية، عاد إلى العراق عام (2003)، ليعمل في السياسة بشكل شبه مستقلّ، كانت له آراؤه الخاصة التي لا تخلو من قدر من الثورية، أعيد إلى الخدمة حسب قانون الفصل السياسي، ومُنح رتبة فريق، قُتل في تفجير حصل في فندق المنصور ميليا عام (2007)، قالت بعض المصادر السياسية أنّ الياسري لم يمّت بسبب التفجير، بل من رصاصة أطلقت عليه من قريب بعد حصول التفجير، لكنها أقوال لم تثبت جنائيًا.

بعد العام (1958)، وكانت إحدى العوامل التي أسهمت في تفويض معالم الضبط، والمشاعر الوطنية في المؤسسة العسكرية.

أخطاء توزيع المسؤوليات الحزبية

كان الفوج الثالث لواء الخامس عشر يوم حدوث الانقلاب في مدينة الديوانية، وصلها قبل أشهر، قادمًا من أربيل بقصد التدريب وإعادة التنظيم، استمرّ في تنفيذ نشرة التدريب، واستمرّ الضباط في علاقاتهم الودية الحذرة إلى السابع عشر من تموز (1968)، نجاح الانقلاب البعثي على الحلفاء، عندها رحّب بعضهم من الضباط، وصفّقوا لمجيء البعث ثانية، وقلق آخرون من وصوله السلطة مرّة أخرى، في آخر هذا الشهر المعروف بشدّة حرارته، وحال النجاح في إقصاء إبراهيم الداود (وزير الدفاع) وعبد الرزاق النايف (رئيس الوزراء) من تشكيلة الحكم والتفرّد بالسلطة بعثيًا، بدأ التحرك الحزبي بقوة دفع أكبر، على شكل اتصالات هاتفية، زيارات ميدانية نفّذها ضباط بعثيون، بينهم عزيز، شرعوا في خطوات إعادة التنظيم، وتوزيع المسؤوليات، حسب القيادات والتشكيلات، وكانت حصتي تسنّم مسؤولية اللواء الخامس عشر.

لم يكن توزيع المسؤوليات الحزبية على الشباب موفّقًا، إذ إنّ العمر الزمني قريبًا من سني المراهقة لمسؤول حزبي برتبة ملازم، لا يسمح بتحمّل المسؤولية منطقيًا، إذا ما تمّ الأخذ في الاعتبار أنّ تحمّل المسؤولية أو إيكال تحمّلها، وإشغال المناصب مسألة لها علاقة بالنضج، وتحقيق الذات الإنسانية، ولسلامتها علاقة أيضًا بمراحل العمر، لذا قيل في الأدبيات النفسية (المنصب المبكر قتل للذات الإنسانية)، وهذا ما حصل بالفعل في

سياقات توزيع المسؤوليات الحزبية على مستوى الألوية والفرق والقيادات، إذ إنّ منحها لمئات الضباط الشباب قتلت بالفعل ذوات العديد منهم، أو بالمعنى الأدقّ تسبّبت في نموّ الذات الحزبية في داخلهم على حساب الذات العسكرية، فتصدّعت بمحصلة الأمر معالم العسكرية العراقية، وكوّنت في المقابل آراء ومشاعر عدائية بالصدّ من الحزب والدولة، هذا على المستوى العامّ، أمّا على المستوى الشخصي فقد ارتكب الكثير من المسؤولين الحزبيين الشباب أخطاء في تعاملهم مع القادة والأمّرين والمواقف، لم يكن ممكناً ارتكابها وهم في سني النضج، بينها على سبيل المثال موقف كان فيه عزيز برتبة م. أوّل مسؤول للشعبة العسكرية في الفرات الأوسط، كان قد حرّك وحدات عسكرية للتعامل مع مشاكل عشائر حصلت في قضاء الهندية (طويريج) التي أتى منها في الأصل، من دون الرجوع إلى القيادات الأعلى في الحزب، ما أغضب البكر رئيس الجمهورية أمين سرّ القيادة القطرية للحزب.

في حالة اللواء (15) يقتضي تحمّل المسؤولية الحزبية، تنسيق الملازم مسؤول اللواء مع العقيد الركن محمد عباس مظلوم أمر اللواء، كان العقيد، وإن لم تظهر عليه علامات الممانعة، يبدو كأنّه غير راضٍ، ويبدو أنّ مواقف وأفكار بالصدّ قد تكوّنت لديه من النظام البعثي، إذ اشترك عام (1970) مع عدد من الضباط في محاولة لقلب نظام الحكم البعثي، بقيادة اللواء الركن عبد الغني الراوي، حضر لاعتقاله ضابطان من مركز الاستخبارات، دخلا مقرّ اللواء، واصطحباه إلى بغداد، ليُعدم مع زملائه الآخرين، إعداماً مصحوباً بالتعذيب، صار ستّة بدأت من ذاك التاريخ، وبدأ الحزب يثقف عليها مادّة أساسية لردع العسكريين من جهة، ولاستقطاب المزيد من المؤيدين إلى صفوفه حزباً ثورياً اشتراكياً مقتدرًا من جهة أخرى، فكبر بسببها

وعوامل أخرى حجم التنظيم الحزبي في الجيش، وصار كثير من العسكريين حزبيين، وحلّت أعراف محلّ أخرى، إذ لا يُرشّح لمنصب أمر من لم يكن بعثيًا، ولم يُبعث عسكري للدراسة أو المشاركة في دورة خارج العراق إن لم يكن منتميًا إلى الحزب، ولا يُقبَل ضابطًا لدراسة الأركان، ولا يعمل آخر في الاستخبارات، ولا يتقلّد أحد منصبًا قياديًا إن لم يكن قادمًا من صفوف الحزب بعثيًا، عندها صار هيكل الحزب محبًا يقصده الضباط، وانشطرت بسببه الشخصية الحزبية لغالبية الضباط الحزبيين، خاصّة المنتمين بعد عام (1968) إلى شطرين أو إلى شخصيتين، الأولى: بعثية حقيقية، تُنفذ المهام الحزبية، تناقش في الشؤون السياسية، تقرأ أدبيات الحزب، تسعى إلى كسب الآخرين إلى صفوفه بأمانة، والثانية: بعثية مسايرة، تعبّر في الجلسات الخاصّة المغلقة عن وجهات نظر حزبية مختلفة عن وجهات نظرها العلنية، تنتقد في السرّ، تمدح في المناسبات القائمة، أو في غيرها، تتودّد بذلّ، تكتب التقارير بإسفاف، تروّج لنفسها أكثر من ترويجها للحزب، إنّه تناقض بين اتجاهين، مسح الشخصية العسكرية، زاد في داخلها هوامش النفعية، قدّم الى صفوف القيادة الحزبية العسكرية انتهازيون نفعيون صاروا أبقافًا للدكتاتورية الفردية فيما بعد.

طفرة حزبية

شهدت سنة (1970) طفرة في التنظيم الحزبي العسكري، تحوّلت قيادة تنظيم البصرة بمسؤولها الملازم الأول خضر الدوري إلى قيادة فرقة، تمّ الترشيح قبل تحويلها بسنة لاكتساب درجة العضوية في الحزب، لم تكن سياقات الاكتساب معروفة، ولا فقرات الدستور المكتوب للحزب، قبل توزيع نسخ منه

للاطلاع والتهيؤ لترديد القسم، وبعد تحويلها مباشرة تمّ النقل إلى مديرية الاستخبارات العسكرية، في قائمة تضمّ ضباطاً أعضاء في الحزب أريد لهم قيادة عملية التطوير لهذه المديرية حسب وجهة نظر الحزب، وفي تلك السنة بدأ الحديث في الأوساط الحزبية بشكل علني عن عمليات التبعيث، والتوسّع في الكسب الحزبي على مستوى الضباط وضباط الصف والجنود، في خطين تنظيميين متوازيين، الأوّل للضباط، وآخر للمراتب، حصل على دعم قوي، حتى صار قسم منهم مسؤولين، استلم بعضهم مسؤولية قيادة تنظيم للضباط بعد منحهم رتبة ضابط، أحدثوا بصيرورتهم هذه نشاطاً في نهج التفكير العسكري، وفصاماً في البناء القائم على الضبط والتراتب العسكري، لأنّ الضابط دُرّب أن يكون قائداً، ودُرّب ضابط الصف أن ينفذ أمر القائد، لكنّ الحزب الذي يشكّل العسكريون غالب مكتبه العسكري، لم يكن مهتماً بهذا التناقض الهادم للضبط والقيم العسكرية، كان جلّ اهتمامه منصباً على تسجيل أعلى رقم انتماء إلى الحزب في عملية تبعيث الجيش، وجعله مؤسسة عقائدية في اعتقاد واهم أنّها ستدافع عن الحزب والثورة بإصرار أشدّ، ومقدرة أكبر عندما يكون جلّ منتسبيها حزبيين.

تمّ الالتحاق بالتنظيم الحزبي في بغداد منتصف تموز (1970)، وكان العديد من الضباط الحزبيين في قيادة فرقة الوزارة إبان تلك الأيام، من الجيل البعثي الأوّل، يحافظ عديد منهم على قدر مقبول من القيم العسكرية، والضبط، وعلى الجرأة، وكان في وقتها، وبعد أشهر من الالتحاق، قد صدر عن الحزب تعميم يمنع تنسيب خريجي الكلية العسكرية الأحداث إلى وحدات بغداد، مع تأكيد على تأدية خدمتهم العسكرية أولاً في الوحدات الفعلية خارجها لحين اكتساب الخبرة العسكرية الملائمة، وحال إتمام قراءة التعميم في الاجتماع الحزبي لخلية

الاستخبارات العسكرية، نوّه الملازم الأول إدهام شكر عن تنسيب عدد من الضباط خريجي الكلية العسكرية بدورتها الأخيرة، من أهالي تكريت إلى الحرس الجمهوري ضمن محيط بغداد، ذكرهم بالاسم، وذكر أنّ أمر تنسيبهم يعدّ مخالفة، ناقشت تفاصيله الخلية، واعتضت على صيغته، طلبت من المسؤول، رفع الموضوع بتقرير إلى فرقة الوزارة، ومن ثمّ الشعبة، تقرير وصل إلى المكتب العسكري، وبعد أسبوع من وصوله، استُدعي أعضاء الخلية من قبل عضو القيادة القطرية، ونائب أمين سرّ المكتب العسكري محمد فاضل، أبدى في المقابلة انزعاجاً من صيغة الاعتراض، رفض إثارة مواضيع كهذه، عدّها في غير صالح الحزب، أكّد أنّ النقل قد جاء لضرورات لا يدركها الحزبيون من مستويات القاعدة، ثمّ أنهى اجتماعه بنظرة غضب توحى بتهديد مبطن، يشير إلى نهج جديد للحزب يقتضي السكوت.

في طريق العودة إلى المديرية صار الأعضاء يتهامون من أنّ الحزب يتّجه إلى الانحياز والتسلّط وتكميم الأفواه، طريق سار فيه من ذاك الوقت، ونبّهت إليه محاولة ناظم كزار الانقلاب على النفوذ التكريتي، لكنّ قيادة الحزب الذي يتعاطم وسطها نفوذ صدام، وبدلاً من الاتّعاض وسّعت من ذلك النفوذ حتى بات واضحاً في الجيش والحزب، كأنّه صار نهجاً يمهد إلى التفرد والسيطرة، توجّه في محصلته صدام التكريتي بالانقلاب على الرئيس أحمد حسن البكر التكريتي، واستلام الموقع الأوّل في الدولة والحزب، وتعزيز النهج التكريتي العشائري داخل الحزب والدولة، ومن ثمّ تحويل الحزب إلى مؤسسة أمنية، صار النقد في ساحتها شبه معدوم، بل ومخيف، وصار التكتّم مطبقاً، وختمه نهج استبدادي بإخراج سيناريو استخباري عن مؤامرة لمحمد عايش وأعضاء في القيادة، للتخلّص تماماً من النّفْس المعارض،

وأيّ نهج يُحتمَل أن يعارض، نهج ترك في نفوس الحزبيين مشاعر إحباط، قلّت كثيرًا من الحماس الحزبي، وأسهمت في صياغة سلوك حزبي قائم على التسويف والمجاملة والانتهازية، استمرّ قائمًا من تلك الأيام المفجعة إلى آخر يوم في عمر الحزب 2003/4/9، الذي لم يتحرّك في حلولة الجهاز الحزبي بالضدّ من قوّة الاحتلال، كما كان يتأمّل صدام الذي أوصل عدد المنتمين إلى الحزب لما يزيد عن المليون.

انتقاله حزبية

قال مدير الشعبة الثالثة وأمين سرّ قيادة الفرقة الحزبية للاستخبارات الرائد الركن محمد عبد اللطيف نهاية عام (1974)، إنّه هو من رشّحني للتصعيد إلى مستوى عضو قيادة فرقة، وهو غير راضٍ عن النتيجة التي بانّت محصلّتها أنّ الترشيح لصالح فرقة حزبية استحدثت في السليمانية، يقتضي النقل إليها عسكريًا، ما يعني خسارة مهنية لشعبته الثالثة يصعب تلافيها، وبعد أيّام من قوله هذا، صدر الأمر نقلًا إلى مساعد ضابط استخبارات قيادة عمليات السليمانية، عضو قيادة فرقتها الحزبية.

كانت الفرقة الحزبية بأمانة سرّ الرائد حكمت لؤلؤة أمر مركز استخبارات السليمانية، وأعضاء أغلبهم جدد، وآخرين قدامى، وخليط من الضباط خريجي الكلية العسكرية، والدورات الخاصّة، والمقدّم محمد، تعود أصوله إلى قوات الليقي، ضابط غرير محدود التعليم، حزبي منضبط، عينه الحزب أمر فوج على أساس رتبته ونضاله، استمرّ العمل في هذه الفرقة قريبًا من السنة، ومنها إلى الفرقة الحزبية في جمهورية مصر العربية (خلال المشاركة في دورة لقادة سرايا الاستطلاع)، فرقة يغطّي نشاطها عموم الساحة المصرية، استمرّ العمل في صفوفها طوال

مدّة الدورة خمسة أشهر، ثمّ العودة إلى السليمانية، ومنها إلى بغداد معلّمًا للاستطلاع، كان النقل إلى تنظيم بغداد يفضي النزول في المستوى الحزبي درجة أقلّ، وهكذا تمّت العودة بدرجة عضو قاعدة، عودة مرّت دونما أثر، فالاهتمام كان حسب مفهوم الذات منصبًا على الجانب المهني بما يفوق الاهتمام بقضايا الحزب، والتقدّم في صفوفه، إلّا أنّه وبعد سنتين أُعيد الترشيح إلى عضوية قيادة الفرقة، كان ذاك عام (1976)، الذي شهد اتّساعًا في التنظيم الحزبي، فتكّنت وزارة الدفاع التي كانت فرقة صارت شعبة، والاستخبارات وحدها صارت فرقة، يبدو أنّ هذا التوسّع، يجري ذلك التوسّع في التشكيلات العسكرية، وبعد سنة من ذاك التاريخ، تمّت العودة إلى مصر لدراسة الماجستير، والعودة إلى التنظيم الحزبي فيها قيادة فرقة يقودها السفير عبد الجبار الدوري، دبلوماسي جيّد، أدام نشاطها على الرغم من التوتّر الذي حصل بين مصر والعراق إثر زيارة الرئيس أنور السادات لإسرائيل، وعند العودة إلى بغداد بعد ثلاثة سنين تمّ تنزيل الدرجة الحزبية ثانية إلى عضو قاعدة، في مدّة زمنية شهدت صعودًا لأجيال ما بعد العام (1968)، وشهدت ضعفًا ملموسًا للعلاقة العقائدية بين البعثي والبعث، وتغيّرًا في السلوك الحزبي لعدد من المنتمين، إذ، فضلًا عن التسويف سلوكًا سلبيًا، صار التدافع بين الحزبيين العسكريين لاكتساب الدرجة الأعلى في الحزب مثيرًا للاهتمام، وبما يفوق الاهتمام بالمهنية العسكرية مع بعض الاستثناءات، لأنّه وضع، أي الحزب، للدرجة الحزبية مكاسب مادية، وجعل لها سلطة فيها بعض الوجهة.

في زيارة الرائد ياسين عباس الأحبابي في بيته بمنطقة زيونة بعد اعتلاء صدام الموقع الأوّل، تمّ مناقشة بعض التصعيدات الحزبية إلى درجات أعلى في انتخابات صورية،

والتنويه إلى أنّ تجديد القيادات التي صار فيها صدام أميئاً لسرّ القطر قد يكون مفيداً للحزب على أساس أو حقيقة أنّ الدماء الشابة تسهم في التجديد، وتعطي التنظيم قوّة دفع أكبر، خاصّة على مستوى القيادة التي أصبح فيها البكر شيخاً يمثّل جيل المحافظين القديم، ويمثّل بقاؤه في المنصب طويلاً ركوداً ينعكس سلبيّاً على السلوك الحزبي، رأي عبرت عنه بقناعة، ردّ ياسين ردّاً بعدم الاتفاق، وأنّ له رأياً مغايراً تماماً، يستند في إبدائه على معرفة رصينة بالتاريخ القريب أوجزه بالقول: لقد أكملت دراستي الثانوية في تكريت، أعرف صدام أكثر طائفية من البكر، وأكثر قرباً منه إلى العشيرة والمنطقة، غائي جدّاً، لا يتوقّف عند الوسيلة لتسويغ غايته التي لا تُدرك، بداياته في تكريت غير مريحة، وأضاف: أتوقّع مواجهة العراق بوجوده مخاطر كثيرة، وأتوقّع اتّساع سيطرة التكراتة على الحزب والدولة والجيش أكثر من زمن البكر، ختم قوله بالإشارة إلى أنّ مستقبل الحزب والدولة بوجوده غير مضمون.

لقد تكلم ياسين في حديقة بيته بصوت خفيض، كان مدّعياً عامّاً في محكمة الثورة، مطّلعاً على طبيعة التهم ومقادير التالفق وزيف التقارير الحزبية، أكّد أنّه من حصولها يتألم، وأنّه قد وُضِعَ في موقف لا يتّفق مع طبيعته الشخصية وروح القوانين ومعنى الإنسانية، وأنّه لا يستطيع فعل شيء يُذكر⁷²، هذه ومن

⁷² ياسين عباس الأحبابي، من عائلة معروفة في منطقة الضلوعية، بعد فصله من الكلية العسكرية عام (1964) مع غالب طلاب دورته الثانية والاربعين، درس القانون، عمل في مديرية الاستخبارات ضابط ركن قسم القوّة الجويّة، عُرف بهدوء طبعه، وإنصافه، وميله إلى تقديم المساعدة، كان أكثر ضبّاط المديرية كياسة، وميلاً لتقديم العون إنصافاً، ورفضاً لاستخدام الأساليب القسرية، لم يدم عمله طويلاً في الاستخبارات، إذ غيّر صنفه إلى قانوني، وعُيّن مشاوراً قانونيّاً في الفرقة الثانية بكركوك، ثم نُقل بداية الثمانينات إلى مدّعي عام محكمة الثورة، كان غير راضٍ عن عمله فيها، يشكو من الظلم في التعامل والأحكام

مشاهد أخرى، يمكن القول إنّ الانحراف في السلوك الحزبي زادت شدّته أكثر، وتسارعت وقائعه أكثر بعد افتعال سيناريو قاعة الخلد الذي قوّض القيم الحزبية، وأشاع الخوف حدّ الهلع في نفوس الحزبيين، ودفع الحزبي إلى أن يكون رجل أمن يراقب رفيقه، الحزبي، والرفيق يكتب تقريرًا عن رفيقه، حتى صار غالب الرفاق لا يأمنون ولا يُؤتمنون، والجميع لا تأمن الرئيس، لا تقترب من ظلّه، عندها أحسّ البعثيون مثل باقي الأبناء العراقيين أنّ هناك تحوّلًا في السلوك اقترب فيه الرئيس من أن يكون إلهاً، أو وكيلًا للإله، يُحيي ويميت، يوزّع المكرمات من خزينة الدولة إلى الحزبيين، درجات من عضو الفرقة فما فوق، عندها بدأ الترحّم على البكر وإن كان شيخًا.

بدايات الهدم

إنّ كثرة الصرف على الجهاز الحزبي من موارد الدولة، وشكل التخادم بينهما حزب ودولة، صيّر الدولة في المحصلة حزبًا، وصيّر الحزب دولة، شَيّد الرئيس فوقهما وكرًا، نشر في عقول الناظرين أفكارًا، أو تخیلات من أنّ هدم الوكر، هدم للدولة والحزب، وعلى المنوال نفسه سيّسَ العسكر، جعل الجيش منظمة

الجائرة، كذلك من تدخّل الجهات الحكومية العليا في العمل القضائي للمحكمة، لم يلتفت أحد إلى شكواه، قدّم طلبًا للنقل منها، ولم تحصل الموافقة، حتى أصيب بعجز في القلب مبكرًا، طلب على أثره الإحالة على التقاعد، وأحيل برتبة عقيد، جلس في البيت حتى وافاه الاجل بسبب الإصابة، وبعد حين صدق حدس ياسين، إذ إنّ صدام، وحال اعتلائه العرش، زاد من شدّة دفعه الحزب تجاه السيطرة القمعية والانحراف عن السياقات الحزبية الصحيحة، والإخلال بالنظام الداخلي وبطبيعة العلاقة بين المهنية العسكرية والسلطة الحزبية، حتى صارت العلاقة بينهما معقّدة تصبّ في صالح القرار الحزبي على حساب الضبط العسكري.

حزبية، أخلّ بالقيم العسكرية والحزبية معًا، منح عضو الفرقة رتبة ملازم، وعضو الشعبة رتبة نقيب، ضابط صف صار أمين سرّ فرقة وأعلى منها شعبة، وفرع، يضحك على ضحاكته الموجودون بمعيته من الرفاق، سمح لضباط الدورات الخاصة الحزبيين الذين دخلوا الجيش عام (1968) الدراسة في كلية الأركان، والحصول على شارة الركن (ماجستير علوم عسكرية)، خلافاً لضوابط الجيش، وتجاوزاً على معايير القبول في الكلية، حتى صار قسم منهم قادة وأمّرين وضباط في الاستخبارات، فخرس الجيش إثر صيرورتهم هذه فرص بروز قادة، وخرس الحزب متانة السياسة، واحتار من سلك منهم هذا الطريق بين القيادة والسياسة، فتدنت مستويات التحصيل والمهنية والثقافة.

علي حسن المجيد، كان عريقاً، وتدرّج في الحزب إلى عضو مكتب عسكري، مُنح رتبة فريق ركن، ثمّ عضو قيادة قطرية ووزير دفاع، وكامل ياسين نائب ضابط، تدرّج كذلك في الحزب حتى عضو قيادة قطرية ومحافظ ووزير، والنائب ضابط محمد العزاوي، وصل إلى عضو مكتب عسكري، ونائب المفوض برزان إبراهيم التكريتي، وصل إلى عضو مكتب عسكري، ورئيس جهاز المخابرات وممثّل العراق في الأمم المتّحدة، وكذلك وطبان إبراهيم عضو فرع ووزير داخلية، وسبعاعي إبراهيم عضو فرع ومدير أمن عام ورئيس جهاز المخابرات، وحسين كامل جندي في الحماية حصل على رتبة فريق ركن، وشغل منصب وزير دفاع.

كانت هناك فقرة في الاجتماع الحزبي الأسبوعي تتعلّق بالثقافة، يشرح فيها أحد الأعضاء موضوعاً معيّناً، يُكلّف بتحضيره من خلال أمر يستلمه في الأسبوع الذي سبق، حسب خطة ثقافية وضعها المكتب الثقافي للحزب، ومن المتابعة

الشخصية لألية تنفيذ هذه الخطّة يتبيّن ضعف الميل إلى القراءة لدى الحزبيين، أو عديد منهم على أقلّ تقدير، وبصددّها جرى حوار مع عبد الجبار محسن مدير التوجيه السياسي، عضو المكتب الثقافي القومي، كان الرجل مهتمّاً بالثقافة، وهو قارئ جيّد، شكّا في اللقاء من عزوف الحزبيين عن القراءة، طلب ورقة بحث فيها اقتراحات لاستمالتهم إلى القراءة، سأل كيف لنا تحقيق ذلك؟ كان الردّ عدم نفع الورقة، ولا أيّة جُرْع تُعطى لتنشيط القراءة، لقد انتهت الدوافع الذاتية للقراءة في نفوس الحزبيين، وتحولوا إلى متلقين سلبيين، لا يقرؤون، تعجّب عبد الجبار من هذا الاستنتاج، وطلب المزيد من الإيضاح، فكان الإيضاح تفصيلاً لما جرى في أكثر من اجتماع حزبي قلت فيه: عند تكليفي بموضوع ثقافي من أمين سرّ الفرقة لا أقرأ، لكنّي أقدم شرحاً يملأ الوقت المحدّد للفقرة الثقافية، أقول أشياء ومعلومات من عندي، أقدم توليفة لعنوان الموضوع كذلك من عندي لا تتعلّق أحياناً بصلبه، وفي كلّ مرّة أشاهد المشاركين في الاجتماع يهزون رؤوسهم علامة الموافقة، كأنّهم فهموا ما قيل، أو أنّهم يودّون الانتهاء منه حتى دون استيعابه، وهؤلاء وغيرهم لا يمكن دفعهم إلى القراءة بالحثّ أو بإصدار الأوامر.

شروع اطلال

في تلك المرحلة من العمل الحزبي صار الاجتماع الأسبوعي مملاً، وصار الرفيق يتحجّج، يلوذ بالمهامّ العسكرية حجة لعدم الحضور، خاصّة في مرحلتي الحرب والحصار، وعن هذا الموضوع قال صبري عضو قيادة فرقة في جلسة خاصّة: لو خيروني بين واجب عسكري ليوم أذهب في أوّله إلى البصرة لأعود في آخره إلى بغداد، وبين حضور الاجتماع

الحزبي أفضل، ومعني غير القليل من الرفاق، الذهاب بالواجب عن حضور الاجتماع الحزبي، قالها تعبيراً عن الرتابة والملل التي زادت كثيراً في ثنايا الاجتماع الحزبي بالسنتين الأخيرة لمستوى عدم الاكتراث لمفردات الاجتماع وقيمه الحزبية.

كان العميد غانم عضو قيادة الفرقة يجلس إلى جانبي في غالب الاجتماعات الخاصة بالفرقة الحزبية لدائرة التوجيه المعنوي، يأخذه النعاس أحياناً، وعند اقترابه من الغفوة يقول استرني، فيتمّ تعديل وضعية الجلوس في الجوار كي يكون الجسد مانعاً بين المسؤول الذي يدير الاجتماع وبينه، فيغطّ في نومه، ويبقى تحت المراقبة حدود الوصول إلى مستوى الشخير، وحال صدور العلامات الخاصة بالشخير أوقفه بوخزة يسيرة في العكس تعودّ عليها، وصارت توقظه من دون أيّة ردود فعل مثيرة، وغانم في واقع الأمر ليس وحده الذي كان ينعس، بل آخرون على قُلْتهم يمثّلون حالة، ويمثّل آخرون يحاولون الخروج من الاجتماع لغسل الوجه عندما يشتدّ النعاس حالة أخرى.

تطوّر وقع الحرب مع إيران بعد سنتين من بدئها تجاه السلب، صارت القوّات المسلّحة تخسر معارك تلو أخرى، استمرّ صدام قائدها العام وأمين سرّ الحزب من جانبه في الهرولة نحو ابتكار سبل التعبئة والحشد البشري بالتأسيس على الحزب قاعدة لتأمين مقاتلين بغية تعويض الخسائر، وتجديد دماء المشاركين في المعركة كما يحلو له القول، والأهمّ اختبار ولاء البعثيين وسط هذه المعادلة الصعبة، كما أنّ تطوراتها، أي الحرب، وتدخل الحزب في بعض تفاصيلها خرب العلاقة القائمة بين الحزب وبين المجتمع، بعد الدفع المستمرّ لعسكرة المجتمع، من أجل سدّ الحاجة الفعلية إلى مقاتلين قادرين على مواصلة القتال بطريقة كان ناتجها: من لم يكن عسكرياً من بين عموم الشعب طوّغ في صفوف الجيش الشعبي، ومن يحاول الحفاظ على

وضعه المدني، لأي سبب كان، يلحق بين الحين والآخر إلى الوحدات العسكرية ليعايش المقاتلين عملياً؛ أو يُرسل إلى قواطع الجيش الشعبي مؤقتاً ليقا تل فعلياً، ولتحقيق ذلك بشكل محكم وضع الحزب نظاماً للإلحاق كان قسرياً منقراً، في حالته تخرج مفارز حزبية تجوب الشوارع تبعاً لقواطعها، تُنصبُ الكمائن على بعض تقاطعاتها والسوح، للقبض على الجنود الهاربين وإرجاعهم إلى وحداتهم، والتقاط أفراد من بين المارة لإكمال موجود القواعد الخاصة بالجيش الشعبي، وعندما يكون هناك نقص كبير في موجود أحد القواطع، تعمل الفرقة الحزبية غارات مدهمة لبيوت المواطنين، تجمع من بينهم عدداً، لا تتوقف عن جهود جمعه إلا بعد إكمال النقص، ومع هذه الشدة في تنفيذ توجهات الإلحاق القسري، يهرب بعضهم، ويختفي بعضهم، ويُبلغ في بعض الأحيان من له قريب في الفرقة قبل إجراء المدهمة، وفي أحيان أخرى (قليلة) يبلغ من يدفع مالاً إلى أحد الرفاق في الفرقة يساعده على الهرب، فكثر الملل واليأس والفساد مما زيد من حجم الخراب والوهن، إلا أنه، ومع كل هذه المحاولات الجارية من القيادة، لم تتوقف عمليات التداعي في صفوف الحزب، ولم يتوقف الخراب والوهن، بل على العكس صار الحزب في هذا الشأن مثل الجيش والدولة، يتلقى الضربات بشكل متوالٍ، فيزيد في داخله الوهن، كانت قضية المؤامرة المصقة بمحمد عايش ضربة موجعة، أعقبتها ضربات حرب الخليج الأولى مع إيران، وضربة أقسى في الحرب الخليجية الثانية (أم المعارك)، يوم هرع الحزبيون حال شنّ صفحتها الجوية إلى مقرّاتهم، أطلقوا عبارات خفيفة من بنادقهم على طائرات يصعب رصدها بالعين المجردة فأصيبوا بخيبة يأس، وجدوا أنفسهم بمواجهة هجوم بري لقوّات تحالف تفوق قدرات بلدهم بعشرات المرّات، فتبين لهم أنّ الرمي من بنادقهم على تلك

الطائرات واهم، ولملمة المتطوعين من الشارع غير نافع، وإن قيادتهم نمر من ورق، وحزبهم الذي لم يتعلم من التجارب السابقة، عاود الخطأ، أوقف الدراسة، وعطل نصف الحياة، كي يعود الطلاب إلى خنادق القتال، أرجع بعض المتقاعدين بأعمار قريبة إلى الخدمة في الجيش ليعاودوا القتال.

كانت الواجهة الحزبية في حرب الخليج الثانية صوب البصرة ساحة العمليات الفاعلة، وزّع الحزب أعضاء مكتبه العسكري، وكوادره المتقدمة على القيادات العسكرية، بقصد المساعدة في رفع المعنويات، ووضع قصداً خفياً للتأكد والمراقبة، امتعض أغلب القادة من هذا التوزيع والتواجد الحزبي في ظروف قتال خاسرة، راقب أولئك الحزبيون نتائج المعارك الخاسرة، وانسحبوا من الكويت وساحة المعركة مع انسحاب القطعات العسكرية فوضوياً، شاهدوا ترك السلاح صالحاً في أرض المعركة، وآلاف الأسرى يسلمون أنفسهم لعدوهم طواعية، وجثث شهداء موزعة على طريق الموت، وأكثر منها معدات على حافاته متناثرة، فأحسوا بالإحباط أسوة بالعسكريين، وكذلك الشعور بالمدلة، كوّنت في نفوسهم وفي نفوس المدنيين صدمة، أشعلت انتفاضة في البصرة امتدت إلى عموم مدن الجنوب والوسط، ثم الشمال الكردي، هاجم المنتفضون والناقمون والسرّاق والجائعون المقرّات الحزبية والدوائر الحكومية، فرّ الحزبيون من أمام المواطنين، المطالبين بالقصاص، قُتل نتيجة المطالبة بالقصاص كثيرٌ ممّن وقع منهم بين الأيدي واهناً، وتوجّه بعضهم أثناء هربه إلى العشيرة مستنجداً بنظام لها كان يهجوّه بالأمس نظاماً متخلفاً.

الرفيف منعم الشبخلي

ومع كلّ هذه النكسات، وللاّنصاف في جوانب التقييم الحزبي، يُعدّ حزب البعث هو الحزب الأكثر حنكة تنظيميًا في العراق، وربّما في غالب الدول العربية بعد الحزب الشيوعي، وهو الأكثر انضباطاً وشعبية، والأوفر حظاً في الانتشار من جميع الأحزاب التي كانت من قبله، وكذلك التي جاءت من بعده، أهدافه ومبادئه تلبي نظرياً مشاعر الجماهير في توجّهاتها القومية لا غبار على ما ورد فيها وكتب عنها، لكنّه لم يعر اهتماماً لسلوك رفاقه خاصّة في مراحل استلامه الحكم، فأخطأ منهم الكثير بحقّه حزباً، وبحق الدولة والمجتمع، فأماتوه أو مات من فرط نجاحه، وتعدّ قيادة صدام للحزب هي الأقوى في عموم التاريخ البعثي الطويل، وهي الأحق، هيمنت بعد تلك الاضطرابات سريعاً على أعضاء الحزب المعروفين بشدّة انضباطهم، ونفوسهم الخاوية، أعادتهم من تبعثرهم إلى صفوف التنظيم في الوقت المناسب، أعدمّت بعضهم، عزلت بعضهم الآخر، باتت تفتش في دفاتر الحرب وتقارير الرفاق إبان فترة الخواء، وجدت بين أوراقها تقريراً للرفيق العميد منعم الشبخلي، فيه اتّهام لي بالتجاوز على الرئيس مبني على التّأويل، كما سيرد مفصّلاً في الفصل القادم، قال عضو المكتب العسكري سعدون علون، لقد حجبت ذاك التقرير عن القيادة مرتين، وفي الثالثة عجزت عن الحيلولة دون وصوله إلى مكتب الرئيس الذي طلب التّدقيق في الأمر، شكّل هيئة تحقيقية، وجّهت اتّهاماً بالتطاول في الكلام على الرئيس.

إنّ الحزبي المحكوم بالسجن في زمن صدام لتهمة سياسية، وأياً كانت المدّة يخرج من السجن بعد التنفيذ منبوءاً، كمن يخرج من مستشفى عزل، صدر إثره النقل إلى إمرة مديرية المشاة،

نقلًا يعني البقاء في حال الانتظار لحين البتّ في الموضوع المعلق، وكان البتّ عام (1992) إحالة على التقاعد وفق الفقرة هـ (زيادة على الملاك)، وفصل من الحزب، لم يشكل الفصل غصّة، بل على العكس من هذا، يمكن وصفه في الوقت الراهن كأنّه المحلول الذي أزال بقع اتساخ من على كساء ملوّث، إذ كانت سمعة الحزب قد ساءت آنذاك، وأصبح التخلّص منه بأقلّ الضرر أمنية موجودة في عقول بعضهم غير القليل من الحزبيين يصعب تحقيقها طوعًا، ويصعب الإفصاح عنها، تمّ تسليم البندقية والمسدس، السلاحين الحزبيين المثبتين بالذمّة إلى الفرقة الحزبية، ومعهما شارة الحزب، شرّعها ضمن صفوفه نوعًا من الأوسمة، يمنحها بقرار من قيادته القطرية، لمن يتجاوز استمرار وجوده في الحزب خمسًا وعشرين عامًا فأكثر، كان التسليم عاديًا، لم يشعر بالأسف على ثلاثين سنة قضيت في صفوف الحزب، بلغ الأقران خلالها مستويات قيادية عليا، كان من عادة صدام في إدارته للحزب، الميل شبه العمدي لإذلال الرفيق الحزبي الذي يوسمه بالخطأ، يغرقه عمدًا في ظلام بئر دامس، وقبل لفظ أنفاسه الأخيرة يمدّ له حبل النجاة، كان حبل النجاة الذي مدّ هو زيارة إلى البيت قام بها اللواء الركن طه عباس الأحبابي (مدير الأمن العام)، واللواء فراس يوسف، ضابط استخبارات سابق، بدت كأنّها زيارة مجاملة وتفقد، فكلاهما صديقان منذ العام (1970)، لكنّها تبدو منطقيًا كأنّها مقصودة، عرض فيها طه، عضو الفرع العسكري بعد مقدّمة إشادة بالكفاءة والاختصاص العلمي الذي يحتاجه الجيش، تقديم طلب إلى الرئيس أمين سر القطر، يتضمّن قبولاً للعقوبة، واستعدادًا لخدمة الحزب والثورة في المكان الذي يحدّده القائد، وكانت الإجابة: هل يعقل الاعتراف بذنب لم يُرتكب! ثم إنّ الضابط المتقاعد، وحسب القوانين العسكرية ضابط احتياط يمكن إعادته إلى الخدمة العسكرية من

قبل الدولة في حال حاجتها إلى خدماته في الوقت الذي تريد،
وستجد عند ذلك الاستعداد حتمياً للتنفيذ.

ضحك طه في وقتها، والتفت إلى فراس قائلاً: يفكر سعد
بعيداً بمعارضة ستكون ضدّ الحزب، وثورات قد تنشب ضدّ
الحكم، لا يعلم أنّ أيّاً من هذه الاحتمالات، نتيجة غير واردة
الآن، وغير ممكنة في المستقبل، فجاء الردّ بتروّ: إنّ مثل هذه
الأفكار لم ترد على المخيلة، وأصل المسألة يكمن في صعوبة
الاعتراف بذنب لم يرتكب.

خرج الصديقان من بعد هذا مودّعين، غير راضين على
ردّة الفعل هذه، لكنّهما استمرّا صديقين قرييين، واستمرّ الحزب
في حالة تدهور، حتى يوم سقوطه في 9 نيسان 2003.



الفصل الثامن

في غياهب الجبّ



انعطافه على طريق الخدمة الطويل

كان يوم 1991/10/26 مكتظًا بالمواعيد، بدأ صباحه مراجعة روتينية لمديرية التطوير القتالي في وزارة الدفاع، بغية تسليم الكتاب الصادر عن الجامعة حول إتمام مناقشة الرسالة الخاصة بنيل الدكتوراه، وانتهاء الإجازة الدراسية ثلاث سنوات، قال العقيد رئيس القسم المعنيّ بالإجازات الدراسية قبل انتهاء الدوام بدقائق معدودات، غدًا في الصباح سيكون كتاب الإلحاق بالتوجيه المعنوي جاهزًا، عندها لم يتبقّ من الوقت فائضًا لإنجاز مهام أخرى سوى الذهاب إلى البيت، أملًا في تناول الغداء، وأخذ قيلولة لا غنى عنها طوال سني الحياة، لم تكتمل ساعتها الافتراضية، أذ أخلّ بديمومتها جرس الباب، وقف شابّ في مواجهته منتصبًا يلحّ في قرعه، مرارًا، كأنه مستعجل لأمر هامّ، خرجت لويذاء هي كذلك مستعجلة، وجدته شابًا ذا بدلة سوداء اللون، وربطة عنق يغلب عليها اللون الأحمر، وسيارة تنتظره ببيضاء اللون لاند كروزر، ووجدت آخر يجلس في حوضها الخلفي، سألته، ما الأمر؟ ولمّ هذا الاستعجال؟ فبادر بالسؤال: هل العميد موجود:

- نعم إنّه موجود.
 - ممكن إخباره أننا نودّ رؤيته؟
 - لكنّه نائم.
 - إنّه أمر هامّ، ولا بدّ من إيقاظه.
 - ومن أنتم رجاء، كي يتسنى لي إيقاظه.
 - لدينا رسالة هامة من وزارة الدفاع.
- بقي الشابّ الأنيق في مكانه منتظرًا، وحواسّه الخمسة مستنفرة، ومثله الثاني باقيًا في مكانه ينتظر، قال موجّهًا الكلام بشكل مباشر:

- سيّدي العميد، يبلغك الركن حازم عبد الرزاق السلام⁷³، يودّ رؤيتك الآن لموضوع يتعلّق باستخدامات علم النفس في الأمن العسكري، واستشارات أخرى، نحن من مكتبه الخاصّ.

- ولم الآن؟

- مطلوب بصدده ردّاً الى الرئاسة، لا يمكن تأجيله بعد

الآن.

لم يثر أسلوب التبليغ، وإجابته المنطقية، شكّاً، فحازم صديق، وطلبات الرئاسة معروف عنها فرضاً لا يُحتمل التأجيل، أجبت بالإيجاب، وسؤال عن القيافة الملائمة للحضور، ردّ بهدوء: لا يهّم مدنيّة كانت أو عسكرية، فالخيار متروك، والمدير لا يحدّد في مقابلاته المعتادة أيّة قيافة.

خمس دقائق كانت كافية للتهيؤ، فسح الشاب الأنيق في الثواني الأخيرة منها المجال رحباً للجلوس على اليمن، وأبقى مكانه إلى الجوار في اليسار التزاماً بالضوابط العسكرية في الجلوس، بينما أخذ فيه الشاب الآخر مكانه جوار السائق في الأمام، لم يبادرا من جانبيهما في الكلام طوال الطريق من محلّة الكسرة إلى منطقة الكاظمية حيث الثكنة الرئيسة للأمن والاستخبارات، اقتصر جلّه ردّاً على بعض أسئلة جاءت

⁷³ . حازم عبد الرزاق شهاب، ضابط من الدورة (44) للكلية العسكرية، خدم في صنف المدفعية، ثمّ الصواريخ، من عائلة عسكرية، اجتماعي، مفرط الذكاء، مرح، بدأت علاقة الصداقة معه بعد عام (1970) إبّان الدراسة معاً في كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، لم يتحرّك لما يتعلق بقضية الاتهام والتوقيف عندما كان هو مدير الأمن العسكري، ولم يرسل خبراً بعد انتهاء فترة السجن، ومغادرته المنصب، ومثل هذا السلوك مفهوماً في الظروف الحاكمة آنذاك، إذ يمكن أن يتعرّض القائم بالتحرك إلى المساءلة القاسية، حتى وإن كان تحرّكه لإنصاف صاحب حقّ أو لإثبات الحقيقة.

للمجاملة، تتعلّق بحال العميد حازم، إجاباتها مقتضبة، توحى كأنّه غير مخوّل بالإجابة، لكنّ ذاك الشاب الحمل الوديع تحوّل إلى ذئب شرّس، حال الدخول إلى غرفة الاستعلامات المشتركة لمديريّتيّ الاستخبارات والأمن العسكري، صارت كذلك مشتركة طوال مدّة فصلها مديرية للأمن العسكري عن هيكلية الاستخبارات العسكرية، وتكليفها بمهامّ تقتصر على الأمن، تجربة فصل لم تنجح، فأعيدت ثانية إلى الاستخبارات كمعاونية، وبقيت الاستعلامات على حالها مركزية.

قال ذاك الذئب بصوت منقّر اختلفت فيه النبرة، وتغيّرت تقاطيع الوجه، اجلس هنا، وتقدّم الثاني حاملاً في كلتا يديه قطعة قماش مستطيلة سوداء، غطّى العينين بعصبية، شدّ طرفيها خلف الرأس بقوة، قال لا تتحرك من المكان، كان الموقف مفاجئاً، إذ لم يخطر على البال طوال الطريق المارّ بمنطقة الأعظمية وجود أمر كهذا يتطلّب عصب العينين، لأنّ عصبهما بالمفهوم الأمني عملية إلقاء قبض قسري تمهّد إلى إجراء تحقيق بتهم خطيرة.

عشر دقائق مرت على وجه التقريب، كان الجلوس طوالها مصحوباً بذهول اكتئابي، وذهاباً في التفكير إلى بعيد، ونبشاً في كومة القش عن إبرة قد تكون سقطت في غفلة من دون علم، كانت كأنّها دهر غابر، جاء في آخرها صوت غير ذاك الصوت الأجنّس، قال انهض، ثم مسك الجسد القلق من اليد اليمنى، في طريق الخروج من الاستعلامات إلى سيارة قريبة، بأسلوب يشعر الضابط، كأنّه ليس من هذا الوسط، ولا ينتمي إليه، ويُسعره بتشوّه قيم الخدمة العسكرية التي عدت وطنية، منذ تأسيس الجيش إلى هذه اللحظة التي أحسّ فيها معسوب العينين كأنّها والقيم والمهنية والشرف العسكري معايير صارت تتآكل بالتدريج.

سجن الاستخبارات

تحرّكت السيارة، في الشوارع الداخلية للثكنة، راح العقل يفتّش في الذاكرة، عن اتجاهاتها المخزونة في الخلايا من مرحلة العمل السابقة في المكان، خَمَنَ السير تجاه اليمين، وأنبأ الحدس قصدًا لها موقع السجن القابع في أقصى اليمين، توقّفت من دون كلمة من أحد ركبائها غير المعروفين، فتحوا بوابة كان صرير حديدتها يؤكّد ذاك الحدس بأنّها بوابة السجن المعهود للاستخبارات، ذلك السجن الذي لم أزره خلال خدمتي في الاستخبارات سوى مرتين، الأولى تتعلّق بالإشراف على تقييم الحالة النفسية لنزيل فقد عقله بسبب قسوة التعذيب، والثانية استنطاق نفسي لمتهم بالتجسس.

رُفعت غُصابة العين السوداء حال دخول إحدى غرفه الخاصة باستلام وتسليم الموقوفين، قال كبيرها جندي بملابسه الزيتوني: ضع ما بحوزتك على هذه الطاولة، أعاد تكرار الأمر بالتفصيل، أعني (الساعة، والهوية، وحافظة النقود، والقلم المثبت جانبًا، ودبلة الزواج)، بعد وضعها توجّه إلى تسجيل جميعها في سجل خاص، وأضاف بصيغة الأمر: انزع ملابسك العسكرية، ضعها في الكيس، وخذ تلك البيجاما والمنشفة.

جرى التنفيذ حرفيًّا، في حال نفسي لم تتمّ فيه الاستفاقة من ذهول الصدمة، وبعد إتمام آخر فقرة من أوامره، أصدر أمرًا آخر بالتوجّه مصحوبًا بشخص آخر صوب غرفة تجاوز المدخل الرئيس للسجن من جهة اليمين، أغلق المُصاحب بابها حال الدخول، من دون النفوّه بكلمة واحدة.

كانت الغرفة مربعة الشكل، طول ضلعها بحدود ثلاثة أمتار، لها شباك يطلّ على السياج الخارجي لهذا السجن المحكم، مطلي زجاجة بطلاء أزرق، أرضيتها اسمنتية مصقولة جيّدًا،

تُركت خالية من كلّ شيء، تطلّب استيعابها لفّ متقن حول الذات القلقة، أعقبها جلوس مكتوم لدقائق لم تساعد على استيعاب الموقف وتخفيف القلق، وتجاوز الصدمة، بدأت المشي على غير هدى خطوات أربعة في الذهاب، ومثلها في الإياب، بين حيطان متقاربة دام عدّة ساعات، صعب تقديرها، وصعب ترتيب الأفكار التي كانت في الغالب أسئلة ذاتية عن الأسباب التي أدّت بالوصول إلى هذا المكان، ودوافع التعامل بهذه الطريقة الفظة، ومع هذا لم ترد على سلّم الذاكرة حادثة منعم الشخيلي، وتهديده إبان الهجوم البرّي للأمريكان قبل ما يقارب ثمانية شهور بكتابة تقرير، ولم تكن من بين الأسباب المتوقعة، الأمر الذي أبقى احتمالات الضحك بصوت عالٍ على طرفة تتعلّق بالرئيس؛ أو تسجيل مقطع تطاولاً على ظلّه وهو ماشٍ في طريق الحرب، لكنّ العقل الذي لا يريد العيش تحت تهديد التهم ذات العلاقة بالرئيس حاول استبعادها كلّما صعدت سلّمة على سطح الذاكرة الهش، وهكذا استمرّ المشي المصحوب بالتفكير ساعات، فتح وسطه الباب، أدخل منها العشاء، كباب يبدو من شكله سيخان اشتريت من مطاعم السوق، وضعه الجندي على أرضية الغرفة، لم يجب على سؤال يتعلّق بالوقت، ومقدار الساعة التي حلّ فيها العشاء، أغلق الباب وغادر، ولم يجب على السؤال ذاته عندما عاد لياخذ الصحن كاملاً من دون ثلم أيّ من السيخين، كان ينظر خفية، كأنّه يقيّم المشي الذي استمرّ على الوتيرة ذاتها، وإن اختلف فيه نهج التفكير، كان التفكير في هذه الوجبة من المشي، بالعائلة التي لم تعلم المصير، فالابنة التي نادى، لم تسمع طلب ملاقة مدير الأمن العسكري، والزوجة كانت تزور بيت العائلة في حيّ المغرب، والطفلان الآخران لم يتعوّدوا السؤال عن وجهة من يترك البيت، فكانت حيرة، أو مأزق ظهرت بسببه عشرات الأفكار، كلّ واحدة منها أخذت وقتاً طويلاً لمناقشتها في

وضع الصمت، وأخذت أعدادًا من التكرارات لاستبعادها، أو استبدالها بأخرى كذلك بالعشرات، من دون الوصول إلى نتيجة تخفّف من شدّة القلق على عقل أبقاه اجترارها تكررًا في حالة استيقاظ حتى شروق الشمس، كان الشروق يمكن تمييزه من انعكاس بعض خيوط الأشعة الشمسية على طلاء الزجاج الأزرق، وكان فيه الأمل كبيرًا لبدء التحقيق كسياق تقليدي، منه يمكن التعرّف على التهمة، وسدّ ثغرة في مشاعر القلق الغامر، عارفًا تمامًا أن تأخير بدء التحقيق فعل في هذه الدائرة ومثيلاتها متعمّد يرقى إلى أن يكون سياتًا لكثير من القضايا (عدا المستعجلة منها)، إذ يعتقد القائمون عليه، وهم محقّون أنّ التأخير، يسهم في إثارة التوتر لدى المتهم، ويستنزف كثيرًا من طاقته النفسية، بمستوى قد يفضي استنزافها إلى حصول الانهيار، ومن ثمّ تسهيل عملية الاعتراف.

النفّيش عن الهفوات

انتهى وقع الانتظار، وخفّت حالة الذهول القلق أواخر ساعات اليوم الثاني في هذا الجبّ، لحظة دخول الشخص المخوّل من سرية الأمن بملابسه الزيتوني، حاملاً تلك القطعة المنبوذة للقمّاش الأسود، يُقلّبها بين أصابعه الغليظة مثل مسبحة كهربي يتلاعب بحبّاتها شخص قلق، كان الوقت محسوبًا بحسابات التقدير، قريبًا من ثلاث ساعات بعد غياب الشمس، عصبّ العينين أولاً، مسك الذراع، إيدانًا ببدء السير سحبًا صامتًا، ولما جرت محاولة بائسة لكسر الصمت بسؤال إلى أين؟ ردّ بقسوة رجال الأمن المعهودة طالبًا الصمت.

لم يستغرق المشي خطوات، حُسيبت بشكل دقيق، كانت عشرين خطوة، استدّار من بعدها إلى جهة اليسار، نقل يده،

وضعها على الكتف ضغط من الأعلى دلالة الجلوس، تمّ الجلوس بتوجّس واضح على كرسي، بان ملمسه صناعة خشبية، وبان من خطوتي الوصول أنّه موضوع في بداية الغرفة، وأنها غرفة تحقيق، يتواجد فيها أكثر من شخص يديرون عملياتها الحالية.

كان الصمت مطبقاً، أعقبه همس لعدّة أشخاص، جرت محاولة واحدة للتعرف على الوجوه، برفع الرأس قليلاً إلى الأعلى، لإتاحة المجال إلى العينين المعصوبتين التسلّل في النظر من فجوة ضيقة أسفل العُصبة، فشلت المحاولة، لأنها، ومهما ارتفع رأس صاحبها، لا تسمح إلا بمشاهدة مجموعة سيقان تغطّيها سراويل عسكرية، زيتوني أسفلها أحذية حمراء، كان اجمالي تعدادها ستة، متجاورة لثلاثة ضباط، هم أعضاء الهيئة التحقيقية، تنبّه أحدهم إلى استمرار حركة الرأس سبيلاً للتعرف عليهم، فتدخّل قائلاً: لا تدعنا نقلّ احترامنا إلى الرتبة العسكرية، أنت متهم، وعليك الالتزام ببقاء العينين معصوبتين، فتمّت إجابته بمنتهى الهدوء: لم يكن عمداً، ولم تتم إزالة قطعة القماش عن المكان الذي وضعت فيه، وللرأس في حالات حجب الرؤيا حركات لا إرادية.

سأل سؤالاً يبدو عابراً لا علاقة له في صلب الموضوع: هل ناقشت رسالة الدكتوراه؟ فكانت الإجابة بالإيجاب، وقبل أربعة أيام، ردّ كمن يكون غير راضٍ، أو متفاجئاً بإتمام مناقشة لا يريد إتمامها: ما كان لك مناقشتها، فالخونة الحاقدون لا يصحّ حصولهم على الدرجات العلمية العليا في هذا الجيش.

سألت بهدوء المضطرّ: وهل ثبتت الخيانة؟ والتحقيق لم يبدأ بعد، ثم إنّ الأكيد اطلاعكم على الاضبارة الشخصية، وتعرّفكم على طبيعة الخدمة، والتاريخ العسكري المثبت على سطوح أوراقها، والأكيد أنّها معروضة أمامكم على طاولة التحقيق، وهي في العموم نظيفة، ليس فيها أوجه خيانة.

أنت متهم بالتطاول على شخص السيد الرئيس حفظه الله ورعاه بكلمات لا تليق، قال المتكلم، فقلت وأي دليل يثبت هذا الاتهام الخطير؟

عاد رئيس الهيئة إلى الهدوء، بدأ تجريب الليونة، والترغيب أسلوباً لسحب المقابل إلى الاعتراف الطوعي، وفتح فسحة أمل بالعفو عند قول الحقيقة، واجه إصراراً على عدم وجود شيء مخالف يقتضي الاعتراف، وإن أصل الموضوع حسب الظن وشاية، أو تقرير مكتوب بدوافع العداوة، ليس له أساس من الصحة، ردّ بقسوة: أنه ليس وشاية ولا تقريراً مكتوباً من أحد، فكان الجواب: إذن، وفي مثل حالات كهذه تستوجب التوضيح بضابط ذي رتبة عالية، ورفيق في الحزب، لا بد أن يكون تسجيلاً لحوار أو حديث، وإن كان هناك تسجيل يثبت التطاول، فلدى الجالس أمامكم متهمًا الاستعداد، كل الاستعداد للتوقيع على ورقة بيضاء تكتبون فيها ما تشاؤون.

توقّف رئيس الهيئة عن الكلام، وبدأ التشاور مع الأعضاء بكلام يصعب تمييزه، لكن حاصله إثبات بعدم وجود تسجيل، الأمر الذي جعل مستوى القلق ينخفض بعدما كان عاليًا، لأنّ التسجيل الصوتي لعبارات، أو كلام يمسّ الرئيس حكم بالإعدام من دون تأخير، قال من بعد التوقف: لقد تفوّهت بعبارات وكلمات، تقصد فيها شخص الرئيس، يوم شنّ الأعداء الأمريكيان هجومهم البرّي.

هنا بانّت التهمة واضحة، أعادت إلى الذاكرة، حادثة المشادة الكلامية مع العميد منعم، وتهديده بكتابة تقرير، وأعادت إلى العقل القدرة على صياغة الجمل الملائمة للدفاع عن تهمة حكمها بالإعدام في حال الثبات، لكنّ المحقق السائل توقّف عن توجيه الأسئلة، قال سنعطي الفرصة سانحة للتجاوب والاعتراف طوعاً،

من دون ضغوط، عندها سنتعهد التوسّط للحصول على عفو،
والرئيس رحوم في مثل هذه الحالات.

.....

مرّ الليل بطيئاً، محمّلاً بكثير من الأفكار، ليس من بينها
الاعتراف، صيغة ترغيب بدائية في التحقيق، وانقضى النهار
كذلك ببطء في انتظار حلول الليل، وعودة الهيئة التحقيقية التي
عادت، بوقت يقترب من وقت حضورها في الأمس، دخل السائل
ذاته في الموضوع مباشرة، قال ننتظر منك التعاون معنا وحسم
الموضوع بالاعتراف، أنّك تقصد في كلامك السيد الرئيس، فكان
الردّ: أعرف من كتب التقرير، إنّهُ العميد منعم، وأعرف أنّ
كتابته كانت بدافع البغض نتيجة مشادة وخلاف حصل، وعلى
الرغم من عدم التأكّد من صيغة المعلومات التي لَقَّعها، لكن اثبات
واقعها أسهل بكثير من عملية تفسير القصد، وهناك شهود بينهم
اللواء الركن منذر عبد الرحمن مدير التوجيه المعنوي، الذي
اعترف له منعم النية المبيتة مسبقاً لكتابة تقرير، وتعهده فيما بعد
بعدم كتابته إثر الحصول على توبيخ، ردّ أحد الأعضاء: يبدو أنّك
لا تريد التعاون، فعليك تحمّل المسؤولية والتبعات.

المسألة يا سادة لا تتعلق بالتعاون من عدمه، إنّها مشكلة
تهمة ملفّقة، لا يمكن قبولها بأيّ حال من الأحوال، كان هذا هو
الردّ الذي دفع شخصاً ثالثاً للتدخل أوّل مرّة، قال: لم تُبق لنا
خياراً للتعاطف، سنسأل مجموعة أسئلة، أجب عليها بدقة،
وسوف نحكم من خلالها، ونقرّر ماهية الخطوات القادمة وكيفية
التعامل، ومنها بدأت الأسئلة تتوالى تباغاً كأنها تُقرأ من لائحة
معدّة من قبل:

- ماذا كان القصد من القول بشكل صريح (هذا هم راح
يطيح حظه مثل ما طاح حظ صاحبنا)؟
- لم أقل هذه الجملة بصيغتها الواردة في السؤال.

- وماذا كانت الصيغة إذن؟
- كان القذافي قد خطب ثاني يوم الهجوم البري؛ أو قريباً منه، وقال في خطابه (سوف نزلزل الأرض من تحت أقدامهم) يقصد الحلفاء، وكان هناك من يجلس في الغرفة، فضلاً عن منعهم، ضباط، بينهم منذر، وأطباء نفسيون اعتادوا الاجتماع كلّ يوم للتحليل، وكتابة التقرير المعنوي، فقلت حرفياً (صاحبنا هذا يريد يطيح حظّه).
- ومن صاحبك؟
- القذافي على سبيل الاستهزاء، لأنّ مواقفه من العرب والعراق معروفة بعدائيتها، ومعروف هو بآرائه السلبية من العراق وقيادته، ألم يكن هو من زوّد إيران بالصواريخ سكود لضرب بغداد؟
- لا تحاول أخذنا بعيداً عن الموضوع، يجب البقاء في صلبه، والإجابة على قدر السؤال.
- أعتقد هذا هو صلب الموضوع.
- هل انت القائل (هم شايف دجاجة تعاركلها صگور).
- نعم.
- ما القصد من هذا القول؟
- إنّها أهزوجة، يكرّرها سكان الوسط والجنوب فخراً، عند حدوث معارك؛ أو صدامات بين طرفين.
- وانت بمن كنت تتفاخر، ومن الصقور في أهزوجتك هذه؟
- وهل يحتاج هذا إلى إيضاح، أكيد العراق وجيشه البطل، الذي تمّ التبرع لئلاّلتحاق إلى صفوفه، في المركز النفسي المتقدّم على الرغم من التمتع بالإجازة الدراسية، من أجل تقديم الخدمة له في ظروف صعبة.

- لكنّك لست متفضلاً، إذ إن توجيهًا من القيادة قد صدر بإيقاف الدراسة، وعودة المجازين إلى وحداتهم.
- هذا صحيح، لكنّ التوجيه جاء عامً للالتحاق بالدوائر والوحدات، وليس التكليف بمهامّ محدّدة، وبهذا الصدد يمكن الاستفسار من مدير التوجيه المعنوي الذي وجّه بعد الالتحاق بالدوام في مقرّ المديرية والمساعدة في إبداء الرأي النفسي في صياغة البيانات العسكرية، بينما طلبت من جانبي، وبإصرار الذهاب معه إلى البصرة، وتأسيس المركز النفسي في أبي الخصيب، كذلك يمكن الاستفسار من اللجنة النفسية في ديوان الوزارة، التي تلقت العرض ذاته طوعياً.
- ردّ بغضب واضح:
- إنّها إجابة لا توفّر القناعة.

قلت: لكنها الإجابة الصحيحة، فعاود السؤال: ماذا تعرف عن علاقات اللواء منذر عبد الرحمن مع فنّانات كنّ في زيارات متكرّرة إلى التوجيه المعنوي، وكان اللواء يتبادل معهنّ الزيارات المشبوهة؟ أجبت بقدر من التفصيل: إنّ عمل التوجيه المعنوي، أو جزء منه قائم على العلاقات العامّة، فمن الطبيعي أن تكون لمديره روابط وصلة مع الآخر، كذلك للتوجيه المعنوي مسرح، يمثّل فيه فنانون وفنّانات، ويقدم أناشيد وأغاني وطنية لدعم الحرب، يؤدّيها مطربون ومطربات، أغلبهم يؤدّونها مجاناً، والفنان في العادة ذو طبيعة خاصّة يحتاج إلى دعم وإشادة، وليس لدى اللواء منذر كمدير؛ أو غيره من ضباط التوجيه سوى إجراء لقاءات للإشادة والتشجيع وطلب المزيد، وعموماً للسيد اللواء علاقات حسب الظنّ جيدة في هذا المجال، ومع الجميع.

الزنانة رقم ثلاثة

سَكَتَ ذلك الصوت الجمهوري المتحكّم بجلّسة التحقيق، توقّف عن توجيه الأسئلة كأنّه اكتفى، أو باتت الحاجة ملحة للتداول مع باقي الأعضاء، وبسكوته عمّ المكان سكون يشبه في وقعه ذاك القائم في المقابر بعد المغيب، كسره همس عاد من جديد، وقول لصاحب الصوت، ستصالك أوراق وقلم جافّ صباح الغد، مطلوب الإجابة على أسئلة مثبتة فيها بشكل واضح وصريح، يوم واحد فقط هو المدة المحددة للإجابة، أعقب هذا القول صوت ارتطام الأحذية بالأرض مشياً كان سريعاً، يوحي مغادرة الأعضاء المعينون بالتحقيق لهذا المكان تباعاً، وتوحي اليد التي وضعت على الكتف من مجهول إشارة الاستعداد للنهوض، قال صاحبها حان وقت العودة إلى الغرفة، عودة جاءت في وقتها ضرورية لتصريف الانفعالات التي صاحبت النوع المتدنّي للأسئلة التي تنحو جميعاً بقصد التثبيت العمدي لوشاية فارغة، واتجاهات التهديد سبيلاً للدفع بالاعتراف عنها تهمة تافهة، (هكذا كان الأمن العسكري منذ اعتلاء صدام عرش السلطة، لا يبذل جهداً للتفتيش عن الحقيقة، بقدر ما يبذله من جهد لتثبيت التهمة، ومعاقبة صاحبها بأشدّ العقوبات).

كان التصريف الانفعالي عن طريق المشي المحدود ذهاباً وإياباً، ومعه استعراض لأوليات الحدث، ودوافع التقرير، وسقوط القيم الحزبية في مستنقع الانتهازية الوصلية، صاحبة لوم للذات عن تجادلها مع منحنٍ، ولومها على الانتماء أصلاً إلى حزب بات يحاسب أعضائه لمجرد انتقاد الخطأ، دام ذاك اللوم سبيلاً مؤلماً للتصريف ساعات من المشي المحدود بين حيطان تفصلها أمتار، أجّل الحاجة إلى النوم، دفع بها ساعات إلى الأمام، كان النوم أو صعوبة تحقيقه مشكلة في غرف الحبّ

الضيق، تتلاشى فيها الأنشطة العضوية، حيث لا يبذل الجسم جهدًا يكفي لإجبار أعضائه الركون إلى النوم بقصد الاسترخاء والتعويض، لم تنفع في تلك الليلة محاولة استدراج النوم تعبًا بالهرولة في المكان، ولا صيغ العدّ القسري لخطوات تاه عدّها بعد تجاوز ثلاثة آلاف، واستبدالها بالحركات والتمارين السويدية التي تجاوزت هي الأخرى عدّة آلاف، كأنّ النوم قد هرب، وكأنّ العقل القلق من تثبيت تهمة التناول في الكلام على الرئيس يعزّز في النفس مثيرًا لطرده النوم، وهكذا استمرّ الحال مشيًا، وهرولة في المكان، وعودة إلى فراش تحدّد هذا اليوم بطانية عسكرية، تنقصه وسادة، حتى حلول أذان الفجر، صار الجسم بحلوله منهكًا يسحب صاحبه إلى النوم.

بدأ اليوم الرابع مع حفنة أوراق وقلم، وتجهيز غرفة مؤقتة، لكتابة الإفادة، إجابة خطيّة على أسئلة تُبنت على الورق، استغرق الردّ على جميعها وقتًا دام إلى المساء، كانت الغرفة مريحة يمثّل الكرسي فيها والطاوله، رفاهية تدفع الموقوف فيها، وبشكل لا إرادي إلى التباطؤ في الكتابة، وتدفع التهم المصاغة بصيغة أسئلة، كتابة ردودها بتفصيل أكثر من استحقاقها المنطقي.

بانتهاء اليوم الرابع، انتهت ضغوط الهيئة التحقيقية، وقلق التفتيش عن أصل التهمة، وبدأت ضغوط أخرى من نوع آخر تتعلق بالانتظار المملّ لأوامر الإحالة إلى المحاكم المختصة، حالة الانتظار حسب قوانين السجن اقتضت الانتقال من الغرفة المؤقتة، الواسعة نسبيًا إلى الزنازين النظامية، يبدو في سياسات الأمن العسكري النافذة لزوم إذاقة الضابط ويلات الزنازين الانفرادية، بغضّ النظر عن ماهية التهمة الموجهة إليه، بدأت خطواتها صباح اليوم الخامس، حضر شخص وجهه غير مألوف، فتح الباب، تقدّم خطوة داخل الغرفة، مسك العصبة السوداء، أحكم شدّها على العينين، وضع يده على الذراع، جرّها

إلى الأمام إيجاباً بالسير، لا يجد الموقوف في العادة صعوبة في السير، فقد تعلّمها حدّاً يمكنه السير معصوب العينين من دون الحاجة إلى السحب المذلّ من الذراع، لكنّ السير هذه المرّة كان لمسافة قريبة، فتح الحارس في آخرها باباً حديدياً، أحدث فتحها صوتاً يشير إلى وزنها الثقيل ومتانة إحكامها، قال إنّها الرقم (3)، وستكون المناداة من هذه اللحظة بهذا الرقم من دون الاسم والرتبة.

الموقوفون هنا حسب الأعراف غير المكتوبة للسجن متساوون، يُستدلّ عليهم من الأرقام، سبيلًا نفسيًا لمسح الذات العسكرية.

.....

كانت زنازين هذا السجن الأقرب إلى الجبّ، مقيدة ببعض الضوابط والتوقيّات، فالمصباح الوهاج المتدلّي من سقف الزناينة لا ينطفئ، والفطور الصباحي يبدأ قبل الساعة الثامنة، حيث الاستدلال على بدايته من الطرق على الباب، والنهوض الإلزامي لاستلام الصحن المعدني، قد يلتقى المتباطئ في النهوض، ومهما كانت رتبته العسكرية وخزة بعصا الحارس بعد فتح الباب، لا يُنسى ألماها النفسي طوال الحياة، وكان الفطور بداية اليوم في هذا السجن، يعقبه مرور المضمّد الصحيّ دافعاً عربة خاصّة لتوزيع الدواء الموصوف من قبل الطبيب، أو من قبله اجتهداً، فله صلاحية إعطاء الدواء، أمّا الطبيب، وهو ضابط، فلن يرى بالعين المتعبة إلا في الحالات الطارئة، أو لزومًا لإبقاء الموقوف على قيد الحياة، تهدّدت حياته نتيجة التعرّض إلى التعذيب المميت، تمرّ عربة الدواء بهدوء، من بعد مرورها يبدأ العدّ التنازلي للذهاب إلى الحمام بشكل انفرادي، ويتوقّيات في حساباتها، لا يلتقي ضابطان موقوفان، عند المغاسل أو في الممرّ، يبدأ بعد انتهاء الحمام تجهيز بعض

الموقوفين لإرسالهم إلى المحاكم، وبعضهم الآخر إلى غرف التحقيق، وآخرين من المتهمين بالتجسس ومحاولة عبور الحدود إلى غرف الاستنطاق المجهزة بوسائل ضغط وتعذيب قاسية بامتياز، ومن يحالفه الحظّ من أولئك الموقوفين واحد بالمئة يهياّ جيّدًا من نواحي الحلاقة والهندام لإطلاق سراحه وإعادته إلى الأهل سليمًا في المظهر على أقلّ تقدير، فمظاهر الاضطراب النفسي حتمية الملازمة والبقاء، أقلّها شدة ذلك الأثر التابع للمشاعر الدونية تبقى ماثلة إلى أمد طويل، وأخرى مخفية بين طيّات الذاكرة، قوامها مقت للرئيس يبقى مكبوتًا في الأعماق القريبة، ينتظر فرصة الخروج لومًا، أو انتقادًا، أو شتمًا في بعض الأحيان.. مظاهر لم يتوقّف عندها رجال السياسة والأمن، بعد أن سيطرت على عقولهم أفكار تسلّطية تتعلّق فقط بأمن النظام، وسلامة الرئيس.

كانت الزنزانة أو غرفة العزل الرقم (3) وأخواتها زنازين أخرى، تتراصّف على ممّرٍ واسع، صغيرة الحجم بطول يصل إلى مترين ونصف المتر، وعرض يقلّ عن المترين، لا تكفي للمشي، فليس بمقدور شاغلها سوى الهرولة في المكان، قليلة التهوية، فشباكها الوحيد المثبت قريبًا من السقف صغير لا يُفتح، كما لا يسمح طلاؤه الأسود الغامق لاختراق ما يصل من أشعة الشمس، ولا يسهم في التهوية ولا في التقليل من الرطوبة العالية والعفن، في بابها الحديدي فتحة يُقاس عرضها وطولها بالسنتيمترات، كانت مهمّة لتعبير صحون الطعام، وتنقية الهواء، وسماع ما يجري بالزنازين المجاورة والممرّات، الزنزانة الرقم (3) على وجه العموم خانقة، تنفث رائحة تبعث على الاشمئزاز، يسير النمل داخلها في مسارب معلّمة، وتتشعشع في زواياها بعض حشرات سوداء اللون، تُرى لأوّل مرة، على بلاطها الاسمنتي تُركت بطانية عسكرية، تبدو إرثًا تركه موقوف آخر، تمّ التعرف

على اسمه خالد، من كتابة تركها على الجدار، وتاريخ مغادرة تشير حفراً بتاريخ الأمس، كان المكتوب على الجدران الأربعة أثر مهم، يفيد في تتبّع عدد الذين احتجزوا ووقفوا، أو عزلوا، أو أعدموا بطريقة الغدر شبه الرسمية، كانت هناك فسحة في الجدار المجاور إلى الباب من جهة اليمين لإضافة منقبة أخرى لمن حلّ ساكناً فيها هذا اليوم 1991/10/30، ومع هذا فإنّها زناينة مع كلّ مساوئها تحتكم على موقع مهمّ في بداية الممرّ، لتكوين فرص فضول مناسبة لقضاء الوقت في متابعة الذين يصابون بنوبات هستيرية إثر التعذيب، ورصد المرسلين إلى التحقيق، كان بعضهم يعودون محمولين على نقالات فاقدى الوعي، وبعضهم يُسَخَّلون بنصف وعي، وآخرون يتكئون على جنود يعيدونهم إلى زنازينهم صامتتين.

مشكلة هذه الزناينة وشبهاتها تتمثل في قدرة النزول المتدنية على التكيّف مع أجوائها الرثّة، ودوامة الالتباس في تمييز الوقت بين الليل والنهار، وإن منحها الله خاصيّة الوقوع مع اتجاه الرياح القادمة من جهة النهر حاملة أصوات الأذان عندما تكون نشطة، ذلك الصوت الذي أصبح روحانياً شجياً، ودالةً إلهيةً لضبط الوقت ومتابعة تعاقب الليل والنهار، ويضاف إليها مشكلة أخرى، هي التحديدات القاطعة لفتح الباب، إذ لا تُفَتَح إلا مرتين في اليوم، وقت الصباح مخصّص إلى المرافق الصحية، خمسة دقائق لا تزيد ثانية، من يزيدها يتعرّض إلى السحب من داخلها عارياً إن تطلب الأمر، وفي المساء خمسة أخرى عودة إلى تلك المرافق لختم النهار، توقيتات بمعيار، لا تُفَتَح بينهما إلا في حالات الاقتراب من الموت.

في مساء اليوم التالي فُتِحَ باب الزناينة الرقم أربعة إثر صراخ يوحى باقتراب صاحبها من الموت، كان يتألّم يصيح بعالي الصوت أنفذوني سأموت، فأحدث من بعد تكراره جلبة في

الممرّ، وأُخرجَ سريعاً، قال مجيد⁷⁴ فيما بعد أنّه (المقدّم الركن عبد الرحمن) أمر فوج، جرى التحقيق معه بعد الظهر، بتهمة التقصير في التعامل مع (الغوغاء)⁷⁵، زاد المحقّقون من عيار الضرب بهراوة، جاءت إحداهنّ أعلى البطن، فقد بسببها الوعي، فتدخّل الطبيب لإفاقته، ولمّا حلّ المساء تضاعّف الألم في جوفه، وقد شخّص الأطباء في الرشيد العسكري ذلك تمزقاً في الطحال من ضربة موجعة، أزالوه بعملية كبرى، وأُجبروا على تثبيت الحالة رفع الزائدة الدودية بسبب الالتهاب، لكنّ أصوات الاستنجد قريباً من الموت لم تنته، تكاد تتكرّر في غالب الأيام، إذ سُمِعَ بعد تلك الحادثة بأيام صوت صراخ مصحوب بعويل نسائي ملأ جميع الزنازين، قال مجيد إنّهُ لزوجَة ضابط كان هارباً خارج العراق جاءها المخاض، كانت تلك الأصوات تبقي السامع واقفاً خلف الباب مجبوّلاً لسماع شتّى أنواع السباب والصراخ المكتوم، وتبقيه لساعات في حالة ذهول كأنّه خارج من كابوس يحسّ فيه الغرق.

ممرات الانصال السرية

مرّ أسبوع على الوقع ذاته والروتين المنقّر، سرّحت طواله النافذة العابرة للخيال خارج الزنزانة إلى بشرى الزوجة التي تُركت من دون علم لها بالمصير، وإلى البنت التي تعلّقت بالأب

⁷⁴ مجيد نائب ضابط من منتسبي سرية الأمن، جندي مطوّع في صنف الاستخبارات، خدم في سرية الأمن إبّان توّكلي أمربتها طوال أشهر أرسل فيها أمرها م. أول سنان عبد الجبار في دورة إلى موسكو، وفي تلك الخدمة والعلاقة المهنية.

⁷⁵ الغوغاء كلمة أطلقته الجهات الرسمية الحكومية لوصف رجال الانتفاضة التي بدأت في 1991/3/2، تعني في اللغة: الرعاع من الناس، الذين يكثرّون اللّغط والصياح.

أصلاً للحياة، والصبية الذين يرون به ضميراً لهم، وقدوة يسرون على خطاه، وإلى الألم المتخيل لجميعهم عندما يختفي الأب فجأة، ويكون المصير مجهولاً.

في عراق تلك الحقبة الزمنية، يعني الاختفاء المجهول إشاعات ترهق العقل عن تصفية حصلت لتهمة ملفقة، أو إعدام سرّي أمر به الرئيس، أو عزل في معسكر تأديب بعلم الرئيس، فكان الهمُّ أو أعلى الهموم لهذا الأسبوع يتعلّق بالكيفية التي يمكن بوساطتها إيصال الخبر بالتواجد في سجن الأمن العسكري موقوفاً لأمر لا يستحق المبالاة، فاستقرّ الاعتقاد بإمكانية نقل الخبر عن طريق أحد المنتسبين القدامى، أو من آخر جديد قد يتعاطف، فكان المنتسبون لسرية الأمن يتبادلون الأدوار لتقديم وجبات الطعام ودفع عربة الدواء، وإيصال المطلوبين إلى لجان التحقيق حسب جدول خفارات، بعضهم يتذكّرون شخصي، يعرفونه جيّداً من زمن العمل في الدائرة، وبعضهم أحداث لا يعرفون، ومع هذا استمرّ التركيز على وجوهم، وإثارة بعض مواضيع تتطلّب الردّ ومواصلة الحديث ولو للحظات، وكان محمود واحداً منهم هو الأكثر استجابة لتبادل الحديث، وفي إحدى نوبات خفارته المسائية، كان قد جلب العشاء، وأطال في الحديث، قال: أخوه طيّار في القسم الزراعي، سألته عن إسماعيل أحد الطيارين الزراعيين، المنتسب إلى رف الحرب النفسية، صديق لأخيه، أجاب أنه قد التقاه في البيت يوم أمس.

كان الحديث مقاربة تعني أنّ موضوع التوقيف في هذا السجن الذي يعمل هو فيه قد أثّر معهما في جلسة الأمس، وباحتمالات عالية، دفعت إلى الاستمرار في الحديث، خلاله أشير بشكل عابر إلى ضرورة إبلاغهما السلام، صديقين عزيزين.

جاء محمود في اليوم الثاني مبتسماً، قال يبلّغك إسماعيل السلام، عندها زادت الجرأة للتقرّب أكثر، وتقديم الرجاء لإخباره

إنّ سيارتي الخاصة موجودة في محلّ تصليح فاضل أوّل شارع الشيخ عمر، لأنّ الأهل لا يعرفون مكانها، ولا يعرف ذاك المصلح عنوان البيت، ابتسم عارفاً القصد، لكنّه لم يقدم وعداً بإيصال الخبر، وفي وجبة الخفارة اللاحقة، كان قد جلب الفطور، قال لقد أخبر إسماعيل بوجود السيارة، (كانت السيارة موجودة في التصليح فعلاً، لكنّ التنويه عن وجودها لم يكن هو الغاية، بل جاء وسيلة لإيصال الخبر بالوجود على قيد الحياة، إذ في ليلتها فهم إسماعيل القصد، وذهب إلى البيت على الفور، أخبر بشرى بالوجود في سجن الأمن العسكري، راجياً عدم التنويه عن مجيئه ومعرفة المكان لأيّ كان).

انخفض لحظتها مستوى الشدّ العصبي، وهبط "مؤشّر" القلق بمقدار معقول، لكن ما تبقى منه غير قليل، إذ بعد أسبوع من البداية، عاود القلق نوبات متتالية، بانّت عودته والشدّ العصبي كأنّ الطاقة النفسية الاحتياطية بدأت تنضب، فتسبّب التكرار بأوجاع في المعدة حالت دون حصول النوم الذي كان في الأصل قليلاً، على الرغم من التمارين العديدة التي كانت تجرى بين حيطان الزنزانة وعلى أرضيتها الاسمنتية.

في الصباح، وعند اقتراب المضمد بعربة الدواء، تمّت استشارته، فسحب على الفور شريطاً من حبّات خضراء قال عنها ليبراكس (Librax) مفيدة لتخفيف الألم المعوي عند تناولها ثلاث مرات في اليوم قبل الطعام، صار مرور الوقت من بعد تناولها ثقيلًا، وصار الحفر في الحائط الاسمنتي إلى جانب عشرات الأسماء والتواريخ سبيلاً لترك الأثر، وقضاء المزيد من الوقت، وحساب أيام البقاء بطريقة الخطوط المتوازية كما يجري في حساب الدومينو، العقيد كامل أكثر من ترك أثراً في الحائط ستة شهور متواصلة، ختمها بخطّ طويل، وعلامة تعني النهاية (اختفاء الأثر)، ومع هذا كان هناك فائض كبير من الوقت لا

يملؤه التخيل والتأمل والصلاة والهرولة في المكان، فأضيفت إلى فعالياته فعالية تتبّع نملة منذ دخولها آتية من ثقب رفيع يجاور الباب حتى مغادرتها، ثقبًا آخر عند الشباك ورصد اتصالاتها وتواصلها مع النمل الآخر وطبيعة حملتها، كان النمل شريكًا، بل خير شريك لاستنزاف الوقت، حيث الاستغراق في تتبّع سيره وتوقّفه، واستداراته عدّة ساعات في بعض الأحيان.

مرّ وقت يقلّ عن الشهر في هذه الزنزانة الانفرادية في حال انتظار مُقَطَّعِ الأوصال، لا تصل فيه الأخبار عن العالم الخارجي، إلّا نثقا تتلملم من أفواه مجيد، أو محمود، غالبها كان فلتات لسان، فأضحى الانتظار مملاً، مؤلماً يُشعرُ صاحبه كأنّ العمر يسفح دمه على رصيف انتظار لا حدود له، لم تمسّ طواله شفرة الحلاقة تلك اللحية التي طالت حدّاً تشبه فيه لحية نائر إسلامي يؤمن بعودة السلف الصالح.

الرفيف رئيس المحكمة

حضر مساء يوم (1991/11/27) عنصر من سرية الأمن، قال تهيأ لتوقّع وكالة شخصية إلى محامٍ سمحت به الهيئة التحقيقية في المديرية، ابتسمت راضياً عن الخطوة التي وجدتها تطوّرًا إيجابيًا، قد يفضي إلى فضّ القضية، وهكذا جرى التوقيع في غرفة سبق أن جرى على أرضها التحقيق، كان توقّعًا سريعًا مدفوعًا بلهفة فضّ القضية، حالت دون قراءة التفاصيل، وجرّت الإعادة من بعدها إلى الزنزانة، عودةً محمّلة بقدر من التفاؤل، أخذ التفكير به وبيع بعض التفاصيل ليلة كاملة، وجزءًا من اليوم التالي الذي استهلّ بدعوة من حارس آخر لحلاقة الشعر، واللحية ولزوم الاستحمام.

سُئِلَ الحارس، لِمَ هذا الأمر بالحلاقة، قال مبتسمًا: قد يكون هناك في الأفق أمل، لم يفصح عن ماهية الأمل، لكنّ العقل حوّله طواعية إلى صور خيالية لإطلاق السراح وفضّ القضية، عزّزه حارس آخر حضر في صباح اليوم التالي حاملاً بين يديه "البدلة" العسكرية التي أودعت في الأمانات قبل شهر، وطلب ارتدائها والتهبؤ على الفور.

إلى أين؟ سألته بوّد واضح المعالم، لكنّه لم يجب، إذ كان حارسًا عابسًا متشدّدًا، يبدو أنّه حريص جدًّا على الالتزام بالتعليمات، عند مسك "البدلة" بقصد ارتدائها بعد شهر، بانّت كأنّها استُبدلت، وبان الجسم إزاءها في النحافة قد صغر، وفي الوزن نقص كثيرًا عن ذي قبل، أكّد النطاق تلك الفروق، فتحتّم تصغير طوله شبرًا، ولفّ السروال نصف لفة، لم تكن هناك إمكانية للتعرف على هذه النقصان المفرط في الوزن إلّا بعد ارتداء هذه الملابس، لم يعر الحارس للموضوع أيّ اهتمام، أتمّ واجبه بوضع الغُصْبَة السوداء على العينين، وربط اليدين بالأصفاد، ومسك الذراع سبيلًا للسير الكفيف تجاه سيّارة كانت واقفة في الباب في حال انتظار، ساعد في الصعود إلى حوضها الخلفي، بدت كأنّها عالية، سارت من بعدها من دون معرفة الاتجاه، قال أحدهم يبدو أنّه ضابط كان يجلس في الخلف إلى زميله الذي يتّضح من أسلوب الحديث أنّه الضابط الأقدم، وأنه يجلس في المقدمة، ها قد بتنا نمرّ في مدينة الأعظمية، شوارعها مكتظة بالمارة، وبقاء العينين معصوبتين، لضابطين يحملان رتبًا عسكرية عليا قد يجلب الانتباه، أيّده وأمر برفع العصبة، وكان رفعها مفاجأة، حيث كان الجالس في الجوار، اللواء منذر عبد الرحمن، طالما طلبته في التحقيق شاهدًا، جرى العناق تجاوزًا على أوامر المأمور في عدم التكلّم مع الآخر، كان العناق باشتياق، كأنّ فراقًا قد دام لعشرات مضت من السنين، عناقًا أو

موقف عناق لم يقلل من عزم السائق في دفع سيارته السير بالسرعة ذاتها، ولم تثر تعاطف الملازم الأوّل الجالس في الأمام، عندما أصدر أمره القاطع بالسكوت، وعدم تبادل الحديث. توقّفت السيارة الناقلة عند المجمع العسكري في الكسرة، ترجّلنا نحن الضابطون المتهمين، وسار الضابط المأمور عدّة خطوات إلى الأمام سير المنتصرين، وسار الآخر في الخلف، سير الحراس اليقظين حتى قاعة المحكمة العسكرية الدائمة الأولى لوزارة الدفاع، تقدّم المحامي للتعريف عن نفسه محمود الصعب⁷⁶، وتقدّم المحاميان ليلي الوهاب ونوري آل رباط عن اللواء منذر، كان الثلاثة يجاملون، يحاولون التخفيف من وطأة الضغط، عندها تمّ توجيه سؤال واحد إلى المحامي محمود بأسلوب ساخر: هل المادّة التي تمّت الإحالة على وفقها تفضي إلى الإعدام؟

ضحك الرجل وأجاب بلطف، اطمئنّوا، لا يوجد تسجيل، وبالتالي يصعب إثبات الواقعة، ويصعب تحقيق عقوبة الإعدام. صاح الحاجب: محكمة، فتمّ دخول قفص الاتّهام. كان الدخول مصحوبًا بثقة في النفس معقولة، ليس فيها معالم خجل من الدخول، بعد أن بانّت التهمة كيدية ليست مخجلة، تقدّم انضباط يتبع المحكمة لنزع الرتب العسكرية، وكذلك النطاق النسيجي، فظهرت مشكلة السروال الذي كاد ينزل عن آخره، ولتلافي نزوله تمّ مسكه باليد من تلك اللحظة حتى آخر حلقة من الجلسة.

⁷⁶ المحامي محمود الصعب، تكريتي من أبناء عمومة صدام حسين، وقد أُختير من قبل العائلة بسبب هذه القرابة التي تجعله يتحرّك بحرية أكثر، وإن كان أجره يفوق أجر باقي المحامين، وقد ترفع عن القضية بكفاءة، وكان شخصًا ملتزمًا بالقانون، وحياديًا في مواقف السياسة.

أخذ العميد زهير عبد الجبار⁷⁷ رئيس المحكمة، مكانه وسط هيئة لها، تكوّنت منه ومن ضابطين، أحدهما مقدّم، والآخر رائد، أعلن عن بدء الجلسة، قرأ لائحة الاتّهام، سأل فيما أذا كان المائلان أمامه مذنبين، فتّم إنكار التهم بإصرار، نادى من بعدها على الشهود، أولهم العميد منعم، الذي بدأ بعد تأدية القسم بوضع اليد على القرآن، سرد بعض الوقائع بالتفصيل، أكّد أنه سمع ترديد العبارة الآتية بوضوح: (هذا هم يريد يطيح حظه مثل ما طاح حظ صاحبنا)، قاطعه رئيس المحكمة بسؤال ماذا كان القصد من ترديدها؟

أعاد التأكيد من دون تردّد أنّ المتّهم يقصد بترديدها السيد الرئيس حفظه الله ورعاه.

نادى من بعده على الشاهد الثاني العميد عبد الإله الخزرجي، حاول العميد المناورة في الكلام، بطريقة توحى أنّه سمعها بشكل مشوّش، لأنّه كان مشغولاً بأمر آخرى، كما أنّه لا يستطيع الجزم بما يقصد المتّهم من ترديدها، دخل من بعده شهود آخرون بينهم المقدّم الطبيب عاهد حسني⁷⁸، الذي أكّد أنّه لم يسمع هذه العبارة في تلك الجلسة التي كانت فيها الأحاديث متشعّبة، تدور أحياناً بين كلّ اثنين أو ثلاثة معاً، قاطعه رئيس

⁷⁷. العميد زهير ضابط من الدورة (43) الكلية العسكرية، عضو قيادة فرقة حزبية في الفرقة التي ينتسب إليها المتّهمان حزبياً.

⁷⁸. عاهد حسني، ضابط طبيب اختصاصي نفسية، أصوله من عنه في محافظة الأنبار، أخصائي متمكّن من اختصاصه، هادئ الطبع اجتماعي، مسالم، نزيه، رأس شعبة الطبّ النفسي في مستشفى الرشيد العسكري، صار أمراً لمستشفى القوّة الجوية ثمّ أمراً لمستشفى الرشيد العسكري، كانت له عيادة خاصة فاعلة في المنصور، ترك العراق بعد عام 2004 بعد اشتداد حملة استهداف الأطباء، واستقرّ طبيباً ناجحاً في عمله بإحدى مستشفيات الأردن في عمان، ألف أكثر من كتاب في الطبّ النفسي.

المحكمة طالبًا تحديد ما سمعه بالضبط، فأجاب من دون تردّد لقد فهمت من الحديث انتقادًا للعقيد القذافي.

أنهى الرئيس وقائع الجلسة لمحكمته من دون النطق بالحكم، قال المحامي محمود عن إنهاؤها هكذا، مسألة طبيعية، قد يحتاج فيها إلى المزيد من الشهود، وربما التداول مع الأعضاء، أو العودة إلى بعض الأوليات، بغية دراستها بتأنٍ، لملم الرئيس أوراقه، غادر القاعة مع باقي الأعضاء، تقدّم رجل الانضباط، سلّم الرتب العسكرية والنطاق، طلب إعادة لبسه، ووضع الرتب في مكانها على الكتف، وبعد إعادتها إلى وضعها الطبيعي تمّ الخروج إلى الباحة المقابلة للقاعة، كان واقفًا على جانب منها ياسين عباس الذي قال بعد السلام أنّه نزل حاليًا من الطابق العلوي، كان قد وضع على أرض الغرفة التي تعلو سقف قاعة المحكمة سجّادة، ليصلّى تضرعًا إلى الله فضّ الأزمة.

لقد تحرّك ياسين فيما بعد مسافة أبعد من المحكمة، إذ تواصل مع بعض أعضاء محكمة التمييز العسكرية، بينهم العميد الحقوقي وليد الكيلاني والعميد عصام عبد الرسول الدوري، اللذين كان لهما دور إيجابي في إعادة القضية إلى المحكمة ذاتها، والحيلولة دون تحويلها إلى محكمة المخابرات، ومن ثمّ إعادة المحاكمة على وفق المادة ذاتها (210)، وهو، أي ياسين، من دفع تجاه إيكال الدفاع في القضية إلى المحامي محمود، ابن عمّ الرئيس، وقف إلى جوار ياسين حاتم الأخ الأكبر لبشرى، وأركان الابن البكر لمنذر عبد الرحمن، جرت محاولة الاستفادة من الأجواء لسؤال حاتم عن أحوال العائلة والأولاد، قال جميعهم بخير، حمدًا لله من معرفة أصل التهمة ومدى تفاهتها، أكّد تصوّرات المحامي عنها سهلة، وطمأنته عن نهاية لها ليست بعيدة.

ربع ساعة هو الوقت الذي سمح به الضابطان المأموران من الأمن العسكري مكرمة للاختلاط، كأنهم تعمّدوا غض الطرف تعاطفًا أو حياءً، أخذًا من وجود المحامين والتكلم معهما حجة للتغاضي، أعادا من بعدها السيارة والموقوفين من حيث أتوا، سلكوا الطريق ذاته الذي تحدّد في الصباح.

.....

كان الطريق من بناية المحكمة إلى ثكنة السجن عبر الأعظمية، قد أخذ وقتًا لاجتيازه، أحسست به كأنه لحظة، لم يتمكن عقلي خلالها استيعاب الأبنية والناس الماشين في شوارعها، والمصلّين ظهرًا في جامع أبي حنيفة النعمان، لكنّها كانت كافية لاستثارة الذاكرة واستعادة آلاف الصور والأحداث مثل شريط سينمائي، بدأت اللقطة الأولى على مساره ذلك اليوم الذي وطئت فيه القدمان أرض بغداد أول مرة لتقديم أوراق القبول إلى الكلية العسكرية، وما صاحبها من آمال لتغيير شكل الحياة، ومساعي حثيثة لتحقيق المستقبل الأفضل، وآخر لقطة جاءت فيها الصورة معتمة لدخول الواشي كاتب التقرير عبد المنعم قاعة المحكمة من دون حياء، رافعًا الرأس لوأد كلّ الأفكار والمساعي ذات الصلة بالمستقبل الأفضل، أوقفت دوران هذا الشريط حركة الإعادة العمدية لقطعة القماش السوداء على العيينين حال عبور جسر الأئمة، والاستدارة إلى ثكنة الاستخبارات، أغلقت الاستدعاء الآلي لخزين الذاكرة الحائرة، سدّت منافذ التأمّل لمستقبل أفضل في هذه البلاد التي تتجه إلى المجهول، مستقبل حسب الظنّ أنّه الأسوأ، كانت ملامح السوء قد بدأت عقارب ساعته التحرك يوم أراد الرئيس المشي على صراطه الأعوج، وتبعه هرولة آلاف الحزبيين الذين صاروا أدوات رخيصة لتحقيق الأسوأ.

تمّت العودة إلى المهجع، والجلوس على أرضية الزنزانة بعد إعادة حشر الجسم كئيبيًا بين جدرانها لما تبقى من اليوم، تراوده أفكار غالبها سوداوية، مهّدت إلى ليلة كانت هي الأطول من سابقاتها، لم تُعلّق خلالها للعينين جفون، وإن أغلقها السهاد لحظة، يفتحها قسرًا حلم على شكل كابوس، يفتح فيه مجرم مشوّه الوجه، رثّ المظهر بيت العائلة عند جسر الصرافية، يجمع أفرادها الأربعة في غرفة بقصد تصفيتهم قتلاً بآلة تشبه الفأس، لقد تكرّر هذا الكابوس مرارًا حتى صار جزءًا من التركيب النفسية المعقّدة لتلك الليلة، وصار العقل بسببه في آخر اللحظات لم يعد قادرًا على إدراك الوضعية المزرية للجسم، جالسًا في مكانه رافضًا النوم، ومع هذان وعند حلول الصباح ساد شعور بالثقة من أنّ الجسم كان صبورًا على أوجاعه والألم.

قصص من داخل السجن رقم (1)

انتهى مشهد السهاد حال عودة التواصل مع المؤثرات الخارجية عند الطرق على الباب من قبل الحارس، حاملاً صحن الفطور، قطعة زبد وملعقة مربّى، مهّد إلى نهار لا يختلف كثيرًا عن الليل إلّا بالحركة التي امتدت متواصلة حتى أذان العصر، حضر من بعده بقليل جندي من الحراسة، أعطى إشارة التهيو- لم يكن التهيو معضلة تأخذ وقتًا سوى الانتقال من الزنزانة معصوب العينين إلى غرفة أخرى، تجاوز الاستعلامات، وُضِعَ على طاولة وسطها كيس الأمانات، أعيدت جميعها، وأُعيدت البدلة العسكرية، مع أمر بارتدائها، كان ارتداؤها سريعًا بعد أن جالت في الذاكرة فكرة إطلاق السراح، سبقتها فكرة أخرى عن إعادة المحكمة، استبعدها العقل لأنّ محاكم البلاد تنقيد بالدوام الرسمي إلى الساعة الثانية بعد الظهر، وأبقى فكرة إطلاق

السراح محتملة، لكن تكرار عصب العينين أفسد متعة الفكرة، وأحل محلّها أفكارًا تشاؤمية كانت قد مرت سريعًا في الليلة الفائتة، أوقفتها حركة الضابط المأمور ورفع العُصبة، وترحيب اللواء منذر ومشاركته الطريق، كان في مؤخّرة السيارة ضابط ثالث برتبة مقدّم، يبدو من هيأته نحيف القامة، كأنّه يحمل همّ الدنيا على كتفيه، قال إنّهُ المقدم صباح كاظم، أعاد الضابط المأمور أوامره بعدم التكلّم، قال، والسيارة قد دخلت مقدّماتها معسكر الرشيد، أمامكم الوقت طويل في أن تتكلّموا، وستعيدون الكلام، تكررونه مرارًا، سأله منذر أين هي الوجهة، فأجاب، والسيارة تستدير في سيرها إلى الشمال، أنّه السجن رقم (1)، توقّفت عند بابهِ، تكلم المأمور مع حارس الباب، الذي حدّد مكان وقوفها إلى جانب الغرفة الخاصّة بالاستعلامات، سلّم المسؤول عنها نائب ضابط كتابًا رسميًا لإيداع ثلاثة ضباط موقوفين هذا السجن، وقّع المسؤول على نموذج استلام، أخذه المأمور وتوجّه إلى السيارة، أمر سائقها والمرافق العودة إلى الأمن العسكري. نظر النائب الضابط المسؤول في الوجوه التي وقفت أمامه بحذر شديد، وجّه كلامه إلى اللواء منذر كونه الأقدم عسكريًا، قال سيّدي هناك إجراءات أصولية لهذا السجن، أوّلها خلع الرتب العسكرية من مكانها على الكتف، وتسليم البيرية والنطاق، لم يردّ أحد من الثلاثة على الطلب، بل تمّ التنفيذ سريعًا كما هو مطلوب، راح بعدها يقلّب في سجلّ أمامه، أكّد أنّ الزنزانة الرقم (6) ستكون للواء والعميد مشاركة، وحدّد أخرى الرقم (9) إلى المقدم صباح مع ضابطين يتواجدان فيها حاليًا، نادى على انضباط من مجموعته، أمره السير وإيانا حتى دخول الغرف المقصودة.

.....
كان هذا السجن سجنًا مركزيًا للجيش العراقي، يُحجز أو يُوقف فيه العسكريون ضباطًا ومراتب في ثلاثة قواطع، اثنين

منها للضباط مقسّمة، الأوّل للقادة، والثاني للأعوان، لكن شرط الرتبة في التوزيع بين القاطعين قد تمّ الإخلال به أكثر من مرّة، إذ عندما يكثر الضباط الموقوفون يمكن أن يزحف الأعوان ليكونوا نزلاء في قاطع القادة، وإجمالاً كان الموقوفون في هذا القاطع المخصّص إلى القادة، يومها، اللذين تحتفظ الذاكرة بأسمائهم إلى العام (2023) هم: اللواء الركن منذر عبد الرحمن، العميد الدكتور سعد خضير العبيدي، العميد المهندس رسول (أبو رشاد)، المقدم مصطفى نبيل، المقدم صباح كاظم، المقدم الركن عبد الوهاب الشجيري، المقدم ثائر، الرائد المهندس عباس شبرم، رائد الشرطة عباس المعموري، النقيب المهندس عبد العظيم محمد جواد، النقيب الطيار مهدي سوادى، النقيب نعمان، م. أول حسن داوود سلمان، م. أول انمار محمد صالح، وهناك الثالث للمراتب على شكل مسقّفات.

قاطع الضباط القادة "بسيط" من عشرة غرف (زنازين) تتوزّع بالطول على ممرّ واسع نسبياً في طرفه الشمال مكائاً للحمامات، وعلى طرف اليمين كان المطبخ والبهو، له باب حديدي يفضي إلى حديقة وُضعت على أطرافها عدّة مصاطب بقصد الاستفادة منها للجلوس، يُفتح الباب إليها تمام الساعة السادسة صباحاً، ويُغلق عند المغيب، وكانت تحسب مساحات الزنازين واسعة بالمقارنة مع زنازين سجن الأمن العسكري، يقترب طول الواحدة منها ثلاثة أمتار، وقريباً منها في العرض، أخذ صدام واحدة من الغرف العشرة الرقم (1) عمل منها متحفاً شخصياً يُخلّد فترة موقوفيته فيها عام (1964)، وضع فيها سريرًا وروب معلّقاً على الحائط، وفرش (يطغ) وبطاطين عسكرية، وراديو قديماً، شواهد نضال، أمر فتحها مرّة في الأسبوع لأغراض التنظيف وإعادة الغلق، كان الانضباط عند فتحها يُمنع باقي النزلاء من الاقتراب، (لكن نظرة التلصص

للأثاث والأدوات الموجودة في هذه الغرفة الزنزانية التي أراد صدام الإيحاء أنها هي ذاتها التي استخدمها بالفعل، تبين أنها باستثناء السرير قابلة للتلف والتبديل، ومن غير المعقول بقائها من عام (1964) إلى (1979) سنة استلامه الموقع الأول في الدولة والحزب في الخزن).

كانت الزنزانية الرقم (6) مهيةً مسبقاً، نظيفة بفرشها والأسرة، كأن الانضباط العسكري قد هياها بإتقان، جرى الدخول إليها بتأنٍ، وكذلك الجلوس على السريرين، قال منذر شتّان بين هذه وتلك، وراح بالحديث على طبيعة التهمة التي ألصقت لصفاً كأنه متعمّد، تلقى عند شروعه بالحديث لوماً لعدم إعارته الاهتمام إلى قصة العميد منعم عندما هدّد بكتابة تقرير إبان العمل معاً في كانون الثاني (1991)، راح يسوّغ موقفه، بتعهد منعم عدم كتابة التقرير، وقبل إكمال صيغة التسوية، دخل الغرفة بعد طرق بابها المفتوحة، شابّ بكامل صحته، ابتسم أولاً ابتسامة تودّد، رحّب قائلاً: أهلاً بكم سادتي، كنّا بانتظاركم من يوم أمس، تسرّب إلى مسامعنا مجيئكم عن طريق الانضباط العسكري، إذ نوه ضابط منهم أعرفه شخصياً سيصلكم ضابطان برتب عالية، ثمّ قدّم نفسه الرائد المهندس عباس شبرم.

بدأ عباس كأنه راغب بتوجيه سؤال تماشياً وعادة السجناء والموقوفين، الذين يسألون من يلتحق حديثاً عن تهمة أولاً، عادة كأنّها تأصّلت في النفوس تعبّر عن رغبة لا إرادية لدى القديم مقارنة تهمة بتهمة القادم الجديد، علّها تخفّف نفسياً من الضغوط التي تسلّطها التهمة عليه، حقيقة يعبّر عنها المثل القائل: (من رأى مصيبة غيره هانت عليه مصيبته)، وهي كذلك عند القادم الجديد رغبة في سرد موضوع تهمة، وتكرار سردها لكلّ من يلتقيه، ويعيد تكرارها في أيّ موقف تُثار فيه التهم من دون ملل،

لأنّ سردها وتكرار السرد يُخرج من نفسه الانفعالات السلبية المصاحبة، وبالتالي يخفّف أثر الضغوط.

لقد سمع عباس تفاصيل التهمتين، تربّع على السرير، بدأ قصّ حكاية تهمته، بالإشارة أولاً إلى دراسته البكالوريوس (كهرباء واتّصالات) على حساب الجيش في جامعة البوسنة، ومن ثمّ إيفاده مباشرة لدراسة الماجستير في جامعة بلغراد لتخرّجه الأوّل، وقد أكملها بامتياز، خدم في القوّة الجوية بعدة مناصب، كان آخرها معلّمًا لمادّة الإلكترونيات في مركز التدريب المهني للمعدات الالكترونية، قال إنّه كان في الثلاثين من عمره، متفانلاً، يتطلّع إلى مستقبل أفضل، منفتحًا على الآخر، يثق بمن حوله إلى أبعد الحدود، توقّف عن الكلام، أخذ نفسًا عميقًا بحسرة، ثمّ أكمل قائلاً: لقد أوقعتني هذه الثقة المفرطة في مأزق يقربني يومًا بعد آخر من الإعدام، إذ كان الملازم الأوّل مثني فاضل مجيد صديقًا قريبًا إلى نفسي، أزوره في بيته ويزورني في بيت الأهل بانتظام، عرض عليّ في إحدى زيارتي رغبة العائلة تزويجي شقيقته، فاجأني في وقتها، لأنّي لم أكن مستعدًّا إلى الزواج، ولأنّ شكل الشقيقة هذه لا يتماشى ورغبتني، فاعتذرت بلطف، تحجّجت بالفروق العديدة بين عائلتي التي تسكن الريف وعائلته المدنية، ختمت حديثي معه باللهجة الدارجة (خشمي ما يوالم خشمكم، بمعنى أن وضعي الاجتماعي لا يتناسب مع وضعكم)، لكنه لم يقتنع، واستمرّ في العلاقة فاترًا بشكل ملحوظ، تفاجأت بعد أشهر اقتحام غرفتي من قبل النقيب مجاهد، ضابط في الاستخبارات الجوية، وعنصرين من الأمن، وضعوا الأصفاد في يديّ، وساروا بي في سيارّة إلى الأمن العسكري، بقيت في إحدى زنازينه سنة كاملة، تُبَيّنَت التهمة، بل أكثر من تهمة تهجّم، بصيغ عدّة.

سأل اللواء منذر: وما تلك الصيغ؟ فأجاب: كانت الأولى تعليق على كتاب بعنوان عبد الكريم قاسم وساعاته الأخيرة، كانت قد جلبته معها إلى مختبر الإلكترونيك سيدة برتبة رائد، استعمرته منها بإصرار، لفرط حبي لعبد الكريم، أعدته في اليوم الثاني، سألتني أمام مجموعة من الضباط هل يُعقل أنك قرأت كتاباً بأربعمئة صفحة في ليلة واحدة، قلت سهرت حتى اكتملت قراءته في أوائل ساعات الصباح، لأنه عبد الكريم، توقفت لحظتها قليلاً، وأكملت: الزعيم ليس مثل هؤلاء الموجودين في الوقت الراهن، أكبرهم نائب ضابط أو جندي.

ضحك عباس بصوت مسموع، وقال هناك صيغة أخرى لموقف آخر يتعلق بالذباب الذي كنت لا أطيقه، أسعى إلى مكافحته بكل ما تيسر من وسائل، أحاول اصطياده كذلك بكل وسيلة متاحة، وفي مرة كنا عند المطعم الخاص بالضباط، وكان هناك ذباب قد تجمّع على الطاولة، ولم أجد وسيلة متاحة لاصطياده غير جريدة القادسية، عزلت صفحتها الأولى التي تعلق وسطها صورة الرئيس، طويتها بإحكام حتى صارت مثل عصا مرنة، وقعت بها ضرباً على الذباب الموجود، فكان صيداً جيداً، وتبين من خلال التحقيق أنّ هناك تقريراً مكتوباً عن هذه الحادثة يذكر كاتبه مثني أنّ صورة الرئيس كانت موجودة، وإنّي كنت أستهزئ بها.

كان عباس قد أوقف في 1990/8/2 وفق المادة (1/225) تهجم على الرئيس عقوبتها بالإعدام، وقد أطلق سراحه قبل انعقاد المحكمة التي أحيل إليها بعفو عام يوم 1994/10/2، بعدها أخرج من الجيش بقرار من مجلس قيادة الثورة، لكنّه أعيد إلى الخدمة بعد عام (2003) برتبة عميد على وفق قانون المفصولين السياسيين، ورقّي عام (2018) إلى رتبة لواء وإحالته على التقاعد، وقد أخبره المقدّم مجاهد بعد تركه العراق

حال سقوط نظام صدام أنّ من كتب عليه هو صديقه الملازم أوّل مثني، وهو من سجّل له شريطاً، وكتب عنه أكثر من تقرير، قدّمها إلى استخبارات القوّة الجوّية، وقال عن مثني كان من عادته الوشاية وكتابة التقارير، إذ كتب بالاشتراك مع المقدم عبيد من معهد الدفاع الجوي أيضاً تقريراً عن خمسة ضباط من حملة الدبلوم ينتسبون إلى معمل الحارث، اتّهمهم بالتهجّم على الرئيس، وتسبّب في إعدامهم إبان دراستهم بكالوريوس الهندسة في الجامعة التكنولوجية، علماً أنّ المقدم وُجد مقتولاً خارج معسكر التاجي بعد تنفيذ حكم الإعدام بالمذكورين).

.....

استأذن عباس لإعداد العشاء ترحيباً بالقدوم، فكانت فرصة لأخذ قليل من الراحة، وقدر من التأمل لهذه الزنزانة، ومثيلاتها باقي الزنازين، وأبواب لها بقيت مفتوحة على الممرّ، وحرية الذهاب إلى المطبخ، والحمّام بالوقت الذي يرغب فيه الموقوف الذهاب ويريد، في هذه الزنزانة سريران حديديان، وُضع على كلّ واحد منها فراش (يطغ) معقول، وبطانيتان عسكريتان، كانت بالمقارنة مع تلك الزنازين في الأمن العسكري فارقاً يصعب تحديده، ومع هذا يمكن أن تضع المقارنة المنطقية، هذه الزنازين فندق ذو خمسة نجوم، وتلك بمصافي الأقفاص المُحكمة، لتقييد حرية الحيوان.

عاد عباس الأكثر تحرّكاً في هذا القاطع يحمل صينية العشاء، مرّقاً للفاصولياء اليابسة، ورزاً كان قد احتفظ به من وجبة الغداء، يسير إلى جانبه اثنان، قال عن الأوّل العميد رسول، والثاني المقدم مصطفى، استأذن الذهاب لحظات لإخبار المقدم صباح ضيقاً معنا على هذا العشاء، وكان عشاءً، عند تذكّره بعد اثنين وثلاثين عاماً، كأنّ لذة تذوّقه مازالت مخزّنة في الحليمات الذوقية على حوافّ اللسان، سأل رسول عن تهمة

القادمين الجدد، فتكرّر سردها بالتفصيل، ضحك عباس، قال ألم تروا الله يمهّل ولا يهمل، لقد اصطادوكم أنتم أهل الاستخبارات والتوجيه السياسي، فضحك الجميع، على مداخلته وتلقائيته المعروفة، وروحه المرحّة.

ساد الصمت قليلاً، كسر وقعه رسول، قال عن نفسه بدأ حياته مولوداً في الكويت، غادرها بعد إيفاده إلى بريطانيا لدراسة الهندسة على حساب الجيش، تفوّق في موضوعها، وعاد ليجد نفسه قد أُختير من بين عديد من المهندسين للعمل في التصنيع العسكري، تدرّج في مناصب التصنيع المدعوم من الدولة، حصل على عدّة تكريمات وكتب شكر، أُسند إليه منصب مدير عام، قال، وقد دمعت عيناه: سألني المقدم... ثم توقّف عن ذكر الاسم، ألحّ عباس على ذكره، لكنّه رفض، اعتقاداً منه في أنّ ذكر الاسم صريحاً قد يسبّب له الأذى مستقبلاً، وهو بطبعه لم يؤذِ نملة في حياته، علّق عباس قائلاً: هكذا هو العميد رسول عاطفياً طيّب القلب، وطلب منه إكمال قصّته التي سمع تفاصيلها عشرات المرّات، فتحرّك رسول في مكانه على السرير، وقال: بعد احتلال الكويت، (ثمّ عدّل القول بالإشارة إلى الهجوم البرّي للحلفاء، وكارثة الانسحاب)، كنت في مختبر لنا في الدائرة مشغولاً بتصميم جهاز لتسريع إنتاج قذائف الهاون، وكان المقدّم قريباً منّي، مشغولاً هو الآخر بأمر كتابي لا أعرف طبيعته، قطع عمله فجأة وسأل: رأيك بالرئيس؟ فأجبتّه وأنا منهمك بفكرة أحاول تطبيقها على الواقع، إنّّه (خوش) رئيس، لكن دخوله الكويت (چفصة)⁷⁹ ما ينلبس عليها ثوب)، وبعد أيّام من هذه (الچفصة) جاء إلى مكتبي ضابط من مديرية الأمن العسكري اقتادني إلى سجنها في الكاظمية، بدأوا التحقيق معي، أنكرت

⁷⁹. خوش، كلمة دارجة باللهجة العراقية تعني جيّد، وچفصة، باللهجة ذاتها تعني خطأ كبير غير عمدي.

قولي أول مرّة، لكنّهم أسمعوني تسجيلًا واضحًا بصوتي، لا يقبل الشكّ، فاعترفت، وأسلمت أمري إلى الله، وأسلمت المقدّم الذي تأكدت أنّه هو من سجّل لي عمدًا، كذلك إلى الله، وأنا هنا معكم اليوم وقد لبستني التهمة، أنتظر التدخّل الإلهي، وأصلي من أجلي وأجلكم، عسى الرئيس يصدر عفوّا، يقال إنّه سيكون شاملاً، (هكذا كان رسول عاطفيًا، مخلصًا، يشهد له القريبون منه، والضباط الذين عاصروه، علميته الجيدة، وإبداعه في المجال الهندسي، وحبّه للعراق، وهو الوحيد من مجموعة الموقوفين في ذلك الوقت (1991-1992) الذي صعد إلى المحكمة، وأعيد قبل صدور العفو بقليل).

تردّد المقدّم مصطفى في سرد حكايته، قال لقد أقسمت في أن لا أجلس مع جماعة، ولا أتكلّم عن موضوعي مع أحد، لأني لا أستطيع مسك لساني عند الانفعال، لكنّي حنثت باليمين لمّا دفعني عباس حضور هذا العشاء والسلام على ضباط قادة، لا تجعلوني أحنث باليمين مرّة أخرى والتكلّم في الموضوع، أجا به عباس ضاحكًا: أبا وسيم، أنت تحنث باليمين كل يوم عندما نمشي في الساحة معًا، ثم إنّ الجالسين في هذه الزنزانة، وجميعنا، في قارب واحد، فدعهم يسمعون مثلما سمعت منهم.

استسلم مصطفى للأمر الواقع، وقال: كنت أمر كتيبة إنذار وسيطرة، وكتيبتني تعسكر في منطقة النباعي، تعرّفت على شابة، قويت العلاقة معها سريعًا لمستوى حميم، لا أعرف أنّها عاهر، ولا تعرف زوجتي طبيعة العلاقة بعاهر، كنت أقضي بعض الليالي في بيتها، وفي ليلة كنت منتشيًا أكثر من الحدود التي اعتدت بلوغها، بدأت تداعب مشاعري، وتثير في داخلي الغيرة، قالت: اشلون بيهم أهل الزيتوني؟ سألتها: ماذا تقصدين بأهل الزيتوني، وماذا بهم؟ قالت أقصد الجيش الشعبي، أحدهم يلاحقني باستمرار ويتحرّش بي مهدّدًا إلباسي تهمة ممارسة الدعارة.

توقّف مصطفى عن سرد الحكاية، ثم علّوه بألم قائلاً: شعرت في كلامها مسّاً لفحولتي، شتمت الجيش الشعبي، ومن ألبسهم الزيتوني، فزادت هي من عيار الإثارة صعوداً إلى الحزب الذي أسّس الجيش الشعبي، فوقعت به شتماً لم يسلم منّي حتى ميشيل عفلق مؤسس الحزب، ضحكت هي بخبث انطلى عليّ، ورفعت وتيرة التصعيد حدود صدام حامي ذلك الجيش، فثرت أكثر، وبدأت الهذيان، كلمات وشتائم لم أعد أتذكرها، وبعد أسابيع من تلك الليلة داهمني الأمن العسكري في بيتها، وأسمعني المحقّق تسجيلاً تبيّن من بعض التفاصيل عن صور تطرقت إليها في الحديث كانت في الغرفة، والتسجيل قد تمّ بين حيطانها، وأنها من قامت به وكيلة عند الأمن، وتبيّن أنها هي من أوصلتني إلى هذا الحال، خسرت منصبي بسبب شتيمة في موقف إثارة باهتة، ورتبتي وزوجتي التي تركتني بسببها، وسأخسر في الغالب رأسي فالمادة (1/225) لا تستثنني أحداً من الإعدام.

مصطفى الموصلي، عاش طوال فترة التوقيف عزلة بسبب عدم قدرته على ضبط اللسان الناقد، علاقته بعباس هي الأقوى، إذ يأتّمه بقوة، كان يمشي في الحديقة منفرداً في غالب الأحيان، يتمتم بعبارات غير واضحة، يعتقد أنها شتيمة للرئيس، أجبره عباس مرّة للحضور مع ضباط موقوفين لمشاهدة التلفزيون في الزنزانة الرقم (6)، وفي أثناء الحديث قال المقدّم ثائر قابلت الرئيس مرّة وكرّمني بخمسمئة ألف دينار، فخرج مصطفى عن صمته فجأة، وقال وهو يضحك، (هل كانت النقود التي أعطها مزوّرة أم أصلية)، ولما ضحك الجميع على مداخلته هذه، تنبّه إلى نفسه، وقف في مكانه معاتباً عباس بالقول: ألم أقل لك لا تأخذني إلى هكذا (لمّات)، لأنّي لا أستطيع مسك لساني، بعدها ترك الزنزانة وراح يمشي في الممرّ يدخّن بشرابه، وعندما ورّع الضباط الموقوفين فيما بعد إلى وحداتهم، أرسل إلى وحدته

ليبقى موقوفًا فيها، كان معاونه قد استلم المنصب أمر الكتيبة، تربطهما علاقات مهنية جيدة، دفعته إلى ترك باب الغرفة المخصصة للتوقيف مفتوحة، وكانت لمصطفى علاقات جيّدة مع مراتب الكتيبة الذين يتردّدون على غرفته لأغراض الزيارة، فأوصى أحدهم مرّة على زجاجة عرق، جلس يحتسي منها عصرًا، وأكملها بداية الليل، وتصادف مرور الأمر لتفقّده صديقًا، لم يجده، ظنّ أنّه قد هرب، فاستنفر جميع مراتب الكتيبة، طلب منهم التفتيش في المنطقة، وبعد ساعة، وجدوه نائمًا تحت شجرة، لم ينفعه التأكيد أنّه لم يكن ينوي الهرب، إذ أمر صديقه الأمر غلق باب الغرفة والتعامل معه موقوفًا، صعد إلى محكمة الثورة عدّة مرّات لعدّة قضايا تتعلّق بالتهجّم، وقبل حلول آخر جلسة للنطق بالحكم شمله العفو، وعاش في الموصل بسلام إلى حين تغيير النظام عام (2003)، وُجد بعد أشهر من ذلك مقتولًا في شارع جانبي، أُشيع بعد مقتله أنّه كان يدلّ الأمريكيّان على بيوت البعثيين المطلوب إلقاء القبض عليهم.

.....

شهد الصباح التالي مشيًا في الحديقة، كأنّه استكشف للمنطقة ومحيط السجن، وتعرّف على باقي النزلاء، كانوا جميعًا ودودين، تقدّموا للسلام تباغًا، وتقدّم آخرهم المقدّم صباح، اصطفّ في رهط المشي، مدفوعًا بقصّ حكايته والتهمة التي أوصلته إلى هذا السجن بعد نفاذ الوقت في الأمس، وعدم التمكن من قصّها، قال: كنت أمر كتيبة مدفعية مقاومة طائرات، منفتحة في منطقة قريبة من الحدود السعودية جهة حفر الباطن، وكنت مع غيري من الأمرين الذين استلموا من قبل أمرًا مباشرًا من الرئيس بعدم الانسحاب من المواضع تحت أيّ ظرف من الظروف، مع تأكيد، على وجوب عدم الانسحاب وإن جاء الأمر بصوته شخصيًا، عندها صار هذا الأمر واقعًا لا مجال إلى

مخالفته، ومع آخر ساعات النهار ليوم الخامس والعشرين من شباط، والمنتسبون في أوج حالات الشدّ العصبي انتظاراً لوصول قدمات الهجوم البرّي للحلفاء الذي أُعْلِنَ الشروع بتنفيذه، خرجت في جولة لإثارة الهمم، بدأتها حتاً على المقاومة وأداء الواجب دفاعاً عن الوطن، لاحظت استجابات لبعض الجنود غير مألوفة، وتملّل بعضهم الآخر داخل المواضع، ما أثار استغرابي، وغير من تجاهي، عدت إلى موضعي على أمل استدعاء آمري البطريات للتشاور معهم، وقبل أمتار من الوصول جاءني المراسل راكضاً، يصيح بأعلى الصوت (سيدي صدر أمر الانسحاب)، لم أقتنع ولم أصدّق، بل تفاجأت، لأنّ الأمر كان يناقض أمراً صريحاً بعدم جواز الانسحاب، وإن جاء على لسان الرئيس، فقلت بعصبية: أيّ مجنون هذا الذي أصدر أمر الانسحاب؟

تأوّه صباح، وعاد لإكمال تفاصيل حكايته، كأنّه لا يريد إبقاء نتف تشكّل عبئاً على خلايا العقل، قال: لقد سألوني كثيراً في الأمن العسكري، ضغطوا عليّ بشتى الطرق، عدّوني ضرباً بعصي، أغرقوا رأسي في الماء كي أختنق، أنكرت أيّ قول في البداية، بعدها تبين أنّ نائب الضابط في قلم الكتيبة كان قد سمعني أيضاً، وتبرّع من عنده بتأييد تقرير كتبه المراسل، عندها تيقّنت من أنّ التهمة لبستني بشهادة شاهدين، فغيّرت من لهجتي واعترفت بقولي، حاولت المراوغة والتسويق أنّ القول جاء إيماناً بضرورة الالتزام بتوجيهات الرئيس في عدم الانسحاب، وإني كنت مصرّاً على عدم الانسحاب، مقتنعاً أنّ لا أحد يجرؤ على إصداره إلّا مجنون، لكنه كان تسويقاً غير نافع، فقد ثبتوا التهمة ومادّتها (1/225).

حضر العميد الركن محمد الفلاحي أمر الانضباط العسكري زائراً بعد قليل من وقت العشاء، بدأها تفقّداً روتينياً لباقي

الزنازين، تكلم مع موقوفين، ثم عرج على الزنازة الرقم (6) جعلها المطاف الأخير، يبدو أنه تعمّد جعلها هكذا في الأخير، كي لا يُكتب عنه تقرير من أنه قد خصّ القادمين في الأمس بزيارة دون غيرهم، بعد أن شهد سجنه مرور المئات من العسكريين والحزبين ضحية التقارير، سأل عن الأحوال أولاً، ثم أعقبها بسؤال فيما إذا كانت هناك حاجة يستطيع تلبيتها، أخبرتُه الحاجة تقتصر على جلب تلفاز من البيت، وافق على الفور، سأل عن طريقة تنفيذ لا يكون فيها طرْفًا، عُرض الموضوع على عباس، فتعهد جلّبه إلى الزنازة من خلال نسيبه محمد مهدي، أكّد حتمية التنفيذ يوم المواجهة القادمة بعد أيّام، مع ضرورة كتابة رسالة تعريف إلى العائلة، كُتبت على الفور، فكانت الرسالة الأولى تصل بشرى منذ يوم التوقيف قبل شهر وبعض أيام.

أنهى العميد زيارته للمجاملة، وقبل مغادرته نوّه إلى تخصيص جندي من الحانوت لتأمين الحاجة إلى التسوّق، فصار هذا الجندي منفذاً جيّداً مع العالم الخارجي، وسبيلًا مفتوحًا لتسوّق مستمرّ طوال أيّام الأسبوع، كانت أكثر الاحتياجات هي السجائر بالنسبة إلى منذر وبعض الخُضَر والبيض، وكان في بداية مشوار هذا السجن في شهر كانون الأوّل (1991) سعر طبقة البيض بحدود ستة عشر دينارًا، وفي يوم جاء جندي التسوق وقد كتب له منذر قائمة بينها طبقة بيض، وكان الجاري تسليمه المبلغ المطلوب مقدّمًا، قال لكلّ واحد ثمانية دنانير، ضحك الجندي قال سيدي زُدها إلى الاثني عشر ونصف، فقد صعد سعر البيض حدود الخمسة والعشرين دينارًا للطبقة الواحدة، عندها انفعّل منذر، أقسم بالله العظيم لن يأكل البيض إلّا بعد أن يعود السعر إلى سابق عهده ستة عشر، من دون أن يعلم أنّه وبعد أشهر وصل سعر طبقة البيض بحدود ثلاثة آلاف دينار.

.....

كان موعد زيارات المواجهة مقسمًا على يومين في الشهر، الأولى في أوله، والثانية يوم الخامس عشر منه، بدأت العوائل تصل السجن بعد الساعة التاسعة صباحًا ليوم المواجهة هذا، على شكل جماعات بعد تجاوزها عتبة تفتيش كانت قد بدأت في تمام الساعة الثامنة عند "مثابة" تحدّدت تحت الجسر المؤدّي إلى مدخل معسكر الرشيد، كان التفتيش دقيقًا، للنسوة والأطفال، والأدقّ للموادّ المحمولة من الطعام والحلويات، لاحظ الموقوفون طلائع القادمين، فتوجّهوا إلى الحديقة حاملين بطاطين، وضعها بعضهم على الأرض واكتفى بعضهم الآخر بحجز مصطبة لتكون مكانًا للجلوس، عانقت العوائل أبناءها والأخوة، وكذلك فعلت الزوجات بقدر من الحياء، ركض الأطفال بعد أخذ حصّتهم من القُبَل يجوبون المكان لعبًا أساسه الركض، كأنهم يخفّفون من ضغوط الغياب القسري للأباء، كان يوم المواجهة مؤلمًا لمن كان ممنوعًا من المواجهة، وكثّر نزلاء الزنزانة (6) من ضمن الممنوعين، فجلّسنا في الداخل ننظر إلى تلك العوائل البائسة من باب الممرّ، تلمّسنا من نظرات متواصلة مشاعر الجميع، وقد بانّت خليطًا من فرح اللقاء وحزن الفراق من جديد، انتهت تلك المواجهة بعد الظهر، وكان من أفضل حسناتها تركت خزينًا متنوعًا من الطعام، يكفي سكرة القاطع تشاركيا عدة أيام، وتركت ألمًا وبعض شكاوى يتداولها النزلاء عن لسان عوائلهم تتعلّق بطول مدّة الانتظار تحت الجسر، والمغالة في إجراءات التفتيش التي تستغرق وقتًا يزيد عن الساعتين في بعض الأحيان، وأخرى من تطاول بعض جنود الانضباط وتعمّدهم التأخير، قال عنها منذر إنّها بهذلة لا يتمنّاها لعائلتنا، والأهمّ في هذه المواجهة وصل التلفزيون مع رسالة من بشرى تعبّر فيها عن شوقها الشديد، كتبت فيها أنّها قد حضرت إلى "مثابة" الجسر مع

العوائل على أمل المواجهة، أخبرها ضابط يتواجد هناك أنّ الاسم ممنوع من المواجهة، فعادت كئيبة مصدومة.

وضع التلفزيون في زاوية الزنزانة الرقم (6)، فأضحت وحدها تحتكم على تلفزيون، وتحولت بالتدريج إلى مكان ترفيهي لغالب ضباط القاطع، ومع هذا التطور الإيجابي في الرفاه، بقي ألم منع المواجهة يسري لأيام، وفي مساء اليوم الأول من الأسبوع الثاني للتواجد في هذا السجن حضر ليلاً أخي الأصغر (سفير) مع الرائد خضير العبيدي من جهاز المخابرات، قال كل شيء تمام، والعائلة بخير، جلس في الزنزانة ساعة مرّت سريعاً، وقبل مغادرتهم سألت الرائد كيف حصل على الموافقة، وأتمّ هذه المواجهة، ضحك وأجاب بعفوية أنّها سرّ من أسرار العمل المخبراتي، لكن متابعة الأمر بيّنت أنّ له علاقة خاصة مع أمر الانضباط الذي سمح بها بشكل غير رسمي.

شهر على هذا المنوال حصلت فيه مواجهتين للزملاء، ظلت العيون طوالهما شاخصة على العوائل التي تحضر، والأطفال التي تلعب تحت مظلة القهر، وعلى توقّعات ينقلونها من خلال المعارف عن حتمية حصول العفو، كأنّها حقيقة بالتأسيس على خسارة صدام الحرب الأخيرة مع تحالف دولي ضيق عليه الخناق، ودفع بالأمم المتحدة التفيتش في ملفات الأسلحة المصنّفة للتدمير الشامل، وقضايا الاضطهاد وحقوق الإنسان، وبدأ هو الاستجابة مكرهاً لبعض الضغوط، إذ لا خيار لديه، والبلاد قد وضعت تحت البند السابع، عندها بدأت مشاكل السجون والتعامل فيها والتهم الموجهة لأصحابها تأخذ حيّراً من التفكير الأممي، تتحسّس منه الحكومة العراقية التي تحاول تحسين صورتها لفكّ الطوق، وكانت أقوى التوقّعات ما يتعلق منها بتبييض السجون والعفو الرئاسي الذي بات قريباً، وعن لجان تفتيش دولية ستصل بغداد بين عشية وضحاها تمسح بجميع السجون، لقد استمرّ الأمر

هكذا، سلسلة تأملات انفراج حتى صباح اليوم الثاني من كانون الثاني (1992)، فوجئ نزلاء السجن الموقوفون بأوامر من رئاسة الجمهورية توزيعهم على وحداتهم، فرزموا حاجياتهم، حزنَ بعضهم، وبينهم نحن نزيلي الزنزانة (6)، إذ لا سجن في التوجيه المعنوي، ثم إن وضع ضابطين هم الأقدم في هذه الدائرة في سجن داخلها يضعهم في موقف فرجة، ويثير في داخلهم الشعور بالعار، هذا، فضلاً عن أن النظرة السائدة لمعظم المنتسبين في الوحدات، إبان تلك المرحلة الزمنية للضابط المتهم بقضايا تمسّ الحزب والرئيس نظرة فيها قدر غير قليل من الخوف والنبذ، تساعد على تعزيز مشاعر العار، فكانت ساعة تهيؤ مؤلمة، انتهت بحضور الرائد قاسم ضابط أمن الانضباط، ومعه حافلة من التموين والنقل، قال ليركب الجميع فيها، وبدأ تنظيم الإركاب حسب القدم العسكري، صعدنا أولاً، تبعنا العميد رسول، ومن ثمّ المقدّمان صباح ومصطفى والآخرين، وقبل تحرّكها وقف عباس وسطها سأل الرائد قاسم بلهجته الدارجة وأسلوبه المرح: (وين تحودلون بينا؟⁸⁰)، تقبلها الرائد في ظروف شدّ عصبي، أسهمت في التخفيف من مقاديره نسبياً.

الاخفاء الحكومي

تحرّكت الحافلة بعد نصف ساعة من توقيت تحرّكها المعلن في السادسة مساءً، أخذت من طريق محمد القاسم السريع مساراً لها في بداية المشوار، ثم استدارت تجاه الغرب، لتستقرّ في سيرها على طريق بغداد الفلوجة القديم، كان منذر أكثر اكتئاباً بسبب هذا النقل، حتى راح يكرّر وبصوت مسموع العبارة: (آخر العمر

⁸⁰. كلمة شعبية عراقية، تعني تنتقلون بنا، وترد عادة في الحالات التي لا يكون فيها المعنى بالنقل راضياً.

صرنا سلعة ضارّة يتنقلون بها، يخفونها عن العالم بهذه الطريقة (البشعة).

استمرّت الحافلة في سيرها، دخلت مدينة الرمادي، ثمّ اتّجهت إلى خارجها صوب الثكنة العسكرية، وهناك جناح لتدريب الانضباط العسكري، كانت من قبل قفصًا للأسرى الإيرانيين حتى حلول تبادلهم مع الأسرى العراقيين بعد انتهاء الحرب، توقّفت في تمام الساعة الثامنة والنصف جوار القفص الرقم (10)، قال الرائد، ترجّلوا، فأخذ الجميع حاجياتهم وتوجّهوا إلى قاعة رثّة، بعض زجاج شبابيكها مكسور، ينقل تيار هواء صحراوي بارد، في شهر هو الأكثر برودة في العراق، مدّوا بطاينهم على الأرض باستسلام واضح، وضعوا أكياس حاجياتهم وسادة تساعد على النوم.

تنقّسنا، الموقوفين، أو تنقّس غالبنا الصعداء بعد تبيان الوجهة معسكرًا، وليس الوحدات كما كان يشاع، حجزوا أماكن لهم في القاعة، كوّنوا جماعات لتبادل الحديث، وتحليل الموقف وتدوير الإشاعات، ظنّ المتفائلون أنّه المكان الجديد، وظنّوا به الأخفّ وطأة من الحجز في الوحدات، وظنّ المتشائمون به مكانًا عابرًا يفضي إلى مكان آخر، سيكون قاعًا للتصفية، أضاف له المتشائمون أصحاب الخيال الخصب توصيفًا للمكان الآخر، قالوا صحراء الرمادي ستكون هي القاع، وستكون التصفية خير سبيل للتخلّص من عبء الموقوفين على الدولة، وتحسين سجلّها الخاصّ بحقوق الإنسان، لقد استند أصحاب هذا الرأي المتشائم على حقيقة قيام الأجهزة الأمنية بعد استلام صدام للحكم بتصفية عشرات المتّهمين بالانتماء إلى أحزاب معارضة، أو الذين يريد النظام التخلّص منهم، وذلك بتنفيذ أوامر قتلهم في الصحراء، ودفنهم في قبور جماعية بأماكن غير معلّمة.

كانت التكهّنات حادّة، وكانت عصارتها تنتقل بين الجماعات من أفواه شخوص لا يسمح طبعهم البقاء جلوسًا في جماعة واحدة، لكنّ وصول العشاء قد حدّ منها، دفع بمنذر النظر إلى ساعته احتجاجًا صامتًا كانت تمام الحادية عشر والنصف، ثمّ نظر إلى مادّة العشاء وجدها مرقًا في قدر مع كيس يحتوي عددًا قليلًا من الصمون العسكري الأسمر، قال عن نفسه، ليست له شهية، وتوجّه إلى بطانيته، لكنّ الآخرين قسوا بهذا المرق، ولم يبقوا من الصمون شيئًا بسبب الجوع وشدّة القلق، لكنّهم عادوا إلى الجلوس مرّة أخرى مجاميع كانت لها امتدادات سابقة، مصطفى آخر من أسلم جسمه إلى سلطان النوم، سار إلى بطانيته الممدودة آخر القاعة عند اقتراب الساعة الثانية صباحًا، عندها عمّ الهدوء، وركد الجميع في سبات عميق، أيقظته صافرة أطلقها الرائد في تمام الساعة الثامنة صباحًا طالبًا التهيؤ، قال يصعد الجميع إلى هذه الحافلة في الجوار، سيورّع الفطور سفرًا، منذر وسعد يبقون في هذه القاعة، عندها عاودت مستويات القلق في الارتفاع، وزادت التتمّات في الذات، واتّسعت رقعة التشاؤم بقدر كبير، قال مصطفى ألم أقل لكم وجهتنا الصحراء، ونهايتنا ستكون على يد.... لم يكمل ما أراد قوله، لكنّ الجميع فهموها شتيمة لصدام.

.....

شرعت الحافلة في السير تحمل بين ثناياها عشر ضباط، هم ما تبقى من رگابها في الأمس، راحت تجاه مجهول لا يعرفه سوى قاسم ضابط الأمن، جرى لهم توديع يحمل معاني عدّة، بينها احتمال حلول فراق أبدي، قال منذر: يبدو أنّ الهموم المشتركة تقرب المسافات بين أصحابها على الرغم من فارق الرتب واختلاف الثقافات، ثمّ عاود الجلوس على بطانيته يدخن بشراهة حتى بلوغ وقت الظهر، حضر في تمامه المقدّم مشرف

العبيدي⁸¹ أمر جناح التدريب للانضباط العسكري، أمر هذا المعسكر، جلس إلى الجوار، قال ستتقرون هنا في الجناح، وافق الأمن العسكري على استثنائكم من الحجز في الوحدات، ولمّا سُئل عن الآخرين، أجاب أنّهم سيورّعون على وحداتهم، وستكفل هي بحجزهم حتى حلول موعد المحاكمة.

انفتحت الأسارى، كأنّ الهمّ قد زال تمامًا، صاح من مكانه على جنود بمعينته، أمرهم نقل الحاجيات إلى مقرّ الجناح، وتهيئة الغرفة المجاورة للبهو لتكون مكانًا لتنفيذ أمر الاستضافة، (لم يُقلّ التوقيف)، استعاض عنه بالاستضافة احترامًا، فتلقّى الجنود الرسالة بنباهة، حاول أحدهم جمع البطاطين، أمره بتركها، والذهاب إلى المستودع لاستلام بدل عنها جديدة، وإعداد سريرين ضمن القياسات الخاصّة بالضباط.

بدأنا الثلاثة سيرًا على الأقدام، وجهتنا مقرّ الجناح، تمّ دخول غرفة الأمر أولاً، طلب من مراسله الواقف جوار الباب وتهيئة الفطور، وسار في الحديث إلى سابق العهد، وأيام شهادتها هذه الغرفة أغلب سني الثمانينات، عديد من الاجتماعات والأنشطة عندما كان المعسكر قفصًا للأسرى، قال أتذكّر سيّدي العميد

⁸¹. مشرف مقدّم في الانضباط العسكري من ريف محافظة دياي، ملتزم بالقيم العشائرية والعادات الريفية، خاصّة ما يتعلّق منها في قضايا الضيافة، ميّال إلى تقديم المساعدة، كانت هناك معرفة به منذ بداية الثمانينات في لجنة مشتركة رأستها للتعامل مع الأسرى الإيرانيين، كان عضوًا فيها مثل الانضباط العسكري، وكان في سيرته العسكرية معروفًا بمهنيته وشجاعته، وتحملّ المسؤولية، إذ في اللقاء الذي جرى معه في مكتبه، تمّ إخباره أنّ ما يقوم به كثير، وقد يعرضه إلى المساءلة، ردّ أنّه يتحملّ المسؤولية، وأنّه مقتنع بنزاهة وحسن سيرة من يتعامل معهم، وأنّه يعدّهم ضيقًا، وهو ابن عرب يحسن الضيافة، استمرّ مشرف في الانضباط وحجز في السجن رقم (1) لأحد عشر شهرًا لأمر يتعلّق بهرب موقوفين أنّهم بالتراخي في التعامل معهم.

اجتماعاتنا معًا في هذا المكان، ثم تأوّه، وأكمل حديثه بسؤال فيه حسرة: أرايت تقلّبات الزمن؟!

قطع الحديث جندي من الانضباط أدّى التحية، مؤكّداً جاهزية الغرفة، كانت الغرفة مكتّبا، شكلها الهندسي مربع، طول الضلع أربعة أمتار، فيها جهاز تكييف، وسريران جُهزا حديثا، وطاولة خشبية، كانت في أفضلية المقارنة مع السجن رقم واحد، تساوي الأفضلية في جوانب المقارنة بين زنازينه وبين زنازين الأمن العسكري، فندقاً متخيلاً تزيد نجومه عن الخمسة، قال مشرف لقد أمرتُ بإبقاء باب غرفة مكتبي مفتوحة، للاستفادة منها عند الضرورة، وأمرت عدم غلق باب غرفتكم، سيكون الطعام أصولياً من مطعم الضباط، ثلاث وجبات في أوقاتها.

اللقاء غير المحسوب

إنّ التواجد في توقيف كهذا "خمس نجوم" يفتح مسارب العقل بالتفكير بقدر من الرفاه، وكان الرفاه الأكثر احتياجاً يتعلّق بمواجهة العائلة، وبدأ التخطيط لمواجهة هاتفية أوّلاً باستخدام التلفون الأرضي الموجود في غرفة الأمر، بعد استئذانه تمّ الاتصال بهاتف حزام صديقة العائلة، والتكلّم معها بالغاز لم تفهمها بداية، فتوجّهت إلى بشرى، التي فسّرت اللغز، وذهبت معها إلى البيت لتحقيق أوّل اتصال هاتفي كان هو الأمتع في جلّ الحياة، تغيّرت خلاله الأسماء، وكثرت الألغاز، وأختصر أمد المكالمة إلى عشر دقائق، لكنّ هذه الوسيلة لم تدُم، إذ حضر الرائدان خضر وقاسم من الانضباط العسكري إلى الجناح في اليوم الثاني يبتسمان، قال خضر وهو في طريقه لاجتياز الباب حمداً لله.. لم يعط مجالاً للاستفسار أو التكهّن، إذ أضاف: لقد حصلت موافقة رئاسة الجمهورية على المواجهة، ونسب أمر

الانضباط التنفيذ على الفور، ستكون المواجهات حسب الضوابط أيام الجمع.

كانت الفرحة كبيرة، كاد الواحد يخرج من ثوبه، لكنَّ الرتبة العسكرية، ووجود الضابطين حال دون ذلك، عندها تمَّت صياغة رسالة كُتبت مستعجلة إلى بشرى لإعلامها حصول الموافقة على المواجهة وانتظار تحقيقها في الغد يوم الجمعة، مع ملاحظة جانبية ضرورة إخبار عائلة منذر بالأمر والتهيؤ للقدوم معًا، وافق قاسم حمل الرسالة، أوصلها إلى البيت في الليلة ذاتها، وأوصلت بشرى الخبر إلى أمَّ أركان زوجة منذر.

لقد مرَّ على فراق العائلة شهران، كان فيهما الشوق قد تعاضم، أو قد أضاف له العيش تحت تهديد السجن وإشاعات الإعدام مشاعر شوق إضافية، بدأ التحضير منذ الصباح، وترتيب الغرفة، والبهو، وكذلك غرفة الأمر، وصلت العائلة بسيارتها بحدود الساعة الحادية عشر، بشرى والأولاد، كان مصطفى الأصغر بعمر سبع سنوات مستغربًا من المكان يسأل عن طبيعته، وتلك الأسلاك الشائكة التي تحيط به من مخلفات الأسر، وعن أسباب البقاء، لم يقتنع بالإجابات التي صيغت على عجل لمهام تتعلّق بالجيش، لم يجرؤ أحد إخباره طبيعة السجن والأسباب، لكنّه، وقبل انتهاء الزيارة، أدرك الحقيقة، وبدأ التحرك في أروقة المقرّ، وقريبًا من الأماكن المحاطة بالأسلاك بطريقة توحي كأنه يعاني نوبة قلق شديدة، بينما كان أشرف صاحب الاثني عشر عامًا مصدومًا منذ اللحظات الأولى لدخوله المعسكر، لم يظهر مشاعره، حاول كتمانها، وحاول المجاملة طوال الوقت، والابتعاد عن نقاط الإثارة، لكنّه لم يتمالك نفسه عند التوديع، إذ قرّب فمه من الأذن، وقال لماذا لم تأت معنا، لن يعلم أحد بخروجك، إذ لا يتواجد الحراس في المكان؟ وبالنسبة إلى لويذاء صاحبة السبعة عشر عامًا فهي الأكثر اكتئابًا وحيرة،

كانت أغلب الوقت تتعمّد المجاملة وتأكيد الوجود، أمّا بشرى فقد غطّت فرحة اللقاء على مقادير حزنها عالية الشدّة، هكذا استمرّت المواجهات روتينية كلّ أسبوع، واستمرّت بعض المواجهات مع المعارف والأصدقاء خارج أيام الجمع تجاوراً، كان الأمر يتغاضى عن حصولها، خاصّة تلك التي تتمّ بعد انتهاء ساعات الدوام.

.....

استقرّ وقع المواجهات التي يكون يومها المزاج، وقبل يوم من حلوله متغيّراً، يبدأ بالتأمّل انتظاراً، تُحسّب فيه الدقائق ساعات، ليستقرّ عند الحصول، غبطة طوال التواجد معاً في المكان، ليتحوّل إلى اكتئاب غامر حال الفراق، كانت بشرى تقول عن نفسها عكس هذا تماماً، إذ تصاب في العادة بنوبات اكتئاب وهي في طريق القدم، بسبب أفكار قهرية تتعلّق بالفراق ثانية ولحظات الوداع، تؤكّد أنّ العودة تُفقد السيطرة على مجرى دموع لها تبدأ تنهمر حال وضع اليدين على مقود السيارة، إيذاناً بالفراق، برغم محاولتها السيطرة عليها أمام الأولاد، وقالت عنها تبقى هكذا تستمرّ مدراراً حتى دخول مرأب البيت، إذ تتّسم حالتها الوجدانية بتناقض المشاعر ما بين الفرح والحزن، أتعبها نفسياً، واستقرّ كذلك روتين التواجد في هذا المعسكر والحرية المتاحة بما يُقرب وضعنا كأنّه حجز ثكنة، تلك العقوبة الخفيفة، التي يعاقب بها الضابط عند ارتكابه مخالفة يسيرة، تحتمّ بقاءه في الثكنة العسكرية يمارس واجباته، ويتحمّل المسؤوليات، مع عدم جواز مغادرته لها طول الفترة التي حدّتها العقوبة، إذ لم يُغلق باب الغرفة إلا من داخلها وحسب المزاج، ولنا في داخلها حرية الخروج منها والمشي في محيطها والهرولة متى نشأ، كذلك ممارسة هوايات القراءة التي كانت سيّدة وقع التواجد، حتى تمرّ أيام لم نتكلّم مع بعضنا إلا أثناء تناول الطعام بسبب شدّة الانشغال

بكتاب ممتع أو رواية شائعة، جاءت بها العائلتان لإشباع الوله بالقراءة.

كل ذلك قد حصل من دون مراقبة ولا سيطرة، حدًا قد دفع السيد أياد النعيمي (أبا فهد)⁸² في إحدى زيارته بصحبة المحامية ليلي الوهاب إلى عرض إمكانية المساعدة في تحقيق عملية هرب ستكون سهلة حتى الحدود، فيما إذا كان الحكم قاسيًا، لكنّه كان عرضًا فيه قدر عالٍ من المجازفة من جهة، وعدم الوثوق بضابط من جهاز المخابرات، وإن كان قريبًا أو صديقًا من جهة أخرى، في هذا المكان الذي أُعدّ سجنًا لاحتجاز موقوفين بشكل مؤقت، ومن قبله السجن رقم واحد، كانت الشائعات تطحن نفوس الموقوفين، بدأت هناك بتأملات ينقلها الزوّار أثناء المواجهة، وبعض ضباط من الأجهزة الأمنية يتوافدون لزيارة معارف لهم عن احتمالات العفو وحتمية تبييض السجون، وعن التسريع في حسم قضايا الموقوفين لمواد سياسية (225 – 210)، يتقبلها الموقوفون كأنّها حقيقة، لأنّها تخفّف مستويات القلق في نفوسهم وتزيد من الطمأنينة، يحاول بعضهم تأكيد حتميتها بوسائل متعدّدة، فعباس كان طوال تلك المدة يقول أثناء تنقله بين الزنازين (قبل يوم واحد ما يبقى ولا واحد)، مؤكّدًا أنّ ساحرًا كبيرًا قد أخبر أهله حتمية الإفراج قبل يوم 12/23.

لم يكن عباس وحده متّكّنًا على جوانب السحر في ترويض الذات، بل عديد من الموقوفين كانوا هم أيضًا يصدّقون ويلجؤون إلى السحر والخرافات، فالمقدّم مصطفى كان هو الآخر مؤمن أنّ عفوًا سيصدر، وأنّ تبييض السجون حقيقة، أكّدها عند حضوره

⁸² السيد أياد ضابط في جهاز المخابرات حسب ادّعاء المحامية ليلي الوهاب، من بغداد منطقة الطارمية، لم يتمّ التأكّد من طبيعة علاقته باللواء منذر أو بالمحامية، لكنّه استمرّ في المجيء إلى المعتقل في أوقات متفاوتة من دون الالتزام بضوابط وتحديدات المواجهات الرسمية.

متابعة التلفاز حين قال: لقد تأكّدت هذا اليوم عن قرب الحلّ، وحتمية إطلاق السراح، سأله منذر: كيف تمّ التأكد؟ فأجاب: لدى صديقي محبس (خاتم) مقرّي عليه، قاطعه منذر قائلاً: نعم! بطريقة تتمّ عن التعجب! تدخّل عباس المعموري ليشرح الأمر قائلاً: هناك في عالم المحابس نوع من الأحجار يقال عنها كريمة، وأخرى يُعتَقَد أنّها تُسهّل لصاحبها تحقيق أمنياته، ومثل هذه الأحجار التي تصاغ لها محابس، يذهب بها صاحبها إلى رجل دين موثوق، أو معروف، ليقرأ عليها آية من القرآن الكريم، وأحياناً يبيّتها تحت وسادته، عندها يعتقد المؤمنون بها أنّ استجابتها للتمنّي أصبحت مؤكّدة، حتى في الحالات الصعبة أو المستحيلة، ولهذا السبب يرتفع سعر بيعها، والشراء لأتّها مقرّي عليها، بعد تقديم هذا الشرح أتمّ مصطفى حديثه قائلاً: أعارني ذاك المحبس، وهو محبس إذا وُضِعَ تحت وسادة نائم صاحب قضية، وتوجّه النائم بعد النهوض لتفقّده، فإنّ وجده، لا أمل بحلّ القضية، أمّا إذا لم يجده، فهذا يعني أنّ المحبس قد عاد لصاحبه، وأنّ قضيته قد حُلّت حتمًا، أعاد منذر السؤال بصيغة فيها تهكّم: وماذا حلّ بمحبسك؟ أجاب على الفور: لقد وضعته تحت وسادتي قبل النوم، وعند تفقّده في الصباح لم أجده، إنّها إشارة إلى أنّ المحبس قد عاد لصاحبه، وأنّ قضيتي محلولة إن شاء الله.

لقد استمرّ النقاش عن الموضوع بعد إنهاء مصطفى قصّة محبسه، وتشعّب الحديث كالمعتاد بين مؤيّد وشاكّ أصلاً في الموضوع، عندها التفتوا إليّ صاحب الاختصاص النفسي الموجود بينهم، فتمّ التأكيد على أنّ اللجوء إلى الخرافات وأعمال السحر، وقراءة الطالع لنزلاء السجون مسألة نفسية واردة، إذ يحاول فيها السجين خداع ذاته القلقة، بقصد تهدئتها والسعي اللا غراذي لتفادي الوقوع ضحية الاضطراب النفسي، وإنّ كثرة تناقل الشائعات والخرافات ما هو إلا نتيجة حتمية لحالة اليأس،

والإحباط وضبابية المصير التي عادة ما يصاب بها النزلاء، خطورته في حال حصول العكس.

لم يقتنع مصطفى، حاول الاستئذان والخروج من الزنزانة، وعدم الاستمرار بمشاهدة فلمًا كان على التلفاز، إلا بعد رجاء من عباس للبقاء إلى الآخر وسماع كامل الرأي، فعاد إلى مكانه، ودار معه الحوار الآتي:

*هل تتذكّر قبل أيام كيف كان الجميع منتشين بإشاعة قرب وصول لجان دولية لحقوق الإنسان، ستضطرّ الحكومة بسببها إصدار العفو العام.

*نعم، أتذكره جيّدًا.

*وهل تتذكّر الحافلتين اللتين وقفنا جوار باحة السجن مساء يوم 12/21، وقد نزل منهما ما يقارب الخمسين موقوفًا يرتدي جميعهم الملابس المدنية، وكيف حُشِرُوا بالزنازين معكم وباقي الضباط.

*نعم، أتذكرها، وأتذكّر ما قيل عن إلقاء القبض عليهم في نقاط السيطرة بتهمة دخول بغداد للقيام بأعمال الغوغاء.

*ماذا حلّ بكم من بعدها.

*لم ننم ليلتها، بسبب بقائنا في دوامة التفكير بالمصير المحتوم إعدامًا لا محالة.

*إنّها صدمة نفسية حصلت بعد تبيان الواقع على العكس من التوقعات التي كوّنتها الأشاعات بينكم من أنّ انفراجًا قريبًا سيحصل، يكون في العادة أثره ثقيل على النفس، تبعًا إلى شدة التأثير بالأقاويل والشائعات، والإيمان بالخرافات.

إنّ الأقاويل وتداول الشائعات والأخبار السلبية والإيجابية أمر محتوم في السجون والمعتقلات، ولغالب الشعوب في العالم، وقد استمرّت في موقع سجننا هذا، وكانت في غالبيتها تتمحور حول مادّة الاتّهام، وإحالة القضية إلى محكمة التمييز، والإبقاء

على المادة الأصلية (210)، أو التحويل إلى المادة (225)، وكان بعض الزوّار يفتنون من عندهم بقصد الإيهام أنّهم يتابعون القضية، وبعضهم صادقون، كانت أكثر من صدق الفنانة سناء عبد الرحمن، وزوجها الفنان جلال كامل (صديقان مخلصان للواء منذر، يتمتّعان بشجاعة ورغبة عالية في تقديم العون)، اعتادا تكرار زيارات المواجهة، هم أوّل من قال لقد أعيدت قضيتنا إلى المحكمة العسكرية للحكم بها من جديد، وتبيّن فيما بعد أنّ أخبارهم موثوقة، مصدرها قريب لهم يعمل في محكمة التمييز، قالوا أوّل مرّة إن اثنين من أعضاء المحكمة حسموا قرارهم بالبقاء على المادة (210)، وإن رئيسها لم يبتّ بعد، لكنّهم، وبعد أسبوعين، جاء في المساء، وفي يوم لم تكن فيه مواجهة قالا خلاص حسم رئيس المحكمة موقفه، وتمّ اتّخاذ القرار بإبقاء التهمة على المادة (210)، وستُعاد القضية إلى المحكمة العسكرية ذاتها لإعادة المحاكمة، بينما كان آخرون يضيفون حطبًا على النار، بينهم غازي العياش القريب من العائلة، إذا كان ينقل الأقاويل السلبية، كأنّها أخبار موثوقة، في إحداها قصد العائلة ليلاً، قال إنّ القضية قد بُتّ بها إعدامًا، وسيُنقذ بعد أيّام.

الاقتراب الى النهاية

اقترب الشهر الخامس توقيفًا من نهايته، وفي يوم 1991/3/10 حضرت المحامية ليلي مبتسمة، على وجهها علامات فرح واضحة، وقبل ولوجها الباب قالت: لقد حُسمت محكمة التمييز قرارها بالفعل، وأعادت القضية إلى المحكمة العسكرية ذاتها، كونها صاحبة الاختصاص، إنّها الخطوة الأهمّ في الدعوة التي ستُكسب بعون الله، بادلها منذر ضحكة مسموعة،

قال نعرف بالأمر منذ أمس، راحت هي تدقق في المصدر، ورفض هو إخبارها التفاصيل، بقيت جالسة إلى المساء، غادرت متفائلة بقرب يوم الحسم، وبإعادتها، أي القضية.

انتهت صفحة من القلق، إذ إنَّ الإحالة إلى محكمة المخابرات، على المادة (1/225) تعني الإعدام، وإن كان الحاكم عادلاً فلن تقلَّ العقوبة بالنسبة للضباط ذوي الرتب العليا عن المؤبد، وتعني عدم الإحالة جرعة شجاعة سيحصل عليها رئيس المحكمة زهير وأعضاء محكمته قد تدفعه لإصدار حكم معقول، بعد زوال الخوف من التبعات.

بعد أيام من ذاك اليوم حضر المقدّم مشرف، مسروراً، قال لقد تحدّد موعد المحاكمة يوم 1992/3/15، وجرى إتمام التحضيرات اللازمة لذلك، وفي تمام الساعة السابعة من صباح ذلك اليوم توقّفت السيارة المخصّصة من الانضباط العسكري جوار غرفته في الانتظار، نزل الرائد قاسم مأموراً لإيصالنا متّهمين موقوفين إلى المحكمة، وجدنا بكامل قيافتنا العسكرية بانتظار الشروع، فتحرّكت السيارة على الفور، وصلت مجمع الكسرة العسكري بحدود الساعة التاسعة، نادى الحاجب بأمر من العميد زهير رئيس المحكمة معلناً انعقاد الجلسة، فتمّ الدخول إلى القفص بضغوط نفسية أقلّ، ومشاعر عار مصاحبة حافظت على مستوياتها يسيرة طوال مدّة التوقيف، وكذلك العتب، أعاد زهير الأسئلة ذاتها، بلهجة أقلّ تشدّداً، واستمع ثانية إلى الشهود، حاول التدقيق في شهادة منعم وعبد الإله، وعاهد وآخرين، ثمّ رفع الجلسة لأغراض التداول، خرج الجميع إلى القاعة المجاورة بقصد الانتظار، فكانت فرصة لقاء مع الأصدقاء غير القليلين في مقدّمتهم ياسين، الذي قال اطمئنّوا سيكون الحكم مخفّفاً، وإنّه قد درس القضية من الناحية القانونية، نيّات القصد التي حاول كاتب التقرير تثبيتها لم تكن مدعومة من الناحية القانونية، لنحمد الله أن

الرئيس القذافي مكروهاً في العراق، عليه سيكون اقتران التشبيه بينه وبين الرئيس صدام غير وارد، وكان هذا هو الأهم في اللائحة الدفاعية التي قدّمها المحاميان، يبدو أنّهم الثلاثة قد استفادوا من هذه الإشارة النفسية التي كانت واضحة في إفادة العميد، عند هذه النقطة، ومازال ياسين مسترسلاً في الحديث بقصد التخفيف من سقف الضغوط، نادى الحاجب بعودة المحكمة إلى الانعقاد، سأل زهير كم لكم في التوقيف إلى هذا اليوم، أجاب منذر اقترابنا من خمسة شهور، التفت إلى العضو الجالس على جهة اليمين، وأعاد التفاتته إلى الشمال في حركة واضحة المعالم، تمثيلاً لدور التشاور في صياغة الحكم، ثمّ نطق: حكمت المحكمة العسكرية الدائمة الأولى باسم الشعب على المدانين بالحبس الشديد لمدة خمسة أشهر، وفق المادة (210) من قانون العقوبات، وغرامة قدرها مئتي دينار، على أن تُحسب فترة البقاء في التوقيف لأغراض تنفيذ الحكم، ثمّ ضرب بالمطرقة على المنضدة التي أمامه إيذاناً بانتهاء المحكمة.

كان الحكم على الرغم من قساوته العسكرية في التسبب بنهاية حقبة الخدمة العسكرية بطريقة لا تليق بتاريخها الطويل، لكنّه من الناحية النفسية غير ذلك، إذ قد تسبب في خفض مقادير الشدّ والتوترّ خفضاً سريعاً، وأنعش المزاج، كان كمن سكب ماءً بارداً على جسد يلهبه العطش وسط صحراء التيه، خرجنا على إثره إلى القاعة المجاورة، لتلقّي التهاني من حشد كان موجوداً من الأقارب والأصدقاء، ابتسم ياسين وغادر المكان على أمل اللقاء في البيت قريباً، وبقيت من بعده العين شاخصة على باب المحكمة، خرج منعّم مكفهرًا، كانت نظرة العار تملأ عينيه الجاحظتين، إذ لم يتوقّع هذا المقدار من الحكم، وقد تكون، أي، النظرة بسبب شعور بالذنب قد داهم ضميره بعد النطق، لا أحد

يعلم، ولم يتكلّم معه أحد، إذ غادر المحكمة على الفور⁸³، مرّ من بعده عبد الإله الخزرجي، ابتسم ابتسامة لا يمكن حسابها شامته⁸⁴، لكن فيها شعور يسير بالذنب، بعدهما خرج حاجب المحكمة، قال يطلبكم إلى مواجهته السيد رئيس المحكمة، كانت غرفته في الطابق الثاني قريبة من قاعة المحكمة، بدأ في حديثه مقدّمة عن الصداقة والرفقة، وبعض ذكريات الكلية، كأنّه يريد أن ينأى بنفسه عن ذنب الحكم الأوّل بإحالة القضية إلى محكمة المخابرات، موحياً بعبارات غير مباشرة كأنّه كان مجبراً، لكنّه في الواقع لم يكن مجبراً، بل كان مثل غيره عديد من حكام تلك الحقبة واقعين تحت تأثير الخوف من إصدار أحكام في قضايا تتعلّق بالأمن وشخص الرئيس، قد تُفسّر مخفّفة يمكن أن يلام على إصدارها، لذلك يميل في ذلك الوقت كثيراً من القضاة إلى القسوة في إصدار الأحكام، وان كانت مخالفة للقانون، تفادياً للوقوع في دائرة الملامة، لقد استمرّ الحديث مجاملة لعشرة

⁸³. لم يتمّ الالتقاء أو التكلّم مع العميد منعم الشخيلي منذ واقعة المحكمة عام (1992)، وإلى حدود كتابة هذه الوقائع عام (2023)، كنت طوال فترة السجن وما بعدها سنين أحلم بموته نوعاً من التنفيس، وحين أستفيق أشعر بغضب يتملّكني، لكّتي، وتعاقب الأيام، أصبحت، وعند التفكير به، كأني أظعن نفسي، فتوقفت عن تدميرها، بالتوقف عن التفكير به، واقتنعت تماماً أنّ ثمن الانتقام هو أن تصبح وحشاً، حتى أنّي، وبعد شهر من سقوط نظام حكم صدام، وأثناء المرور من حي العامرية تجاه اليرموك، شاهدته واقفاً أمام دائرة التسجيل العقاري، أوقفت السيارة من دون غضب، فكّرت معاتبته سؤالا واحداً (لم فعل هذا؟ وما الذي جناه؟)، لكنّ نفسي تمنّعت خشية عدّها استغلالاً منحنطاً لظروف انقلبت فيها موازين القوّة، وتفادياً لجعله يعيش قلقاً كما عاشت ضحاياه، وعموماً فإنّ منعم دخل سجن رقم (1) بعد فترة من مغادرتنا إياه، بتهمة السرقة، وقيل إنّّه عمل في الوقف السنّي بعد فترة من السقوط.

⁸⁴. اتّصل عبد الإله على تلفون البيت بعد ستة أشهر من انعقاد جلسة المحكمة، تكلم مع بشري، أقسم أنّه لم يكون السبب وليس له علاقة بالموضوع، ورجا منها عدم الدعاء عليه، ولا على عائلته، فهو لا يملك في هذه الدنيا سوى ولد وحيد يخشى عليه، ردّت عليه بأدب من لم يكن مذنباً لا يخاف عقاب الله.

دقائق، وقف من بعدها مودّعا، قال: أتمنى لو كنت أنا بدلا عنكم في هذا الموقف الحرج.

.....

بعدما نطق رئيس المحكمة سجنًا لخمسة أشهر، راح العقل في عدّها حسابيًا بالأيام أيقن انتهاء أمدها يوم 3/26، وبات حساب العودة إلى وضع التوقيف في قفص الأسرى ثقيلًا، كأنّ الأيام القليلة الباقية دهر من الزمان، كأنّ الطريق من مجمع الكسرة إليه بعيد، بعد أن تعيّرت الأحاسيس بالزمان والمكان، وتعيّرت النظرة إلى الأشياء، فغرفة التوقيف الحالية في الجناح والمصنّفة "خمسة نجوم" بالمقارنة مع باقي الزنازين، صارت في التصنيف العقلي الجديد أقلّ من نجمة، أضحت كأنّها منقّرة مقبّدة للحريات، كأنّ اكتشافها هكذا قد تمّ هذا اليوم، قال مشرف وهو في مكتبه يتابع وقع المحكمة والحكم حال الوصول قاصدًا التخفيف من أثر الليالي الأخيرة، واستعجال التحرّر من قيود السجن، عدّوا أنفسهم في وضع انتقاله مؤقتة، واستمرّ في مجاملته، حتى حلول عشاء كان قد أعدّه الجناح خاصًا بالمناسبة. حضر مشرف صباح اليوم السادس والعشرين، قال ما زال الانضباط يتشاور مع الدائرة القانونية لتحديد صيغة وموعد الإطلاق، نوّه إلى احتمالات البقاء في ضيافته يومًا آخر لوجود خطأ في حسابات السجن بالأيام، فكان هذا اليوم المضاف هو اليوم الأطول في التاريخ، إذ لم يهدأ فيه العقل عن التفكير، ولا الجسم القلق عن الحركة، بدأ استخدام التلفون للاتّصال بالمعارف من الضباط في المستويات العليا لحسم الموضوع، والعتب على التأخير يومًا يضاف إلى المقدار يعدّ تقييدًا غير قانوني، لكنّه مرّ أخيرًا، وبدأت مغادرة القفص السجن صباح اليوم الذي تلا بالذهاب مع مأمور إلى مقرّ أمرية الانضباط العسكري في معسكر الرشيد، بدأت الإجراءات القانونية في أخذ مسحة لطبع

الأصابع، وتوقيع بعض الأوراق، قال بعد إتمامها ضابط يبدو مختصًا بالقانون مسؤول عن التنفيذ، ها أنتم طلقاء والحمد لله، يمكنكم الذهاب إلى عوانلكم على الفور، لكن السيد أمر الانضباط ينتظر التوديع، وإلقاء السلام.

وقف الرجل في مكانه، أدّى التحية العسكرية، منضبطًا، صار يسبق كلّ كلمة تخرج من فمه بكلمة سيدي، أبدى أسفه لما حصل، ترك طاولة مكتبه وجلس على الكنبه لأغراض المجاملة، قال ما تمّ تقديمه من الانضباط لكم شخصيًا هو الأقصى حسب إمكانياته والصلاحيات، أعتذر عن أيّ تقصير، إن حصل فهو أمر غير مقصود.

ردّ منذر: لقد قدمت ما يفوق القدرة والصلاحيات، في ظروف تقييد يصعب فيها التقديم، مشكورًا أنت على جميعها، ومشكورًا على الضيافة في جناح الانضباط في الرمادي، كانت ضيافة مثالية، وكان الأمر مشرف شهماً لم يقصّر.

أدرك الفلاحي أمر الانضباط الرغبة في مغادرة أشهر التقييد الخمسة، والعودة إلى العائلة والبيت والحرية، شرع في تقصير أمد المجاملة، وقف مودّعًا، في تمام الساعة الواحدة ظهرًا، وبوداعه انتهى الكابوس سجنًا، وحكمًا غير مسوّغ، ترك أثرًا كبيرًا في النفس، لا يمكن أن ينسى، ساد لحظتها شعور غريب بعدم الانتماء إلى هذا الوسط، بل على العكس منه، شعورًا بالعار من الانتماء إليه، وفي طريق العودة إلى البيت، تكوّنت رغبة قوية لترك البلاد ما دام فيها البعث حزبًا مستبدًا، والرئيس وكيل الإله، يريد السير على صراطه، يشكّ في النيات، يزجّ في السجون الآلاف على النيات، ينحر المئات، يودعهم مقابر جماعية كذلك على النيات، أو على كلمة قيلت، أو نقد تمّ توجيهه في لحظة غضب.

كانت بشرى قد تلقت مكالمة هاتفية من تلفون آمر الانضباط قبل التوجه إلى البيت، أبقتها والأولاد الثلاثة وآل رشيد ينتظرون في الباب، أغمي عليها فرحاً، وأنعشت من حاتم بحفنة ماء بارد، تقدم القصاب أبو قاسم، ونحر خروفاً بالمناسبة، طويت بذبحه صفحة الخدمة العسكرية التي امتدت ثماني وعشرين سنة متصلة، كان أكثر من نصفها خوض معارك وحروب، خُتمت بالإحالة على التقاعد زيادة على الملاك⁸⁵، وخدمة حزبية تزيد عن تلك الخدمة العسكرية سنتين، معظمها سعي لإيجاد الذات والمستقبل الأفضل، لم يتم إيجادهما حتى صدور أمر الفصل من الحزب للتجاوز على مبادئه والقيم التي يؤمن بها في بعث الأمة العربية من جديد.

⁸⁵. فقرة الإحالة على التقاعد زيادة على الملاك هنا قد استُخدمت جزافاً، لأنّ إحالتي على وقفها تتناقض والحاجة الفعلية لاختصاصي أول من حصل على شهادة الدكتوراه في علم النفس، والوحيد آنذاك في الجيش، وكذلك الوحيد من خريجي الكلية العسكرية يحمل هذه الدرجة، لذا لم يكن زائداً، بل على العكس كان الجيش في وضعه الخاسر للحرب هو الأوج إلى هذا الاختصاص لمدارة الحالة النفسية والحفاظ على المعنويات، وتجدر الإشارة أنّه، في تلك المرحلة الزمنية وما قبلها بقليل، قد التحق إلى الجيش ضباط آخرون خريجي كليات مدنية تطوّعوا للخدمة العسكرية حصلوا على شهادة الدكتوراه وعملوا بالمجال النفسي العسكري في دائرتي الاستخبارات والتوجيه المعنوي.



النهاية

لقد طويت في يوم الحرية الأول بعد السجن، صفحتان، صفحة الخدمة العسكرية، ومثيلتها صفحة الانتماء أو النضال الحزبي كما كانوا يقولون، ومعهما انتهى كابوس السجن، فُتِحَ من بعد طيِّها المجال لبدء حياة أخرى من نوع آخر، صعوبتها الأشهر الأولى، متأتية من التزامات التكيف إليها، حياة مدنية لم تكن مألوفة، ومن النظرة الرسمية والشعبية لخريجي السجون، كأنهم مصابون بالجذام تقتضي السلامة الأمنية تجنبهم، كان الأصدقاء العاملون في المجال الاستخباري والتوجيه المعنوي والطب النفسي هم أكثر من تجنّبوا، لا ينطبق حال التجنّب المؤلم على العقيد الطبيب طارق الكبيسي، الذي كان طوال فترة السجن، زائراً متواصلاً مع العائلة في البيت، معالجاً نفسياً لبشرى التي تعرّضت لعدد من نوبات الاكتئاب، عارضاً العمل معه بعد مغادرة السجن مباشرة بالعيادة النفسية في مجال القياس والتدريب على آليات العلاج النفسي السلوكي، ولا ينطبق أيضاً على محمد ناجي من صفوف الاستخبارات الذي أخذ على عاتقه دعم محاولات إيجاد وظيفة للتدريس في كلية المأمون الجامعة، قصد صديقه عميدها، تابع التعيين فيها مدرّساً لمادة علم النفس، استمرّ العمل في حرما سنتين دراسيتين، ولم ينطبق كذلك على همام عبد الخالق وزير التعليم العالي والبحث العلمي، الذي عرض التعيين في الجامعة المستنصرية على وفق قرار لمجلس قيادة الثورة يسمح للمتقاعد التعيين على أن لا يتجاوز الراتب ضعفي راتبه التقاعدي، وعلى أساسه استمرّ العمل في كليتها للتربية سنة انتهت، حال تنفيذ الرغبة التي تكوّنت لمغادرة العراق صيف عام (1996) بالتوجه إلى ليبيا والتدريس في

جامعة الفاتح لمدة دامت أربع سنوات، ليبيا التي بدأت منها صفحة أخرى مختلفة تمامًا، تمّ اختزال ما حدث فيها بعد العام (2003) في صفحات كتاب كان قد صدر قبل هذا الكتاب، أخذ عناوينًا (نقاط اختلاف)، عدّت صفحاته، وهذه الصفحات سيرة حياة شخصية، ومهنية، وسياسية، وسيرة وطن كان طوالها يئنّ من وطأة الأحداث.

للمؤلف

1. مقدمة في علم النفس العسكري (مع مؤلفين آخرين) مديرية التدريب العسكري، بغداد 1983.
2. المعنويات بعد الحرب، مديرية التوجيه المعنوي، بغداد، 1989.
3. المخالفة في الحياة العسكرية، عواملها النفسية وأسس التعامل معها، مديرية التوجيه المعنوي، بغداد 1989.
4. نوايا وحروب، دار العارف، بيروت 2003.
5. أزمة المجتمع العراقي، دار الكنوز، بيروت 2003.
6. دوامات المحنة، الدار العربية للعلوم، بيروت 2007.
7. المعنويات في الميدان، نظرة في التقويم والقياس، مطبعة الرشيد، بغداد 2011.
8. حصاد العاصفة، الجزء الاول، (ثقافة التضاد في عراق بين زمنين) دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2011.
9. جراح الغابة، "رواية" فضاءات للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، 2012.
10. وأد البطل، نهاية جيش وملحمة وطن، تموز للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2013.
11. سيكولوجية المخالفة، دار الجواهري، بغداد، 2013.
12. تلك هي، "رواية" دار الجواهري، بغداد، 2013.
13. الإجهاد القتالي في ظروف مكافحة الارهاب، وزارة الدفاع، بغداد، 2013.
14. حصاد العاصفة، الجزء الثاني (التداعيات الإدارية والأمنية لعاصفة التغيير في العراق)، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2014.

15. الضغوط النفسية للحرب، مركز الشرق للبحوث والاستشارات، بغداد 2015.
16. حفل رئاسي، "رواية" منشورات ضفاف، بيروت 2015.
17. الشجاعة والخوف في المعركة، مركز الشرق للبحوث والاستشارات، بغداد، 2015.
18. تيه الجنوب، "رواية" دار الجواهري للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد، 2016.
19. سيكولوجية الضبط، دار ضفاف للنشر، الشارقة - بغداد، 2019.
20. حياية التنغال، الجزء الأول: حكاية وطن هدمه الأبناء، دار ضفاف للنشر، الشارقة - بغداد، 2019.
21. جمجمة بابل، سيرة مكان، دار الورشة، بغداد، 2020.
22. حياية التنغال، الجزء الثاني: سيرة وطن يحترق، دار مردوخ للطباعة والنشر والتوزيع، بابل، 2021.
23. حياية التنغال، الجزء الثالث: الظاهر والمستور من حال العراق الجديد، دار ضفاف للنشر، الشارقة - بغداد 2022.
24. نقاط اختلاف، سيرة وظيفية في عراق ما بعد 2003، دار الدراويش للنشر والترجمة، كاوفوبيرن، ألمانيا 2022.

المؤلف في سطور

- ولد في قرية الجمجمة من محافظة بابل عام 1946.
- تخرّج في الكلية العسكرية العراقية، الدورة (43) عام 1966. وأحيل على التقاعد عام 2014، برتبة فريق.
- حصل على البكالوريوس آداب من الجامعة المستنصرية، كلية الآداب قسم اللغة الانجليزية عام 1976.
- أكمل دراسة الدبلوم العام والخاص في التربية من جامعة عين شمس/ مصر عام 1979.
- حصل على شهادة الطيران التجاري من مؤسّسة الطيران المدني العراقية عام 1987.
- نال شهادة الدكتوراه في علم النفس السريري من جامعة بغداد عام 1991.
- خدم ضابطاً في الجيش العراقي لخمسين عاماً، تدرّج من آمر فصيل وسرية ومساعد آمر فوج، ثم مدير شعبة الإستخبارات النفسية، ومدير البحوث والخدمات النفسية، ومدير عام التخطيط والمتابعة في وزارة الداخلية، ومستشار وزير الدفاع، وملحق عسكري في باريس، ومستشار القائد العام.
- عمل مدرّساً لمادة علم النفس والصحة النفسية في كلية المأمون الجامعة، والجامعة المستنصرية في بغداد، وجامعة الفاتح في ليبيا منذ العام 1992 حتى 2000، وباحثاً في علم النفس والسياسة، وكاتب عمود في الصحافة العراقية، وخبيراً في العمليات النفسية لمستشارية الأمن الوطني.
- مدير مركز الشرق للبحوث والاستشارات.
- عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق.



المحتويات

5.....	الاهداء
7.....	الدافع
9.....	الفصل الأول
9.....	في بستان الرهيمة
11.....	بداية المشوار
17.....	عصا الجنة
24.....	هتافات في استقبال الملك
28.....	لعب طواها النسيان
32.....	عالم السينما
35.....	اغتراب مبكر
39.....	فتح بوابة الثورات
41.....	الفصل الثاني
41.....	بين القرية والمدينة
43.....	ردود فعل قروية
46.....	ناعور القرية
50.....	إهانة فرس
53.....	تنمر أهل المدينة
56.....	تجربة في التجارة
59.....	نقطة التحول الأولى
61.....	الاقتراب من سوح السياسة
68.....	تجربة عمل شعبي
69.....	أفول نجم الحرس
76.....	أيام الانتظار الطوية

81	الفصل الثالث
81	عبر قنطرة العسكر
83	رأس القنطرة
87	اليوم الأول
94	الأيام الآخر
103	مفارقات عابرة
106	في جوانب الاستعلاء المدني
110	الآمر عرفان
123	عشرة على طريق الالتزام القيمي
126	سنة ثانية
129	سنة ثالثة
134	مقتل الرئيس
137	فنون الصاعقة
142	طالب في يومه الأخير
149	الفصل الرابع
149	أوراق من مفكرة ضابط
151	ضابط في يومه الأول
154	قطار الموصل
159	مفكرة آمر فصيل
165	ظل الجبل كورك
169	طعم الاجازة الدورية
171	عزلة التل المخروطي
175	أربيل المدينة والمعسكر
181	أيام الهدنة

185	عودة البعث
190	قطار الشعبية.....
196	على ضفاف شط العرب
203	عملية الغزال
207	الفصل الخامس
207	الحرب النفسية في أروقة الاستخبارات
209	نقطة التحول الثانية.....
213	اليوم الأول في الاستخبارات
217	خطوات في الأدلجة الاستخبارية
221	التحرك الاستخباري على المتقاعدين
224	الإعلان عن مؤامرة
230	محيط مدينة السلمانية.....
234	مشاهد من وسط القاهرة.....
240	نقطة التحول الثالثة.....
243	انحراف المسيرة
246	من دفاتر الحرب النفسية
247	يوميات من الحرب مع ايران.....
249	المنشور الأول في الحرب
251	الصوت في الحرب والعمليات النفسية
254	في مدينة واشنطن
257	الطيران النفسي
262	مآل الجهد النفسي.....
266	مشكلة الاختيار والتنسيب الاستخباري
277	حرب التجنيد الاستخباري

281	 الفصل السادس
281	 جدران المعنويات الهشة
283	 نقطة التحول الرابعة
286	 طي صفحة وبداية أخرى
290	 من دفاتر المدير
294	 بدايات النكسة المعنوية
296	 في مسائل التحويل بالإعدام الميداني
299	 تصدع في جدران المعنويات
306	 استراحة دراسية
312	 في ربوع لندن
314	 من حرب الى حرب
317	 هروب من وسط بغداد
320	 ما بين البصرة والكويت
326	 انتظار الهجوم
328	 الموت في طريق الانسحاب
341	 بوابة الانتفاضة
345	 الفصل السابع
345	 في نقد الذات الحزبية
347	 أو هام الحياة الأفضل
353	 محاولة الاغتيال
355	 طبائع أهل السياسة في القرية والمدينة
357	 مقتل الزعيم، بدايات مسلسل القتل
361	 تنذبذب في النشاط الحزبي
363	 أخطاء توزيع المسؤوليات الحزبية

365	طفرة حزبية.....
368	انتقالة حزبية.....
371	بدايات الهدم.....
373	شيوخ الملل.....
377	الرفيق منعم الشبخلي.....
381	الفصل الثامن.....
381	في غياهب الجب.....
383	انعطافة على طريق الخدمة الطويل.....
386	سجن الاستخبارات.....
388	التفتيش عن الهفوات.....
394	الزناينة رقم ثلاثة.....
399	ممرات الاتصال السرية.....
402	الرفيق رئيس المحكمة.....
408	قصص من داخل السجن رقم (1).....
423	الاخفاء الحكومي.....
427	اللقاء غير المحسوب.....
433	الاقتراب الى النهاية.....
441	النهاية.....
443	للمؤلف.....
445	المؤلف في سطور.....

